

# قضايا

## منهجية ودعوية

إعداد

د. عبد الرحمن بن صالح المحمود  
أستاذة المقيدة والمداهة المعاصرة المساعد  
بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

وزارة القصيدة

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

حَقُوقُ الطَّبَعِ مَحْفُوظَةٌ

الطَّبَعَةُ الْأُولَى

١٤٢٤م - ٢٠٠٣م

دار الفضيحة للنشر والتوزيع

الرياض: ١١٥٤٣ ص ب: ٥١١٤٢

تلفاكس: ٢٣٣٣٠٦٣

## المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد:

فإن أمة الإسلام في هذه الأيام تعيش وتواجه متغيرات كثيرة، لأسباب منها: وجود الانفتاح الإعلامي العالمي، وعولمة الغرب، وتفرق المسلمين وتنوع مناهجهم، سواء فيما يدعون إليه أو في كيفية مواجهة أعداء الدين على مختلف مللهم ونحلهم. وطوائف أهل البدع الضالة على تفاوت درجاتها في الضلالة.

ومواجهة ذلك المواجهة الصحيحة تكون بقوة الحق الواضح المستبين، بالتأصيل العلمي والمنهجي في حياة المسلمين عامة وأهل العلم والدعوة إلى الله خاصة. وهذا الذي سار عليه سلفنا الصالح منذ زمن الصحابة رضي الله عنهم ومن جاء بعدهم من أئمة الهدى في القرون المفضلة وما بعدها.

وأي انحراف عن منهجهم - بتنازلات عن أصول الدين ومسلماته، أو بالتقارب مع طوائف الضلال والبدع، أو الرضا برايات جاهلية علمانية لتحقيق مصالح قومية ونحوها، أو تبني أطروحات كلامية عقلانية منحرفة من أجل التقارب مع حضارة الغرب وثقافته وعدم الصدام معها - أو غير ذلك من ألوان الانحراف فلن يزيدنا إلا تفرقاً وضعفاً وهزيمة، أمام أعدائنا.

وعلى ذلك فالدعوة إلى العودة إلى منهاج السلف الصالح علماء وعملاً وسلوكاً ومنهجاً هو الواجب عند اختلاف الأمة وتفرقها كما أخبر بذلك رسول الله ﷺ، وتفصيل ذلك يطول، وقد كتبت فيه والحمد لله دراسات متعددة.

ولكنني أشير - في هذه العجالة - إلى جملة من الأسس التي لا بد منها

أهمها: اليقين القاطع الذي لا يتزعزع بصلاحية هذا الدين لكل زمان ومكان، ومنه هذا العصر الذي نعيشه، بعولته، وتقنياته، وقوة أعداء الإسلام المادية، وضعف المسلمين وتأخرهم.

وليس هذا من باب الأمانى، ولا من باب التعلق بمطلق الغيبيات الذي يحاول التيار العلماني أن يفسر به الحلول الإسلامية المؤصلة، ولكنه حقائق هذا الدين علماً وعملاً، وتاريخاً وحضارة وتجربة، وشهادات من الأعداء تلجم أفواه هؤلاء الذين ما فتئوا يطعنون في هذا الدين وحقائقه العقدية والشرعية الكاملة، وها هي تجاربهم العلمانية - على مختلف مدارسها الفكرية - وعلى مدار قرابة المئة عام، لم تقدم فكراً مؤصلاً، ولا مواجهة لحضارة الغرب، ولا نصراً على الأعداء، ولا حياة هنية لشعوبهم المسكينة، بل جرت الأمة إلى ألوان من الهزائم العسكرية والسياسية والثقافية والاجتماعية، والتقنية، ونحن في مزيد.

ولكن ينبغي أن يعلم جميع من يحب هذا الدين ويفرح بالانتساب إليه، ويرى فيه الحلو المثلى لواقعنا، أن هذا لا يكفي، وأن مجرد العواطف الجياشة لا تصنع شيئاً بمجرد ما.

بل لا بد - إن كنا جادين في أخذ هذا الدين بقوة - من أمور ثلاثة:

الأول: العودة الصادقة إلى هذا الدين والثبات عليه، ونعني بذلك أن تعود الأمة إلى إسلامها عقيدةً وشرعيةً ومنهاج حياة، وثقة بهذا الدين وصلاحيته، وأن تأخذه بقوة وصدق مع ربها تبارك وتعالى، وأن لا يزيدها عداً الأعداء وانهاماتهم وأقاولهم إلا ثباتاً على هذا الدين وثقة به وتمسكاً بحبل الله المتين.

ومن ثم فلا مجال في هذه الأمة - إن أردنا العودة حقاً وصدقاً - للمشككين والمترابين والمنافقين، فضلاً عن الملاحدة والزنادقة المعلنين رفضهم لهذا الدين.

الثاني: اليقين التام بأن هذا الدين حق؛ لأنه من عند الله تعالى الملك الحق المبين الذي أرسل خاتم رسله محمداً ﷺ لتكون رسالته ناسخة لما سبقها من الديانات. فدين اليهود أو النصراني لو فرض أن أهله تخلوا عن كل كفر وشرك عرفوا به ولم يؤمنوا ويتبعوا محمداً ﷺ فهم على ضلال وكفر بحكم رب العالمين، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾.

ويتبع ذلك اليقين بأن الله ناصر هذا الدين وأهله المتمسكين به كما أمر وشرع، وقد جاءت السنة النبوية الصحيحة مبينة بقاء هذا الدين وأتباعه ونصرهم إلى أن تقوم الساعة وعليه فالمستقبل - على كل الأحوال - لدين الإسلام.

وعلى المسلمين أن يعوا هذه الحقائق وهم يقدمون دينهم إلى العالمين جميعاً: هدى ونوراً ورحمة وإنقاذاً لهم من عذاب الله تعالى، وأن يتمسكوا به وهم يواجهون أصناف الكفار والأعداء على مختلف عقائدهم وملهم ونحلهم.

الثالث: الأخذ بالأسباب الشرعية والمادية كما فعل رسول الله ﷺ وصحابته الكرام، وهذا يقتضي:

أ - العمل بهذا الدين وتطبيقه في واقع حياتنا الخاصة والعامة، علماً وعملاً، عقيدة وشريعة، عبادة ومعاملات حاكماً ومحكومين، ولنعلم أنه ما لم نعمل بهذا في خاصة أنفسنا نحن المسلمين فلن نستطيع تقديم هذا الدين للآخرين ودعوتهم إليه.

ب - الأخذ بالأسباب المادية التي أمر بها شرعنا الحنيف، فهي في النهاية شرعية مادية، وذلك بأن نأخذ بأسباب ووسائل القوة ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً، وذلك في جميع المجالات المختلفة الاجتماعية والزراعية والصناعية والاقتصادية، والعسكرية، والتقنية على مختلف فروعها.

وديننا والحمد لله لم يعرف - قديماً أو حديثاً - الصراع بين حقائقه الثابتة، والعلم المادي الصحيح النافع. وإن كانت التيارات العلمانية في العالم الإسلامي - تقليدياً لظروف علمانية الغرب وصراع الكنيسة والعلم عندهم - تحاول أن تنقل الصراع نفسه إلى عالم الإسلام والمسلمين، نظراً لبغضها وحقدتها على دين الإسلام وجهل بعضهم به.

ودين الإسلام إنما يحارب إحماد الغرب وزندقته، وانحرافه وتحلله وضلاله، واستعمارهم وظلمه، وحرية الضروس ضد الإسلام أما التقدم العلمي المادي النافع - على مختلف تخصصاته وفروعه - فهو من أكبر الداعين إليه. وها هي شواهد حضارة الإسلام تدل على ذلك.

وهذا الكتاب الذي أقدمه اليوم وقد ظل حبيساً قرابة سبع سنوات - اشتمل على جملة من القضايا والمسائل المنهجية والدعوية المتنوعة مع التعليق على بعض الأحداث والمناسبات التي مر بها ويمر بها العالم الإسلامي.

والذي دعا إلى نشرها - بعد تردد - أمران:

أحدهما: إلحاح الكثير من الذين سمعوا أصولها على المنبر، وطلبوا مسوداتها، إحساناً منهم بالظنّ.

الثاني: أن كثيراً منها كتب عن معاناة، وبعد قراءات كثيرة متنوعة، فليست وليدة الخاطر السريع.

وقد قسمت الكتاب إلى ثمانية فصول وكل فصل يحتوي على عدة مباحث فجاء كالتالي:

الفصل الأول: دروس من القرآن ويحتوي على ثلاثة مباحث.

الفصل الثاني: العقيدة والمنهج ويحتوي على سبعة مباحث.

الفصل الثالث: من أعمال القلوب ويحتوي على سبعة مباحث.

الفصل الرابع: من قضايا الدعوة إلى الله ويحتوي على عشرة مباحث.

الفصل الخامس: حول اليهود ويحتوي على سبعة مباحث.

الفصل السادس: الغرب والإسلام ويحتوي على ستة مباحث.

الفصل السابع: طلب العلم والتربية والتعليم ويحتوي على ثمان مباحث.

الفصل الثامن: رمضان والحج ويحتوي على إحدى عشر مبحثاً.

وأخيراً أشكر لدار الفضيلة حرصهم على نشرها، وقيامهم بتخريج الأحاديث الواردة.

وأقول: هذا جهد المقل - عسى أن يستفيد منه البعض فأحظي منه بدعوة - فما كان فيه من صواب فمن الله وهو المتفضل به سبحانه، وما كان من خطأ فمن نفسي ومن الشيطان وأستغفر الله منه.

وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم

وكتبه/ عبدالرحمن الصالح المحمود

الرياض

ص. ب : ١٧٩٩٩

الرمز البريدي: ١١٤٩٤

## الفصل الأول

دروس من القرآن

المبحث الأول: مفهوم الأمن في القرآن.

المبحث الثاني: أين نحن من القرآن؟

المبحث الثالث:

١- كيف نحيا بالقرآن؟ - ١-

٢- كيف نحيا بالقرآن؟ - ٢-

٣- كيف نحيا بالقرآن؟ - ٣-

٤- كيف نحيا بالقرآن؟ - ٤-

٥- كيف نحيا بالقرآن؟ - ٥-



## مفهوم «الأمن» في القرآن (١)

### ١ - معنى الأمن:

الأمن: طمأنينة النفس وزوال الخوف.

ويكون الأمن في مقابلة خوف العدو بخصوصه.

والأمن يتعلق بالمستقبل ، ولذا عرفه بعضهم - عبد القاهر الجرجاني - بأنه: عدم توقع مكروه في الزمان الآتي.

وقد ورد في القرآن لفظ «الأمن» في موضعين متتاليين فقال تعالى: ﴿فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ \* الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ (٢).

وورد في القرآن لفظ «أمنة» في موضعين وفي حديثه عن غزوتين:

١ - في غزوة بدر ، حين أنزل الله النعاس على الصحابة أثناء المعركة . قال تعالى: ﴿إِذْ يَغْشِيكُمْ النُّعَاسُ أَمَنَةٌ مِنْهُ وَيُنزِلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ﴾ (٣).

٢ - وفي غزوة أحد . قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ...﴾ (٤).

والفرق بين الأمن والأمنة - وإن كانا متقاربين - : أن الأمنة تختص فيما إذا كان سبب الخوف حاضراً ، مثل حالة حرب العدو وحصاره ، فما يحصل للمسلمين من أمن ينزله الله عليهم في تلك الحال يسمى أمنة . أما الأمن فهو شامل لما هو أعم من ذلك .

٢ - أهمية الأمن في الحياة: الأمن نعمة عظيمة ، بل يكاد يكون من أعظم النعم ؛ لأن مقتضاه : الأمن النفسي والطمأنينة والسكينة التي يستشعرها الإنسان ، فيزول عنه هاجس الخوف ، ويحس بالرضا والسعادة .

والشعور بالأمن غاية في الأهمية ، ومن ثم فقد جعله الله عز وجل نعمة جلية

(١) الجمعة ٢٥/١١/١٤١٤هـ .

(٢) سورة الأنعام، الآيتين : ٨١ ، ٨٢ .

(٣) سورة الأنفال، الآية : ١١ .

(٤) سورة آل عمران، الآية : ١٥٤ .

يتفضل بها على بعض خلقه ، وجعل فقد هذا الأمن نقمة ينتقم الله بها من بعض خلقه العاصين أو الكافرين .

ولكون «الأمن» ضرورياً للحياة ، قرنه الله بالطعام والأموال والأولاد في أكثر من موضع - بل قدمه عليها في مثل قوله تعالى : ﴿ وَلَيَلْوَنَكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴾ (١) .

فتأمل كيف بدأ بضد الأمن وهو الخوف ؛ لأن الحياة بدون أمن وأمان قاسية مرّة ، بل شديدة المرارة ، لا يمكن أن تطاق .

٣ - تجربة قريش : امتنّ الله على قريش - قبل بعثة النبي ﷺ - بأن هياً لهم الأمن ، وامتنّ عليهم به - وخاصة بعد حادثة الفيل - ، حيث نصر الله قريشاً على النصارى - أبرهة وأصحابه - ، ولكن لا بيد قريش ؛ لأنهم كانوا يعبدون الأصنام ، وإنما بنصر من عنده تعالى لا يد لقريش فيه ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴾ (١) أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ (٢) وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ (٣) تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ (٤) فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ (٥) ﴾ (٢) .

فعاشت قريش بعد هذا آمنة ، لا ينالها أحد بسوء ، بل كان الناس من حولها يتخطفون بالحرب والنهب والخوف والقلق ، وهي آمنة عند الكعبة ، بل تعدى الأمن إلى قوافلها التجارية في رحلة الشتاء والصيف . فكانت تسيّر آمنة لا يعرض لها أحد بسوء ؛ لأنها تجارة قريش أهل البلد الأمين . قال تعالى : ﴿ أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيَتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ... ﴾ (٣) .

ولكن كيف قابلت قريش هذه النعمة العظيمة الفريدة التي عاشت في ظلها دهرًا ، وتبرز عظمة هذه النعمة إذا علم أن الفوضى القبيلية كانت تسود باقي مناطق الجزيرة العربية . ففي غير مكة ، كان السلب والنهب ، وكانت الغارات المفاجئة جزءاً من حياة تلك القبائل ، وكانت الحروب تقوم لأتفه الأسباب وفي مثل هذه الأجواء القائمة تظهر قيمة الأمن والهدوء والطمأنينة الذي كانت قريش تعيشه في بلدها ، بل وفي قوافلها خارج بلدها .

(٢) سورة الفيل ، كلها .

(١) سورة البقرة ، الآية : ٥٥ .

(٣) سورة العنكبوت ، الآية : ٦٧ .

وبعث الهادي البشير ﷺ في أم القرى مكة، ودعا قومه إلى الإسلام وإلى هذا النور الذي جاءهم من الله تعالى، وأمرهم بتوحيد الله تعالى وترك عبادة الأصنام والطواغيت. وكان مما امتنَّ الله به على قريش نعمة الأمن هذه. فقال تعالى في السورة التي تلت سورة الفيل: ﴿لَا إِلَافَ قُرَيْشٍ ﴿١﴾ إِلَّا فِيهِمْ رَحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصِّيفِ ﴿٢﴾ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ﴿٣﴾ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَأَمَّنَّهُمْ مِنْ خَوْفٍ ﴿٤﴾﴾ (١).

فهم آمنون في بلدهم، وفي رحلات قوافلهم في الشتاء والصيف إلى اليمن وإلى الشام.

فأمرهم تعالى بعبادة رب هذا البيت الذي أنعم عليهم بنعمة الأمن والأمان. وقال تعالى: ﴿أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا مَأْمُونًا وَيَتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾.

كيف لا يتدبروا هذه النعمة، وكيف يقابلوها بهذا الكفران؛ حيث جعلوا مكة بلد الله الأمين، مسرحاً للأصنام، وعبادة غير الله تعالى، مع كفران بنعمة الله ورفض لعبادته وطاعة رسوله ﷺ.

٤- جواب قريش العملي والقولي: لهذه الدعوة والتذكير بتلك المنَّة؟ إنه جواب عجيب يحتاج منا إلى وقفة طويلة وتأمل، حيث جاء جوابهم عملياً وقولياً:

١- الجواب العملي - جاء على شقين:

أحدهما: حولوا بيت الله الحرام - والكعبة نفسها - إلى منتدئ للطاغوت، فأحاطوا الكعبة بالأصنام، التي تعبد من دون الله تعالى.

وأي كفر أعظم من هذا الكفر، وأي محادة لله تعالى أكبر من هذه المحادة؟

والشق الثاني من الموقف العملي، هو أيضاً موقف مخز. وذلك أن قريشاً أصبحت تحارب عباد الله المؤمنين في بلد الأمان «مكة»، فانقضت على الصحابة السابقين إلى الإسلام تسومهم وتسوم أسرهم سوء العذاب. فحوَّلوا بلد الأمان إلى رعب وخوف للمؤمنين الصادقين. مكة التي كان يأمن فيها الخائف حتى إن الرجل

(١) سورة قريش، كلها.

كان يرى قاتل أبيه في مكة ولا يستطيع أن يتعرض له بسوء؛ لأنه في بلد الأمان «مكة»... !!!

تأملوا: منطق طواغيت قريش العملي. مكة أمان لكل مجرم ولكل لص، ولكل قاتل، ولكل غادر - ما دام قد آوى إليها - تحولت في ظل سيادة قريش الكفار إلى رعب وفزع وخوف، وسجن وتقتيل. على من؟ على عباد الله المؤمنين الذين استجابوا لله ولرسوله ﷺ.

٢ - أما جواب قريش القولي: فكان أعجب وأعجب. فبماذا أجابوا رسول الله ﷺ لما دعاهم إلى الهدى وإلى الإيمان بالله والكفر بالطاغوت، وذكرهم بنعم الله الكثيرة ومنها الأمان العظيم الذي يعيشونه دون بقية القبائل؟  
اسمعوا ما قالوا، وتأملوا واعجبوا:

قال تعالى عن قريش: ﴿وَقَالُوا إِن تَتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ تَنَخُّطْ مِنَّا ۖ﴾ (١).

انظروا إلى المنطق المعكوس. قريش التي تعيش آمنة في ظل بيت الله الآمن، لم تشكر الله على هذه النعمة الظاهرة بحيث تستجيب لنداء الإيمان. بل استخدمت هذه النعمة في الكفر والشرك بالله تعالى. واحتجّت على ذلك بحجة عجيبة... احتجّت بأنها إن استجابت للرسول واتبعته على ما جاء به من الهدى - حاربتها القبائل الأخرى وقاتلتها وأفقدتها هذا الأمن والأمان.

فالكفر عند قريش هو الذي يحقق الأمن والأمان، أما الإسلام والهدى والإيمان فإنه يؤدي إلى نقيض هذا الأمان، فيعرضهم للمخافة، ويغري بهم الأعداء، ويفقدهم العون والنصير، بل ويعود عليهم بالفقر والبوار. ﴿وَقَالُوا إِن تَتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ تَنَخُّطْ مِنَّا ۖ﴾ (١).

أي منطق معكوس هذا الذي تقوله قريش!!!

وأي مغالطة ومخادعة هذا الذي يتحدثون عنه!!!

إن قريشاً تبدل الحقائق - مخادعة منها - ، حيث إنها تفصل بين الهدى والأمان، مع أنهما متلازمان. فهي تزعم أنها إن اهتدى وآمنت بالله خافت وزال عنها

الآمان .

ولقد جاء الجواب - على هذه الدعوى - سريعاً وقويّاً وحاضراً . فقال تعالى :  
﴿ وَقَالُوا إِن تَتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ تَخْطِفُ مِنَّا أَرْضًا أَوْ لَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجِبِّي إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا ﴾ (١) .

فما بالهم يخافون أن يتخطفهم الناس لو اتبعوا هدى الله ، والله هو الذي مكّن لهم هذا الحرم الآمن منذ أيام أبيهم إبراهيم . أفمن أمنهم وهم عصاة ، يدع الناس يتخطفونهم وهو تقاة؟؟ بل إنه تعالى أنعم عليهم - مع الآمن - بالرزق الذي يأتيهم ويجبي إليهم من كل مكان ، مع أن بلادهم ليست بلاداً زراعية .

﴿ وَلَكِن أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (١) : لا يعلمون أين يكون الآمن؟ وأين تكون المخافة ، ولا يعلمون أن مرد الأمر كله لله .

إن زوال الآمن ومجئ الخوف يكون حين يكفر بالله ولا تشكر نعمه التي من أغلاها نعمة الآمن والرزق . ولذا قال تعالى بعد الآية السابقة - في احتجاج قريش والرد عليهم - : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطَرَتْ مَعِشَتَهَا فَنَلَّكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تَسْكُنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ﴾ (٢) .

درس وعبرة لنا: ولكن . . . هل هذا منطق قريش وحدهم؟

هذا القول القرشي الباطل ، كم نجد من يردده هذه الأيام . . . إن الكثيرين إذا دعوا إلى الإيمان والالتزام بالإسلام في جميع جوانب الحياة . . . قالوا لك بمنطق قريش ﴿ إِن تَتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ تَخْطِفُ مِنَّا أَرْضًا ﴾ (١) ، إن تطبيقنا للإسلام سيفقدنا الآمن والأمان؛ لأنه سيثير علينا الحروب والفتن والاضطرابات في الداخل والخارج ، وستحاربنا الدول الكفارة جميعها ، وسنخسر صداقتها وودها ودعمها لنا ، بل سنتنقص عليها وتزِيل أمننا واستقرارنا . إن تطبيق الإسلام سيجر علينا هذه الويلات .

(٢) سورة القصص ، الآية : ٥٨ .

(١) سورة القصص ، الآية : ٥٧ .

إن هذا المنطق المعكوس - القديم والحديث - يجب أن نقف عنده وقفة تأمل كبرى في مسيرتنا نحن المسلمين اليوم .

وقد بقيت في التجربة القرشية بقية : فما الذي وقع حين استجابت قريش فيما بعد لداعي الهدى ودخلوا في دين الله أفواجاً مع غيرهم من القبائل؟

هل زال أمنها - كما كانت تحتج - ؟ هل أصابها الخوف؟ هل تسلطت عليها الدول الكبرى كما كانت تخاف؟

لا ، إن قريشاً حين اتبعت الهدى رجع إليها أمنها أقوى مما كان ، بل سيطرت على مشارق الأرض ومغاربها في ربع قرن أو أقل من أزمان . وصارت - بما معها من عقيدة ومنهج حياة - تنشر الأمن والعدل في كل بلد تفتحه .

\* \* \*

### أين نحن من القرآن؟ (١)

سؤال عظيم يوجه إلى أمة الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها، وهو أيضاً يوجه إلى كل فرد من المسلمين . وبمقدار ما فيه من بدهاء ووضوح فهو بحاجة إلى أن يؤخذ بعزم وقوة .

والسؤال باختصار : ما منزلة هذا القرآن في نفوسنا وحياتنا إيماناً وتصديقاً، وعلماً وفهماً، وعملاً وتطبيقاً، وحكماً وتشريعاً، وشفاءً ودواءً لمختلف الأمراض؟ وهل نحن عارفون بمنزلة هذا القرآن - علماً وعملاً - كما كان عليه رسول الله ﷺ وصحابته من بعده؟ وإذا كنا عارفين ، فلماذا صارت أحوالنا هجراً للقرآن كلياً أو جزئياً حتى يكاد أن يتحقق فينا شكوى: ﴿ وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا ﴾ (٢)، وإذا علمنا أن هجر القرآن أنواع:

- فالمشركون كانوا لا يصغون للقرآن ولا يسمعون، بل إنهم قالوا: ﴿ لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْقَوَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾ (٣) . حيث كانوا إذا تلي عليهم القرآن أكثروا اللغظ والكلام في غيره حتى لا يسمعون، فهذا من هجرانه بل من أعظم الهجران .

- وترك الإيمان به وتصديقه من هجرانه .

- وترك تدبره وتفهمه وتلاوه من هجرانه .

- وترك العمل به وامثال أوامره واجتناب زواجره من هجرانه .

- وترك التحاكم إليه في جميع الشؤون من هجرانه .

- والعدول عنه إلى غيره من شعر أو قول أو غناء أو لهو أو كلام أو طريقة مبتدعة من هجرانه (٤) .

فما موقع كل واحد منا - أمة الإسلام - من هذا الهجران للقرآن الكريم؟

إن من أخطر مسببات الهجران، الانحراف عن الأهداف الكبرى والأساسية

للقرآن:

(٢) سورة الفرقان، الآية: ٣٠ .

(١) الجمعة ٢٦/٥/١٤١٦هـ .

(٤) انظر: تفسير ابن كثير للآية (١١٧/٦)، ط . الشعب .

(٣) سورة فصلت، الآية: ٢٦ .

- فعند البعض أن هذا القرآن نزل للأموات وليس للأحياء فلا يلتفتون إلى القرآن إلا عند المآتم حين يموت ميت لهم . وحينئذ يجتمع القراء في هذا البيت الهاجر للقرآن أو تصدع أجهزة التسجيل بالقرآن - حسب العادة المتبعة - . وأحياناً ينقلون القراء إلى المقابر بعد زمن . وإذا كان الميت ذا شأن كبير شاركت الإذاعة في إيقاف إرسالها العادي لتبث القرآن .

- وعند البعض يكفي أن يفتح بالقرآن في مؤتمراتهم واحتفالاتهم وفي إذاعاتهم ، ويختتم به أحياناً . وكل ذلك للبركة .

- وتحول القرآن عند البعض إلى تئاتم ورقى تعلق على الأجساد وتوضع في البيوت أو السيارات ، دفعاً للضرر .

فهل نزل القرآن على قلب محمد ﷺ ، ثم حفظه الله إلى قيام الساعة من التحريف والتبديل والزيادة والنقصان ليكون هكذا؟ هل نزل ليحفظ كل واحد منا بنسخة من القرآن - أو عدد من النسخ - في بيته ، ويبقى مرونياً ، لا نعطيه حتى ولا جزءاً من وقت نعطيه كل يوم للجريدة التي نقرؤها ونطالعها .

هل نزل هذا القرآن لنمدحه نظرياً مظهرين احترامه ومنزله - ثم نعرض عنه عملياً في حياتنا ومناهجنا التربوية وأحكامنا وتشريعاتنا وجميع أمورنا؟ إن هذا القرآن له في أمة الإسلام شأن . وأي شأن!

●● وحتى أذكركم - ونفسي - بأهمية وعظمة هذا القرآن ، فاسمعوا إلى بعض ما ذكره الله في كتابه عن كتابه ، وتذكروا أن هذا الذي تتلوه كلام الله تعالى - لا كلام بشر - :

قال تعالى : ﴿ قُلْ لئن اجتمعت الإنسُ والجنُّ على أن يأتوا بمثل هذا القرآنِ لا يأتونَ بمثلِهِ ولو كانَ بعضهم لبعضٍ ظهيراً ﴾ (١) .

وقال تعالى : ﴿ وما كانَ هذا القرآنُ أن يُفترى من دونِ اللهِ ولكنَّ تصديقَ الَّذي بينَ يديهِ وتفصيلَ الكتابِ لا ريبَ فيه من ربِّ العالمين ﴾ (٢) .

وقال تعالى : ﴿ إنَّ هذا القرآنَ يَهدي للتي هي أقومُ وَيُبشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذينَ يعملونَ

(٢) سورة يونس ، الآية : ٣٧ .

(١) سورة الإسراء ، الآية : ٨٨ .

الصَّالِحَاتِ أَنْ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿١﴾ .

وقال تعالى: ﴿ وَنُنزِلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ (٢) .

وقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَ تَكْمٌ مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ \* قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ (٣) .

وقال تعالى: ﴿ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (٤) .

وقال تعالى: ﴿ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ \* لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِن خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ (٥) .

وقال تعالى: ﴿ الْآرِ كِتَابٌ أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ (٦) .

وقال تعالى: ﴿ وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ (٧) .

وقال تعالى: ﴿ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِّلْمُسْلِمِينَ ﴾ (٨) .

وقال تعالى: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا \* فَيَمَّا لِيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا \* مَا كُنْتُمْ فِيهِ أَبَدًا \* وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ﴾ (٩) .

... وغيرها من الآيات كثير .

●● وهذا القرآن أنزله الله تعالى وحفظه ، وميَّزه عن الكتب السابقة ؛ ليكون له شأن في أمة الإسلام - في أي مكان أو زمان - إلى قيام الساعة . فما هي الاهداف الأساسية لهذا القرآن ؟

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٨٢ .

(٤) سورة يوسف، الآية: ١١١ .

(٦) سورة هود، الآية: ١ .

(٨) سورة النحل، الآية: ١٠٢ .

(١) سورة الإسراء، الآية: ٩ .

(٣) سورة يونس، الآيتان: ٥٧ ، ٥٨ .

(٥) سورة فصلت، الآيتان: ٤١ ، ٤٢ .

(٧) سورة الإسراء، الآية: ١٠٥ .

(٩) سورة الكهف، الآيات: ١ - ٤ .

١ - إن هذا القرآن - أولاً - هو كتاب هداية لمن أراد السير على الصراط المستقيم ، فهو ﴿ هدى للمتقين ﴾ قال تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (١) .

فالقرآن روح ونور ، روح للحياة ، ونور للطريق . حياة الإنسان وطريقه ، وحياة الأمة وطريقها .

﴿ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ \* يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (٢) .

فهو يخرج الإنسان والأمة من ظلمات الشرك والكفر والجهالة والعصيان إلى نور الإيمان والعلم والطاعة للواحد الديان .

٢ - ثم إن هذا القرآن كتاب حكم وتشريع ، يشمل جميع شؤون الحياة ، بدءاً من حياة المواليد الرضع ، وانتهاءً بالموت وأحكامه الشرعية ، وفيما بين ذلك يشمل الأمور العبادية ، والاجتماعية ، والاقتصادية ، والعسكرية . . . الخ .  
﴿ وَأَن احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ ﴾ (٣) .

٣ - ثم إن هذا القرآن كتاب عقيدة خالصة صافية ، فيها البيان الحق لكل ما وراء الغيب : مما تعلق بالله تعالى وأسمائه وصفاته وربوبيته وألوهيته ، وما يتعلق بخلقه للسموات والأرض والإنسان ونشأته ، وما يتعلق بالإيمان بالملائكة والكتب والرسول واليوم الآخر ، وما يتعلق بما يضاد ذلك من الكفر والشرك والنفاق ، ودلائل الربوبية والألوهية والنبوت ، وإعجاز هذا القرآن .

٤ - وهو أيضاً كتاب عبادة يتعبد الإنسان بقراءته وتلاوته وحفظه ، ويتقرب إلى الله تعالى بذلك . فهو نور قلوب العارفين والعابدين يتلونه آناء الليل وأطراف النهار ويعلمونه ويتعلمونه «خيركم من تعلم القرآن وعلمه» (٤) . كما قال رسول الله ﷺ .  
ومن قرأ حرفاً منه كان له به عشر حسنات .

(١) سورة الشورى، الآية: ٥٢ . (٢) سورة المائدة، الآيات: ١٥ ، ١٦ .

(٣) سورة المائدة، الآية: ٤٩ .

(٤) رواه البخاري (٥٠٢٧) و (٥٠٢٨) ، والترمذي (٢٩٠٧) ، وأبو داود (١٤٥٢) .

٥- ثم هو حبل الله المتين في مواجهة أعداء الإسلام المتربصين بأمة الإسلام حيث لا يرقبون فيها إلا ولا ذمة، ولا يدعون وسيلة في حربها إلا سلكوها. فهذا القرآن يعلم الأمة حقيقة المعركة مع عدوها، ويبين لها أهدافها من جانب أعدائها، ثم هو يمدها بوسائل النصر وأسلحة الجهاد باللسان والبيان وبالسنان.

إن هذا القرآن معتصم هذه الأمة في جميع أحوالها.

٦- ولأن القرآن حق وصدق؛ لأنه من عند الله الحكيم العليم، ففيه لفتات عظيمة في نواح متعددة: علمية، أو طبية، أو اجتماعية، أو نفسية، أو غيرها. وما هذه إلا مقدمة لوقفات قادمة إن شاء الله مع هذا القرآن. والله المستعان.

\* \* \*

## كيف نحيا بالقرآن؟ (١)

- ١ -

كيف كان حال السلف مع القرآن؟ وكيف أصبحت حالنا مع القرآن؟ لماذا ضعفت منزلة القرآن في نفوسنا؟ وصارت صلتنا به أقل من صلتنا بالجرائد ووسائل الإعلام؟

ما الذي تغيّر حتى صرنا إلى هذه الحال؟ هل تغيّر القرآن؟ أم تغيّرنا نحن في عيشنا وحياتنا مع القرآن؟ ما مقياس الأمم في رفعتها وضعفتها، في عزتها وذلتها؟

روى مسلم في صحيحه عن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - أن النبي ﷺ قال: «إن الله تعالى يرفع بهذا الكتاب أقواماً، ويضع آخرين» (٢). وهذا يشمل الفرد، والقوم، ويشمل أيضاً الأمة. فمن أقبل على القرآن من هؤلاء نال الرفعة والمكانة، ومن أعرض عنه عُوقب بالذلة والمهانة.

وبهذا الميزان النبوي للقرآن عرف سلفنا الصالح - رحمهم الله تعالى - مكانة القرآن ومنزلته وأثره، فجعلوا القرآن عماد حياتهم، تلاوة وتعلماً وتعليماً وعملاً، فالصغير ينشأ بتعلم القرآن، والأسرة تربي بالقرآن، والعلم يفتح بتعلم القرآن وحفظه، ومدارس العلم كلها أساسها وعمادها القرآن، ومساجدهم معمورة بالقرآن، وعباداتهم وصلواتهم، ومجالسهم وسمرهم وأسفارهم وتنقلاتهم، وجهادهم وفتوحاتهم... كل ذلك إنما عماده القرآن، أما أحكامهم وقضاياهم وعلاقاتهم، فلا تخرج عن القرآن.

لقد كانت أمة تعيش ونحيا بالقرآن، فكان من أمرها ما كان.

١ - روى البخاري ومسلم عن أبي موسى - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «إني لأعرف أصوات رُفقة الأشعرين بالليل حين يدخلون، وأعرف منازلهم من أصواتهم بالقرآن بالليل وإن كنت لم أر منازلهم حين نزلوا بالنهار» (٣).

(١) الجمعة ١٤١٦/٦/٣ هـ.

(٢) رواه: مسلم (٨١٧)، وابن ماجه (٢١٨)، والدارمي (٣٣٦٥)، من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه. (٣) رواه: البخاري (٤٢٣٢)، ومسلم (٢٤٩٩)، عن أبي موسى رضي الله عنه.

٢- وروى ابن المبارك في الزهد، ووكيع أيضاً في الزهد عن أبي الأحوص الجشمي قال: إن كان الرجل ليطرق الفسطاط طروقاً - أي يأتيه ليلاً - فيسمع لأهله دويماً كدوي النحل - أي بالقرآن - قال: «فما بال هؤلاء يأمنون، ما كان أولئك يخافون»؟<sup>(١)</sup>.

فهذه حالتهم وصفتهم مع القرآن صفة عامة لامصار المسلمين، ولذا كانوا يأمنون ولا يخافون. قال ابن مسعود - رضي الله عنه - : «إن هذا القرآن مادبة الله، فمن دخل فيه فهو آمن»<sup>(٢)</sup>.

٣- وعن الحسن البصري - رحمه الله - أنه قال: «إن من كان قبلكم رأوا القرآن رسائل من ربهم، فكانوا يتدبرونها بالليل وينفذونها بالنهار»<sup>(٣)</sup>. وهكذا القرآن: عبادة وذكر لله مع تدبر وتفهم يعقبه تطبيق وعمل.

٤- وحامل القرآن هو حامل لراية الإسلام في كل ما تحتاجه هذه الراية من عزم وقوة، وجدّ وفتوة، قال الفضيل بن عياض - رحمه الله - : «حامل القرآن حامل راية الإسلام، لا ينبغي له أن يلهو مع من يلهو، ولا يسهو مع من يسهو، ولا يلغو من يلغو، تعظيماً للقرآن»<sup>(٤)</sup>.

٥- أما أحوال السلف مع القرآن تدبراً وخشوعاً فأمر معروف، حتى إن الإمام التابعي الثقة قاضي البصرة: زرارة بن أوفى العامري الحارثي - أبو حاجب البصري - الذي روى له الجماعة - وكان من العباد، روى بهز بن حكيم قصة وفاته فذكر أنه أمهم في الفجر في مسجد بني قشير فقرأ حتى بلغ قوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ﴾ **(٨)** فذلِكَ يَوْمَ يَمُنُّ يَوْمَ عَسِيرٍ **(٩)** ﴿<sup>(٥)</sup>. فخر ميتاً، قال بهز: فكننت فيمن حملة»<sup>(٦)</sup>.

لقد كان القرآن عند سلفنا أساس الحياة، وأساس المناهج لا يزاحمه أي علم أو أي منهج آخر، وكانت العلوم الأخرى كلها تأتي بعده تبعاً.

(١) إسناده صحيح، رواه ابن المبارك في الزهد (٩٨) ووكيع في الزهد أيضاً (١٥٢).

(٢) رواه ابن المبارك في الزهد (٧٨٧)، وابن أبي شيبة (٤٨٤/١٠).

(٣) التبيان في آداب حملة القرآن للنووي (٢٧)، ت نبيل البصارة.

(٤) المصدر السابق (٧٢)، وقد رواه عنه أبو نعيم في الحلية (٩٢/٨)، والأجري بإسناد صحيح.

(٥) سورة المدثر، الآيتان: ٨، ٩.

(٦) طبقات ابن سعد (١٥٠/٧)، والحلية (٢٥٨/٢)، وتهذيب الكمال (٣٤١/٩).

- فالذي يدخل في الإسلام كان أول ما يتعلم القرآن .
- والوفود التي كانت تفد على رسول الله ﷺ كانت تتعلم وتأخذ معها ما تستطيعه من القرآن .
- وكان مقياس الرجال ومعرفة أقدارهم تبدأ بمدى معرفتهم وحفظهم للقرآن .
- هذا رسول الله ﷺ يقدم الشاب الصغير عمرو بن سلمة على مشيخة قومه وكبارهم ليقول له بعد أن عرف أنه أحفظهم للقرآن : « اذهب فأنت إمامهم » (١) .
- وهذا عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - وهو خليفة جعل شؤاره من القراء ، وأدخل معهم عبد الله بن عباس - على صغره - لتمييزه بحفظ القرآن والعلم به (٢) .
- روى البخاري عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال : « كان القراء أصحاب مجلس عمر - رضي الله عنه - ومشاورته كهولاً كانوا أو شباباً » (٣) .
- وحفظ القرآن كان أول ما يبدأ به في تعليم الصغار .
- وحلق الشيوخ كانت تبدأ بالقرآن بالنسبة لطلاب العلم ، وعيب كبير - بل يكاد يوجد - أن يبدأ طالب علم بفنّ من الفنون الشرعية قبل تعلم القرآن وحفظه .
- ومحفوظات الطلاب تتركز في البداية على القرآن .
- والخلاصة : أن التعليم في الأمة الإسلامية كلها كان أساسه وعماده القرآن وعلومه وتفسيره .
- هذا حال سلفنا مع القرآن ، وقارنوه بأحوال أمة الإسلام في عصرها الحاضر .
- ولكن كيف ضعفت هيبة القرآن في نفوسنا وحياتنا ومعاملاتنا ؟ وهل هناك وسيلة أو وسائل يمكن أن تعود بها تلك المنزلة لهذا القرآن العظيم ؟

(١) لم أقف عليه والذي وقفت عليه ما ثبت في صحيح البخاري (٤٣٠٢) ، وأبو داود (٥٨٧) ، والنسائي (٧١ / ٢) ، وأحمد (٧١ ، ٣ / ٥) ، ولفظه : « . . . قال رسول الله ﷺ : فإذا حضرت الصلاة فليؤذن أحدكم ، وليؤمكم أكثركم قرآنًا ، فنظروا ، فلم يكن أحد أكثر قرآنًا من الركبان فقد موني بين أيديهم . وأنا ابن ست أو سبع سنين . . . الحديث .

(٢) رواه البخاري (٤٩٧٠) .

(٣) رواه البخاري (٧٢٨٦) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما .

والجواب: نعم هناك وسائل لأن القرآن باقٍ ومحفوظ لم يتغير ولن يتغير مهما تغيرنا نحن أو حاول أعداؤنا أن يغيرونا أو يصرفونا عنه . وإني ذاكراً عدداً من المسائل والقضايا حول هذا الموضوع الكبير . كيف نحيا ونحيا أمة الإسلام بالقرآن؟

أولاً: المعرفة والإدراك الحقيقي لمنزلة هذا القرآن ، وأنه كلام الله تعالى ، لا يقاس بكلام البشر مهما كانوا ، وينبني على هذا أمر مهم ، ألا وهو الثقة بنصوصه ثقة مطلقة ، والتصديق الجازم بكل ما جاء به من حقائق وأحكام ، تتعلق بالفرد وتعلق بالامة في جميع شؤونها العبادية والأخلاقية والاجتماعية والنفسية والتشريعية . . . .

فلا مجال لصوت أن يعلو فوق القرآن ، ولا لمتعالماً أن يتعالماً على القرآن ، فيعمل في نصوصه تحريفاً وتعطيلاً ، أو أن يشكك في شيء من حقائق القرآن ومعانيه ، أو أن يأخذ منه ما يشتهي ويترك ما خالف من هواه ، أو أن يجعله عضين مفرقاً يؤمن ببعضه ويكفر بالبعض الآخر .

إنما هو التسليم الكامل لله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا ﴾<sup>(١)</sup> . ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا ﴾<sup>(٢)</sup> . وهذا التسليم لا يخاطب به فئة معينة - كالحكام مثلاً - وهم مخاطبون - وإنما يخاطب به كل فرد في خاصة نفسه وحياته وعباداته ومعاملاته .

ينبغي لكل مسلم أن يعلم أن هذا القرآن كما وصفه علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - : « فيه نبأ ما قبلكم ، وخبر ما بعدكم ، وحكم ما بينكم ، هو الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله ، وهو حبل الله المتين ، ونوره المبين ، وهو الذكر الحكيم ، وهو الصراط المستقيم ، وهو الذي لا تزيغ به الأهواء ، ولا تلتبس به الألسنة ، ولا يشبع منه العلماء ، ولا يخلق عن كثرة الرد ، ولا تنقضي عجائبه ، وهو الذي لم تنته الجن إذ سمعته حتى قالوا : ﴿ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا \* يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ ﴾<sup>(٣)</sup> ، من قال به صدق ، ومن عمل به أجر ، ومن حكم به عدل ، ومن دعا إليه هدي إلى صراط مستقيم »<sup>(٤)</sup> .

(١) سورة النساء ، الآية : ١٢٢ .

(٢) سورة النساء ، الآية : ٨٧ .

(٣) سورة الجن ، الآيتان : ١ ، ٢ .

(٤) أخرجه الترمذي (٢٩٠٦) وأحمد (٩١/١) ، وقال الترمذي هذا حديث لا نعرفه إلا من هذا الوجه وفي إسناده مجهول وفي الحارث مقال . أ . هـ . والدارمي (٣٣٣١) وقال محققه : وقد روي مرفوعاً وموقوفاً كليهما بنفس الإسناد وهو ضعيف إسناداً لكنه كلام حسن صحيح . أ . هـ .

إن من المؤسف أننا قد نصدق بهذا نظرياً، لكننا في الحقيقة نكاد نشكك فيه عملياً. وهذه من أخطر أمراضنا، التباين بين النظرية والتطبيق، والقول والعمل، والدعوى والحقائق في الواقع.

وهناك أمر آخر، وهو أنه قد يظن ظان أن بعض الحقائق التي جاءت في القرآن، مثل وعد الله بنصر المؤمنين، أو كتابة الذلة على اليهود، ونحو ذلك قد تخلفت، فتضعف ثقته بالقرآن ويظن أنه محتاج إلى أن يتأول أو يحرف النصوص القرآنية لتوافق مع الواقع.

وهذا خطأ كبير يؤدي إلى أن يقلب المسألة، بحيث يجعل ما يراه في الواقع هو الأصل وما جاء في القرآن تابع له. إن الواجب أن نوقن يقيناً تاماً أن ما جاء في القرآن حق وصدق لا شك فيه أبداً، وأن تخلف وعد الله أو ما يقرره من حقائق تتعلق بالأم أو بمخالفتي شرع الله وأحكامه من هذه الأمة أو من غيرها من الأمم، إنما هو لتخلف الأسباب التي ذكرها الله تعالى، مثل تخلي المسلمين عن دينهم، أو عدم قيامهم به على الوجه الأكمل، أو وقوعهم في الذنوب والمعاصي التي تجعلهم يستحقون العقوبات... وهكذا.

إن خلاصة هذا الأصل - الذي بدأنا به - يقوم على أن جميع ما جاء به القرآن حق وصدق لا شك فيه، وأن المسلم وهو يقرأ القرآن ويتدبر معانيه عليه أن يستحضر ذلك في كل آية وفي كل قصة، وفي كل حكم وفي كل أمر وفي كل نهي، وفي كل توجيه جاء به هذا الكتاب الكريم.

حقائق القرآن كثيرة وهي ثابتة لا تتغير بتغير الزمان والمكان والاحوال.

واليكُم نماذج فقط من هذه الحقائق:

قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾<sup>(١)</sup>، وقال تعالى: ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾<sup>(٢)</sup>.

وقال تعالى عن اليهود: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ أَيْنَ مَا تُخَفُّوْا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحُبْلٍ مِنَ النَّاسِ﴾<sup>(٣)</sup>، وقال تعالى: ﴿إِنْ تَنْصَرُوا لِلَّهِ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾<sup>(٤)</sup>.

(١) سورة طه، الآية: ١٢٤ .

(٢) سورة النساء، الآية: ١٤١ .

(٣) سورة آل عمران، الآية: ١١٢ .

(٤) سورة محمد، الآية: ٧ .

وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ (١).

وقال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ (٢).

وقال تعالى عن الربا: ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرَّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ﴾ (٣).

وفي الأسبوع القادم - إن شاء الله - استكمال للموضوع.

\* \* \*

(٢) سورة النساء، الآية: ٦٥.

(١) سورة الرعد، الآية: ١١.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٧٦.

## كيف نحيا بالقرآن؟ (١)

- ٢ -

عرضنا - فيما سبق - للقضية الأولى في هذا الموضوع، وهي الثقة المطلقة بهذا القرآن وبما في القرآن من حقائق متنوعة؛ سواء كانت أخباراً عن الماضي والمستقبل، أو أموراً تشريعية لها الكمال والبقاء والثبات، أو مسائل عقديّة متنوعة، أو إشارات علمية تتعلق بالكون والإنسان... إلخ.

ونستكمل الآن الجواب عن هذا السؤال الكبير: كيف نحيا وتحيا أمة الإسلام بالقرآن؟

ثانياً: أن نعيش مع القرآن تلاوة وتعلماً وتعليماً وكأننا نحن المخاطبون به، بكل ما فيه من أمثال وقصص وأحكام وآداب، فنقرأ القرآن - ونحن على ثقة مطلقة به - نقرؤه على أنه موجه إلينا كما أنه موجه إلى من قبلنا وإلى من سيأتي بعدنا.

إن من أكبر الأخطاء التي تقع فيها أحياناً ونحن نتعامل مع القرآن، شعورنا بأن هذا القرآن خُوطب به الرسول الله ﷺ وأصحابه فقط، حيث نزل عليه مفرقاً حسب الحوادث والأحوال والمناسبات، ثم لما جمع القرآن صار وكأنه كتاب يحكي تاريخاً سابقاً وحوادث ماضية وليس لنا من ذلك رلاً مجرد أخذ العبرة من الحادثة وملاساتها. والآيات التي نزلت فيها، كما نأخذ العبر من بعض حوادث التاريخ.

ومع أن معرفة أسباب النزول والمناسبات التي نزلت فيها بعض الآيات من أسس وقواعد التفسير وفهم كتاب الله تعالى على الوجه الحق، إلا أن الاقتصار على هذا - بل وقصر القرآن كله تقريباً على أنه نزل على قوم آخرين سابقين فقط - أوجد فجوة كبرى بيننا وبين القرآن، ومن ثم بيننا وبين التعامل مع القرآن، والحياة بالقرآن.

إن الواجب أن نقرأ القرآن وأن نتلقاه كما تلقاه الصحابة - رضي الله عنهم -، وكما كان يتلقاه سلفنا الصالح - رحمهم الله تعالى - نتلقاه كأفراد وكأمة، نتلقاه من خلال الأحداث التي تمر بها في كل يوم وفي كل فترة أو مرحلة زمنية تمر بها أمة الإسلام.

نتلقاه ونحن نربي نفوسنا الجامحة المائلة إلى الدنيا وشهواتها وملذاتها .

نتلقاه ونحن نتوجه إلى الله تعالى كما يحب ويرضى في عبادتنا وأذكارنا وفرائضنا ونوافلنا .

نتلقاه ونحن نجاهد النفس الأمارة بالسوء .

نتلقاه ونحن نواجه شياطين الجن وشياطين الإنس الذي يسعون جاهدين في غوايتنا .

نتلقاه ونحن نواجه الأعداء من المشركين واليهود والنصارى وغيرهم من الكفار ، وهم يشنون حرباً على الإسلام على مختلف الأصعدة .

نتلقاه ونحن نعاني من النفاق المتسلل داخل صفوف المسلمين ، يظهر الإسلام ويبطن الكفر والزندقة وحرب الله ورسوله وعباده المؤمنين .  
نتلقاه في مجاهدة النفس والأعداء .

نتلقاه في زمن الغربة والفتن التي أخبرنا عنها رسول الله ﷺ وعلمنا كيف نخرج منها .

نتلقاه والمسلمون يتلقون الأذى والابتلاء على مختلف صنوفه وأشكاله .

نتلقاه والمسلمون تتقلب بهم الأحوال بين القوة والضعف ، والقلّة والكثرة ، والأمن والخوف في المشارق والمغرب .

نتلقاه ونحن نعبد الله تعالى في أماكن وأزمنة العبادات الفاضلة .

نتلقاه ونحن نربي الأسرة داخل البيت المسلم ، ونحصنها من وسائل التدمير والإفساد لها .

نتلقاه في حلق التعليم رسمية وخيرية ، ابتدائية وجامعية .

نتلقاه في مجالات تطبيق أحكام القرآن في الحدود ، ومجالات العلاقات الاجتماعية ، والاقتصادية ، والسياسية ، والعسكرية . . . وغيرها .

نتلقاه ونحن نطلب الشفاء به - على الوجه المشروع - لأمراضنا النفسية والعضوية .

نتلقاه في كل شأن من شؤون الحياة على أنها مخاطبون به كما خُوطب به من قبلنا، ونتلقاه كما تلقوه بنفس المشاعر والإيمان وأعمال القلوب وخشوعها وخضوعها لمن تكلم بالقرآن وأنزله رحمة للعالمين، نتلقاه على أنه توجيهات حاضرة تعالج أوضاعنا ومشاكلنا وخطط مستقبلنا، نتلقاه وكأننا نخاطب به أول مرة، وكلنا ثقة وتعظيم وتصديق بهذا القرآن المبين .

يتلقاه المؤمن في خاصة نفسه وشجونه وأحزانه، ورضاه وفرحه، وزيادة إيمانه ونقصه، وفي مشاكله الصغيرة المحدودة، وفي مجاهدته لنفسه وهواه، وتلقاه الأمة في مواقفها وجهادها وأحكامها وعلاقاتها. الكل يتلقونه بتلك الروح والإيمان العظيم بالقرآن .

إن هذه الأمة قد أكرمها الله بحفظ هذا القرآن وبقائه - وتلك نعمة ومئة كبرى - فما عليها إلا أن تتوكل على ربها وتعود إلى هذا القرآن عودة حقيقية لا شكلية، عودة جادة لا تردد فيها .

لقد أدرك أعداء الإسلام هذه الحقيقة المتمثلة في أن هذه الأمة لديها موطن عزها ورفعتها ونهوضها، وذلك بالقرآن والسنة، ومن ثم عمل هؤلاء الأعداء على صرف المسلمين عن هذا القرآن حتى لا يتلقوه كما ينبغي ويجب وحتى يعرضوا عنه ويهجروه، ويشغلوا بغيره .

■ ■ اسمعوا إلى قوله تعالى - بعد ذكره لصيحة الرسول في أن قومه اتخذوا هذا القرآن مهجوراً: ﴿ وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا ﴾ (٣٠) وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً من المجرمين وكفى بربك هادياً ونصيراً (٣١) وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلاً (٣٢) ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيراً (٣٣) ﴿ (١) .

فجهود المجرمين من الأعداء متواصلة لصد المؤمنين عن هذا القرآن الذي هو منار هداية، ومصدر قوة . ولقد صدوا عن هذا القرآن لما نزل، وها هم اليوم وفي كل وقت يبذلون الجهود لصد هذه الأمة عن كتابها، ولإشغالها بمختلف وسائل اللهو والعبث حتى لا تجد لقلوبها ولا لأوقاتها ولا لمشاعرها مكاناً لهذا القرآن الذي يقول

الله تعالى عنه : ﴿ كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً \* وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴾ (١).

■ ■ ويقول تعالى عن هذا القرآن : ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِيهِم مَّ بَيْنَهُمْ لِيَذَكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا (٥١) وَلَوْ شِئْنَا لَبعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا (٥٢) فَلَا تُطِيعُ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا (٥٢) ﴾ (٢).

تأملوا في هذه الآيات قوله تعالى : ﴿ فَلَا تُطِيعُ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا ﴾ (٣). أي : جاهدهم بالقرآن فلا تطع الكافرين الذين يسعون لصرْفك عن هذا القرآن بشتى أساليب الصرف ، لقد كان كبراء قريش يقولون للناس : ﴿ ... لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾ (٤). وإن هذا ليدل على مبلغ الخوف والذعر الذي به تضطرب نفوسهم ونفوس بقية الكفار من تأثير هذا القرآن . وكيف لا وهم يرون الناس في كل يوم وليلة يؤخذون بعظمة وبلاغة هذا القرآن فيدخلون في دين الله تعالى زرافات ووحداناً .

وإن الإنسان ليعجب من تأثير هذا القرآن حتى على كبار الأعداء ، ولولا أنهم أحسُّوا بعظمة هذا القرآن لما صدر منهم هذا التحذير الذي يدلُّ على مبلغ معرفتهم بأثر هذا القرآن في النفوس .

وإنها - والله - لمفارقة عجيبة أن يدرك أعداؤنا من عظمة هذا القرآن ما لا ندرك ، وأن يعملوا جاهدين على طمس ومحو آثاره في العباد والبلاد ؛ لأنهم يخافون من هذا القرآن ويعرفون عظيم أثره في الأمة حين تحيا به .

اسمعوا إلى هذه القصة في السيرة النبوية : روى ابن إسحاق قال : « حدثني محمد بن مسلم بن شهاب الزهري ، أنه حَدَّثَ أن أبا سفيان بن حرب وأبا جهل بن هشام والأخنس بن شريق . . . خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله ﷺ وهو يصلي من الليل في بيته ، فأخذ كل رجل منهم مجلساً يستمع فيه ، وكل لا يعلم بمكان صاحبه ، فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا ، فجمعهم الطريق فتلاوموا ، وقال بعضهم لبعض : لا تعودوا فلو رآكم بعض سفهائكم لا وقعتم في نفسه شيئاً ،

(١) سورة الفرقان ، الأيتان : ٣٢ ، ٣٣ .

(٢) سورة الفرقان ، الآيات : ٥٠ - ٥٢ .

(٣) سورة فصلت ، الآية : ٢٦ .

(٤) سورة الفرقان ، الآية : ٥٢ .

ثم انصرفوا، حتى إذا كانت الليلة الثانية عاد كل رجل منهم إلى مجلسه فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا فجمعهم الطريق، فقال بعضهم لبعض ما قالوا أول مرة، ثم انصرفوا، حتى إذا كانت الليلة الثالثة أخذ كل رجل منهم مجلسه فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا فجمعهم الطريق، فقال بعضهم لبعض: لا نبرح حتى نتعاهد ألا نعود، فتعاهدوا على ذلك، ثم تفرقوا.

فلما أصبح الأحنس بن شريق أخذ عصاه، ثم خرج حتى أتى أبا سفيان في بيته، فقال: أخبرني يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد؟، فقال: يا أبا ثعلبة! والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يُراد بها، وسمعت أشياء ما عرفت معناها. قال الأحنس: وأنا والذي حلفت به. قال: ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل فدخل عليه بيته فقال: يا أبا الحكم! ما رأيك فيما سمعت من محمد؟ فقال: ماذا سمعت؟ تنازعنا نحو بنو عبد مناف الشرف، أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تجاثنا على الركب وكنا كفرسي رهان قالوا: منا نبي يأتيه الوحي من السماء فمتى ندرك مثل هذه، والله لا نؤمن به أبداً ولا نصدقه» (١).

لقد كان هؤلاء الصناديد يغالبون أنفسهم أن تهفوا إلى هذا القرآن فتغلبهم حتى تعاهدوا على عدم العودة إليه . . . !!!

وكفار اليوم أدركوا هذه الحقيقة العظيمة:

ففيهم من يحفظ القرآن وهو كافر.

وفيهم من يعني بدراسات القرآن.

وهم أيضاً - في نفس الوقت - يحذرون من هذا القرآن. ويعملون جاهدين على

صرف أمة الإسلام عنه. وقد صرّحوا بذلك في عدد من المناسبات!!!

\* \* \*

## كيف نحيا بالقرآن؟ (١)

- ٢ -

ثالثاً: أن حقائق القرآن لا تتغير؛ لأنه كلام الله تعالى، يقول تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١١٥) وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مِنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (١١٦)﴾ (٢).

ويقول تعالى مبيناً أن العقاب والنصر لرسول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّىٰ أَنَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَأِ الْمُرْسَلِينَ (٣٤)﴾ (٣).

ويقول تعالى مبيناً اطلاعه تعالى وشهوده لجميع أعمال العباد ومنها قراءتهم وتلاوتهم للقرآن، ثم مبيناً أن أولياء الله لهم الأمن والبشرى في الدنيا والآخرة: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (٦١) أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٦٣) لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٦٤)﴾ (٣).

ويأمر الله رسوله ﷺ بتلاوة القرآن، فيقول: ﴿وَأْتْلُ مَا أُوْحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا (٢٧)﴾ (٤). والمعنى: اتبع القرآن فإنه لا مبدل لكلمات الله ولا خلف فيها، ولن تجد إن عرضت عن اتباع القرآن وخالفته، ملتحداً أي: ملجأ تلجأ إليه وتميل.

فكلمات الله الشرعية لا تبديل فيها، كما أن كلمات الله الكونية واقعة ولا تغيير فيها، ولا يملك أحد لها تحويلاً أو تغييراً أو تبديلاً.

ولقد كان من ضمن آيات الله التي لا تبديل فيها قوله تعالى عن اليهود:

(١) الجمعة ١٧/٦/١٤١٦ هـ.

(٢) سورة الانعام، الآيتان: ١١٥، ١١٦.

(٣) سورة يونس، الآيات: ٦١ - ٦٤.

(٤) سورة الكهف، الآية: ٢٧.

﴿لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرَى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسِبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾ (١٤) ﴿١﴾. ويقول تعالى: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ أَيْنَ مَا تُثْقَفُوا إِلَّا يُحِبِّلَ مِنَ اللَّهِ وَحِبِّلَ مِنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ...﴾ (٢).

وجاءت أحداث هذا الأسبوع<sup>(٣)</sup> لتؤكد هذه الحقيقة القرآنية ولا مبدل للكلمات الله .

وإننا لنقدم هذه النصيحة لجميع المسلمين ونقول لهم: اقرؤوا القرآن وتدبروا معانيه وأحضروا قلوبكم وافتحوا له صدوركم .

تدبروه وأنتم على يقين أن هذا القرآن :

١ - نور: ينير القلب والفؤاد، وينير للعبد حياته في أفراحها وأحزانها، وينير للأمة سيرتها: ﴿... قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ \* يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (٤).

٢ - وعلى أنه فرقان: يفرق به بين الحق والباطل، الحق كل الحق، والباطل كل الباطل، وينير للإنسان طريقه حين تشبه الطرق في وقت الفتن، قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ (٥).

٣ - ويتلى ويتدبر على أنه برهان: قامت به الحجة على العباد، وهو برهان واضح في دلالته وحقائقه . قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا﴾ (١٧٤) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ (١٧٥) ﴿٦﴾.

٤ - وتتلوه على أنه بصائر للناس تهدي القلوب الحية اللينة الخاشعة، ﴿أَفَسَمَنَ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ

(١) سورة الحشر، الآية: ١٤ . (٢) سورة آل عمران، الآية: ١١٢ .

(٣) في يوم السبت ١١/٦/١٤١٦ هـ اغتيل إسحاق رابين رئيس الوزراء اليهودي على يد أحد اليهود المعارضين للسلام، وكان ذلك أمام الناس خلال مظاهرة وحفل كبير من أجل السلام .

(٤) سورة المائدة، الآيتان: ١٥، ١٦ . (٥) سورة الفرقان، الآية: ١

(٦) سورة النساء، الآيتان: ١٧٤، ١٧٥ .

مُبِين (٢٢) اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِي تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾ (١)

والقرآن بصائر في جميع الأوقات واختلاف الأحوال . قال تعالى : ﴿ قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ﴾ (١٠٤) ﴿٢﴾ .

وقال تعالى : ﴿ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (٢٠٣) ﴿٣﴾ .

وقال تعالى في باب الشريعة وكمالها ووجوب تحكيمها : ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (١٨) إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ (١٩) هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾ ﴿٤﴾ .

٥ - وتلوه على أنه شفاء لما في الصدور، ولذا فهو موعظة تشفي الصدور من وساوسها وشكوكها وأمراضها : ﴿ وَنَزَّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ (٨٦) ﴿٥﴾ . والآية التي قبلها مباشرة : ﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ (٨١) ﴿٦﴾ .

وهذا الشفاء يمتد من الفرد إلى الأمة في أمراضها الاجتماعية والنفسية وغيرها . ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٥٧) ﴿٧﴾ .

٦ - وتلوه على أنه كلام الله تعالى، تكلم به الذي خلق السموات والأرض وكل شيء، يسبح له ما في السموات والأرض، ويسجد له من في السموات والأرض والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس . تكلم به من بيده ملكوت كل

- |                                   |                                      |
|-----------------------------------|--------------------------------------|
| (١) سورة الزمر، الآيتان: ٢٢، ٢٣ . | (٢) سورة الأنعام، الآية: ١٠٤ .       |
| (٣) سورة الأعراف، الآية: ٢٠٣ .    | (٤) سورة الحائثية، الآيات: ١٨ - ٢٠ . |
| (٥) سورة الإسراء، الآية: ٨٢ .     | (٦) سورة الإسراء، الآية: ٨١ .        |
| (٧) سورة يونس، الآية: ٥٧ .        |                                      |

شيء، تكلم به من إذا أراد شيئاً فإنما يقول له كن فيكون . تكلم به من قلوب العباد بين أصبعين من أصابعه يقلبها كيف يشاء . تكلم به الملك الجبار العزيز الحكيم ، القوي المتين ، أخذ عاداً لما كفروا بالريح العقيم ، وأخذ ثمود بالصيحة لما كفروا وتجبروا . وأغرق فرعون والناس ينظرون . وخسف بقارون وهو في زنته ومن حوله لا يكادرون يصدقون .

تكلم به الذي أخذ طواغيت قريش في بدر فرماهم ﷺ في القلب (١) ، وخاطبهم بوعد الله الحق الذي لا شك فيه وأنه وجده .

تكلم به الذي رد الأحزاب وقد تحزبوا وتجمعوا في جيوش جرارة ، فأنزل عليهم ريحاً وجنوداً لم يرها الناس ، فكان نصر الله لعباده المؤمنين .

تكلم به الذي أنزل اليهود من صياصيهم وحصونهم : ﴿ ... مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ ... ﴾ (٢) .

تكلم به الذي نصر المؤمنين الصادقين في القادسية ، واليرموك ، وعين جالوت ، وحطين . فكانت آيات وعبراً للمعتبرين .

نعم ، نلوه على أنه كلام الله ملك الملوك ومالك الملك ، جميع الخلق فقراء إليه : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ (٣) .

رابعاً : كيف عاش الصحابة مع القرآن ؟

سنعرض - إن شاء الله - لنماذج عن السلف وكيف كانوا يحيون بالقرآن ؟ .

وأبدأ بالصحابة الذين عاشوا وشاهدوا التنزيل مع من نزل عليه القرآن محمد

ﷺ : كيف كانوا يتلقونه ؟ وكيف كانوا يؤمنون ويصدقون ويعملون به ؟

وأرجو أن لا يعجل أحد منكم فيقول : إن الصحابة عاشوا مع القرآن وهو ينزل

على حسب الأحداث التي عاشوها ورأوها . فكيف يمكن أخذ العبرة من أحوالهم

ومواقفهم ؟

وجواباً على ذلك نقول : كيف كانت حال رسول الله ﷺ وأصحابه في الفترة

(٢) سورة الحشر، الآية : ٢ .

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٥٢٠) .

(٣) سورة فاطر، الآية : ١٥ .

المكيّة التي نزل فيها كثير من القرآن، بل وشطراً كبيراً من العهد المدني حيث الحروب والغزوات وتحزّب الأحزاب على المسلمين؟

لقد عاش رسول الله ﷺ ثلاثة عشر عاماً في مكة «سنوات كلها إعراض من قومه عن الاستماع لهذا القرآن، وصد لغيرهم عن الإصغاء له، واضطهاد وتعذيب لتلك الفئة القليلة التي آمنت به، ثم مقاطعة له ولعشيرته ومحاصرتهم مدة غير يسيرة في شعب من شعاب مكة، ثم مؤامرات سرية أو علنية على قتله أو نفيه»<sup>(١)</sup>. أو أسره. وفيما بين ذلك هجرة طويلة شاقة إلى الحبشة من جانب بعض أصحابه، ورحلة دامية إلى الطائف، ووصف له بأبشع الصفات: مجنون، ساحر، كاهن، كذاب، شاعر، صابئ، مفرق للأمة... إلخ. وأصحابه - معه - يعانون ما يعانون!!!

في هذه الأجواء، وهم بعد لا يعلمون ماذا في غيب الله المكنون<sup>(٢)</sup>. تنزلت على رسول الله ﷺ وعلى أصحابه السور والآيات المكيّة، تحمل حقائق التوحيد والألوهية، وقصص الأنبياء، ووعد الله بنصر عباده المؤمنين، فكيف كانوا يستقبلون ويتلون هذه الآيات والسور وهم في تلك الأحوال مستضعفين مطاردين من جانب الكفار وأعدائهم؟

في تلك الأجواء والمضايقات والمطاردات في مكة، كيف كان الرسول وأصحابه يستقبلون سورة الأنعام المكيّة، كيف كانوا يستقبلون قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلْمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهَدْيِ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٣٥)﴾ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾ (٣).

وقوله تعالى من نفس السورة: ﴿وَكَذَلِكَ نَفْصِلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ﴾ (٤).

(١) النبا العظيم، دراز (٣٤-٣٥)، ط. السعادة ١٣٨٩هـ-١٩٦٩م.

(٢) حتى الرسول ﷺ كان لا يأمن على نفسه من القتل، ولذا كان له من يحرسه إبان المعارك ونحوها. فلما نزل قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [سورة... الآية: ]، أمر بترك الحراسة.

(٣) سورة الأنعام، الآيتان: ٣٥، ٣٦. (٤) سورة الأنعام، الآية: ٥٥.

كيف تلقوا قوله تعالى فيها: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْبَرًا مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ (١).

... وغيرها من الآيات في هذه السورة العظيمة - سورة الأنعام -.

كيف تلقى المسلمون مثل هذه الآيات في سورة الأعراف المكيّة: ﴿إِنَّ وَلِيِّ اللَّهِ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ (١٩٦) وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ﴾ (١٩٧)﴾ (٢).

كيف تلقى الرسول والمسلمون معه قوله تعالى في سورة يونس المكيّة: ﴿وَأَمَّا نُرَيْتِكَ بَعْضَ الَّذِي نَعْدُهُمْ أَوْ تُتَوَقَّئِكَ فَأَلَيْنَا مَرْجِعَهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ﴾ (٣). وقوله: ﴿وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقُّ هُوَ قَوْلِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ (٤). وقوله في هذه السورة: ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شكٍ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يُقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ (٩٤) وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونُوا مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (٩٥) إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (٩٦) وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ (٩٧)﴾ (٥).

فينبغي أن نستحضر أن هذه نزلت في مكة وأحوال المسلمين فيها ما تعلمون واسمعوا إلى قوله تعالى في هذه السورة (يونس): ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرَهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (٩٩) وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرَّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ (١٠٠) قُلْ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتِ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (١٠١) فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ فانتظروا إني معكم مِنَ الْمُنتَظِرِينَ﴾ (١٠٢) ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نَحْمُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٠٣)﴾ (٦).

كيف تلقوا هذا الوعد الصادق وهم مطاردون في مكة؟!

كيف سمع وتلقى الصحابة هذه الآيات في سورة هود المكيّة: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْفَرَا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (١١٢) وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَمَا تَمْسِكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ (١١٣) وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفَا مِنْ اللَّيْلِ إِنَّ

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٢٣ .

(٢) سورة يونس، الآية: ٤٦ .

(٣) سورة يونس، الآيات: ٩٤ - ٩٧ .

(٢) سورة الأعراف، الآيات: ١٩٦ ، ١٩٧ .

(٢) سورة يونس، الآية: ٥٣ .

(٤) سورة يونس، الآيات: ٩٩ - ١٠٣ .

الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذَكَرْتِ لِلذَّاكِرِينَ ﴿١١٤﴾ وَأَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾ ﴿١﴾. ثم قوله تعالى في آخر السورة: ﴿وَكَلَّا نَقْصُ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُنَبِّئُ بِهِ قُلُودَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَانظُرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾ وَاللَّهُ غَيبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأُمُورُ كُلُّهَا فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾﴾ (٢).

كيف تلقى وسمع الصحابة قصة يوسف - عليه السلام - وقوله تعالى في آخرها: ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَأَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كَذَّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مِنْ نَشَاءٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ (٣). وهي سورة مكية أيضاً.

كيف تلقوا قوله تعالى في سورة إبراهيم المكيّة: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾﴾ (٤). ثم قال: ﴿يُنَبِّئُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ (٤). ثم يقول في أواخر السورة: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ (٥). ثم يقول عن الكفار: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخَلَّفًا وَعَدِيدَهُ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ﴾ (٦).

كيف تلقوا - وهم في مكة مستضعفون - قوله تعالى في سورة الحجر المكيّة: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَابِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ ﴿٨٩﴾﴾ (٧). ثم يقول: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴿٩٥﴾ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾ (٨).

كيف تلقوا قوله تعالى في سورة النحل المكيّة: ﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَآتَى اللَّهُ

- |                                  |                                   |
|----------------------------------|-----------------------------------|
| (١) سورة هود، الآيات: ١١٢ - ١١٥. | (٢) سورة هود، الآيات: ١٢٠ - ١٢٣.  |
| (٣) سورة يوسف، الآية: ١١٠.       | (٤) سورة إبراهيم، الآيات: ٢٤، ٢٥. |
| (٥) سورة إبراهيم، الآية: ٢٧.     | (٦) سورة إبراهيم، الآية: ٤٢.      |
| (٧) سورة الحجر، الآيات: ٨٧ - ٨٩. | (٨) سورة الحجر، الآيات: ٩٤ - ٩٩.  |

بَيَانُهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١﴾ .  
 وقوله : ﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنَبُوْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَآجِرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ  
 كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ (٤١) الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾ ﴿٢﴾ . وقوله في آخر السورة :  
 ﴿ وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ ﴾ (١٢٧) إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ  
 اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾ ﴿٣﴾ .

كيف تلقى المسلمون في مكة سورة الإسراء كلها بكاملها - واقروها وتدبروها -  
 . وقفوا مع قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذَا  
 لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴾ (٧٦) وَلَوْلَا أَنْ تَبَيَّنَّاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذَا لَأَذْنُكَ ضَعْفُ  
 الْحَيَاةِ وَضَعْفُ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ  
 لَيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبِثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سَنَةٌ مِنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ  
 لِنُسُتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾ ﴿٤﴾ .

كيف تلقوا وهم في مكة هذه السور المكية : الكهف ، مريم ، طه ، الأنبياء ،  
 المؤمنون ، الفرقان ، الشعراء ، النمل ، القصص ، العنكبوت ، الروم ، لقمان ،  
 السجدة ، سبأ ، فاطر ، يس ، الصافات ، ص ، الزمر ، غافر ، فصلت ، الشورى ،  
 الزخرف ، الدخان ، الجاثية ، الأحقاف ، ق ، الذاريات ، الطور ، النجم ، القمر ،  
 الواقعة (وغالب سور القرآن المتبقية) ؟ ، إننا مطالبون اليوم ونحن نعيش أحوالنا  
 وهزائمنا - أن نتلقاها بإيمان وصدق كما تلقوا .

\* \* \*

(٢) سورة النحل ، الآيات : ٤١ ، ٤٢ .

(٤) سورة الإسراء ، الآيات : ٧٣ - ٧٧ .

(١) سورة النحل ، الآية : ٢٦ .

(٣) سورة النحل ، الآية : ١٢٨ .

## كيف نحيا بالقرآن؟ (١)

- ٤ -

## خامساً: كيف كان السلف يحيون بالقرآن؟

●● ثقتهم بالقرآن ، وبوعد الله تعالى في القرآن ، وأخذهم ما جاء في القرآن على أنه حقائق مسلّمة ، ينتظر حصولها ووقوعها حسب وعد الله في الدنيا أو في الآخرة : وتعال إلى هذه النماذج :

أ- كان المسلمون في مكة - قبل الهجرة - مستضعفين ، وكان من ضمن حرب المشركين للمسلمين أن المشركين كانوا يجادلون المسلمين ويقولون لهم : إن الروم أهل كتاب وقد غلبتهم المجوس ، وأنتم تزعمون أنكم ستغلبوننا بالكتاب الذي أنزل إليكم كما غلبت فارس الروم ، فنزلت الآيات : ﴿ أَلَمْ يَكُنْ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (٣) فِي بَضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلِ وَمَنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (٤) بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٥) وَعَدَّ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٦) يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ (٧) ﴾ (١) .

فقد تلقى الصحابة هذه الآيات على أنها وعد صادق لا شك فيه أبداً - مع أحوالهم في مكة من ضعف وتشريد وطرده - ومع - أيضاً - أن الإخبار بهذا النصر ويأنه كائن في وقت معين إخبار بأمرين كل منهما خرج عن متناول الظنون ، وذلك أن دولة الروم كانت قد بلغت من الضعف حداً يكفي من دلائله أنها غزيت في عقر دارها وهزمت في بلادها كما قال تعالى : ﴿ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ ﴾ . فلم يكن أحد يظن أنها تقوم لها بعد ذلك قائمة ، فضلاً عن أن يحدد الوقت الذي سيكون لها فيه النصر - وهم أقل من عشر سنين ؛ لأن البضع ما بين الثلاث إلى التسع - . ولذلك كذّب به المشركون وتراهنوا على تكذيبه - كما هو معروف من قصة أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - معهم - . ومع هذا ، فإن الله تعالى عزز هذا بوعد آخر يتعلق بالمسلمين

(٢) سورة الروم ، الآيات : ١ - ٧ .

(١) الجمعة ١٤١٦/٦/٢٤هـ .

أنفسهم فقال: ﴿ وَيَوْمَئِذٍ يُفْرِحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ (٤) بِنَصْرِ اللَّهِ... ﴿ (١). إشارة إلى أن اليوم الذي يكون فيه النصر هناك للروم على الفرس سيقع فيه ها هنا نصر للمسلمين على المشركين. وإذا كان كل واحد من النصرين في حد ذاته مستبعداً عند الناس - في ذلك الوقت - أشد الاستبعاد فكيف الظن بوقوعهما مقترنين في يوم؟ وقد أكدته تعالى أعظم التأكيد بقوله: ﴿ وَعَدَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنْ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٢).

ولقد بلغ من يقين الصحابة بهذا الوعد أن أبا بكر الصديق - رضي الله عنه - كما روى الترمذي - لما نزلت هذه الآيات - خرج يصيح في نواحي مكة: ﴿ أَلَمْ تَغْلِبِ الرُّومَ ﴾ (٢) فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلِبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿ (٣) فِي بَضْعِ سِنِينَ ﴾ (٣). فقال ناس من قريش لأبي بكر الصديق - رضي الله عنه - : فذلك بيننا وبينكم، زعم صاحبك أن الروم ستغلب فارس في بضع سنين أفلا تراهنك على ذلك؟ قال: بلى، وتراهنوا... (٤).

ولقد صدق الله وعده، حيث تمت للروم الغلبة على الفرس - بإجماع المؤرخين - في أقل من تسع سنين، وليس كذلك فقط، بل كان يوم نصرها هو اليوم الذي وقع فيه النصر للمسلمين على المشركين في غزوة بدر الكبرى، كما روى ذلك الترمذي عن أبي سعيد (٥) (٦).

وهذه الحادثة من المعجزات ودلائل نبوته ﷺ، ولكن كيف عاش الصحابة مع هذا الوعد من الله تعالى وهم مستضعفون؟ إنه نموذج لعيش الصحابة مع القرآن. وهكذا يجب أن يعيش المسلمون إذا أرادوا أن يحيوا بالقرآن حياة حقيقية.

ب - مثال آخر: في عام الحديبية منع المسلمون من دخول مكة، وكان الاتفاق وعقد الصلح، وكان من بنوده: أن يعمر الرسول ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم في العام القبل، واشترطت قريش على المسلمين أن يدخلوا مكة عزلاً من كل سلاح إلا السيوف في القرب. فكيف يثق المسلمون بوفاء المشركين بعقدهم وقد بلوا منهم

(١) سورة الروم، الآيتان: ٤، ٥.

(٢) سورة الروم، الآية: ٦.

(٣) سورة الروم، الآيات: ١ - ٣.

(٤) رواه الترمذي (٣١٩١، ٣١٩٢).

(٥) انظر: النبأ العظيم (٤١)، ط. السعادة.

(٦) رواه الترمذي (٢٩٣٦) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

نقض العهود وقطع الأرحام وانتهاك شعائر الله؟ والصدّ عن سبيل الله والصدّ عن المسجد الحرام؟ وهل سيصدقون في تمكينهم من الدخول إلى مكة لعمره القضاء، ولو صدقوا في تمكينهم من الدخول، فكيف يأمن المسلمون من جانبهم إذا دخلوا ديارهم مجردين من دروعهم وقوتهم؟ ألا يمكن أن تكون هذه مكيدة يُراد منها استدراجهم إلى الفخ، وعلامة ذلك اشتراط تجردهم من السلاح إلا السيوف في القرب، وهو سلاح لا يصد الرمي بالسهام والنبال من بعد؟

إن المسلمين لم يخافوا من ذلك كله؛ لأن وعد الله الصادق قد جاء قبل ذلك بقوله تعالى: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ (١). فكان وعداً بثلاثة أمور: الدخول، والأمن، وقضاء الشعيرة. وقد تحقق ذلك كله لرسول الله ﷺ ولأصحابه كما هو معلوم. والحديث في الصحيحين (٢).

ج- ونموذج آخر:

فقد كان الله تعالى يقصّ في القرآن على المسلمين من أنباء الرسل ما يثبت أفئدتهم، ويعدّهم الأمن والنصر الذي كان لمن قبلهم:

﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣)﴾ (٣).

﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ (٤).

فلما هاجروا إلى المدينة فراراً بدينهم من الفتن ظنّوا أنهم قد وجدوا مأمنهم في مهاجرهم، ولكنهم ما لبثوا أن هاجمتهم الأعداء، فخاضوا الحروب المسلحة من كل جانب، فانقلبوا من خوف إلى خوف، وأصبحت أمنيّتهم أن يجيء يوم يسود فيه الأمن ويضعون أسلحتهم، وفي هذا الوقت يعدّهم الله في القرآن بما سيحصل لهم من النصر والأمن والاطمئنان.

يقول تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا

(١) سورة الفتح، الآية: ٢٧.

(٢) انظر: النبا العظيم (٤٠ - ٤١).

(٣) سورة الصافات، الآيات: ١٧١ - ١٧٣.

(٤) سورة غافر، الآية: ٥١.

اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١﴾ .

روى الحاكم - وصححه - عن أبي بن كعب قال: لما قدم رسول الله ﷺ وأصحابه المدينة وأوتهم الأنصار، رمتهم العرب عن قوس واحدة، وكانوا لا يبيتون إلا بالسلاح، ولا يصبحون إلا فيه. فقالوا: أترون أنا نعيش حتى نبيت آمنين مطمئنين لا نخاف إلا الله؟ فنزلت هذه الآية. ورؤي عن البراء - رضي الله عنه - قال: نزلت هذه الآية ونحن في خوف شديد (٢).

فكيف عاش الصحابة مع هذا الوعد الرباني المشروط بعبادة الله وحده لا شريك له. لقد تلقوه بالتصديق فحققوا الشروط، فحقق الله لهم الوعد فبدلوا في وقت قصير من بعد خوفهم أمناً واستخلفوا في مشارق الأرض ومغاربها، وكان ذلك في وقت قصير من السنين.

ولقد كان الصحابة - لحبهم لهذا القرآن، ولثقتهم بما فيه - يتلونه ويتعلمونه، فكانوا وهم في ساحات الجهاد يحيون ليايهم بالقرآن.

سادساً: كانت وصايا السلف بهذا القرآن والتزامه وتلاوته والعمل دروساً لمن جاء بعدهم، فهم قالوا وعملوا، فلم تخالف أفعالهم أقوالهم، واسمعوا إلى بعض كلماتهم ووصاياهم وزواجهم حول القرآن:

١ - قال عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - : « لا يسأل عبد عن نفسه إلا القرآن ، فإن كان يحب القرآن فإنه يحب الله ورسوله ، وإن كان يبغض القرآن فهم ويبغض الله ورسوله » .

٢ - ويقول حذيفة بن اليمان - رضي الله عنهما - الخبير بالفتن ومواقعها - : يا معشر القراء استقيموا فقد سبقتم سبقاً بعيداً ، وإن أخذتم يميناً وشمالاً لقد ضللتهم ضلالاً بعيداً (٣) .

(١) سورة النور، الآية: ٥٥ .

(٢) انظر: النبأ العظيم، دراز (٣٩-٤٠)، والخبر رواه الحاكم (٤٠١/٢) رقم (٥٣١٢) وصححه ووافقه

(٣) انظر: جامع الاصول (٤٧١/٢) .

الذهبي .

٣- ولما كان أبو موسى الأشعري أميراً على البصرة بعث إلى قراء أهل البصرة، فدخل عليه ثلاثمائة رجل قد قرأوا القرآن، فقال: أنتم خيار أهل البصرة وقراؤهم، فاتلوه، ولا يطولنَّ عليكم الأمد فتفسو قلوبكم كما قست قلوب من كان قبلكم.

٤- وقال عمر- رضي الله عنه-: «يا معشر القراء! ارفعوا رؤوسكم فقد وضح لكم الطريق فاستبقوا الخيرات».

٥- وكثيراً ما أوصى السلف بالعمل بالقرآن الذي هو دليل الإيمان؛ فهذا عبد الله بن عمر بن الخطاب- رضي الله عنهما- كان يقول: لقد عشنا دهرأ طويلاً وأحدنا يؤتى الإيمان قبل القرآن، فتنزل السورة على محمد ﷺ يتعلم حلالها وحرامها وأمرها وزاجرها، وما ينبغي أن يقف عنده منها، ثم لقد رأيت رجلاً يؤتى أحدهم القرآن قبل الإيمان، فيقرأ ما بين فاتحته إلى خاتمته، لا يدري ما آخره ولا زاجره وما ينبغي أن يقف عنده ينثره نثر الدقل».

٦- وقال أبو هريرة- رضي الله عنه-: «البيت الذي يتلى فيه كتاب الله كثر خيره وحضرته الملائكة وخرجت منه الشياطين، والبيت الذي لا يتلى فيه كتاب الله ضاق بأهله وقل خيره وحضرته الشياطين وخرجت منه الملائكة».

٧- وقال عبد الله بن عمرو بن العاص- رضي الله عنهما-: «من قرأ القرآن فقد أدرجت النبوة بين جنبيه إلا أنه لا يُوحى إليه، ومن قرأ القرآن فرأى أحداً من خلق الله أعطى أفضل مما أعطى فقد حفز ما عظم الله وعظم ما حقر الله، وليس ينبغي لحامل القرآن أن يجهل فيمن يجهل ولا يحيد فيمن يحيد ولكن يعفو ويصفح»<sup>(١)</sup>.

٨- وجلس أبو عبد الرحمن السلمي- التابعي- سبعين سنة يعلم الناس القرآن. ومثله كثير في كل زمن أفنوا أعمارهم في تعليم القرآن.

٩- وفسر مجاهد قوله تعالى: ﴿يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾<sup>(٢)</sup>. بأنه: يعملون به حق العمل. وهذا هو الغاية من تلاوة القرآن، أن يعمل به صاحبه.

(١) انظر: الزهد لابن المبارك ص(٢٧٥). ورقمه ٧٩٩

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٢١.

## كيف نحيا بالقرآن؟ (١)

- ٥ -

هذا نموذج لسلفنا الصالح - رحمهم الله تعالى - وحياتهم بالقرآن، ومع القرآن .  
واسمحوا - إذا أطلت - في عرض هذه السلسلة من الدروس حول القرآن، فإن  
هذه المسألة - أعني أهمية عودة الأمة إلى كتابها الكريم لتحيا به - ليست مسألة سهلة ،  
وإنما هي مسألة حياة أو موت : حياة في ظل هذا القرآن علماً وعملاً أو موت  
بالإعراض عنه واتخاذ مهجوراً .

هذا أحد أعلام التابعين ، كان مشركاً كافراً من بلاد فارس، ثم وقع أسيراً في  
إحدى معارك الإسلام زمن الصحابة - رضي الله عنهم - فأسلم وتعلق قلبه بالقرآن .  
يقول - مفصلاً قصته الطويلة العجيبة - :

«وقعتُ أنا ونفر من قومي أسارى في أيدي المجاهدين، ثم ما لبثنا أن غدونا  
مملوكين لطائفة من المسلمين في البصرة. فلم يمض علينا وقت طويل حتى آمنّا بالله  
وتعلقنا بحفظ كتاب الله .

وهكذا كان سلفنا من الصحابة ومن بعدهم ، كانت بيوتهم عامرة بالإسلام  
والقرآن، وكان كل من عاش معهم تأثر بهم وبأخلاقهم ومعاملاتهم ، وحياتهم  
الطيبة المعمورة بالقرآن الكريم وسنة الرسول ﷺ ، فكانوا دعاء إلى الله تعالى  
بأقوالهم وأفعالهم، ولذلك كان كثير من المشركين وأهل الذمة لا يمضي عليهم وقت  
حتى يدخلوا في الإسلام .

يقول هذا التابعي - بعد أن ذكر إسلامه وتعلقه بالقرآن وهو عبد مملوك : «وكان  
منا من يؤدي الضرائب للملكيه، ومنا من يقوم على خدمتهم ، وكنت واحداً من  
هؤلاء ، فكنا نختم القرآن كل ليلة مرة، فشق ذلك علينا، فجعلنا نختمه مرة كل  
ليلتين فشق ذلك علينا، فجعلنا نختمه كل ثلاث ، فشق علينا لما كنا نعانيه من جهد  
في النهار وسهر في الليل . فلقينا بعض أصحاب الرسول ﷺ وشكونا لهم ما نكابده  
من السهر وقراءة كتاب الله ، مع قيامنا بخدمة موالينا . فقالوا لنا : اختموا كل جمعة

مرة فأخذنا بما أرشدونا إليه، فجعلنا نقرأ القرآن طرفاً من الليل وننام طرفاً، فلم يشق ذلك علينا.

وآل أمره إلى امرأة من بني تميم، وكانت سيدة فاضلة مؤمنة، فكانت لا تشق عليه في الخدمة، حيث كان يخدمها بعض النهار ويرتاح في بعضه الآخر، فتعلم مع حفظ القرآن - القراءة والكتابة، وطلب العلم، وعلني رأسه بعد القرآن - حديث رسول الله ﷺ. ولما ذهب في أحد أيام الجمع لصلاة الجمعة خرجت معه وقالت أمام الناس: اشهدوا يا معشر المسلمين أنني اعتقت غلامي هذا رغبة في ثواب الله وطمعاً بعفوه، وليس لأحد عليه من سبيل إلا سبيل المعروف، ثم نظرت إليه وقالت: اللهم إني أدخره عندك ليوم لا ينفع فيه مال ولا بنون.

فمن هو هذا الإمام الذي قال عن نفسه: تعلمت الكتابة والقرآن فما شعربي أهلي، ولا رُئي في ثوبي مداد قط؟ إنه أبو العالية، رُفيع بن مهران، الإمام المقرئ الحافظ المفسر، الرياحي البصري، أحد أعلام التابعين. أدرك زمن النبي ﷺ وأسلم في خلافة أبي بكر الصديق، ودخل عليه، وسمع من عدد من الصحابة منهم عمر، وعلي، وأبي، وأبو ذر، وابن مسعود، وابن عباس... وغيرهم كثير. وقرأ القرآن على أبي بن كعب وابن عباس، بل وعلى عمر بن الخطاب، فقد روي عنه أنه قال: قرأت القرآن على عمر - رضي الله عنه - ثلاث مرات. ومع حفظ القرآن وقراءته كان علماً من أعلام الحديث.

ولقد رفعه الله بالقرآن وبالعلم بحديث رسول الله ﷺ: فقد دخل مرة على ابن عباس - رضي الله عنهما - وهو أمير البصرة لعلي - رضي الله عنه - فرحب به ورفع منزلته وأجلسه على سريرته عن يمينه، وكان في المجلس طائفة من سادة قريش، فتغامزوا به وتهامسوا بينهم، وقال بعضهم لبعض: أرايتم كيف رفع ابن عباس هذا العبد على سريرته؟ فأدرك ابن عباس ما يتغامزون به فالتفت إليهم وقال: إن العلم يزيد الشريف شرفاً، ويرفع قدر أهله بين الناس، ويُجلس المماليك على الأسرة. وقد رفع الله أبا العالية بالقرآن حتى قال أبو بكر بن أبي داود: ليس أحد بعد الصحابة أعلم بالقرآن من أبي العالية وسعيد بن جبير.

وتعالوا نقف مع بعض وصايا أبي العالية وأحواله مع القرآن:

١ - كان فعلم أءصءابه كيف ففءلمون القرآن؁ ففء روف عنه أبو نفعم أنه كان فقول: فءلموا القرآن ءمس آفآ؁ ففانه أءفظ لكم وإن ءبرفل كان فنزل به ءمس آفآ ءمس آفآ. وهذا منهء فءلمف فربوف.

٢ - وكان مهفماً بالصلاة وإقامفها؛ لأنها عمود الإسلام؁ فكان فزن الناس بها؁ ففء روف عنه أن قال: «كنت أرءل إلى الرءل مسفرة آفام لأسمع منه؁ فأفءفء صلافه؁ فإن ءءفه فءسنها أقمف ءله - وسمءف الءءفث منه وء العلم - وإن أءءه ففضعها؁ رءل ف ولم أسمع منه؁ وقلت: هو لما سواها أضع» (١).

وإن الصلاة لمفزان صءفء وءقفق للرجال؁ وكم من رءل فقال ما أءقله وما أءكاه ورفرها من صفاء المءء؁ ثم ففءش عنه ففءءه لا فءرف المساءء.

٤ - ولقء أوصى بلزوم القرآن فءءاهءه؁ ونهف فف مقابف ذلك عن الأهواء والبءء. روف عنه أنه قال: «فءلموا القرآن فإءا فءلمفموه فلا فربوا عنه؁ وإفكم وهذه الأهواء ففانها فوفع العءاوء والبءضاء بفنكم؁ ولا فءفءوا عن الأمر الءف كان ءله صءابة رسول الله ﷺ؁ ولما نقل هذا للءسن البصري؁ قال: «لقء نصءكم أبو العالفة - والله - وصدقم».

٥ - وكان فعلم أءصءابه ءقائف القرآن فف ءوابء الءفة وسعاءفها؁ ففء روف عنه أنه قال:

«إن الله فءالف فضى ءلى نفسه أن من آمن به هءاه؁ ففءفء ذلك فف ءتاب الله: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ﴾ (٢). وأن من فوكل ءله ءفاه؁ ففءفء ذلك فف ءتاب الله: ﴿وَمَنْ ففوكل ءلى الله فهو ءسبه﴾ (٣). وأن من أقرضه ءازاه؁ ففءفء ذلك فف ءتاب الله: ﴿مَنْ ذَا الءف ففقرض الله قرضاً ءسناً ففضاعفه له أضعافاً ءففة﴾ (٤). وأن من اسفءءار من عءابه أءاره؁ ففءفء ذلك فف ءتاب الله: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ ءمبعم﴾ (٥). وأن من ءعاه أءابه؁ ففءفء ذلك فف ءتاب الله: ﴿وَإِذا سألء عباءف ءنف ففإنف فرفبب أءفب ءءوة الءاع إذا ءعان﴾ (٦).

٦ - وكان إماماً مءاهءاً؁ ءارب الروم فف بلاد الشام؁ كما ءارب الفرس فف

(١) رواه أبو نفعم فف الءفة (٢/٢٢٠)؁ وذكروه الذهبف فف السفر (٢٠٩).

(٢) سورة الفءابن؁ الآفة: ١١. (٣) سورة الفءلاق؁ الآفة: ٣.

(٤) سورة البقرة؁ الآفة: ٢٤٥. (٥) سورة آل عمران؁ الآفة: ١٠٣.

(٦) سورة البقرة؁ الآفة: ١٨٦.

بلاد ما وراء النهر، وكان أول من رفع الأذان في تلك الديار - بعد فتحها - .

ولما أراد في إحدى السنين المسير للجهاد في سبيل الله وأعد عدته للجهاد، إذا به يجد آلاماً شديدة في رجله، ولم يزل الألم يشتد، فجاءه الطبيب وقال له: إنه مصاب بالاكلة، قال: وما الاكلة؟ قال: داء يأكل العضو الذي يحل به، ثم ينتقل إلى ما فوقه حتى يأتي على الجسد كله.

وأخبره الطبيب أنه لا بد من بتر ساقه فأذن له وهو كاره لذلك.

ولما أحضر الطبيب مناشيره لنشر العظم وما يتبع ذلك، قال له: أتريد أن نسقيك جرعة مخدر لكيلا تشعر بالألم - وهو شديد -؟ فقال أبو العالية - رحمه الله - : بل هناك ما هو خير من ذلك . ثم قال: احضروا لي قارئاً يتقن كتاب الله واجعلوه يقرأ علي ما تيسر من آياته البينات، فإذا رأيتموني قد احمر وجهي واتسعت حدقتاي وثبت نظري في السماء، فافعلوا بي ما شئتم . فنفذوا أمره، وبتروا ساقه، فلما أفاق قال له الطبيب: كأنك لم تشعر بالآلام الشق والبتر؟ فقال: لقد شغلني برد حب الله وحلاوة ما سمعته من كتاب الله عن حرارة المناشير .

ثم أخذ رجله بيده، ونظر إليها وقال:

إذا لقيت ربي يوم القيامة وسألني: هل مشيتُ بك منذ أربعين سنة إلى محرم، أو مسست بك غير مباح لأقولن: «لا ولأنا صادق فيما أقول إن شاء الله» .

هذه نماذج لأحوال الصالحين، وهي وأحوال وتاريخ أمة الإسلام فيها عبر وعظات لمن أراد أن يتذكر.

والتذكير بأيام الله أمر الله به رسله، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ﴾ (١).

وقد فسرت أيام الله بنعمة كما فسرت بنقمه من أهل الكفر والمعاصي، فالأول تفسير ابن عباس ومجاهد، والثاني تفسير مقاتل.

والصواب: أن أيامه تعم النوعين، وهي وقائعه التي أوقعها بأعدائه ونعمه التي ساقها إلى أوليائه (٢). وفي هذه الأيام كثرت الزلازل في بعض بلاد المسلمين (٣).

فمن الذي خلقها وقدرها؟، وهل فيها آيات للمسلمين؟

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٥. (٢) انظر: مدارج السالكين (١/٤٤٩).

(٣) وقع زلزال في يوم الاثنين الذي سبق هذه الخطبة، ووقع في مصر وفلسطين ومنطقة تبوك وغيرها.



## الفصل الثاني العقيدة والمنهج

المبحث الأول: منهج السلف الصالح في العقيدة

- ١- مقدمة حول المنهج .
- ٢- مصادر التلقي - القرآن الكريم .
- ٣- مصادر التلقي - السنة النبوية - ١
- ٤- مصادر التلقي حجية السنة النبوية - ٢
- ٥- مصادر التلقي الطاعنون في السنة قديماً وحديثاً - ٣
- ٦- مصادر التلقي الإجماع - ١
- ٧- مصادر التلقي الإجماع - ٢
- ٨- مصادر التلقي الإجماع - ٣
- ٩- منهج المعرفة - العقل - ١
- ١٠- هل العقل مصدر؟ - ٢
- ١١- أين يكون العقل؟ - ٣

المبحث الثاني: حماية النبي ﷺ جناب التوحيد.

المبحث الثالث: الأسماء والصفات:

- ١- النفع والضرر بيد الله .
- ٢- اسمه تعالى (اللطيف) .
- رابعاً: محبة الرسول ﷺ .
- خامساً: الوطنية وإحياء آثار الجاهلية .
- سادساً: حول الرافضة .
- ١- يوم عاشوراء والرافضة - ١
- ٢- الرافضة - ٢
- ٣- شبه الرافضة باليهود .
- سابعاً: الفتن والمخرج منها:
- ١- الفتن في القرآن .
- ٢- الفتن في السنة .
- ٣- المخرج من الفتن .

## منهج السلف الصالح في العقيدة<sup>(١)</sup>

أولاً: لماذا نطرح منهج السلف؟

١ - لأنه لا خيار لنا في ذلك . فنحن مسلمون . ولا خيار لنا في أن نسير على منهج النبوة أو نسير في ركب شرق أو غرب ، أو قومية جاهلية .

بل الأمر : إما أن نكون مسلمين حقاً ، أو لا نكون .

٢ - وإذا كان فينا من يعول على تقدم علمي حضاري تكنولوجي مادي فقط وأن الأمة يمكن أن تتقدم وأن تبني مواطن عزها بذلك . نقول لهم : لقد سبق الغرب إلى ذلك . وهو لا يسمح لنا بالمهم من هذا التقدم العلمي كما هو معلوم .

والإسلام - بدهاة - يجذب التقدم العلمي - بل هو الرائد في ذلك ونحن ندعو إليه بكل قوة ولو رفض الأعداء - ، إلا أن القول بأن الأمة يمكن أن يكون موطن عزها ذلك وحده جاهلون أو مغرضون .

نعم ، إنه لا عز لنا إلا بالإسلام . وهذه حقيقة عرفها أعداؤنا ونحن جهلناها أو تجاهلناها مجاملة لهم .

٣ - ونطرح هذا المنهاج ؛ لأنه - ويا للأسف - بدأت ترفع في بلاد المسلمين رايات ما عهدناها ، أو بالأصح ما عهدناها ترفع صوتها عالياً وكان الحق معها :

- راية بدعية شركية صوفية ، تحارب الدعوة السلفية .

- أو راية رافضية ، ترى حرب الإسلام الحق أول أولياتها .

- أو راية علمانية ترى التغريب هو صلاح المجتمع .

- أو راية جاهلية ، تنكص بنا إلى موازين الجاهلية .

- ورايات من هنا وهناك .

• مرة ترى أن قول كلمة الحق فتنة .

• ومرة ترى أن التمسك بالإسلام وشعائره غلو وتطرف .

• ومرة ترى أننا في زمن الفتن . ومن ثمَّ فيجب الصبر على نزع الإسلام عروة عروة . . .

٤ - ونطرح هذا المنهج ضرورة بيان منهاج السلف الصالح في الاعتقاد، وبناء الأمة عليه، ونشره في العالمين .

ثانياً: القلوب ثلاثة؟ لما كانت حياة الأبدان والمجتمعات مرتبطة بحياة القلوب، كان لا بدَّ من عرض أقسام القلوب .

أ - القلب الصحيح: وهو القلب السليم الذي لا ينجو يوم القيامة إلا من أتى الله به . ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ \* إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾<sup>(١)</sup>، وجماع صحة القلب، سلامته :

١ - من كل شهوة تخالف أمر الله ونهيه .

٢ - ومن كل شبهة تخالف خبره .

فالقلب السليم : هو الذي سلم أن يكون لغير الله فيه شرك بوجه ما .  
ومن شرطه : التحاكم والافتداء برسول الله ﷺ في الأقوال والأعمال .  
وكذلك شرطاً : الإخلاص، والمتابعة .

ب - القلب الميت: هو الذي لا حياة به ، فهو لا يعرف ربه ولا يعبد، بل هو عبد لشهوته، ولو كان بها سخط ربه وغضبه . فحياته كلها تبع لهواه .

ج - القلب المريض: قلب فيه حياة وبه علة، يغلب هذا مرة ، وهذا مرة .

فيه محبة لله تعالى، وإيمان به . وفيه محبة الشهوات ، والوقوع في المخالفات، وهو في صراع بينهما، أيهما تكون له الغلبة وهذا هو الذي يوالي على قدر إيمانه ويعادي على قدر معصيته .

القسم الأول: منهج السلف الصالح في مصادر التلقي العقيدة<sup>(٢)</sup> .

أولاً: مصادرهم في التلقي: إن مصدرهم في التلقي في العقيدة هو الكتاب والسنة

(١) سورة الشعراء، الآيات: ٨٨، ٨٩ . (٢) الجمعة ٢٠/٦/١٤١٤ هـ .

والإجماع .

أ- القرآن الكريم: وهو اسم لكلام الله تعالى المنزّل على عبده ورسوله محمد ﷺ المتعبد بتلاوته - وهو ما بين دفتي المصحف - المفتوح بـ ﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾ ، والمختوم بقوله : ﴿ من الجنة والناس ﴾ .

وأهل السنة والجماعة يؤمنون بأن القرآن كلام الله غير مخلوق ، منه تعالى بدأ فهو الذي تكلم به وأوحاه إلى عبده . وإليه يعود ويرفع - في آخر الزمان - كما ثبت في الأحاديث الصحيحة عن رسول الله ﷺ .

وهذا القرآن معجزة كبرى من معجزات الرسول ﷺ الدالة على نبوته . وقد تحدّى الله المخالفين أن يأتوا بمثله أو بعشر سور من مثله ، أو بسورة من مثله ، أو بآية أو حديث من مثله . فعجزوا على شدة عداوتهم للرسول ﷺ وللإسلام ، وسيبقون عاجزين .

وقد أجمع الصحابة ومن بعدهم ، على أمرين:

أحدهما: أن هذا القرآن قد حفظه الله تعالى من الزيادة والنقصان : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ <sup>(١)</sup> ، لهذا ، فقد وصل إلينا متواتراً .

الثاني: الإجماع على المصحف والخط العثماني ، وأن شرط القراءة - بعد ثبوتها وتواترها - أن تكون موافقة للرسم العثماني .

وعلى ذلك فقد أجمعوا على أن من أنكر حرفاً من كتاب الله تعالى مجمعاً عليه فهو كافر ، خارج عن دائرة الإسلام .

وهنا يلحظ ما للقرآن من أسماء ، فهو قرآن ، وكتاب ، وذكر ، وبيان ، ونور ، وروح ، وفرقان ، وبرهان . . . إلخ . ولكن أشهرها:

■ إنه قرآن : وهذا إشارة إلى أنه يتلقى عن طريق القراءة .

■ وإنه كتاب : فهو مكتوب ، ولذا أمر الرسول بكتابه وحده دون غيره في أول الإسلام ، ثم صار لا يقبل إلا ما وافق الخط والرسم العثماني .

(١) سورة الحجر ، الآية : ٩ .

ولما كان القرآن - من ناحية الثبوت والقطعية - بهذه المثابة عند جميع المسلمين ، استقر عند المسلمين:

١ - الاستدلال به ، والثقة المطلقة بكل ما جاء به ، من أحكام ، أو أخبار - سابقة أو لاحقة - . ولهذا أمر الله بتدبره فقال : ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾ (١) .

٢ - يقينهم بحفظ هذا القرآن ، ومن ثم فهو لم ينزل لفترة زمنية معينة يعالج أوضاعها ، ثم انتهت . بل يؤمنون أنه هداية ومنهج تشريع إلى قيام الساعة . وكل آية نزلت بسبب ، فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

٣ - أن هذا القرآن جمع بين وصفين عظيمين :

أ - أنه ذكر للمؤمنين وللكفار لتقوم عليهم الحجة . قال تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكُ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴾ (٢) .

ب - أنه مبارك : ﴿ وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ ﴾ (٣) ، ومن ثم فلا مقارنة بين صفحة من القرآن ، وركام من آلاف الكتب .

٤ - أن هذا القرآن - منهج حياة - ومن ثم فقد أنزل ليحقق مقاصد عظمى للأمة الإسلامية ، حين تعتمد بحبل الله المتين ونوره المبين وصراطه المستقيم .  
ومن ذلك :

أ - الدعوة إلى الإيمان بالله وعبوديته وحده لا شريك له .

ب - الهداية العامة في الدنيا والآخرة ، للفرد وللأسرة والمجتمع .

ج - ربط الأحكام الشرعية على مختلف متعلقاتها ، بالعقيدة . وهذا واضح في منهج القرآن . [قارن بالقوانين التي ترتبط الناس بأصول القوانين المادية والبشرية فقط .

(٢) سورة الزخرف ، الآية : ٤٤ .

(١) سورة النساء ، الآية : ٨٢ .

(٣) سورة الانعام ، الآية : ٩٢ .

د- بيان أن معركة الإسلام ، ومعركة الأمة الإسلامية مع أعدائها ، هي معركة العقيدة .

هـ- بيان سبيل المجرمين . ﴿ وَكَذَلِكَ نَفْصَلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ ﴾ (١) .

و- بيان قيمة كل من الدنيا والآخرة ، وربط الأولى بالثانية في حياة الأمة .

ز- التأكيد على طاعة الرسول ﷺ والتحاكم إلى ما جاء به ، وأن ما جاء به وحي من الله تعالى ، سواء كان قرآناً أو سنة .

ح- أن هذا القرآن كله محكم متقن . وأن ما قد يشتهه على بعض القاصرين في فهم القرآن وتفسيره عليهم أن يردوا المتشابه إلى المحكم ، فهو متشابه عندهم فقط . أما من رسخ في هذا القرآن فلا يشتهه عليه .  
وغير ذلك .

هذا ما كان مستقراً لدى الصحابة ومن بعدهم من السلف الصالح - رحمهم الله تعالى - .

ولكن - ويا للأسف - إن المتأمل في أحوال الأمة الإسلامية اليوم ، يرى أنواعاً من الخلل ، قد وقع في تعاملها مع هذا القرآن ، ولكن ذلك على درجات :  
(١) فأعلاها وأخبثها ، من يزعم أن هذا القرآن محرف أو ناقص . وهذا مذهب الرافضة (٢) .

وبعض هؤلاء ينكر تحريف القرآن ، ولكن :

أ- التقية دينهم . ولما كان إنكار حرف من القرآن كفر فالتقية واجب أمام من عداهم من المسلمين .

ب- موقفهم من الصحابة . فهل يعقل أن يقال عن الذين ارتدوا إن جمعهم للقرآن كان صحيحاً .

(٢) وطائفة قريبة من هؤلاء ، بل هي منهم ، تأولوا القرآن تأويلات باطنية :

(١) سورة الأنعام ، الآية : ٥٥ .

(٢) هذا مشتهر عنهم في كتبهم ومنها : كتاب فصل الخطاب في إثبات تحريف كتاب رب الأرباب .

- أ - ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقْرَةً﴾<sup>(١)</sup> ، قالوا: هي عائشة .
- ب - ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللَّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾<sup>(٢)</sup> ، قالوا: الحسن والحسين .
- ج - ﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ﴾<sup>(٣)</sup> ، قالوا: إنما هو إمام واحد .
- د - ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيرًا﴾<sup>(٤)</sup> ، قالوا: الكافر . عمر - رضي الله عنه .
- هـ - ﴿فَلَمَّا أَنَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ﴾<sup>(٥)</sup> ، قالوا: هي كربلاء .

(٣) أولئك الذين استغنوا عن القرآن واستبدلوا به كتباً أخرى ، جعلوها منهجاً لهم :

أ - فلاسفة الإسلام : إشارات ابن سينا .

ب - فلاسفة الصوفية : دلائل الخيرات ، وإحياء علوم الدين للغزالي .

(٤) من آمن بالقرآن لكن لم يقبل منه إلا ما وافق القواعد العقلية التي قرروها . حيث أتوا إلى القرآن بمقررات وأصول عقلية سابقة . وهي المدرسة العقلية القديمة والحديثة .

(٥) وبعضهم ظن أن القرآن كتاب فلك وطب ونحو ذلك من العلوم المادية ، فوقعوا في أخطاء :

١ - الهزيمة الدخلية التي تصور لهؤلاء أن العلم الحديث هو المهيمن والقرآن تابع .

٢ - التأويل المستمر لآياته لتوافق النظريات والفروض العلمية .

(٦) أما جماهير المسلمين اليوم - إلا من عصم الله - ، فكثير منهم اتخذ هذا

(١) سورة البقرة ، الآية : ٦٧ . (٢) سورة الرحمن ، الآية : ٢٢ .

(٣) سورة النحل ، الآية : ٥١ . (٤) سورة الفرقان ، الآية : ٥٥ .

(٥) سورة القصص ، الآية : ٣٠ .

القرآن مهجوراً:

- أ- فاقصر عند بعضهم على الأموات دون الأحياء ، فلا يقرأ إلا في المآتم .
- ب- وصار بركة يستفتح به في الإعلام - حتى إذاعة اليهود - .
- ج- هجر العمل به والحكم به .
- د- هجر تلاوته وتعاليمه .

\* \* \*

## مصادر التلقي (١)

## السنة النبوية

تعريفها: عند المحدثين: ما أضيف إلى النبي ﷺ من قول أو فعل أو وصف أو تقرير، سواء ما كان منها بياناً لما في القرآن، أو شرعاً وحكماً جديداً لم يرد فيه.

وهي مرتبطة أشد الارتباط بشهادة أن محمداً رسول الله.

والقرآن والسنة قرينان، ولما كان القرآن مقطوعاً به، كان لا بد من الرجوع إليه في بيان هذه الحقيقة الكبرى المتعلقة بالسنة، المتمثلة بطاعة الرسول ﷺ.

١- يقول الله تعالى: ﴿فَأْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (٢).

٢- ويقول تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا﴾ (٣).

٣- ويقول تعالى- في بيان وجوب طاعته-: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ (٤).

٤- ويقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنَّهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ (٥). وتاملوا قوله: ﴿وَلَا تَوَلَّوْا عَنَّهُ﴾، فإن الضمير راجع إلى الله وإلى الرسول ﷺ؛ لأنه المبلغ عن ربه.

٥- ويقول تعالى: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ (٦)، لأنه لا ينطق عن الهوى. قال تعالى: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ \* إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ (٧).

٦- وفي نص صريح: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ (٨).

٧- وقال تعالى محذراً عن مخالفة أمره: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمُ

(١) الجمعة ٢٧/٦/١٤١٤ هـ.

(٢) سورة التغابن، الآية: ٨.

(٣) سورة الفتح، الآية: ١٣.

(٤) سورة النساء، الآية: ٥٩.

(٥) سورة الأنفال، الآية: ٢٠.

(٦) سورة النساء، الآية: ٨٠.

(٧) سورة النجم، الآيتان: ٣، ٤.

(٨) سورة الحشر، الآية: ٧.

فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾ .

٨ - بل ربط الله محبته - أي محبة الله الواجبة - بطاعة رسول الله ﷺ واتباعه ، فقال تعالى : ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ (٢) .

٩ - النهي عن التقدم بين يدي الله ورسوله بأمر من الأمور . قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدُمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (٣) .

هذه الآية العظيمة - أفتتحت بها سورة تضمنت أنواعاً من الأدب مع الرسول ﷺ .

يقول ابن كثير في مقدمة هذه السورة - سورة الحجرات - : (هذه آداب أدب الله بها عباده المؤمنين فيما يعاملون به الرسول ﷺ من التوقير والاحترام والتبجيل والإعظام) .

ثم قال ابن كثير في قوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدُمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ : أي لا تسرعوا في الأشياء بين يديه ، أي قبله ، بل كونوا تبعاً له في جميع الأمور ، حتى يدخل في عموم هذا الأدب الشرعي حديث معاذ ، قال له النبي ﷺ حين بعثه إلى اليمن : « بم تحكم؟ » قال : بكتاب الله . قال : « فإن لم تجد؟ » قال : بسنة رسول الله . قال : « فإن لم تجد؟ » قال : أجتهد رأيي . فضرب في صدره وقال : « الحمد الذي الذي وفق رسول رسول الله لما يرضي رسول الله » (٤) .

فالغرض منه أنه أحرر رأيه ونظره واجتهاده إلى ما بعد الكتاب والسنة ، ولو قدمه قبل البحث عنهما ، لكان من باب التقديم بين يدي الله ورسوله .

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس - رضي الله عنهما - : ( ﴿ لَا تَقْدُمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ : لا تقولوا خلاف الكتاب والسنة) .

وقال العوفي عنه : (نهى أن يتكلموا بين يدي كلامه) .

(١) سورة النور ، الآية : ٦٣ .

(٢) سورة الحجرات ، الآية : ١ .

(٣) رواه الترمذي (١٢٢٧) ، وأبو داود (٣٥٩٢) ، وابن ماجه ( ) ، والإمام أحمد (٥/٢٣٠ ، ٢٣٦ ،

٢٤٢) ، وقال الترمذي : (هذا حديث لا نعرفه إلا من هذا الوجه وليس إسناده عندي بم متصل) .

وقال مجاهد: (لا تفتاتوا على رسول الله ﷺ بشيء حتى يقضي الله على لسانه).

وقال الضحاك: (لا تقضوا أمراً دون الله ورسوله من شرائع دينكم).  
يقول ابن القيم - رحمه الله - معلقاً على هذه الآية:

(ومن الأدب مع الرسول ﷺ: أن لا يتقدم بين يديه بأمر ولا نهي ولا إذن ولا تصرف، حتى يأمر وينهى ويأذن كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدُمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾<sup>(١)</sup>: وهذا باق إلى يوم القيامة لم ينسخ، فالتقدم بين يدي سنته بعد وفاته كالتقدم بين يديه في حياته، ولا فرق بينهما عند كل ذي عقل سليم)<sup>(٢)</sup>.

ويقول الشيخ الشنقيطي - رحمه الله - في أضواء البيان في هذه الآية<sup>(٣)</sup>:

(والمعنى: لا تتقدموا أمام الله ورسوله فتقولوا في شيء بغير علم ولا إذن من الله. وهذه الآية الكريمة فيها التصريح بالنهي عن التقديم بين يدي الله ورسوله، ويدخل في ذلك دخولاً أولياً تشريع ما لم يأذن به الله، وتحريم ما لم يحرمه، وتحليل ما لم يحلله؛ لأنه لا حرام إلا ما حرمه الله، ولا حلال إلا ما أحلّه الله، ولا شرع إلا ما شرعه الله).

١٠ - ويقول الله تعالى في وجوب التحاكم إليه: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾<sup>(٤)</sup>.

يقول الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ - رحمه الله -:

(وقد نفى الله سبحانه وتعالى الإيمان عن من لم يحكموا النبي ﷺ فيما شجر بينهم، نفياً مؤكداً بتكرار أداة النفي وبالقسم. قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾. ولم يكتفِ تعالى منهم بمجرد التحكيم للرسول ﷺ حتى يضيفوا إلى ذلك عدم وجود شيء من الحرج في نفوسهم. يقول جل شأنه: ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ﴾، والحرج: الضيق، بل لا بد من اتساع صدورهم لذلك وسلامتها من القلق

(٢) مدارج السالكين (٢/ ٣٨٩).

(١) سورة الحجرات، الآية: ١.

(٤) سورة النساء، الآية: ٦٥.

(٣) أضواء البيان (٧/ ٦١٤).

والاضطراب .

ولم يكتف تعالى أيضاً بهذين الأمرين حتى يضموا إليهما التسليم - وهو كمال الانقياد لحكمه ﷺ - بحيث يتخلون ها هنا من أي تعلق للنفس بهذا الشيء ، ويسلموا ذلك إلى الحكم الحق أم تسليم ، ولهذا أكد ذلك بالمصدر المؤكد وهو قوله جل شأنه : ﴿ تَسْلِمًا ﴾ المبين أنه لا يُكتفى ها هنا بالتسليم ، بلا بدّ من التسليم المطلق<sup>(١)</sup> .

١١ - بل الأدب معه ﷺ جاء في رفع الصوت فوق صوته ، فقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾<sup>(٢)</sup> .

أ - وقد روى البخاري أنها نزلت في الشيخين أبي بكر وعمر - رضي الله عنهما - وقد ارتفعت أصواتهما في شأن من شؤون المسلمين ، فنزلت الآية . فكان عمر - رضي الله عنه - بعد ذلك يسمع رسول الله ﷺ حتى يستفهمه ؛ لحفظ صوته<sup>(٣)</sup> .

ب - أما ثابت بن قيس ، فقد كان جهوري الصوت ، فلما نزلت الآية جلس في بيته يبكي وخشي أن يكون من أهل النار<sup>(٤)</sup> . والقصة في البخاري ورواها غيره مع زيادة تفصيل ، حين حبس نفسه في بيت الفرس .

١٢ - كيف كان تطبيق الصحابة - رضوان الله عليهم - وموقفهم من هذه القضية الكبرى - السنة ومصدر التلقي فيها - ؟

أ - امثال جميع الصحابة واقتدائهم به في جميع الأمور . ومثال ذلك : الصلاة في بني قريظة ، والجهاد في غزوة تبوك .

ب - أبو بكر في حادث الإسراء والمعراج ؛ حيث قال - رضي الله عنه - : إن كان قد قال ، فقد صدق .

ج - قصة خزيمة بن ثابت والأعرابي ، حيث ورد أن النبي ﷺ ابتاع فرساً من أعرابي ، فاستبعه النبي ﷺ ليقضيه ثمن فرسه ، فأسرع النبي ﷺ المشي ، وأبطأ الأعرابي ، فطفق رجال يعترضون الأعرابي فيساومون بالفرس ، ولا يشعرون أن

(٢) سورة الحجرات ، الآية : ٢ .

(١) تحكيم القوانين ص ٥ - ٦ .

(٤) رواه البخاري (٤٨٤٦) ، ومسلم (١١٩) .

(٣) رواه البخاري (٤٨٤٥) .

النبي ﷺ ابتاعه، حتى زاد بعضهم الأعرابي في السوم على ثمن الفرس الذي ابتاعه به النبي ﷺ، فنادى الأعرابي النبي ﷺ فقال: إن كنت مبتاعاً هذا الفرس فابتعه وإلا بعته، فقام النبي ﷺ حين سمع نداء الأعرابي فقال: أوليس قد ابتعته منك؟ قال الأعرابي: لا والله ما بعتهك. فقال النبي ﷺ: بلى قد ابتعته منك، فطفق الناس يلوذون بالنبي ﷺ والأعرابي وهما يتراجعان، فطفق الأعرابي يقول: هلم شهيداً يشهد أنني بايعتك، فمن جاء من المسلمين قال للأعرابي: ويلك إن النبي ﷺ لم يكن ليقول إلا حقاً، حتى جاء خزيمية لمراجعة النبي ﷺ ومراجعة الأعرابي، فطفق الأعرابي يقول: هلم شهيداً يشهد أنني بايعتك.

قال خزيمية: أنا أشهد أنك قد بايعته، فأقبل النبي ﷺ على خزيمية فقال: بم تشهد؟ فقال: بتصديقك يا رسول الله، فجعل النبي ﷺ شهادة خزيمية شهادة رجلين<sup>(١)</sup>.  
فانظر إلى هذه النماذج العظيمة، وقارنها بحال الكثير في هذه الأيام، والله المستعان.

\* \* \*

(١) رواه أبو داود (٣٦٠٧)، والإمام أحمد ٥/٢١٥-٢١٦، وهو في طبعة الرسالة المحققة برقم ٢١٨٨٣ - المجلد ٣٦ وهو حديث صحيح. وانظر تخريجه المطول في الحاشية.

## مصادر التلقي (١)

## ٢- حجية السنة

١ - حفظ الله للسنة، وهو من حفظ هذا الدين: وتمثل ذلك في:

أ- السماح لبعض الصحابة بكتابة بعض الأحاديث، كما هو معروف ومفصل في الكتب التي تحدثت عن تدوين السنة.

ب- حفظ الصحابة لسنة الرسول ﷺ، وعنايتهم بها، وحرصهم على تبليغها لمن بعدهم.

ج- قد هيأ الله تعالى حفظ السنة بوجود أئمة حفاظ أثبات، يتبعون الأحاديث ويحفظونها، ويكتبونها بأسانيدنا.

د- وجود علم الجرح والتعديل، ومصلح الحديث، الذي به يقوم الرواة، وتدرس الأسانيد وتمحص. وقد تميّزت هذه الأمة بهذا العلم العظيم: الإسناد والجرح والتعديل.

ولقد تبعوا أحوال كل راوٍ للحديث النبوي من حيث:

- ولادته ووفاته. حتى تعرف طبقته.

- بلده التي ولد فيها ومات فيها، حتى يعرف شيوخه وتلاميذه.

- البلاد التي رحل إليها وزارها، ومتى كان ذلك؛ حتى يُعرف من لقيه من المحدثين ومن يصح سماعه منه.

- منزلته من العدالة والصدق.

- هل تغير في آخر عمره أم لا؟

- عيوبه: من تدليس أو وهم أو غير ذلك.

وبهذا ميّزت الأسانيد وفُضح الكذابين والوضاعون، بل وفرقوا بين الصحيح والضعيف. على منهج عظيم متكامل.

هـ- ولقد تفرغ لهذا العلم ولرواية الحديث النبوي آلاف من العلماء، شغلوا أوقاتهم - ليلاً ونهاراً - وأعمارهم كلها في ذلك .

و- وكم جرى لهؤلاء الأئمة من الحوادث والقصاص والمشاق ما يعتبر من العجائب، ولكن هو دين الله، قد أقام الله الحجة على عباده في بلوغه لهم .

فهذا أبو الدرداء - رضي الله عنه - وهو في مسجد دمشق جالساً مع أصحابه، جاءه رجل فقال: يا أبا الدرداء! جئتك من المدينة مدينة الرسول ﷺ لحديث بلغني أنك تحدث به عن رسول الله ﷺ. قال: ولا جئت لحاجة؟ قال: لا. قال: ولا لتجارة؟ قال: لا. قال: ولا جئت إلا لهذا الحديث؟ قال: نعم. قال: أبشر فإنني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من سلك طريقاً يطلب فيه علماً، سلك به طريقاً من طرق الجنة...» (١).

قال أبو العالية: (كنا نسمع بالرواية عن أصحاب رسول الله ﷺ بالمدينة، ونحن بالبصرة، فما نرضى حتى أتيناهم فسمعنا منهم).

ويقول أبو العالية - أيضاً: (كنت أرحل إلى الرجل مسيرة أيام لأسمع منه، فأول ما أتفقد منه صلواته، فإن أجده يقيمها، أقمت وسمعت منه، وإن أجده يضيعها رجعت ولم أسمع منه، وقلت: هو لغير الصلاة أضيع) (٢).

وهذا جابر بن عبد الله - رضي الله عنه - رحل من المدينة إلى الشام ليسمع حديثاً واحداً من عبد الله بن أنيس الأنصاري. قال جابر: بلغني حديث عن رجل سمعه من رسول الله ﷺ فاشتريت بغيراً ثم شددت عليه رحلي فسرت إليه شهراً حتى قدمت عليه الشام فإذا عبد الله بن أنيس، فقال للبواب: قل له: جابر على الباب، فقال: ابن عبد الله؟ قلت: نعم، فخرج يظاً ثوبه، فاعتقني واعتقته فقلت: حديثاً بلغني أنك سمعته من رسول الله ﷺ في القصاص لم أسمعه فخشيت أن أموت أو تموت قبل أن أسمعه. قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يحشر الله العباد حفاة عراة غرلاً...» الحديث (٣)

(١) رواه أبو داود (٣٦٤١)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٢٩٧).

(٢) انظر: الرحلة في طلب الحديث للخطيب البغدادي (٩٣).

(٣) انظر: فتح الباري (٢٠٩/١ - ٢١٠)، حيث علقه البخاري في صحيحه، والحديث رواه الإمام

أحمد (٤٩٥/٣)، ورقمه في ط الرسالة: ١٦٠٤٢.

ورحل أبو أيوب الأنصاري إلى عقبة بن عامر - رضي الله عنهما - في مصر من أجل أن يسمع منه حديثاً واحداً. وهو حديث: «من ستر مؤمناً في الدنيا ستره الله يوم القيامة». فلما حدثه انصرف من ساعته راجعاً إلى المدينة النبوية.

وتفاصيل ما جرى لأئمة الحديث في سبيل طلبه وضبط رواياته يطول:

\* فهذا المؤمل بن إسماعيل، لما ذكر عنده الحديث الوارد في فضل سور القرآن - سورة سورة - وهو حديث ضعيف. قال: «حدثني الثقة قال: أتيت المدائن فلقيت الرجل الذي يروي هذا الحديث. فقلت: حدثني فإني أريد أن آتي البصرة. فقال: هذا الرجل الذي سمعناه منه بواسط في أصحاب القصب. فأتاه فسأله فقال: إن الذي سمعت منه بالكلا - عند البصرة - . قال: فأتيت البصرة. فلقيت الشيخ بالكلا. فقلت: حدثني؟ فقال: إني الذي سمعناه هو بعبادان. فأتيت عبادان فلقيت الشيخ - وقصصت عليه رحلتي من واسط إلى البصرة إلى عبادان، فأخبرني بقصة الحديث فقال: إنا اجتمعنا هنا فرأينا الناس قد رغبوا عن القرآن وزهدوا فيه، وأخذوا في هذه الأحاديث، فقعدنا فوضعنا لهم هذه الفضائل حتى يرغبوا فيه»<sup>(١)</sup>.

فتأملوا طول الرحلة للتأكد من حديث ضعيف موضوع. ثم أيضاً لم يكتف أول مرة بأن الذي رواه شيخ، بل تابع رواه حتى وصل إلى الحقيقة.

\*\* أما ما جرى لأئمة الحديث من محن في سبيل طلبه: فالأمر يطول، ولكن هذا نموذج واحد سأتبعه بآخر:

يقول محمد بن طاهر المقدسي (ت ٥٠٧هـ): «بليتُ الدم في طلب الحديث مرتين، مرة ببغداد، ومرة بمكة، كنت أمشي حافياً في الحر فلحقني ذلك. وما ركبت دابة قط في طلب الحديث، وكنت أحمل كتيبي على ظهري»<sup>(٢)</sup>.

\*\* وهذا الهيثم بن جميل البغدادي الحافظ: قال عنه موسى بن داود: (أفلس الهيثم بن جميل في طلب الحديث مرتين).

والهيثم هذا هو الذي لما حضرته الوفاة، وقد سجن نحو القبلة، فقامت جاريته

(٢) انظر: تذكرة الحفاظ (١٢٤٢).

(١) انظر: الكفاية للخطيب.

تغمز رجله - لترئى صحوه - فقال لها : ( اغمزيتها فالله يعلم أنهما ما مشتا إلى حرام قط ) .

هؤلاء أهل الحديث : تقى وورعاً ، وتعباً ونصباً في سبيله .

٢ - أما موقف أعداء السنة منها ، ومن ثم من هذا المصدر العظيم للتلقى . فتلك قصة يطول شرحها :

١ - وأحب أولاً أن أذكر بأن القضية مرتبطة بأصل من أصول الدين الكبار ، ألا وهي شهادة أن محمداً رسول الله ﷺ . فالطاعن فيها :

(١) إما طاعن في ذات الرسول ﷺ ونبوته .

(٢) وإما طاعن في تبليغه وأمانته .

(٣) وإما طاعن في الرب تعالى في أنه ما أقام الحجة على عباده .

٢ - ولقد وجد الطعن في عهد الرسول ﷺ في وقت الرسالة ونزول الوحي ومشاهدة الآيات والدلالات على صدق نبوته :

أ - فشيوخ الخوارج المارقين وجدوا على عهدوا رسول الله طاعنين في عدله وحكمه . فقد روى البخاري عن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - قال :

بينما النبي ﷺ يقسم ، جاء عبد الله بن ذي الخويصرة التميمي فقال : اعدل يا رسول الله ! . فقال : «ويلك ، ومن لم يعدل إذا لم أعدل» . فقال عمر بن الخطاب : دعني أضرب عنقه . قال : «دعه فإن له أصحاباً يحقر أحدكم صلاته مع صلاته وصيامه مع صيامه ، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية...» (١) .

وقد وجد هؤلاء الخوارج ، ورفضوا الاحتجاج بالسنة ، حتى أنهم كانوا يحكمون على السارق بقطع يده من الكتف .

ب - وأساتذة النفاق أيضاً وجدوا على عهد رسول الله ﷺ .

ففي إحدى الغزوات - غزوة تبوك - ضلت ناقة رسول الله ﷺ فقال المنافقون : محمد يزعم أن الوحي يأتيه من السماء وهو لا يدري أين ناقتة؟! !!!

ولما وقعت حادثة الإفك ومكثت المحنة شهراً ، ظنَّ المنافقون بالله ورسوله الظنون . فنشروا التهمة مؤكداً لها ، حتى جاء الوحي ببراءة عائشة - رضي الله عنها - .

وجلس المنافقون يسمرون في إحدئ الليالي ، فما وجدوا ما يتحدثون به إلا سخيرية من رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر - رضي الله عنهما - ، فنزل قول الله تعالى : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴾ (١) .

وقبل الحديث المفصل عن الهجوم على السنة والطعن فيها - قديماً وحديثاً - لنميز منهج أهل السنة والجماعة في هذا الباب - لا بد من التركيز على عدة أمور:

- أن الهجوم على السنة هو هجوم على الإسلام ، ولا فرق .
- أن الفشل في الهجوم على القرآن وثبوتة . الجأهم إلى الهجوم على المصدر الثاني . والطعن في السنة هو طعن في القرآن ولا فرق .
- أن السلف لم يعرفوا هذه العلمنة القائمة على الفصل بين القرآن والسنة . قال ابن حزم (٢) : (لو أن أمراً قال : لا نأخذ إلا بما وجدنا في القرآن لكان كافراً بإجماع الأمة) .

وقبل الحديث تفصيلاً عن المنكرين للسنة أو المهاجمين لها ، أحب أن أبين أن المنكرين للسنة على درجات :

- ١ - المنكرون للسنة كلها : مثل بعض الفرق القديمة والرافضة . ومثل : غلام أحمد برويز الذي أسس «جمعية أهل القرآن» .
- ٢ - من ينكر السنة لكن يستثني منها السنة العملية المتواترة ؛ كالصلاة والزكاة والصيام والحج . وهذا مذهب كثير من المعتزلة وكثير من منكري السنة حديثاً .
- ٣ - المقرون بالسنة . لكن لا يحتجون منها بأخبار الآحاد في العقيدة . مثل كثير من أهل الكلام .
- ٤ - من ليس له قاعدة ولا ضابط ، وإنما ينكر هذا الحديث أو ذاك ؛ لمخالفته لمعقوله أو لهواه أو لغرض في نفسه ، أو لسبب آخر .

\* \* \*

(٢) انظر : المحلى لابن حزم .

(١) سورة التوبة ، الآية : ٦٥ .

## مصادر التلقي (١)

## ٣- الطاعنون في السنة قديماً وحديثاً

## أ- المعتزلة:

١- وهؤلاء ردوا كثيراً من السنة لمخالفتها للعقل .

٢- لما ذكر لعمر بن عبد المعزلي حديثاً للرسول ﷺ قال : (لو سمعت الأعمش - أحد الأئمة - يقول هذا لكذبته ، ولو سمعت رسول الله ﷺ يقول هذا : لرددته ، ولو سمعت الله يقول هذا لقلت : ليس علي هذا أخذت ميثاقنا) (٢) .

٣- والمعتزلة - ردوا أحاديث الشفاعة - ؛ لمعارضتها لأصلهم في الوعيد ، وهو أن مرتكب الكبيرة عندهم مخلد في النار :

\* كما ردوا أحاديث الصفات ؛ لمعارضتها لأصلهم في نفي الصفات عن الله .

\* كما ردوا حديث : « الشقي من شقي في بطن أمه » (٣) لمخالفته لأصلهم في القدر .

\* إنكارهم لأحاديث رؤية الله في الجنة . ولأحاديث عذاب القبر . . . وغيرها .

٤- طعنهم في الصحابة ، رواة الحديث وحفظته .

- فهذا واصل بن عطاء يقول : (لو شهدت عندي عائشة وعلي وطلحة علي باقة بقل لم أحكم بشهادتهم) .

- وقال النظام عن عمر - رضي الله عنه - : (إنه شك يوم الحديبية ، واتهم النظام عمر بأنه كتم الوصية لعلي وباع أبا بكر) .

- واتهم النظام ابن مسعود بالكذب لروايته حديث انشقاق القمر . وحديث : « السعيد من سعد في بطن أمه » .

- وطعن في غيره من الصحابة ، وتلك سمة من سمات هؤلاء قديماً وحديثاً .

(١) الجمعة ١١/٧/١٤١٤ هـ .

(٢) ميزان الاعتدال (٣/٢٧٨) .

(٣) رواه مسلم موقوفاً على ابن مسعود في القدر برقم ٤٧٨٣ . ورواه ابن ماجه في المقدمة مرفوعاً برقم

٤٥ - كلاهما ضمن حديث طويل .

ب - الخوارج: - سبق نقل قول أحد أساتذتهم للرسول ﷺ: هذه قسمة ما أريد بها وجه الله .

- والخوارج يعدلون جميع الصحابة قبل الجمل وصفين، ثم يكفرون - أو يفسقون - علياً وأصحاب الجمل وصفين والحكمين ومن رضي بالتحكيم .  
- ولهذا ردوا أحاديث جمهور الصحابة بعد الفتنة .

وسنعرض - إن شاء الله - لرأي الخوارج المعاصرين ، حينما نتكلم عن منكري السنة حديثاً .

ج - الرافضة : وهم شرّ الطوائف طعنًا في الصحابة وسباً لهم ووضعاً للأحاديث :

١ - وأخطر ما في الرافضة، وضعهم للأحاديث المكذوبة. ولقد كشف أئمة الحديث أمرهم قديماً:

\* فقد سُئِلَ الإمام مالك - رحمه الله - عنهم فقال : ( لا تكلمهم ولا تردّ عليهم فإنهم يكذبون ) .

\* ويقول شريك بن عبد الله - مع ميله لعلي رضي الله عنه - : ( احمل عن كل ما لقيت إلا الرافضة ، فإنهم يضعون الحديث ويتخذونه ديناً ) .

\* ويقول الإمام الشافعي - رحمه الله - : ( ما رأيت في أهل الأهواء قوماً أشهد بالزور من الرافضة ) .

٢ - سبهم للصحابة وقولهم بردتهم جميعاً - إلا عدداً قليلاً - :

- روى الكليني - الرافضي - بإسناده إلى أبي جعفر أنه قال : ارتد الناس بعد النبي ﷺ إلا ثلاثة : المقداد وسليمان وأبو ذر .

- ورووا عن عبد الرحمن القصير قال : قلت لأبي جعفر : إن الناس يفزعون إذا قلنا : إن الناس ارتدوا . فقال : يا عبد الرحمن ! إن الناس عادوا بعد ما قبض رسول الله ﷺ أهل جاهلية ، إن الأنصار اعتزلت فلم تعتزل بخير ، جعلوا يبأيعون سعداً وهم يرتجزون ارتجاز الجاهلية .

٣ - طعنهم في الصحابة - رواة الحديث - ، وطعنهم في عدالتهم.

يقول شرف الدين الموسوي الرافضي : (إن أصالة العدالة في الصحابة مما لا دليل عليه ، ولو تدبروا القرآن الحكيم لوجدوه مشحوناً بذكر المنافقين منهم ، وحسبك منه سورة «التوبة» و «الأحزاب» .

٤ - وترتب على ذلك رفضهم للسنة الواردة عن طريق أهل السنة.

يقول حسين بن عبد الصمد العاملي الرافضي : (وصول الأخيار إلى أصول الأخيار) : (فصاحح العامة - يقصدون أهل السنة - كلها وجميع ما يروونه غير صحيح).

ولهذا ، فالسنة عندهم مخالفة العامة - أي أهل السنة - ، وقد عقدوا أبواباً وأوردوا روايات كثيرة في ذلك .

● منها : ما يروونه - كذباً وزوراً - عن جعفر الصادق - رحمه الله - أنه قال : (إذا ورد عليكم حديثان مختلفان ، فخذوا بما خالف القوم) . وأنه قال : (ما خالف العامة ففيه الرشاد) . وقوله عن أهل السنة : (والله ما بقي في أيديهم شيء من الحق إلا استقبال الكعبة فقط) .

د - الزنادقة: وهؤلاء وضعوا أحاديث لتشويه سمعة المسلمين ، وللتنقيص من سنة الرسول ﷺ :

١ - فمما وضعوه وكذبوه حديث : «ينزل ربنا عشية عرفة على جمل أورق يصافح الركبان ويعانق المشاة» .

٢ - ومما وضعوه حديث : «إن الله اشتكى عينيه فعادته الملائكة» . تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً .

٣ - وغيرها كثير وكثير .

أعداء السنة في العصر الحديث:

أولاً: المستشرقون: وعلى رأسهم أستاذهم وأستاذ المستغربين من المسلمين (جولد

تسيهر)، الذي ألف كتاباً قبل مائة عام بعنوان (دراسات إسلامية)، حيث صار مصدراً لكل من أتى بعده ، في الطعن في الإسلام وسنة الرسول ﷺ خاصة .  
وبعده جاء (شاخت) . . . وغيره .

وليس بمستغرب على هؤلاء ، ولا حاجة بنا إلى ذكرهم هنا ، لولا أنهم صاروا مدرسة لكل طاعن في السنة النبوية الشريفة .

و(جولد تسيهر) طعن في الإمام الزهري واتهمه بوضع الأحاديث إرضاء لبني أمية . ومن ذلك : زعمه أنه وضع لعبد الملك بن مروان حديث : «لا تُشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد»<sup>(١)</sup> . ومنها : الأقصى - حتى يصرف الناس إلى الأقصى بدل مكة التي كان فيها ابن الزبير .

ولما التقى السباعي بالمستشرق (شاخت) وناقشه في مفتريات أستاذه (جولد تسيهر) وتحريفاته - كان يجيب شاخت بالاعتذار عنه . فقال له السباعي : (إن جولد تسيهر هو مؤسس المدرسة الاستشراقية التي تبني حكمها في التشريع الإسلامي على وقائع التاريخ نفسه ، فلماذا لم يستعمل مبدأه هنا حين تكلم عن الزهري؟! وكيف جاز له أن يحكم على الزهري بأنه وضع حديث فضل المسجد الأقصى<sup>(٢)</sup> إرضاء لعبد الملك بن مروان ضد ابن الزبير ، مع أن الزهري لم يلق عبد الملك إلا بعد سبع سنوات من مقتل الزبير؟) .

يقول السباعي : (وهنا اصفر وجه (شاخت) وأخذ يفرك يداً بيد وبدا عليه الغيظ والاضطراب ، وأنهت الحديث معه . . . ) .

وإنما ذكرت هذا المثال ؛ لأن كثيراً من العلمانيين والحدائين في دراستهم للتراث - ومنه السنة - تشربوا هذا المنهج الاستشراقي التبشيري . وقد طعنوا في حديث الذباب<sup>(٣)</sup> ، ولطم موسى ملك الموت<sup>(٤)</sup> وغيرهما .

(١) رواه البخاري (١١٨٨) ، ومسلم (٨٢٧) .

(٢) حديث شد الرحال لم ينفرد به الزهري ، بل رواه جماعة غير الزهري كما فصل ذلك الاعظمي في دراسات في الحديث النبوي .

(٣) رواه البخاري (٥٧٨٢) . (٤) رواه البخاري (٣٤٠٧) ، ومسلم (٢٣٧٢) .

ثانياً: العقلانيون وأذئابهم: وهم تلاميذ المدرسة العقلية. ولا يقولون قائل: إن المعتزلة انقرضوا، بل لا تزال أفكارهم ومنطلقاتهم باقية إلى اليوم - بل إن أحد أكبر دعاة هذا المنهج<sup>(١)</sup> دعا في إحدى المناسبات الفكرية إلى أن يكون للمعتزلة تجمع، كما أن لغيرهم تجمعات.

١ - فهذا أحمد أمين في كتابه (فجر الإسلام) خاض وماج في قضايا كثيرة؛ منها قضية السنة. وقد ناقشه السباعي - رحمه الله - مناقشة مطولة في كتابه (السنة، ومكانتها في التشريع الإسلامي).

٢ - وهذا محمد عمارة أشهر من يتبنى منهج الاعتزال والعقلانية المنحرفة. يقول في كتابه (الإسلام وقضايا العصر)<sup>(١)</sup>: (نحن مطالبون - حتى نكون متبعين للرسول بالتزام سنته التشريعية - أي تفسير القرآن - لأنها دين. أما سنته غير التشريعية؛ ومنها تصرفاته في السياسة والحرب والسلم والمال والاجتماع والقضاء ومثلها ما شابهها من أمور الدنيا، فإن اقتداءنا به يتحقق بالتزامنا بالمعيار الذي حكم تصرفه ﷺ، فهو كقائد للدولة كان يحكم فيها على النحو الذي يحقق المصلحة للأمة. فإذا حكمنا كساسة بما يحقق مصلحة الأمة وكنا مقتدين بالرسول حتى ولو خالفت نظمنا وقوانيننا ما روي عنه في السياسة من أحاديث؛ لأن المصلحة بطبيعتها متغيرة ومتطورة).

ويقول أيضاً: (علمنا الرسول ﷺ أن ما كان ديناً فمرجه الوحي والتنزيل... وما كان دنياً بما فيها الدولة والسياسة فالمرجع فيها العقل والتجربة الإنسانية...).

ويقول ما هو أدهى وأمر: (والفروق بين المسلمين وأهل الكتاب ليست من الخطر بحيث تخرج الكتابيين من إطار الإيمان والتدين بالدين الإلهي).

ثالثاً: الحدائيون: وهؤلاء - ليست القضية معهم - خاصة بهذا الموضوع، بل ما هو أشمل. وهو موقفهم من الدين الإسلامي ومصادره وأصوله كلها.

ولكن سأذكر نماذج من مواقفهم من السنة فقط، وإلا، فموضوعهم طويل:

١ - يقول أحدهم - وأنزه المنبر من ذكر اسمه - : (أرضنا البيدُ غارقة، طوق الليل أرجاءها، وكساها بمسجده الهاشمي فدانت له عاداته معبداً).

(١) الإسلام وقضايا العصر (٢٥).

٢- ونشرت صحيفة - اليوم - بتاريخ ٦ / ١١ / ١٤٠٦ هـ محاضرة لأحدهم ألقاها في المملكة العربية السعودية . ومما قاله المحاضر عن أمته : الإسلام ينسلخ من الجوهر بما فيه من المثل والقيم والمبادئ ليغرق في هامشيات ، وأقول يغرق ؛ لأنه - للأسف - مازال غريقاً حتى اليوم يغرق في ماذا؟ في تحريم أو استكراه لبس الجلباب وتقصيره إلى ما فوق الكعبين وضرورة الأكل باليمين ، وكرهية استعمال الملعقة والشوكة والسكين واستحباب لعق الأصابع . . . إضافة إلى مسائل أخرى . منها : الاحتفال بمولد النبي والتوسل بالأولياء والصالحين).

٣- بل بلغ بهم الاستهتار بالسنة أن قلدهم منهج المحدثين وهو يتحدث عن أزمة الفن والغناء . فيقول : (حدثنا الشيخ إمام عن صالح بن عبد الحي عن سيد بن درويش عن أبيه عن جده قال : يأتي على هذه البلاد زمان إذا رأيتم فيها أن الفن أصبح جثة هامدة فلا تلموه ولا تعذلوا أهله ، بل لوموا أنفسكم . قالها وهو ينتحب فتغمده الله برحمته وغفر له ذنوبه).

وهكذا . . . وهكذا . . .

رابعاً: الطاعنون من غير هؤلاء:

١- أبو ريّة . تولّى كبر الطعن في السنة ، وقدّ في طعونته من سبقه وألف كتابه «أضواء على السنة المحمدية» ، وقد ردّ عليه : محمد عبد الرازق حمزة - رحمه الله - في كتابه «ظلمات أبي ريّة . والمعلمي - رحمه الله - في كتابه : «الأنوار الكاشفة» . والسباعي - رحمه الله - في كتابه : «السنة» .

٢- ثم ظهر في سنة ١٩٧٤م في مصر كتاب يطعن فيه صاحبه - والمدعو صالح أبو بكر - في صحيح البخاري ، سمّاه : «الأضواء القرآنية في اكتساح الأحاديث الإسرائيلية وتطهير البخاري منها» .

ذكر فيه - متابعة لشيخه أبي ريّة - للمستشرقين - أكثر من ١٢٠ حديثاً يرى وجوب تطهير صحيح البخاري منها .

٣- وجاء بعد هؤلاء كثير تنتشر طعوناتهم المختلفة في السنة النبوية ؛ كالغزالي

وغيره .

خامساً: الرافضة المعاصرون والخوارج المعاصرون:

لم تتغير آراؤهم ومواقفهم من السنة . فالرافضة تابعوا أسلافهم وربما زادوا عليها في طعونهم في السنة . والخوارج الإباضية ردوا أحاديث الرؤية المتواترة ، وأحاديث الشفاعة وخروج الموحدين من النار ، بناء على مخالفتها لأصولهم العقدية المنحرفة .

الموقف من أعداء السنة:

- ١ - كشف أمرهم وفضحهم .
  - ٢ - العناية بالسنة والاهتمام بنشرها .
  - ٣ - تربية الأمة على احترام الرسول ﷺ وتوقيره .
  - ٤ - الاحتساب على كل متنقص للرسول ﷺ أو طاعن في السنة وعدم التساهل معهم .
  - ٥ - الدعوة إلى تطبيق السنة في حياة الأمة أفراداً وأسرّاً ومجتمعات ودولاً .
- والحمد لله أنه لا تخلوا الأمة في كل عصر - ومنه عصرنا هذا - ممن يدافع عن السنة وينشر مخطوطاتها ، ويعمل على خدمتها جمعاً وتحقيقاً وتخريجاً وشرحاً ورداً على خصومها وفضحاً لهم .

\* \* \*

## مصادر التلقي (١)

### ٤- الإجماع

وهو مصدر مهم جداً - بعد الكتاب والسنة - بل لا يكون إلا عن واحد منهما، وترجع أهميته لأمر:

أحدها: أنه قد شاع استخدامه في أصول الفقه وأبواب الأحكام الشرعية . حتى صار باباً عظيماً في كتب الأصول .

وينبغي أن يعلم أن كون الإجماع دليلاً من أدلة الشرع - يأتي بعد الكتاب والسنة - مما لا شك فيه ، لكن تخصيصه بالأحكام الشرعية فيه قصور ، من وجهين :

الأول : أن هذا الإجماع وقع أعظم ما وقع في مسائل الاعتقاد . بل لا نبالغ إذا قلنا إن جميع مسائل العقيدة - إلا يسيراً - مما أجمع عليه الصحابة بل والقرون المفضلة .

وهذا ما فهمه علماء السلف ، حيث كانوا يحتجون به على أهل البدع في ردودهم ومناقشاتهم .

الثاني: أنه لا انفصال بين أحكام الشريعة والعقيدة - ولم يعرف السلف المتقدمون شيئاً من ذلك ولم يمارسوا هذا الفصل - .

ومن ثم فالتزام الشريعة وتعظيمها عقيدة ، بل الإقرار بأصول الشريعة وما هو معلوم منها بالضرورة عقيدة وإنكاره كافر : كوجوب الصلاة والزكاة والصيام والحج ومشروعية الجهاد ، وتحريم الربا والزنا ونكاح الأخوات والخالات والعمات . . . إلخ .

ثانيها: أن الإجماع - وهو معتمد على الكتاب والسنة أو اجتهاد فيهما - يقطع النزاع والخلاف في كثير من المسائل ، وخاصة أصول المسائل والقضايا . ولهذا مع فتح باب الاجتهاد - وكونه من أعظم ميزات هذه الأمة - ، إلا أن المجتهدين لم

يختلفوا في كثير من القضايا .

ثالثها: أن الإجماع يقطع النزاع في فهم كثير من النصوص في دلالتها العقدية والتشريعية .

ومن ثم لا يبقى لأي متأول - مهما كان - مجال لأن يتلاعب بالنصوص كيفما يشاء ، ولهذا حُسم الأمر مع الباطنية والفلاسفة والقرامطة وغلاة الصوفية وأذئابهم وصارت تأويلاتهم إلحاداً وكفراً عند جميع المسلمين .  
ولنضرب لذلك أمثلة:

١ - إذا جاء مجتهد أو متأول يقرأ قوله تعالى : ﴿ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مِمَّنِّي وَثَلَاثَ رِبَاسٍ ﴾ (١) . وقال بجواز أن يجمع المسلم - غير النبي ﷺ - أكثر من أربع زوجات ، جاء الإجماع وحسم الفهم لهذا النص . وهو أنه لا يزيد على أربع .

٢ - وفي المحرمات حين يتلوا قوله تعالى : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمْ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرِبَائِكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنَ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً ﴾ (٢) . فيفهم من قوله اللاتي في حجوركم قيداً وشرطاً معتبراً . ومن ثم فالرببية التي هي بنت الزوجة ، تحل للدخل بأمرها إذا لم تكن في حجره .

تقول يأتي الإجماع ويحسم هذه القضية ، وهي أنها تحرم عليه سواء كانت في حجره أو لم تكن إذا كان قد دخل بأمرها .

٣ - ولن أمثل ثالثاً: بتأويلات الباطنية والقرامطة - وقد سبق عند الكلام عن المصدر الأول للتلقي وهو القرآن - نماذج من ذلك - .

ولكني سأمثل بمثال قريب : وهو أنه لما تكلمت إحدى المجلات هنا عن قضية الجنّ ومسهم للإنس . تلقف القضية وفرح بها عدد من الكتاب في هذه المجلة ، واعتبروها مدخلاً للمراجعة لكثير من المسلمات [والمقصود المسلمات الدينية] .

(٢) سورة النساء، الآية: ٢٣ .

(١) سورة النساء، الآية: ٣ .

فهذا كاتب في هذه المجلة يقول: (إن هذه القضية - أي قضية الجن ومسهم للإنس - ونحن هنا لسنا بصدد الحديث عنها - تقتضي مراجعة كثير من أساطيرنا وخرافاتنا مثل القول بأن الإنسان الأول كان طويلاً... )، هكذا يقول الكاتب .

ورأي هذا الكاتب يذكرنا بقضية كبرى عاشت أوربا ردهاً من الزمن تقررها وتدرسها ، حتى ألفت فيها آلاف الكتب والمراجع ، وانتقلت إلينا نحن المسلمين ، ولكن بعد أن بدأت أوربا تراجع عنها - ألا وهي نظرية داروين في التطور - وأن أصل الإنسان جرثومة ثم تطور إلى قرد ثم إلى هذا الإنسان العاقل المتميز .

وهي محسومة في ديننا بآيات من كتاب الله وهي الآيات التي تحكي قصة خلق آدم - عليه السلام في السماء - وإهباطه إلى الأرض ثم نشوء ذريته من بعده .

٤ - وفي المثال الرابع - ولن أمثل أيضاً بأمثلة من تأويلات الباطنية والقرامطة - ولكنني سأمثل بكلام - حدائثي كبير - يعتبر من أساتذة الهداية . وحيث تلقف بعض شبابنا ما وجد من كتبه في معرض الكتاب الدولي . وكأنها كنوز الذهب ، بل هي عندهم أغلى من الذهب بكثير .

ماذا يقول هذا المفكر المشهور في كلامه عن الندوة التي أقامها مركز الوحدة العربية بعنوان : (الحوار القومي الديني) - والقضية لها مساس بالمسلمين وتطبيق الشريعة الإسلامية - يقول وهو يتحدث عن مشكلة الحدود الشرعية :

يقول الجابري<sup>(١)</sup> : ( أريد أن أطرح مسألة الحدود ، خاصة حد السرقة للتفكير من منظور أسباب النزول : . . . لاحظ أولاً أن قطع يد السارق كان جارياً في جزيرة العرب قبل الإسلام . لماذا لجأوا إلى هذا التدبير؟ لأنه لم يكن من الممكن اللجوء إلى السجن مثلاً في مجتمع بدوي متنقل لا سلطة فيه ولا سجون ، مجتمع كان من الممكن للسارق أن يسرق ويهرب ويرحل . . . إذن كان قطع يد السارق هو التدبير العملي الوحيد الممكن للعقاب ، وأيضاً للتعريف بالسارق في مجتمع التنقل والبدواة .

إذن ، قطع يد السارق قبل الإسلام كانت تفرضه ظروف اجتماعية معينة . وأنا

(١) ندوة الحوار القومي الديني ص ٢٠٦ .

أتساءل: هل يجوز للمجتهد اعتبار هذا الأصل في قطع اليد في اجتهاداته من أجل جعل الشريعة تسائر تطور الأحوال بتطور العصور؟! ( انتهى كلام الجابري .

ومعنى كلامه: إنه لانتقلنا إلى العمران من البداوة نغير الحكم الشرعي من القطع إلى السجن، وهكذا يكون التجديد والتأويل في بقية أحكامنا الشرعية والعقدية .

**منهاجنا:** المنهاج الذي ندعو إليه ممتد على ممر الأعصار منذ عهد الصحابة - رضي الله عنهم - ومن جاء بعدهم وسار على طريقهم وحين قامت دعوة المجدد الشيخ محمد بن عبد الوهاب - رحمه الله تعالى - وتلامذته من بعده ركزت على تأصيل هذه الأصول، ولذا جاءت منهاج: العقيدة - والفقه - والحديث - والقرآن - والتفسير . توصل ذلك .

ولكن يلاحظ - ونحن في هذه الأيام وجود بعض الأمور الغريبة منها:

١ - الدق - بين حين وآخر - على وتر تطوير المناهج، ومن ثم يقع الخلط .

فإذا كانت الرياضيات - مثلاً - تتطور، ومن ثم نرى الحاجة إلى تطويرها، ومواكبة أحدث مناهجها ونظرياتها لكن - وللأسف - يأتي من يقول، وكذلك المناهج الشرعية هي بحاجة إلى تطوير .

فلماذا الربط بين هذا وهذا: بين ما يقبل التطور وما هو من ثوابت ديننا التي لا تتغير ولن تتغير - إن شاء الله -، ولو انتقل نصف سكان الأرض وعاشوا في المريخ، ومعذرة لهذه المبالغة .

٢ - الانفصام بين المدرسة والبيت والمجتمع ووسائل الإعلام من الناحية

التربوية:

من المؤسف حقاً أن يتحول: ما يأخذه طلابنا من دراسات شرعية إلى أن يبقى حبس المدرسة، أو منوطاً بالامتحان والنجاح في آخر العام، ثم نجد البيت، والمجتمع، الإعلام، يركز على هذا ويتبناه .

٣ - ودعوني أضرب مثلاً واقعياً: ندرس أبناءنا العقيدة والشريعة: هل نفرس في

نفوسهم:

أ- أن هذا دين الله تعالى، وأن تعلمه عبادة وطاعة لله تعالى وقربى إليه قبل أن يكون واجباً دراسياً.

ب- وهل قلنا لأبنائنا : إنكم لو لم يكن هذا في مناهجكم لعلمناكم إياه في البيت . خارج الواجبات المدرسية ؛ لأنه دين ، وواجب علينا وعليكم تعلمه وتعليمه .

ج- وأن مسلمين كثيرين - في مشارق الأرض ومغاربها - يعانون من هذه المشكلة . فأولادهم يدرسون دراسات علمانية أو مادية بحتة . ومن ثم فهم يعلمون أولادهم في البيوت أو المساجد - إن وجدت - العقيدة وأحكام دينهم .

من المؤسف حقاً : أن حقائق هذا الدين الكبرئ وأصوله العظام هانت على أولادنا لما ربطناها بالامتحان والشهادة وتوابعها .

\* \* \*

## مصادر التلقي (١)

## ٤- الإجماع

أولاً: تعريفه في الاصطلاح: هو اتفاق مجتهدي أمة محمد صلى الله وآله وسلم بعد وفاته في عصر من الأعصار على أمر من الأمور (٢)، ويُلاحظ في هذا التعريف:

(١) أن المقصود: اتفاق مجتهدي هذه الأمة من علماء الشريعة، ومن ثم فلا يدخل في ذلك العامة ومن شابههم.

(٢) أن هذا خاص بأمة محمد ﷺ فلا اعتبار باتفاق الأمم الأخرى كاليهود والنصارى ونحوهم.

(٣) أن الإجماع في عهده ﷺ لا اعتبار به، وإنما الاعتبار بالإجماع ما كان بعد وفاته، سواء كان في عصر الصحابة أو من بعدهم كما هو الراجح.

(٤) أن الإجماع شامل لكل أمر من الأمور من الاعتقادات والأقوال والأعمال وما يتعلق بها مما له حكم شرعي أو تعلق به؛ كاللغويات والعرف ونحو ذلك.

ثانياً: أدلته:

١ - قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصَلِّهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾ (٣).

قال الإمام الشافعي - رحمه الله - محتجاً بهذه الآية على وجوب اتباع الإجماع - ( لا يُصَلِّهِ جَهَنَّمَ عَلَىٰ خِلافِ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ أَوْ وَهُوَ فَرَضٌ ) .

وقال ابن كثير - رحمه الله - : ( ﴿ مَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ ﴾ أي : ومن سلك غير طريق الشريعة التي جاء بها الرسول ﷺ فصار في شقّ والشرع في شقّ، وذلك عن عمدٍ منه بعد ما ظهر له الحق وتبين له واتضح له . وقوله : ﴿ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ هذا ملازم للصفة الأولى، ولكن قد تكون المخالفة لنص الشارع،

(٢) إرشاد الفحول (٧١).

(١) الجمعة ٣/٨/١٤١٤ هـ.

(٣) سورة النساء، الآية: ١١٥.

وقد تكون لما أجمعت عليه الأمة المحمدية فيما علم اتفاقهم عليه تحقيقاً، فإنه قد ضمنت لهم العصمة في اجتماعهم من الخطأ، تشريفاً لهم وتعظيماً لنبیهم، وقد وردت في ذلك أحاديث صحيحة . . . ومن العلماء من ادعى تواتر معناها). ثم ذكر احتجاج الشافعي بهذه الآية على الإجماع<sup>(١)</sup>.

وهذا التلازم بين الوصفين هو الذي قرره شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - في عرضه لحجية هذه الآية على الإجماع. فكل من مشاققة الرسول واتباع غير سبيل المؤمنين متلازمان : (فمن شاققه فقد اتبع غير سبيلهم ، ومن اتبع غير سبيلهم فقد شاققه أيضاً، فإنه قد جعل له مدخلاً في الوعيد ، فدل على أنه وصف مؤثر في الذم ، فمن خرج عن إجماعهم ؛ فقد اتبع غير سبيلهم قطعاً)<sup>(٢)</sup>.

٢ - ومن أدلة الإجماع قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾<sup>(٣)</sup>.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - في هذه الآية : (فأمر بطاعة أولي الأمر من العلماء والأمرأ إذا لم يتنازعا، وهو يقتضي أن اتفاقهم حجة، وأمرهم بالرد عند التنازع إلى الله والرسول فأبطل الرد إلى إمام مقلد أو قياس عقلي فاضل)<sup>(٤)</sup>.

٣ - أحاديث الأمر بلزوم الجماعة - وهي كثيرة - ؛ ومنها :

أ - حديث أنس بن مالك - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال : «نضر الله عبداً سمع مقالتي هذه فحملها ، فرب حامل فقه غير فقيه، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه. ثلاث لا يغل عليهن صدر مسلم: إخلاص العمل لله عز وجل، ومناصحة أولي الأمر ولزوم جماعة المسلمين فإن دعوتهم تحيط من ورائهم»<sup>(٥)</sup>.

ب - حديث عمر - رضي الله عنه - حين خطب بالشام ، فقال : قام فينا رسول الله ﷺ مقامي فيكم فقال : «استوصوا بأصحابي خيراً ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم، ثم

(١) انظر تفسير ابن كثير (١/٥٥٤-٥٥٥).

(٢) مجموع الفتاوى (١٩/١٩٤)، وانظر: (١٩/١٧٨-١٧٩)، (٧/٣٨-٣٩).

(٣) سورة النساء، الآية: ٥٩. (٤) مجموع الفتاوى (١٩/٦٧).

(٥) رواه أحمد (٥/١٨١)، وصححه الألباني في السلسلة رقم (٤٠٤).

يفشوا الكذب حتى يُعجل الرجلُ بالشهادة قبل أن يسألها وباليمين قبل أن يسألها، فمن أراد بحبوحه اللجنة فليلزم الجماعة، فإن الشيطان مع الواحد، وهو من الاثنين أبعد...»<sup>(١)</sup>.

قال الإمام الشافعي - رحمه الله - معلقاً على حديث عمر - : (لم يكن للزوم جماعتهم معنى إلا ما عليه جماعتهم من التحليل والتحريم والطاعة فيهما، ومن قال بما تقول به جماعة المسلمين فقد لزم جماعتهم، ومن خالف ما تقول به جماعة المسلمين فقد خالف جماعتهم التي أمر بلزومها)<sup>(٢)</sup>.

ج- حديث حذيفة بن اليمان المشهور - وقد سبق ذكره في موضوع الفتن والمخرج منها -، وفيه يقول الرسول ﷺ: «تلزم جماعة المسلمين وإمامهم»<sup>(٣)</sup>.

د- حديث: «لا يجمع الله هذه الأمة - أو أمتي - على ضلالة»<sup>(٤)</sup>.

ه- حديث ابن عباس - رضي الله عنهما - عن النبي ﷺ قال: «من رأى من أميره شيئاً يكرهه فليصبر، فإنه ليس أحد يفارق الجماعة شبراً فيموت إلا مات ميتة جاهلية»<sup>(٥)</sup>.

وغيرها كثير... منها حديث الافتراق، وفيه: «كلها في النار إلا واحدة وهي الجماعة»<sup>(٦)</sup>، وقد اختلف العلماء في المقصود بالجماعة؛ على أقوال:

١ - أن المقصود بهم الصحابة - رضي الله عنهم - فلا يجوز العدول عن أقوالهم.

٢ - أن المقصود أئمة العلم المجتهدين الاعتباريين أهل السنة والجماعة: قال الترمذي - رحمه الله - : (وتفسير الجماعة عند أهل العلم هم أهل الفقه والعلم والحديث).

والمقصود: أولئك الذين اجتمعوا على اتباع الآثار عن النبي ﷺ ولم يتدعوا بالتحريف والتغيير ولم يبدلوا بالآراء الفاسدة).

(١) رواه الترمذي، والحاكم، وصححه ووافقه الذهبي، وهو صحيح.

(٢) الرسالة (٤٧٤ - ٤٧٦).

(٣) رواه البخاري (٣٦٠٦) وفي مواضع أخرى، ومسلم (١٨٤٧).

(٤) صححه الألباني (١٨٤٨) وهو حديث مروى عن عدد من الصحابة منهم ابن عمر وأنس وأبو ذر

وغيرهم رضي الله عنهم. (٥) رواه البخاري (٧١٤٣).

(٦) رواه أبو داود (٤٥٩٦)، والترمذي (٢٦٤٢)، وابن ماجه (٣٩٩١)، وأحمد (٣٣٢/٢) من حديث

أبي هريرة رضي الله عنه.

وهذا هو معنى ما روي عن جمع من العلماء ؛ كابن المبارك ، وأحمد بن حنبل ، والبخاري ، وغيرهم ، أن المقصود بالجماعة : أهل الحديث . وهم المقصودون بالطائفة المنصورة التي ورد فيها الحديث المتواتر المشهور .

٣ - أن المقصود بالجماعة : جماعة أهل الإسلام إذا أجمعوا على أمر من الأمور . أي : أهل الإجماع بمصطلح علماء أصول الفقه .

٤ - أن المقصود بالجماعة : جماعة المسلمين إذا اجتمعوا على إمام شرعي . فالواجب لزومه .

وهذه الأقوال كلها صحيحة ومتلازمة : فوجوب اتباع الصحابة - وأهل السنة والجماعة ، متلازمان ، وكذلك أيضاً إذا أجمعت الأمة على أمر من الأمور وجب الأخذ به ، وحرمت مخالفتهم فيه .

وكذلك إذا اجتمعوا على إمام شرعي وجب التزامه وعدم الخروج عليه ما دام يقيم الصلاة ولم يأت بالكفر البواح .

وعلى ضوء ما سبق ، فقد تقرر وتأصل في دين الإسلام عدد من الثوابت التي لم يختلف فيها أحد منذ عهد الرسول ﷺ وإلى يومنا هذا وإلى ما شاء الله تعالى .

وهذه الثوابت - المجمع عليها - ، تقوم على أسس يجب الوقوف عنده ، منها :

أولاً : أن الله تعالى حق ، موجود ، له الكمال في الربوبية والأسماء والصفات ، ومن كماله :

١ - علمه الأزلي الكامل ، فهو العالم بما كان وما سيكون وعليه فهو الأعلم تعالى بعباده وما يصلح لهم . فإذا ختم تعالى الرسالات برسالة محمد ﷺ . فهو تعالى عالم بتغيير الأحوال ونشوء الاختراعات المادية وغيرها . ومن ثم فلا بد أن تكون شريعته التي أمر بها عباده صالحة لهذه الأزمان ولغيرها .

٢ - العدل ، فهو - سبحانه تعالى - لا يظلم أبداً ، فإذا جاء في الشريعة - مثلاً - أن للذكر مثل حظ الأنثيين ، فلا يجوز أن يخطر ببال مؤمن أبداً إلا أن هذا هو كمال العدل من الله تعالى . ويرضى بذلك ويسلم . وهكذا بقية المسائل والأحكام . . . ، وكذا بقية أسمائه وصفاته ، وإنما ذكرت نماذج .

ثانياً: الثوابت تقوم على أسس: أن الخلق جميعاً - مؤمنهم وكافرهم - خاضعون لتدبير الله الكوني القدرى .

فهو الذي خلقهم ، وهو الذي أحياهم ، وهو الذي يدبر أمورهم : فهم يهرمون ، ويفكرون ، ويحزنون ، ويموتون . وكذلك : ألوانهم وأشكالهم ، وطولهم وقصرهم ، وأعمارهم . . . إلخ . كل ذلك لا إرادة لهم فيه .

وهذه تقتضى خضوعهم لشريعة هذا الخالق ، ومنهاجه بعبادته وحده لا شريك له ، قال تعالى : ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ .

وأي خلل في ذلك : فهو التناقض والحيرة والاضطراب .

ثالثاً: الغاية من الوجود الإنساني، لم تتغير على مدار التاريخ: فالأنبياء والرسل من ولد آدم إلى محمد ﷺ جميعاً أرسلوا بهذا الأمر المحقق لغاية الوجود لهذا الإنسان .

قال تعالى : ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (١) .

رابعاً: الحكم والسيادة، إنما هي لله تعالى:

أي أن الحاكمية في كل أمر من الأمور، إنما هو لله تعالى وللرسول ﷺ، وهذا بإجماع . فالديمقراطية : تجعل السيادة للبرلمان . مثال : حكم الخمر حين طرح في أحد البرلمانات العربية ، ثم ختم النقاش بالتصويت ، والحكم للأغلبية؟

\* \* \*

## مصادر التلقي (١)

## ٤- الإجماع

الثوابت: استعرضنا في الأسبوع الماضي عدداً من الثوابت؛ ومنها:

- ١ - أن الله حق موجود له الكمال التام في ربوبيته وأسمائه وصفاته .
- ٢ - أن الخلق جميعاً خاضعون لتدبيره الكوني القدري .
- ٣ - الغاية من الوجود الإنساني ، لم تتغير ، وهي : عبودية الله تعالى .
- ٤ - الحكم ، إنما هو لله تعالى .

واليوم نستكمل الحديث عن بعض هذه الثوابت :

خامساً: أن هذا القرآن كلام الله تعالى، وكل ما فيه فهو حق؛ لأنه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

ومن ثم، فما ورد فيه من أخبار أو أحكام أو مسائل أو قضايا ، فهي حق لا يجوز إنكاره :

١ - فلا يأتي مثلاً من ينكر وجود «الجن» ، أو «الملائكة» ، أو نحو ذلك ؛ لأن هؤلاء مذكورون في القرآن . فالإيمان بهم حق ثابت .

٢ - أو يأتي من يقول : إن بعض ما قصه الله تعالى ؛ كقصة إبراهيم وإسماعيل وبناء الكعبة ، أو نحوها مما ورد في القرآن ، لا تثبته حتى يثبت لدينا تاريخياً . أو يعترف به مستشرق أو ملحد لا يؤمن بالإسلام ، كما فعل البعض أمثال طه حسين في كتابه (في الشعر الجاهلي) ، الذي عدل فيه ، ثم عاد التلامذة ينشرون الكتاب الأصلي ! .

سادساً: أن الرسول ﷺ هو رسول الله، وهو خاتم الأنبياء والمرسلين: ومن ثم، فما جاء به من السنة - مما صح عنه - حق ثابت ولا شك [سبق تفصيله في المصدر الثاني]. ولكن هنا نقول :

إن هذا يعطينا «ثابتة» من الثوابت الكبرى، وهي: أن الدين عند الله الإسلام، والمقصود: الإسلام بمعناه الخاص؛ الذي جاء به محمد ﷺ. وعليه:

(١) فلا اعتراف بالأديان الأخرى، ولو كانت في الأصل سماوية. حتى ولو تخلى أصحابها عن عبادة المسيح وقالوا: إنه بشر، وإنه نبي فقط، وأخلصوا العبادة لله وحده لا شريك له. فلا يقبل منهم حتى يؤمنوا بمحمد ﷺ ويتبعوا. قال ﷺ: «والذي نفس محمد بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار»<sup>(١)</sup>.

(٢) الحوار بين الأديان يقتضي - ضمناً - الاعتراف بغير دين الإسلام، وهذا يخالف هذا الثابت الكبير - الذي لا يتغير - ألا وهو: الإيمان برسالة محمد ﷺ. سابعاً، وثامناً: ومن الثوابت ما دلُّ عليه قوله تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ﴾<sup>(٢)</sup>.

وقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾<sup>(٣)</sup>، وهاتان تدلان الآيتان على حقيقتين ثابتين، هما:

أ - أن أصل البشرية واحد. هو آدم الذي خلقه الله بيده. ﴿ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيْدِي ﴾<sup>(٤)</sup>. وبهذا يقطع دابر نظرية (داروين) فيما يختص بخلق الإنسان خاصة، فهو مخلوق، مكرم، مكلف. وكلما زاد التكليف، زاد التكريم. وعليه: فليست هناك قيمة مادية في هذه الأرض تعلقو قيمة هذا الإنسان أو تهدر من أجلها قيمته.

ب - يبنى على الحقيقة السابقة، وهي أن أصل الناس واحد، حقيقة أخرى، وهي:

(٢) سورة النساء، الآية: ١.

(١) رواه مسلم في الإيمان. ورقمه ٢٤٠

(٤) سورة ص، الآية: ٧٥.

(٣) سورة الحجرات، الآية: ١٣.

\* أنهم متساوون في أصل الخلقة وأن القيمة الوحيدة التي بها يتفاضلون فيما بينهم ، هي التقوى والعمل الصالح ؛ لا أية قيمة أخرى : من نسب ، أو مال ، أو طبقة ، أو جنس ، أو عرق ، أو لغة . . . أو غيرها من القيم الأرضية .  
تاسعاً: أن الدنيا دار ابتلاء وعمل، وأن الآخرة دار حساب وجزاء: وعليه ، فالحياة الدنيا ليست كل شيء ، إذ هناك ثلاثة أمور:

١ - أن كل إنسان مبتلى وممتحن . أي أنه يعيش مرحلة اختبار وامتحان إلهي .  
ومن ثم ، فلا حرية للإنسان أن يخرج عن هذا التكليف : ﴿ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ ﴾ (١) .

وعليه ، فالإنسان - حتى ولو زعم أنه يختار الانفلات ، وعدم الإيمان بالله ، وبما جاء عنه على السنة رسله الكرام - وحتى ولو ظن أنه أصبح حراً - فهو في الحقيقة - شاء أم أبى - داخل في هذا الامتحان والاختبار .

٢ - أن الآخرة دار جزاء وحساب :

أ - فهي حق لا شك فيه ؛ أي الإيمان باليوم الآخر والبعث بعد الموت .

ب - وسيجري فيها - أي الآخرة - الحساب والمجازاة .

ومن ثم ، فنهاية المطاف : إما الجنة ، وإما النار . وليس هناك خيار غيرهما .

٣ - وعليه ، فهناك حالتان للبشرية - لا علاقة للزمان والمكان بهما - وهما الهدى والضلال ، ولا تخرج البشرية عن هذا التقسيم ، وهذه الثوابت نعمة من الله تعالى على البشرية حين تتمسك بها :

١ - حتى يضبط الفكر الإنساني ؛ لأنه لو ترك إلى الفكر البشري والعقول البشرية ، لضاع وانفلت ولعاش تحت رحمة الشهوات والمؤثرات المادية والعقول الفاصرة تقوده كل يوم إلى منهج وإلى طريق .

٢ - وأروبا ، لما تخلت عن الدين ، وتركت تلك الثوابت . تخبطت في مناهجها وحضاراتها . حتى إنها لا تستطيع أن تضبط ما أنتجت من وسائل التدمير وغيرها .

وصدق الله تعالى ؛ إذ يقول : ﴿ وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ ﴾ (١).

وانظروا ما الذي جرته نظريات : ماركس ، وداروين ، وفرويد وسارتر وغيرهم من قادة الفكر الأوربي؟!

وما الذي أدت إليه نظريات وأخلاق الغرب من الربا، وتحرير المرأة والانهيار الأخلاقي ، وأخلاقيات السياسة؟!

وانتي أقول: إن من عنده أدنى مثقال عقل ، كان معجباً بديمقراطية الغرب وحرية ، وليبراليته لا يمكن أن يتعلق به وهو يشاهد ويسمع مقاييس الغرب وموازينه الدولية والأخلاقية ، وأقرب مثال على ذلك ما يجري هذه الأيام في البوسنة والهرسك ومآسي المسلمين هناك :

١ - من عار على الغرب في هذا الزمن ، ولا يعني أنهم تخلوا عن هذا العار في يوم من الأيام .

٢ - ثم لما قوي المسلمون هناك ، صاروا يتحدثون عن ضرب الصرب المعتدين وإحلال السلام . لماذا؟ لأن المسلمين أخذوا يقوون ، ويعتمدون - بعد الله - على أنفسهم .

٣ - عداؤهم لنا ، والله هو أشد من عدائهم للصرب . فهل نعقل ونعي؟!!!!

\* \* \*

## منهج السلف في العقيدة<sup>(١)</sup>

### منهج المعرفة

#### ١- العقل

تحدثنا - فيما سبق - عن مصادر التلقي في منهج السلف الصالح :

وتحدثنا عن :

(١) القرآن الكريم .

(٢) السنة النبوية .

(٣) الإجماع . وقضية الثواب والمتغيرات .

٢ - ونتحدث اليوم عن قضية من القضايا الكبار في مناهج الأمم جميعاً، ألا وهي : العقل ودوره في باب المعرفة، وهل هو مصدر من مصادر التلقي؟ أو أنه ملغي تماماً، ولا دور له؟ وهل تميز منهج أهل السنة والجماعة حينما عاجلوا هذه القضية المهمة؟

٣ - وقبل الحديث - عن مناهج السلف الصالح في هذه المسألة - أحب أن أعرض لخلفية تاريخية، مرت بها الأمة الإسلامية قديماً، وهي تمر بها الآن :

ألا وهي : انتقال الفكر اليوناني - قديماً - والأوروبي - حديثاً إلى المسلمين، وأثره عليهم وعلى مناهجهم وهل يمكن الفرق بين ما هو نافع ويمكن أن تستفيد منه جميع الأمم على حد سواء - وبين ما هو فكر عقدي أو اجتماعي أو أدبي لا ينفك عن أصوله وجذوره .

لذلك سنعرض لهذه القضية بعنوان : (الترجمة وأثرها في العقيدة والفكر والحضارة) .

أولاً: مقدمة : تعرض لـ:

١ - أهمية دراسة الموضوع دراسة متأنية . فإن الموقف من هذه القضية انتهى إلى رأيين:

أ- مادح ومعظم لهذه الحركة ، وأنها لقحت الفكر الإسلامي والحضارة الإسلامية بما كانت تفتقده .

ب- وقادح يرى أن كل ما ترجم ضلال مبین .

٢ - مرّ العالم الإسلامي - في تاريخه - بحالتين كبيرتين فيما يتعلق بالترجمة :

إحدهما: ما وقع من ترجمة زمن العصرين الأموي والعباسي .

والثانية: ما وقع من ترجمة في العصر الحديث ، إبان الاستعمار والغزو الأوروبي للعالم الإسلامي ، وإلى وقتنا هذا .

٣ - ولكن - بالنسبة للفقرة السابقة - يلحظ اختلاف وضع الأمة الإسلامية بين تينك الحالتين ، ويظهر الفرق من خلال عدة أمور:

أحدهما: أن الأمة الإسلامية في الحالة الأولى كانت عزيزة قوية . وفي الثانية كانت ضعيفة مقهورة .

الثاني: أن الأمة الإسلامية في الحالة الأولى كانت مريدة ، وهي صاحبة الاختيار ، فهي التي أرادت الترجمة . وفي الحالة الثانية كانت ضعيفة الإرادة .

الثالث: أن الفكر المترجم في الحالة الأولى ، لم يكن له دولة تحميه بشكل مباشر - وإن كان الصراع بين المسلمين وتلك الدول والحضارات لم يزل قائماً وقت الترجمة - . أما الحالة الثانية: فكان لذلك الفكر دول قوية تحميه وتدافع عنه ، بل وتظهر واقعاً عملياً لها كدول ، في تبنيه ونشره والاعتزاز به .

الرابع: أن الفكر المترجم في الحالة الثانية ، كان أشمل في موضوعاته من الحالة الأولى .

٤ - ومع هذه الفروق - إلا أن هناك نقاط التقاء بين المرحلتين ، أهمها:

• الأول: أن الفكر المترجم - في كل منهما - كان فكراً غريباً جداً على الإسلام

ومصادره ومنهجه .

- الثاني : أنه احتوى على جوانب متعددة فلسفية وطبية وأدبية ونحوها .
- الثالث : الإعجاب الذي قوبل به في كلا الحالتين .
- الرابع : أن غالبية الذين قاموا بالترجمة - في كلتا الحالتين - وخاصة في البداية ، هم من النصارى وأهل الكتاب ، أو من الملاحدة الذين يكتنون العداوة للإسلام .

ثانياً: الترجمة، وكيف بدأت؟

●●● كان المنهج الإسلامي في عهد الرسول ﷺ وعهد الخلفاء الراشدين، واضحاً كل الوضوح، وهو يقوم على:

أولاً: الكتاب والسنة ، وفيهما ما يغني عن أي أو مصادر أخرى . وهذا فيما يتعلق بأصول المعرفة ومصادرها ، وكذلك فيما يتعلق بالأحكام الشرعية التي تنظم شؤون الحياة كلها بلا استثناء .

وفضلاً عن الأدلة من نصوص الكتاب والسنة على ذلك ، إلا أنه من الناحية العملية يمكن أن نُورد:

- ١ - الموقف مما عند أهل الكتاب سابقاً، وقد كانوا موجودين داخل الجزيرة العربية، بل وفي قلب دار الهجرة. لا يستفاد منهم في حكم ولا خبر غيبي إلا أن يرد تصديقه في الكتاب والسنة ، وهنا يعول عليهما لا على ما قاله أهل الكتاب .
- ٢ - موقف الرسول ﷺ من عمر - رضي الله عنه - ( لما جاء معه قطعة من التوراة ، فغضب عليه وقال له فيما قال: لو كان موسى حياً ما وسعه إلا اتباعي )<sup>(١)</sup> .
- ٣ - الموقف من عبادات وعادات الجاهلية ، حيث كان ﷺ حريصاً على مخالفتهم .

ثانياً: ما كان من قبيل العادات ، فالأصل فيه الحل . وهذا كان واضحاً كل الموضوع عند أولئك السلف ، ولهذا:

(١) انظر مسند الإمام أحمد ٣/٣٨٧ ، ٤/١٦٥ .

- ١ - استفاد الرسول في حفر الخندق مما كان يفعله الفرس الوثيون .
- ٢ - وصنع له خاتماً يختم به رسائله لما قيل له : إن الملوك لا يقرؤون الكتاب إذا لم يختم .
- ٣ - ودون عمر - رضي الله عنه - الدواوين . . . إلخ . ولم يكن ذلك متعارضاً مع الأمر الأول .
- ٤ - يمكن أن يُسجل موقف عملي - إن صح - وهو أن ابن خلدون ذكر في المقدمة ، فقال :

«ولما فتحت أرض فارس ، وجدوا فيها كتباً كثيرة ، كتب سعد بن أبي وقاص إلى عمر بن الخطاب - رضي الله عنهما - يستأذنه في شأنها ونقلها للمسلمين . فكتب إليه عمر - رضي الله عنه - : أن اطرحوها في الماء ، فإن يكن ما فيها هديئ فقد هدانا الله بأهدئ منه ، وإن يكن ضلالاً فقد كفانا الله . فطرحوها في الماء أو في النار ، وذهبت علوم الفرس أن تصل إلينا»<sup>(١)</sup> .

●●● متى بدأت الترجمة؟:

- أ - القول المشهور : (إنه زمن الدولة العباسية) .
- ب - والصحيح أنه بدأ زمن بني أمية - خاصة زمن يزيد بن معاوية - بجهود ابنه خالد بن يزيد .

●●● أهم الأسباب لظهور الترجمة:

- أ - ظهور الفرق ونشأة الفرق الإسلامية . ومن المعلوم أن ظهورها كان سابقاً على بدأ حركة الترجمة . ويلحظ أن من أسباب نشوء الفرق : الفلسفة اليونانية .
- ب - انتهاج بعض الفرق المنهج العقلي ؛ كالمعتزلة ، حيث إنهم أدركوا أن في الفلسفة اليونانية ما يدعم منهجهم فحرصوا على الترجمة .
- ج - الاحتكاك المباشر مع بعض الفئات - ممن أسلموا أو لم يسلموا - الذين كانوا قد بنوا ثقافتهم قبل الفتح الإسلامي على تلك الأفكار بلغاتها .

(١) مقدمة ابن خلدون (٤٧٩) .

د- ضعف التمسك بالإسلام وبمنهجه . هـ- حب التجديد .

و- وأخر الأسباب وأهمها : ظن البعض أن هناك علوماً نافعة فيها - خاصة إذا ذكرت العلوم البحتة ؛ كالطب والرياضيات والفلك .

●●● أهم الموضوعات التي تُرجمت :

أ- في البداية كانت الترجمة لبعض العلوم البحتة ؛ كالكيمياء والطب .

يقول السيوطي في كتابه ( صون المنطق ) : «إن علوم الأوائل دخلت إلى المسلمين في القرن الأول لما فتحوا بلاد الأعاجم ، لكنها لم تكثر فيهم ولم تستهزأ بينهم لما كان السلف يمنعون من الخوص فيها»<sup>(١)</sup> .

\* وخالد بن معاوية ، أشهر من اهتم بالترجمة (ت ٨٥هـ) .

\* يذكر عن عمر بن عبد العزيز أنه أيضاً أمر بالترجمة . والحقيقة : أن هذا يحتاج إلى تحقيق علمي . ثم إن ما ورد عنه ، خاص بترجمة كتاب في الطب . فإذا صح ، فإنه لا يتعارض مع منهج عمر بن العزيز . بل هو من باب الاستفادة من هذا المجال العلمي البحت .

ب- أبو جعفر المنصور (١٣٦-١٥٨هـ) : اهتم بعلم النجوم ، ويلحظ أنه لم يترجم إلا كتب النجوم والهندسة والطب ، نقلت بعض الكتب أنه أيضاً ترجم بعض الكتب المنطقية لأرسطوطاليس .

ج- الرشيد (١٧٠-١٩٣هـ) : ودور البرامكة الخطير في الترجمة .

د- المأمون : أخطر مرحلة في الترجمة ، ودور المعتزلة .

أهم الآثار الخطيرة التي ترتبت على الترجمة: سؤال كبير: لم منع السلف من الخوض في المنطق والفلسفة؟ ، والجواب باختصار .

١- الخلط بين ما هو علمي بحث ، وبين ما هو فكري وأدبي له علاقة بالدين والخلق والسلوك .

(١) صون المنطق (١٢) .

٢- قويت شوكة رؤوس البدع - كالجهمية والمعتزلة - وصاروا يتناولون على عموم المسلمين .

٣- التصاق علم الكلام، والتصوف بالفلسفة . وترتب عليه : إضعاف شأن النبوة [دلالة ظنية]، [خبر الأحاد لا يحتج به في العقيدة] .

٤- استحواذ المنطق اليوناني على المناهج الفكرية لكثير من المسلمين، حتى في العصر الحديث، مع ظهور الفلسفة الحديثة التي هي امتداد للفلسفة اليونانية .

٥- دخول المنطق وعلم الكلام في أهم فنّ منهجي عند المسلمين وهو (أصول الفقه) .

أهم الاقتراحات أقدمها إلى أقسام الترجمة الموجودة اليوم:

١- وضع مادة حول الترجمة في العصور الإسلامية : حقيقتها وتقويمها . ومصادر هذه المادة كثيرة جداً .

٢- ما هو الجديد الذي يمكن أن يقدمه قسم الترجمة ؟ :

أ- المناهج المتخصصة، يجب أن تكون منتقاة . وأن لا تكون تخصص الدكتور المدرس لمادة ما هو المحدد لمنهج تلك المادة .

ب- وضع أسس وقواعد للترجمة تجمع بين المادة العلمية المتخصصة للترجمة . وبين الأسس الإسلامية لها . بحيث لا تحتوي المقررات على نصوص مصادمة لديننا الإسلامي في عقيدته وشريعته .

ج- هل سنبقى عالة على الغرب دائماً؟ وهل هناك خطة - ولو بعيدة المدى - تبدأ مساراً جديداً مستقلاً في هذا القسم المهم؟ .

ملحوظات و خلاصة لما سبق:

أولاً: إن الدولة الإسلامية كانت قوية في عهد الترجمة، فلم لم تتخذ موقفاً ناقداً بحيث :

أ- تأخذ وترجم العلوم البحتة المقيدة .

ب - وترفض أو تناقش العلوم الفلسفية الأخرى .

ثانياً: من أخطر ما ترجم كتب الفلسفة والمنطق والسؤال هنا هو: لِمَ لم تزدهر

ترجمة الفلسفة إلا في عهد المأمون العباسي؟

يقول عبد العزيز برهام: (حقاً لقد وصل النفوذ الإغريقي أقصاء في عهد المأمون

، كان المأمون ينصر طائفة المعتزلة التي تقول باتفاق النصوص الدينية مع أحكام

العقل، وكان لذلك يدعو إلى التحرر الفكري، وحاول أن يجد أدلة تؤيد هذه

النظرية في المراجع الفلسفية الإغريقية، وقد استولت هذه المسألة على جميع

مشاعرها حتى ليقال: إنه كان يحلم بها، وأنه رأى أرسطو في منامه يقول له: لا

يجود خلاف حقيقي بين الدين والعقل)<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

(١) عن حركة الترجمة، رشيد الجميلي (١١٢).

## منهج السلف في العقيدة<sup>(١)</sup>

### ٢- هل العقل مصدر؟

ما هو العقل؟

لقد تباينت الأقوال عند الفلاسفة والمتكلمين وغيرهم في تحديده وتعريفه - وهذه أولى درجات بيان أن العقل لوحده لا يكفي للوصول إلى الحقائق الغيبية .  
ولسنا بصدد الخوض في خلافهم - وهو خلاف كبير في الفلسفة القديمة والحديثة ، وهو من أهم أسباب تناقضها . ولكن نقول : إن العقل ، حين يطلق يشمل ثلاثة أمور:

أحدها : الغريزة التي أوجدها الله في الإنسان ، فتميز بها عن الحيوان ، وعليها مناط التكليف . ومن فقدتها فهو المجنون الذي رفع عنه القلم .

الثاني : العلوم المكتسبة وهذه على درجتين :

أ - علوم ضرورية : يتفق عليها جميع العقلاء ؛ كمعرفة أن الكل أكبر من الجزء ، وأن العشرة أكثر من الخمسة . . . . وهكذا .

ب - علوم نظرية يحصل عليها الإنسان من خلال التجارب والمناهج الاستدلالية . وهذه يتفاوت فيها الناس ، وقد يختلفون فيها .

الثالث : النتيجة العملية لوجود العقل السليم ، أي العمل بموجب العلم ، وهذا الجانب كثيراً ما يغفله أساطين الفلسفة ومن تأثر بهم .

فالمؤمن الصادق ، هو الذي إذا علم عمل ، وإذا علم أن الله واحد مستحق للعبادة وحده ، عمل بمقتضى هذا العلم ، فعبد الله وحده لا شريك له . وإذا علم أن محمداً رسول الله ، عمل بمقتضى ذلك وتابع الرسول ﷺ في جميع أموره . . . . وهكذا .

وهذه هي فائدة العقل وثمرته ، ومن لم يعمل بموجب ما هداه إليه عقله من خلال المنهج الصحيح ، فلا عقل له . وتعالوا إلى أمثلة من ذلك :

(١) الجمعة ٢٧/١٠/١٤١٤هـ .

أ - كان المشركون في زمن النبي ﷺ يعتبرون أنفسهم - بل ويعتبرهم غيرهم ممن حولهم -، من عقلاء الرجال، وكانوا أصحاب رأي وفكر وشجاعة . . . ولكنهم - مع علمهم بأن محمداً رسول الله ﷺ حقاً - ما آمنوا به ولا اتبعوه، بل بقوا على كفرهم وعنادهم حتى ماتوا. فأَيَّ عقل هذا الذي كانوا يوصفون به إذا لم يوصلهم إلى بدهيات الأمور والنجاة من عذاب الله يوم القيامة .

وهؤلاء المشركون هم الذين يقولون - وهم في النار يوم القيامة - : ﴿ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ (١).

وتجد الواحد من أشباه هؤلاء في هذه الأيام: يعظمه قومه وأصحابه ويُستقبل بالذبائح ويُودع في المطارات، وكلمات المدح تزجى إليه وعنه في غيبته وحضوره . . . وهكذا، فهو في ميزان الكثير من أعقل الرجال، ومع ذلك تجده:

١ - لا يصلي .

٢ - يستهزئ في مجالسه بالدين والشريعة وحملتها، إن لم يكن عنده من الزندقة ما عنده. وربما مات على ذلك، فأَيَّ عقل هذا الذي يُمدح به هذا الرجل!؟

ج - بل وكثيراً ما مدحنا الكفار - من الوثنيين - كأهل اليابان والصين - أو من أهل الكتاب - من اليهود والنصارى - كثيراً ما مدحنا عقولهم، نظراً لتقدمهم العلمي في أمور - غير التقدم التكنولوجي -؛ كالسياسة والاقتصاد وأمور الأسرة، وعلم النفس، وغيرها.

ولكن: هل فكرنا في أن هؤلاء لم تتعد عقولهم حدود الحياة الدنيا. ومن ثم لم يحققوا الغاية التي خلقوا من أجلها، فهم في ميزان الله تعالى كما قال تعالى: ﴿ أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ ﴾ (٢).

وأظنني في غنى عن بيان أننا لا نقول بأنه لا يُستفاد من تجاربهم العلمية التقنية، ولكنني أتكلم عن قضية كبرى أكبر من الدنيا كلها. ألا وهي قضية الإيمان والكفر وما يتبعهما.

قيل لرجل - وقد وصف نصرانياً بالعقل - . «مه، إنَّما العاقل من وحدَّ الله

(٢) سورة الاعراف، الآية: ١٧٩ .

(١) سورة الملك، الآية: ١٠ .

وعمل بطاعته» .

د- وكم من رجل عايش في شبابه - متنكراً لدينه - وتقلب في عدد من الاتجاهات الفكرية - شيوعية أو بعثية ، أو ناصرية قومية - أو ثورية تحررية - ، واستمر دهنراً يسخر من الدين ومن المتدينين ، وينظر إلى أهل الاستقامة والطاعة على أنهم دراويش ليس عندهم عقل ولا فكر ولا استقرار ، بل تأكلهم الوسوسة ليل نهار ، ولما عاش هذا الشاب - على هذه الحال - دهنراً ، مرت عليها تجارب مرّة :

فالعرب بفكره الشرقي والغربي ، لا يعمل إلا لمصالحه الخاصة ، وأصحابه الذين كان يُقتدى بهم ، التفوا على مصالحهم الخاصة - مادية أو وظيفية - أو غيرها . وكل واحد لا يريد أن يضيع فرصة في الظلام .

أقول : لما عايش هذه الأمور ، وقتلته الحيرة بين مثالية الفكر وطحن الواقع المؤلم . لم يجد النجاة إلا في العودة إلى المسجد والصلاة لله رب العالمين ، ولما عاد - ثبتنا الله وإياه - كان فعلاً هو العاقل حقاً .

هـ- قصة أبي سفيان بن الحارث : وهي قصة عجيبة لرجل عاش تجربة من هذه التجارب ، وهذا الشخص تميزت تجربته بعدة أمور :

أ- أنه ممن عاصر رسول الله ﷺ . ب- أنه أحد أقربائه الأدين .

ج- بل إنه أخ لرسول الله ﷺ من الرضاعة .

وأسوق هذا المثال ليعتبر به كل من عاش فترة ضلال وضياع ، ولمن يعيش في حيرة ، بل ولكل مؤمن ومؤمنة حتى يعلم أن الثبات على دين الله ، وعلى منهاج السلف الصالح ، هو السبيل الوحيد للاستقرار والاطمئنان النفسي .

فمن هو هذا الرجل : إنه أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب القرشي [أخو رسول الله ﷺ من الرضاعة] ، وهو غير أبي سفيان بن حرب بن أمية . وكان من الذين يشبهون رسول الله ﷺ .

كان أبو سفيان - لما صدع رسول الله ﷺ بدعوته - من الدّ أعداء هذه الدعوة . ومن أشرس المحاربين لها . بل إنه كان شاعراً مطبوعاً فاستخدم هذه القدرات في حرب الإسلام ورسول الله ﷺ خاصة .

وهو الذي عناه شاعر الرسول ﷺ حسان بن ثابت في قصيدته المشهورة، ومنها:

ألا أبلغ أبا سفيان عني      مغلغلةً فقد برح الخفاء  
هجوت محمداً فأجبتُ عنه      وعند الله في ذاك الجزاء

وقد عاش على هذه الحالة حرباً على الإسلام - وهو الهاشمي القرشي - بل وأخو رسول الله ﷺ من الرضاعة - . فكانت حياة الضياع والانحراف عدداً من السنين، فهل استمر على هذه الحال؟

لما أقبل رسول الله ﷺ عام الفتح إلى مكة . ضاقت عليه الدنيا بما رحبت . وأحس بوحشة وغربة وضيق شديدين، فلم يجد مخرجاً له إلا أن يذهب إلى رسول الله ﷺ ويطلب منه العفو ويعلن الدخول في الإسلام . فماذا جرى له؟

١ - روى ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: مر رسول الله ﷺ عام الفتح فأراد أبو سفيان بن الحارث الدخول عليه في موضع بين مكة والمدينة، فكلمته أم سلمة فيه، فقال رسول الله ﷺ: « لا حاجة لي فيه، إنه ابن عمي وهتك عرضي»، فلما علم أبو سفيان بن الحارث بذلك - وكان مع ابن له صغير - قال: والله ليأذنن لي رسول الله ﷺ أو لأخذن بيد ابني هذا، ثم لنذهبن في الأرض حتى نموت عطشاً وجوعاً، فلما أخبر بذلك رسول الله ﷺ أذن له .

٢ - ولما أراد الدخول عليه، قال له علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - : إيت رسول الله من قبل وجهه فقل له ما قال إخوة يوسف عليه السلام: ﴿ تَاللَّهِ لَقَدْ آتَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ ﴾<sup>(١)</sup> فإنه لا يرضى أن يكون أحد أحسن قولاً منه . فلما قال له ذلك . قال رسول الله ﷺ: ﴿ لا تُتْرَبُ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَفْئِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾<sup>(٢)</sup>، فأسلم وقبل منه وحسن إسلامه، وكانت له مواقف:

أ - فهو من القلائل الذين ثبتوا مع رسول الله يوم حنين .

ب - كان رسول الله ﷺ يحبه وشهد له بالجنة، وقال: أرجو أن يكون خلفاً لحمزة .

ج - ثم إنه سطر تجربته، فقال لرسول الله ﷺ:

(٢) سورة يوسف، الآية: ٩٢ .

(١) سورة يوسف، الآية: ٩١ .

لعمرك إني يوم أحمل راية  
لكالمدلج الحيران أظلم ليله  
أتاني هادٍ غير نفسي فدلني  
لتغلب خيل اللات خيل محمد

د- ولما انتقل رسول الله ﷺ إلى الرفيق الأعلى ، رثاه وبكاه كثيراً . وكان مما قاله

من قصيدة له :

أرقتُ فبات ليلي لا يزولُ  
فأسعدني البكاء وذاك فيما  
لقد عظمت مصيبتنا وجلت  
وأضحت أرضنا مما عراها  
فقدنا الرحي والتزليل فينا  
وليل أخي المصيبة فيه طول  
أصيب المسلمون به قليل  
عشية قيل قد قبض الرسول  
تكاد بنا جوانبها تميل  
يروح به ويغدو جبرائيل  
..... إلخ (١).

\* \* \*

(١) انظر في قصة أبي سفيان الحارث : سير أعلام النبلاء ١/٢٠٢ ، والإصابة لابن حجر ٨٦٧-٨٧ .

## منهاج السلف في العقيدة<sup>(١)</sup>

### ٣- أين يكون العقل؟

كثيراً ما يجري البحث والمناقشة حول مكان العقل من جسم الإنسان، وهل هو الدماغ أم القلب الذي في الصدر؟

أ- فالفلاسفة - والأطباء - وبالأصح غالب الأطباء - يقولون : إن محل العقل الدماغ فقط . وأما القلب فما هو إلا آلة لضخ الدم في جسم الإنسان . ولذا فالإنسان يعتبر ميتاً بموت الدماغ حتى ولو كان القلب ينبض بمساعدة الآلات ونحوها، ويقول بهذا القول المعتزلة وبعض الأحناف والحنابلة .

ب- وقال كثير من العلماء من المالكية والشافعية وبعض الحنابلة - وهو قول كثير من المفسرين - ووافقهم بعض الأطباء - : إن محل العقل هو : القلب . وقالوا : إن هذا هو الوارد في الكتاب والسنة :

١ - فمن القرآن: قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٍ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ (٢) .

وقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ (٣) . حيث جعل السماع للأذان والعقل للقلوب فقال: ﴿قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا﴾ .

وقوله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ \* عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ (٤) .

وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ (٥) .

حيث زاد المسألة تحديداً فنسب العمى إلى القلوب، وأوضح أن القلوب في الصدور .

٢ - ومن السنة: حديث رسول الله ﷺ الصحيح : «إن الحلال بين والحرام بين وبينهما

أمر مشتبهات لا يعلمها كثير من الناس...» وفي آخره: «ألا وإن في الجسد مضغة إذا

(٢) سورة ق، الآية: ٣٧ .

(١) الجمعة ٤/١١/١٤١٤ هـ .

(٤) سورة الشعراء، الآيتان: ١٩٣، ١٩٤ .

(٣) سورة الحج، الآية: ٤٦ .

(٥) سورة الحج، الآية: ٤٦ .

صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب»<sup>(١)</sup>.

وحديث رسول الله ﷺ الذي رواه الإمام أحمد: «القلوب أوعية وبعضها أوعى من بعض»<sup>(٢)</sup>.

ومن ذلك حديث شق صدره ﷺ - وهي قصة صحيحة -<sup>(٣)</sup>، وحديث الدعاء: «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك»<sup>(٤)</sup>.

وحديث: «إذا أذنب العبد نكت في قلبه نكتة سوداء، فإن تاب صقل منها...»<sup>(٥)</sup>، وحديث: «تعرض الفتن على القلوب كالحصير عوداً عوداً...»<sup>(٦)</sup>... وغيرها كثير.

وقبل أن أعلق على هذين القولين - حيث أصاب كل منهما في جانب - : أحب أن أبين ما يلي:

١ - أن الإنسان كائن متميز عن غيره من المخلوقات ولذا خلق الله أبانا آدم بيده ونفخ فيه من روحه، ومن الخطأ أن نقيس هذا الإنسان جملة بغيره من المخلوقات.

٢ - أن الروح التي في الإنسان تتعدى ما يفهمه البعض من أنها الفارق بين الحي والميت، بحيث تفهم على أنها النفس أو نبض القلب فقط.

وإنما الروح أمر نوراني علوي عجيب نعلم وجوده ولكن نجمله كثيراً. ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾<sup>(٧)</sup>.

وتعلق هذه الروح بالبدن له أحوال عديدة، في اليقظة والنوم، وفي الحياة وبعد الموت. ولذا جاء في الخبر الصحيح أن أرواح المؤمنين في الجنة في قناديل معلقة، و«أن أرواح الشهداء في حواصل طير خضر في الجنة تمرح وتأكل منها كما تشاء»<sup>(٨)</sup>.

(١) رواه البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩)، من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنهما.

(٢) رواه الإمام أحمد (١٧٢/٢).

(٣) حديث صحيح رواه الإمام أحمد (١٢١/٣، ١٤٩، ٢٨٨) من حديث أنس رضي الله عنه.

(٤) رواه مسلم (٢٦٥٤) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

(٥) رواه الحاكم (٥/١).

(٦) رواه مسلم (١٤٤)، وأحمد (٣٨٦/٥، ٤٠٥).

(٧) سورة الإسراء، الآية: ٨٥. (٨) رواه مسلم (١٨٨٧)، والترمذي (٣٠١١).

ولذا قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أحيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرَزِّقُونَ﴾ (١).

وإذا كان الأمر كذلك ، فما موقع هذه الروح من الجسد؟ وما علاقتها بالقلب؟  
أو الدماغ أو غيرهما؟

٣- وهذا الإنسان له أحوال عديدة بالنسبة لداخل نفسه ولعلاقته بغيره:  
فحالات الحزن، أو الخوف، أو الفرح، أو المحبة، أو التفكير، أو الإرادة، أو الاحترام، أو غيرها، هي حالات يمر بها كل إنسان، ويحس بأثرها في نفسه وجسده، وأقوى ما يتعامل معها من جسده هو قلبه، فالحب عند المحبين يطير له الفؤاد.  
والله يقول عن الكافرين: ﴿... سَأَلْفِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرَّغْبَ...﴾ (٢).

وقلب الأم يصير كالعصفور في المطر، حين تستقبل ابنها الذين غاب عنها مدة طويلة... وهكذا.

٤- أنك تجد قوة الرجال وشهامتهم لا ترتبط بالذكاء العقلي فقط. فكم من ذكي - يُضرب به المثل في ذكائه - تجده ضعيف الفؤاد من أجن الناس. وعكسه: فكم من شجاع قوي القلب ثابت الجأش، وهو متوسط العقل والذكاء.

٥- وقد ذكرنا فيما سبق أمثلة لأناس يعتبرون من عقلاء الرجال، ومع ذلك فعقولهم لم تدلهم على أبسط الأمور وأسهلها وهو: تحقيق العبودية لله تبارك وتعالى التي خلقوا من أجلها.

وعلى ضوء ما سبق نقول بالنسبة لموضع العقل:

إن العقل له تعلق بالقلب والدماغ جميعاً، فمبدأ الفكر والنظر الدماغ، ومبدأ الإرادة القلب، والعقل يُراد به العلم ويُراد به العمل، والعلم والعمل الاختياري أصله الإرادة، وأصل الإرادة في القلب، لكن المرید لا يكون مریداً إلا بعد تصور المراد في الدماغ.

فسيد الأعضاء الذي تتعلق به الإرادة والهداية، هو القلب كما في الحديث

(٢) سورة الأنفال، الآية: ١٢.

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٦٩.

السابق: «ألا وإن في الجسد مضغة...»، فهو أمير البدن، وبصلاح الأمير تصلح الرعية، وفساده تفسد<sup>(١)</sup>.

وعلى ذلك، فقد يوجد في الناس من يحصل له الفكر والنظر والعلم - الذي محله الدماغ - ولكنه فاقد لعقل الهداية الذي محله القلب.

(١) ونأخذ من ذلك درساً من أهم الدروس في حياتنا، ألا وهو أن العقل لو حده لا يمكن أن يكون مصدر هداية وإسعاد إلا إذا استضاء بنور الوحي والشرع. وهذه حقيقة لا شك فيها، قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ (٢).

وقال تعالى: ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مِنَّا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُينٌ لِّلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٣).

فالحياة الحققة لا تكون إلا بنور القلوب، ونور القلوب لا يكون إلا بالوحي واتباع ما جاء به الرسل.

(٢) وحينما ننظر إلى تاريخ البشرية الطويل: متى سعدت البشرية ومتى شقيت؟

سعدت في ظل الأنبياء - وعلى رأسهم خاتمهم محمد بن عبد الله صلى الله عليهم أجمعين، وشقيت لما تخلت عن ذلك.

ودعوني أضرب لكم نماذج لأولئك الذين اعتمدوا على العقل وحده: هل أوصلهم إلى الحقيقة التي يطلبون؟ وهل أدى بهم إلى السعادة؟

\*\* هذا سقراط الفيلسوف والطبيب اليوناني الشهير وأستاذ أفلاطون الذي هو أستاذ لأرسطو، ماذا قال سقراط في رحلته الفلسفية بعيداً عن الله وعن منهاج الأنبياء؟

لقد انتهت به علومه ومعارفه العقلية إلى أن يقول كلمته المشهور، «لا أعرف سوى شيء واحد هو أنني لا أعرف شيئاً»، هذا نهاية فلسفتك يا سقراط . . .

وما هي نهاية سقراط: إنه الانتحار حيث شرب السم في السجن حين جاءه

(٢) سورة طه، الآية: ١٢٤.

(١) انظر: مجموع الفتاوى ٩/ ٣٠٣-٣٠٤.

(٣) سورة الأنعام، الآية: ١٢٢.

الخبر أنه قد حكم عليه بالموت .

\* وهذا أرسطو - صاحب المنطق اليوناني والفلسفة اليونانية الشهيرة - يقال : إنه انتحر بشرب السم بسبب تحول الأمور ضده .

\* وهذا هربرت سبنسر - الفيلسوف المشهور - الذي توفي عام ١٩٠٣ م : لام نفسه في آخر أيامه على سخافة سعيه للشهرة الأدبية وتفويت سعادة الحياة . وقد خيل إليه : ضياع جهوده وعبث إنتاجه .

\* وهذا فردريك نيتشه : الفيلسوف المشهور الذي توفي عام ١٩٠٠ م . أتدرون ما أنتهت إليه حياته ، لقد انتهت حياته إلى الجنون .

هذه ملامح وأمثلة لمن أعرض عن الوحي .

أما فلاسفة الإسلام ومتكلموهم فقصاص حيرتهم وشكهم معروفة ومسطرة في الكتب ذكرها مترجموهم ، ولشيخ الإسلام ابن تيمية في بيان أحوالهم تلك كلام طويل في كثير من كتبه .

\* \* \*

## حماية النبي ﷺ جناب التوحيد<sup>(١)</sup>

أ - بيانه ﷺ لحقيقة التوحيد وفضله:

١ - حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه : « كنت رديف النبي ﷺ على حمار فقال: يا معاذ أتدري ما حق الله على العباد وما حق العباد على الله؟ قلت: الله ورسوله أعلم. قال: فإن حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً ، وحق العباد على الله أن لا يعذب من لا يشرك به شيئاً. فقلت: يا رسول الله ! أفلا أبشر الناس؟ قال: لا تبشروهم فيتكلموا»<sup>(٢)</sup> .

٢ - قال تعالى: ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴾<sup>(٣)</sup> .

٣ - عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه . والجنة حق والنار حق . أدخله الله الجنة على ما كان من العمل»<sup>(٤)</sup> .

٤ - حديث الا أخبركم بأكبر الكبائر . قال رسول الله ﷺ : « ألا أنبئكم بأكبر الكبائر (ثلاثاً) ؟ قالوا : بلى يا رسول الله ! قال : الإشراف بالله ، وعقوق الوالدين . وجلس وكان متكئاً فقال : ألا وقول الزور . قال : فما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت»<sup>(٥)</sup> . فلما أراد أن يحذر من أكبر الكبائر صدرها ، وذكر في مقدمتها الإشراف ، وما ذلك إلا لعظيم خطره ، وسوء عاقبة من أتى به .

٥ - وفي صحيح مسلم : « من لقي الله لا يشرك به شيئاً دخل الجنة ومن لقيه يشرك به شيئاً دخل النار»<sup>(٦)</sup> .

ب - بيانه ﷺ لأنواع من الشرك الأصغر وغيره الذي لا ينقص التوحيد وقد يؤدي إلى الأكبر في حالات . وهذا من باب سد كل المنافذ الموصلة إلى الشرك ، ومن ذلك :

(١) الجمعة ١٧/٣/١٤١٤هـ . (٢) رواه البخاري (٢٨٥٦) ، ومسلم (٣٠) .

(٣) سورة الأنعام ، الآية : ٨٢ . (٤) رواه البخاري (٣٤٣٥) ، ومسلم (٣٠) .

(٥) رواه البخاري (٢٦٥٤) ، ومسلم (٨٧) .

(٦) رواه البخاري (٢٦٥٤) ، ومسلم (٨٧) .

- (١) حديث : «أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر : الرباء»<sup>(١)</sup> .
- (٢) وعن عمران بن حصين أن النبي ﷺ رأى رجلاً في يده حلقة من صفر . فقال : «ما هذه؟» قال : من الواهنة . فقال : «انزعها ، فإنها لا تزيدك إلا وهناً»<sup>(٢)</sup> .
- وقال ﷺ : «من تعلق بتميمة فلا أتم الله له ، ومن تعلق ودعة فلا ودع الله»<sup>(٣)</sup> وفي رواية : «من تعلق بتميمة فقد أشرك»<sup>(٤)</sup> .
- (٣) في الصحيحين : عن أبي بشير الأنصاري رضي الله عنه «أنه كان مع النبي ﷺ في بعض أسفاره ، فأرسل رسولاً أن لا يقين في رقبة بعير قلادة من وتر - أو قلادة - إلا قطعت»<sup>(٥)</sup> .

- (١) رواه مسلم (٩٣) ، وأحمد (٣/٣٤٥) ، .
- (٢) حديث صحيح رواه أحمد (٥/٤٢٨ ، ٤٢٩) من حديث محمود بن لبيد رضي الله عنه .
- (٣) إسناده ضعيف . رواه ابن ماجه (٣٥٣١) ، وأحمد (٤٤٥) . وفي إسناده مبارك بن فضالة وهو مدلس وقد عنعن .
- والواهنة : قال في النهاية : (عرق يأخذ في المنكب وفي اليد كلها ، فيرقن منها . وقيل : هو مرض يأخذ في العضد . وربما علّق عليه جنس من الخرز . يقال له : خرز الواهنة . وهي تأخذ الرجال دون النساء ، وإنما نهاه عنها ؛ لأنه إنما أخذها على أنها تعصمه من الألم ، فكانت عنده في معنى التمام المنهي عنها .
- (٤) حديث حسن - إن شاء الله - رواه أحمد (٤/١٥٤) ، والحاكم (٤/٤١٧) ، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي ، وأبو يعلى (١٧٥٩) . وفي إسناده خالد بن عبيد وثقه ابن حبان وصححه له الحاكم والذهبي . وقال الهيثمي في إسناده (٥/١٠٣) : ورجاله ثقات .
- والتيممة : جمعها تمانم ، وهي خرزات كانوا يعلقونها على أنفسهم وأولادهم وأنعامهم يتقون بها النفس والعين والحسد . فأبطل الإسلام ذلك كله وجعله من الشرك ؛ لأن في تعليق التمانم والثقة بنفعها وضررها صرماً للقلوب والنفوس من التعلق بالخالق إلى التعلق بأمور لا تنفع ولا تضر . بل الضرر فيها محقق ؛ لأنها تفتح باب الشرك على من علقها .
- ومعنى «لا أتم الله له» هي جملة دعائية يعني لا أتم الله له ما أراد من الوقاية والتحصن .
- ومعنى (فلا ودع الله له) جملة دعائية والمراد : لا جعله الله في دعة ولا سكون ولا خفف عنه ما يريد تخفيفه ولا وقاه ما يريد الوقاية منه .
- (٥) رواه البخاري (٣٠٠٥) ، ومسلم (٢١١٥) .
- قال الحافظ في الفتح (٦/١٦٤) : ((قال ابن الجوزي : وفي المراد بالأوتار ثلاثة أقوال : أحدها : أنهم كانوا يقلدون الإبل أوتار القسي لثلاث تصيبيها العين بزعمهم ، فأمروا بقطعها إعلماً بأن الأوتار لا ترد من أمر الله شيئاً . قال ابن عبد البر : إذا اعتقد أنها ترد العين فقد ظن أنها ترد العين ؛ وذلك لا يجوز اعتقاده .
- ثانيها : النهي عن ذلك ؛ لثلاث تخرق الدواب بها عند شدة الركض .
- والثالث : أنهم كانوا يعلقون فيها الأجراس)) . انتهى باختصار .

وقال ﷺ: «إن الرقي والتمايم والتولة شرك»<sup>(١)</sup>.

(٤) حديث أبي واقد الليثي: قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ ونحن حدثاء عهد بكفر، وللمشركين سدرة يعكفون عندها ويتوطنون بها أسلحتهم يقال لها: ذات أنواط. فقلنا: يا رسول الله! اجعل لنا ذات أنواط. قال رسول الله ﷺ: «الله أكبر، إنها السنن كما قالت بنو إسرائيل»<sup>(٢)</sup>.

(٥) حديث علي رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لعن الله من لعن والديه، لعن الله من ذبح لغير الله، ولعن الله من أوى محدثاً، ولعن الله من غير منار الأرض»<sup>(٣)</sup>.

(٦) وقال النبي ﷺ: «لا تقولوا ما شاء الله، وشاء فلان، ولكن قولوا: ما شاء الله، ثم شاء فلان»<sup>(٤)</sup>.

جـ - حماية التوحيد:

١ - عن ثابت بن الضحاك رضي الله عنه قال: نذر رجل أن ينحر إبلاً بيوانه فأتني

(١) حديث صحيح رواه الحاكم (٤/٤١٧-٤١٨)، وصححه ووافقه الذهبي وهو كما قالوا. ورواه أحمد (٣٨١/١)، وأبو داود (٣٨٨٣)، وابن ماجه (٣٥٣٠).

التولة - بكسر التاء المثناة من فوق وفتح الواو - : ما يحجب المرأة إلى زوجها من السحر وغيره، وقد جعله النبي ﷺ شركاً؛ لاعتقادهم أن ذلك يؤثر ويفعل خلاف ما قدره الله تعالى.

(٢) حديث صحيح رواه أحمد في مسنده (٥/٢١٨).

(٣) رواه مسلم (١٩٧٨)، والنسائي (٧/٢٣٢)، وأحمد (١/١٠٨، ١١٨، ١٥٢).

أما لعن الوالدين، فمن الكبائر: بل من أكبر الكبائر؛ لأن في ذلك مناقضة للشرع ومقاصده في أمر الوالدين؛ إذ المأمور به هو البر والإحسان والدعاء لهما بالرحمة والمغفرة وغير ذلك من الخير.

وأما الذبح لغير الله: فالمراد به أن يذبح باسم غير الله نية أو نطقاً، كمن ذبح للصنم، أو للصليب، أو لموسى، أو لعيسى، أو غيرهما من الأنبياء والأولياء، أو الجن، أو الملائكة، أو الكعبة... ونحو ذلك. فكل هذا حرام، ولا تحل هذه الذبيحة سواء أكان الذابح مسلماً أو نصرانياً أو يهودياً.

أما المحدث: فهو من أفسد في الأرض بقوله أو بفعله وفيهم أهل البدع الداعين إليها.

أما منار الأرض: فهو أماراتها وعلاماتها ومعالمها التي يعرف بها الناس وجهاتهم في أسفارهم والأماكن التي يقصدونها.

(٤) رواه أحمد (٥/٣٨٤، ٣٩٣، ٣٩٤، ٣٩٨)، وابن ماجه (٢١٨) من حديث حذيفة رضي الله عنه.

ونحوه ما قاله رسول الله ﷺ: «لا تقولوا ما شاء الله وشاء محمد، قولوا: ما شاء الله وحده» وهذا حديث صحيح رواه أحمد (٥/٣٩٩)، والدارمي (٢٦٩٩) من حديث الطفيل بن سخبرة أخي عائشة رضي الله عنها لأماها.

النبي ﷺ فقال: إني نذرت أن أنحر إبلا ببوانة . فقال النبي ﷺ: «هل كان فيها ولن من أوثان الجاهلية يُعبد؟» قالوا: لا، قال: «هل كان فيها عيد من أعيادهم؟» قالوا: لا . قال رسول الله ﷺ: «أوف بنذرك، فإنه لا وفاء لنذر في معصية الله، ولا فيما لا يملك ابن آدم» (١).

فتحرى النبي ﷺ في السؤال عن هذه الأمور حتى لا تقع موافقة لأهل الشرك في عباداتهم حتى ولو كانت المشابهة ظاهرية وليست قلبية وقصدية، فلا يتشبه المسلم بهم في العبادة، لا في الوقت ولا في المكان ولا في الهيئة والكيفية. ومن أجل هذا نهى النبي ﷺ عن الذبح لله في مكان كان يُذبح فيه لغير الله، ويفهم من الحديث «لا وفاء لنذر في معصية الله» أنه لو ذبح في مثل هذا المكان، لكان ذلك معصية لله. ومن هذا الباب ما نهى النبي ﷺ من السجود في أوقات شروق الشمس وغروبها؛ لأنه في هذا الوقت يسجد لها الكفار. فلا يسجد المسلم في هذه الأوقات - وإن كان سجوده غير سجودهم، ونيته غير نيتهم - وهذا كله حماية للتوحيد وسداً لكل الأبواب والمنافذ المؤدية إلى نقصه أو نقضه.

٢ - النهي عن الغلو في الصالحين: فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كانت ود، وسواع، ويفوث، ويعوق أسماء رجال صالحين من قوم نوح. فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصباً وسموها بأسمائهم ففعلوا، فلم تعبد، حتى إذا هلك أولئك وتسخ العلم عُبدت» (٢).

٣ - حديث عائشة في الصحيحين أن أم سلمة ذكرت كنيسة في الحبشة وما فيها من الصور فقال ﷺ: «أولئك إذا مات فيهم العبد الصالح - أو الرجل الصالح - بنوا على قبره مسجداً، وصوروا فيه تلك الصور، أولئك شرار الخلق عند الله» (٣).

قال ابن حجر في الفتح: (وإنما فعل ذلك أوائلهم ليتأسوا برؤية تلك الصور ويتذكروا أحوالهم الصالحة فيجتهدوا كاجتهادهم، ثم خلف من بعدهم خلوف،

(١) رواه أبو داود (٣٣١٣)، والطبراني في الكبير (١٣٣٩)، كلهم من حديث ثابت بن الضحك رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٤٩٢٠)، وانظر كلام الحافظ ابن حجر - رحمه الله - على هذا الاثر في شرحه على البخاري .

(٣) رواه البخاري (٤٢٧)، ومسلم (٥٢٨).

جهلوا مرادهم ووسوس لهم الشيطان أن أسلافكم كانوا يعبدون هذه الصور ويعظمونها فعبدوها، فحذّر النبي ﷺ عن مثل ذلك سداً للذريعة المؤدية إلى ذلك . وفي الحديث دليل على تحريم التصوير<sup>(١)</sup> انتهى .

٤ - نهي عن اتخاذ القبور مساجد؛ لأنها وسيلة لعبادتها، وقال ﷺ: «اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»<sup>(٢)</sup> .

٥ - وقال: «لا تجعلوا بيوتكم قبوراً، ولا تجعلوا قبري عيداً، وصلوا عليّ فإن صلواتكم تبلغني حيث كنتم»<sup>(٣)</sup> .

٦ - قصة موته: عن عائشة رضي الله عنها، وعن ابن عباس رضي الله عنهما قالا: لما نزل بالنبي ﷺ طفق يطرح خميصة له على وجهه، فإذا اغتم كشفها عن وجهه، فقال وهو كذلك: «لعنة الله على اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» يُحذّرُ مثل ما صنعوا<sup>(٤)</sup> .

٧ - وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لتبعن سنن من كان قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع، حتى لو سلكوا جُحر ضبٌ لسلكتموه». قلنا: يا رسول الله! اليهود والنصارى؟ قال: «فمن؟»<sup>(٥)</sup> .

ومن أشهر المناسبات التي يقع فيها التجاوز لحمى التوحيد المولد النبوي الذي يقع في غالب احتفالاته وخاصة حين تتلى القصائد في مدحه - ألوان من الغلو فيه ﷺ، حتى قد يتعدى الأمر من التوسل بذاته وجاهه ونحو ذلك من البدع إلى الشرك الأكبر بدعائه والاستغاثة به وطلب الحاجات منه . وهذا مما لا يخفى، وهو معروف - وقد كُتبت حوله كتب ورسائل بينت بالأدلة أنه بدعة لا يجوز لمسلم المشاركة فيه - والله المستعان - .

(١) فتح الباري: (١/٦٢٦) .

(٢) رواه مالك في الموطأ مسلاً، كتاب الصلاة - رقم ٢٦١، ورواه البزار في المسند مرفوعاً، وصححه ابن عبد البر في التمهيد ٤٢/٥ .

(٣) حديث صحيح رواه أبو داود (٢٠٤٢)، وأحمد (٢/٣٦٧) من حديث أبي هريرة .

(٤) رواه البخاري (٤٣٥، ٤٣٦)، وفي غير موضع . ومسلم (٥٣١) . (تُرِدُ) يعني نزل الموت برسول الله ﷺ . (طَفِقَ) - بكسر الفاء وفتحها، والكسر أفصح وأشهر، وبه جاء القرآن -، أي: جعل .

(اغتمتُ) : إذا طرح على وجهه شيئاً يحبس نفسه عن الخروج .

(٥) رواه البخاري (٣٤٥٦، ٧٣٢٠)، وأحمد (٣/٨٤، ٨٥، ٩٤) .

## من حقائق التوحيد والأسماء والصفات:

### النفع والضرر بيد الله وحده<sup>(١)</sup>

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ \* قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ (٢).

لأبد من وقفة متأنية مع هذا النداء الرباني للناس جميعاً عن هذا القرآن العظيم الذي أنزله الله تعالى وحفظه إلى يوم القيامة: فهذا القرآن جاء:

- موعظة من ربكم .
- وشفاء لما في الصدور .
- وهدى .
- ورحمة للمؤمنين .

وإذا كان القرآن حوى هذه ، فهو أحق ما فرح به المؤمن ورضي به . فهو والله خير من الدنيا وما فيها ، وهو خير مما يجمعون .

إن الإنسان المسلم يجب عليه أن يعتصم بالله وبهذا القرآن الذي هو نور وكتاب مبين . وما أشدّ خسارة الإنسان في الدنيا والآخرة إذا أعرض عن القرآن واتخذ مهجوراً .

ونحن سنقف - إن شاء الله - مع دروس قرآنية نقف عندها وتلمس منها العلاج لأمرضنا ومشاكلنا .

إن من قضايا التوحيد والعقيدة التي يجب ألا تغيب عن المؤمن أبداً هي قضية الربوبية ، وأن الله تعالى بيده الأمر كله ، وإليه يرجع الأمر كله ، فالخلق والرزق ، والإحياء والإماتة ، والنفع والضرر ، والهداية والإضلال . كلها بيد الله تعالى وحده

= قوله : (لتتبعن) - بضم العين ، وتشديد النون - ، (سنن) - بفتح المهملة - أي : طريق .  
(من قبلكم) : أي الذين قبلكم .

(جَحْرُ ضَبٍّ) - بضم الجيم وسكون المهملة - : (ضب) - بفتح الضاد وتشديد الموحدة : وهي دويبة معروفة . وجحر الضب : يوصف بالشدة والضيقة والرداءة . ومع ذلك فإن هذه الأمة ستتبع آثار وطريقة أم اليهود والنصارى حتى لو دخل اليهود والنصارى في طرق ضيقة وردينة لتبعوهم .

(١) الجمعة ١٤١٥/٥/٩ هـ . (٢) سورة يونس ، الآيتان : ٥٧ ، ٥٨ .

لا شريك له . والخلق جميعاً - على مختلف رتبهم وقوتهم - لا يملكون من الأمر شيئاً .

وتعالوا نبداً بصفوة الخلق وخاتم الرسل محمد بن عبد الله ﷺ ، فقد أعلنها حقيقة إيمانية حين أمره الله بقوله :

﴿ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبُ لَاسْتَكْتَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (١) .

إن الرسول بشر، وهو مأمور أن يعلن أنه أمام غيب الله بشر من البشر، لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضرراً؛ لأنه لا يعلم الغيب . وإذا كان لا يملك لنفسه ذلك ، فمن باب أولى ، هو لا يملك لغيره شيئاً ، قال تعالى : ﴿ قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴾ (٢) .

ولقد جاء الخطاب من الله تعالى عاماً في مثل قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ \* وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴾ (٣) .

فالحكيم الخبير، على كل شيء قدير، هو القاهر فوق العباد ، فالأمر أمره والحكم حكمه، وهو كاشف الضر والبلاء وحده، فلا معقب لحكمه ولا راد لقضائه .

أما البشر جميعاً فهم ضعفاء، بل أضعف من الذباب : ﴿ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَفِيدُونَ مِنْهُ ضَعْفَ الطَّالِبِ وَالْمُطْلُوبِ ﴾ (٤) .

فهم لن يضرُوا أحداً إلا بإذن الله ، ولن ينفعوا أحداً إلا بإذن الله ، والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون .

وإذا تبينت هذه الحقيقة الكبرى التي دلت عليها هذه الآيات ودلَّ عليها حديث رسول الله ﷺ حين أوصى ابن عباس - رضي الله عنهما - وكان مما قال له : «واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لن يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت

(٢) سورة الجن، الآية: ٢١ .

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٨٨ .

(٤) سورة الحج، الآية: ٧٣ .

(٣) سورة الأنعام، الآيتان: ١٧، ١٨ .

الصحف، (١).

أقول: إذا تبين هذا فلماذا يتوجه الإنسان في حال السراء والضراء؟

هل يتجه لغير الله تعالى؟!!! قال الله تعالى: ﴿قُلْ أَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا﴾ (٢).

هذا النداء الإيماني العظيم، نداء التوحيد الخالص: قل لهم يا محمد - مستنكراً ما هم عليه من دعوة غير الله والاستعانة به والتعلق به، وإسلام مقادهم لهؤلاء الذين يدعونهم من دون الله، وهم لا يملكون نفعاً ولا ضراً سواء كان من يدعونه وثناً أو صنماً، جنأ أم ملكاً، شيطاناً أم إنساناً، فكلهم سواء في أنهم لا ينفعون ولا يضررون، فهم أعجز من النفع والضرر.

قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (٣).

فمن الذي يخشاه المؤمن؟ ومن الذي يرحوه؟ وليس أحد بكاشف الضر عنه! وليس أحد بمانع الرحمة عنه؟ وما الذي يقلقه أو يخيفه أو يصدّه عن طريقه؟

إنه متى استقرت هذه الحقيقة في قلب المؤمن، فقد انتهت الأمور بالنسبة إليه، وانقطع الجدل، وانقطع الأمل إلا في الله سبحانه، فهو كاف عباده، وعليه وحده يتوكلون: ﴿قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ (٤).

إنها الطمأنينة والثقة واليقين، الطمأنينة التي لا تخاف، والثقة التي لا تقلق، واليقين الذي لا يتزعزع.

وبهذا تستقر النفس وتطمئن لما يصيبها من خير أو شر وهي في طريقها إلى الله، فلا تطير جزعاً، ولا تبطر فرحاً، وهي تواجه السراء والضراء، ولا تشرك بالله سبباً ولا ظرفاً ولا حادثاً ولا بشراً، فكل ما يجري بقدر مقسوم لأجل معلوم، ومرد الأمر

(١) حديث صحيح، رواه: الترمذي (٢٥١٨)، وأحمد (٢٩٣/١)، ٣٠٣، ٣٠٧.

(٢) سورة الانعام، الآية: ٧١. (٣) سورة يونس، الآية: ١٠٧.

(٤) سورة الزمر، الآية: ٣٨.

كله في النهاية إلى الله : ﴿ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ (١).

فهو الاستسلام لقدر الله ، والطاعة لأمره بلا تردد ولا توقف ولا تلوؤ .

والقلب البشري الذي يوحد الله ، يدين لله وحده ، ولا يحني هامته لأحد سواه ، ولا يطلب شيئاً من غيره ، ولا يعتمد على أحد من خلقه ، فالله وحده هو القوي عنده ، وهو القاهر فوق عباده ، والعباد كلهم ضعاف مهازيل لا يملكون ضراً ولا نفعاً ، والله هو الغني ، والخلق كلهم فقراء إليه .

إن العبد إذا علم أنه لن يصيبه إلا ما كتب الله له من خير وشر ونفع وضر ، وأن اجتهاد الخلق كلهم على خلاف المقدور غير مفيد البتة ، علم حينئذ أن الله وحده هو الضار النافع ، المعطي المانع ، فأوجب ذلك للعبد توحيد ربه عز وجل وإفراده بالطاعة ، وحفظ حدوده ، فإن المعبود إنما يقصد بعبادته جلب المنافع ودفع المضار ، ولهذا ذم الله من يعبد من لا ينفع ولا يضر ، ولا يغني عن عباده شيئاً ، فمن علم أنه لا ينفع ولا يضر ولا يعطي ولا يمنع غير الله ، أوجب له ذلك إفراده بالخوف ، والمحبة ، والسؤال ، والتضرع ، والدعاء ، وتقديم طاعته على طاعة الخلق جميعاً ، وأن يتقي سخطه ، ولو كان فيه سخط الخلق جميعاً . وإفراده بالاستعانة به ، والسؤال له وإخلاص الدعاء له في حال الشدة وحال الرخاء ، بخلاف ما كان عليه المشركون من إخلاص الدعاء له عند الشدائد ونسيانه في الرخاء ودعاء من يرجون نفعه من دون الله .

إن رسول الله ﷺ لما صدع بالحق بين المشركين ، ظنوا أن هذا من محمد بن عبد الله ﷺ فقط . وأن المسألة بينهم وبينه ، ومن ثم فهم يعالجون الأمر بحسب قدرتهم وقدرته .

ولكن نسوا أن الأمر أكبر من ذلك بكثير : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ وَمَا مِنِّي إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ \* رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ ﴾ (٢).

قل لهم : إنه ليس لك من الأمر شيء ، وليس عليك منه إلا أن تنذر وتحذر ، وتدع الناس بعد إلى الواحد القهار ، ﴿ قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ \* أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴾ (٣).

(٢) سورة ص ، الآيتان : ٦٥ ، ٦٦ .

(١) سورة الفتح ، الآية : ١١ .

(٣) سورة ص ، الآيتان : ٦٧ ، ٦٨ .

إته لأمر عظيم أكبر مما يظنون من أموره القريبة ، إنه أمر من الله تعالى ، فهو دينه ، وهي رسالته ، وهي شرعه .

نعم . لقد تجاوز النبأ قريشاً في مكة والعرب في الجزيرة ، بل والجيل الذي عاصر الدعوة . جاوز الزمان والمكان ؛ ليؤثر في مستقبل البشرية كلها وتاريخها الطويل .

ولقد كانوا في الأول ، لا يدركون أن هذا النبأ إنما جاء ليغيّر وجه الأرض ، ويوجّه سير التاريخ ، ويحقق ما قضاه الله وقدره في هذه الحياة ، ويؤثر في ضمير البشرية وفي واقعها ، ويصل ذلك كله بالحق الكامن في خلق السموات والأرض وما بينهما . وأنه ماض كذلك إلى يوم القيامة .

إن قريشاً كان تظن أن الأمر أمرها وأمر محمد بن عبد الله فقط ونسوا أن الأمر أمر الله تعالى الواحد القهار .

\* \* \*

مع أسماء الله الحسنى<sup>(١)</sup>

## اسمه تعالى (اللطيف)

يقول تعالى: ﴿ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴾<sup>(٢)</sup>، ويقول تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذُرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾<sup>(٣)</sup>.

ويقول تعالى: ﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴾<sup>(٤)</sup>، ويقول تعالى: ﴿ هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ... ﴾<sup>(٥)</sup>، هذه آيات دالة على أن أسماء الله تعالى حسنى، ومعنى «الحسنى»، يتبين بما يلي:

١ - أنها كاملة؛ لأنها أسماء لله تعالى المستحق لكل كمال في ذاته وأسمائه وصفاته تعالى.

٢ - أنها دالة على صفات كمال عظيمة لله تعالى، فكل اسم من أسمائه تعالى يشتق له منه صفة كمال. فالرحيم دال على صفة الرحمة، والسميع دال على صفة السمع... وهكذا.

٣ - أنها حسنى؛ لأنها أسماء لله تعالى، وشرف العلم بشرف المعلوم والبارئ تعالى أشرف المعلومات، فالعلم به وبأسمائه أشرف العلوم، فهي حسنى من هذا الباب.

٤ - ومما يدل على أنها حسنى كاملة:

أ - أنه لا يدعى إلا بها.

ب - ليس فيها اسم يحتوي على الشر والشر ليس إليه تعالى، وإنما الشرفي مفعولاته.

ج - إن لله تسعة وتسعين اسماً من أحصاها دخل الجنة<sup>(٦)</sup>، كما ثبت في الحديث

الصحيح.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ١١٠.

(١) الجمعة ١٤/٤/١٤١٦هـ.

(٤) سورة طه، الآية: ٨.

(٣) سورة الاعراف، الآية: ١٨٠.

(٦) البخاري (٢٧٣٦) و (٧٣٩٢)، ومسلم (٢٦٧٧).

(٥) سورة الحشر، الآية: ٢٤.

ونحن - بين الفينة والآخرى - سنقدم دروساً في أسماء الله تعالى وتدبر معانيها وآثارها : وترجع أهمية طرح هذا الموضوع ؛ لأمر:

(١) تعلق الكثير بغير الله تعالى ، وخاصة فيما يتعلق بالآجال والأرزاق والنفق والضرر .

(٢) أن العلم بالله يفتح باباً عظيماً من الخشية لله تعالى والخوف منه ، والإخلاص له مع الرجاء والمحبة لله تعالى .

(٣) غفلة الكثيرين عن هذا الموضوع ، وخاصة ما يتعلق منه بالتربية للأسرة وللأمة .

(٤) بيان منهاج السلف الصالح في هذه الباب بشقيه :

- الإثبات لها كما وردت وكما هو مذهب السلف الصالح في ذلك .
- والعمل بمقتضاها ، حيث يتحول الإيمان بها وإثباتها إلى أعمال قلوب وجوارح وتقوى وعبادة لله تعالى ، ولا يبقى مجرد تصديق نظري بها .
- (٥) أن انتشار الشركيات كثيراً ما يدخل على الأمة من باب تعظيم غير الله تعالى :

- مثل تعظيم الرسول والغلو فيه إلى حد رفعه فوق قدره .
- وكذا تعظيم الأولياء وعبادتهم ودعائهم من دون الله .
- الخوف من الجن والسحرة والمشعوذين ، المؤدي إلى تعظيمهم أو تقديم القرابين طاعة لهم .

ومنهاج السلف الصالح في هذا الباب - باب الأسماء والصفات - واضح ومعروف . فهم يشبتون لله ما أثبتته لنفسه وأثبتته له رسول الله ﷺ من غير تعطيل أو تحريف أو تمثيل أو تكييف . . . إلخ .

من أسمائه تعالى: اللطيف، قد ورد هذا الاسم في كتاب الله تعالى في آيات - سبع آيات - ، فاسمع إليها وإلى مناسباتها :

١ - يقول تعالى عن نفسه : ﴿ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ

﴿١٠٣﴾ (١).

٢ - ويقول تعالى في وصية لقمان لابنه : ﴿ يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مَثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾ (١٦) ﴿٢﴾ .

٣ - ويقول تعالى : ﴿ وَأَسْرُوا قَوْلَكُمْ أَوْ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ (١٦) ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ﴿١٤﴾ ﴿٣﴾ .

٤ - ويقول تعالى عن يوسف في نهاية قصته حيث ذكر ما من الله به عليه من إخراجه من السجن وتخليص أهله من البدو قال : ﴿ ... إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ (١٥) ﴿٤﴾ .

٥ - وقال تعالى - مخاطباً نساء النبي ﷺ : ﴿ وَأذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴾ (٣٤) ﴿٥﴾ .

٦ - ويقول تعالى : ﴿ اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴾ (١٩) ﴿٦﴾ .

٧ - ويقول تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾ (٦٢) له ما في السموات وما في الأرض وإن الله لَهُ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٦٤﴾ ﴿٧﴾ .

واللطيف في أسمائه تعالى ، له معنيان :

أحدهما : أنه العليم الذي لا تخفى عليه خافية ، فهو الخبير بعباده وبأعمالهم ، وهو الذي أحاط علمه بالسرائر والخفايا ، وأدرك الخبايا والأمور الدقيقة .

الثاني : أنه اللطيف البرّ بعباده ، الذي يلفظ لهم من حيث لا يعلمون ، ويسبب لهم مصالحهم من حيث لا يحتسبون : قال تعالى : ﴿ اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴾ (١٩) ﴿٨﴾ .

قال ابن الأعرابي : اللطيف الذي يوصل إليك أربك في رفق ، ومن هذا قولهم : لطف الله لك ، أي أوصل إليك ما تحب في رفق . ومن ذلك لفظه تعالى بعباده

(٢) سورة لقمان ، الآية : ١٦ .

(١) سورة الانعام ، الآية : ١٠٣ .

(٤) سورة يوسف ، الآية : ١٠٠ .

(٣) سورة الملك ، الآيتان : ١٣ ، ١٤ .

(٦) سورة الشورى ، الآية : ١٩ .

(٥) سورة الاحزاب ، الآية : ٣٤ .

(٨) سورة الشورى ، الآية : ١٩ .

(٧) سورة الحج ، الآيتان : ٦٣ ، ٦٤ .

المؤمنين ، فهو الذي يوصل إليهم مصالحهم بلطفه وإحسانه من طرق لا يشعرون بها .  
وعلى هذا فاللطيف هو بمعنى : الخبير وبمعنى الرؤوف . وقد ذكره ابن القيم -  
رحمه الله - ، فقال<sup>(١)</sup> :

وهو اللطيف بعبده ولعبده      واللطف في أوصافه نوعان:  
إدراك أسرار الأمور بخبرة      واللطف عند مواقع الإحسان  
فيريك عزته ويُدي لطفه      والعبد في الغفلات عن ذا الشأن  
أهم الدروس من معرفة والإيمان بهذا الاسم:

١ - أن علم الله محيط بكل شيء ، وإن دق أو صغر ، فلا يخفي عليه شيء حتى  
اخردلة التي لا وزن لها ولا ترى ، قال تعالى : ﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنَّا جَاءْنَا بِكِتَابٍ لَّيْسَ كِذِّبًا  
فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِي بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾<sup>(٢)</sup> .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴾<sup>(٣)</sup> .

وقال تعالى : ﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنَ  
رِزْقٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حِجَّةَ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رُطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾<sup>(٤)</sup> .

فالخلق مهما بلغ علمهم ، ومهما وصلت إليه اختراعاتهم وتقدمهم المادي ، فإن  
علمهم لا يزال ناقصاً ، بل ما حصل لهم من علم قليل ، فهو من الله ولو شاء  
لسلبهم هذا العلم .

وبذا يعرف الفرد وتعرف الأمة حقيقتها وما وصلت إليه وتجعل علمها دليلاً على  
الله تعالى ، وسبباً لعبوديتها له تبارك وتعالى ، لا كما هو واقع اليوم في حضارة  
الغرب حيث جعلت علومها حجة لها على الكبر والكفر وعبادة الإنسان والشهوات  
والاستكبار على خالقهم وخالق الأرض والسماوات .

٢ - أن الله ، لأنه اللطيف العليم هو الذي يجازي عباده يوم القيامة على  
أفعالهم ، إن خيراً فخير وإن شراً فشر ، ولا يظلم ربك أحداً ، قال تعالى : ﴿ وَنَضَعُ

(١) الكافية الشافية لابن القيم ٢/٢٢٨ مع شرح ابن عيسى .

(٢) سورة لقمان ، الآية : ١٦ . (٣) سورة آل عمران ، الآية : ٥ .

(٤) سورة الانعام ، الآية : ٥٩ .

المُؤَاذِنِ الْقِسْطِ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ﴿١﴾

وإذا كان علمه قد أحاط بكل صغيرة وكبيرة فلا يخاف أحد ظلماً ولا هضماً، فلا المحسن يضيع من إحسانه مثقال ذرة، ولا المسيء يضيع من سيئاته مثقال ذرة. ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾﴾ (٢).

وبهذا يستيقظ قلب العبد المؤمن، ويراقب ربه دون الخلق في جميع أفعاله وأقواله، وهذا من أعظم الدروس التي يستفيد منها المؤمن من اسمه تعالى (اللطف)؛ لأن معناه الخبير بدقائق الأمور وصغيرها من أعمال العباد ومن غيرها.

٣- والله لطيف بعباده جميعاً يريدهم الخير واليسر، فمن لطفه بهم أنه تعالى تكفل بأرزاقهم وما يحتاجون إليه في معاشهم. وقد قيل في تفسير قوله تعالى عن لقمان أنه قال لابنه: ﴿يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ (٣). أنه لو كان للإنسان مثقال حبة من خردل في هذه المواضع جاء بها الله تعالى حتى يسوقها إلى من هي رزقه. فلا تهتم للرزق حتى تشتغل به عن أداء الفرائض وعن اتباع سبيل من أناب إلى الله (٤).

٤- ومن لطفه تعالى: خلقه للجنين في ظلمات ثلاث وحفظه فيها وتغذيته وهو في بطن أمه بواسطة السرة، إلى أن يولد وينفصل فيتغذى بالرضاعة التي يهديه إليها تعالى في أول لحظة يخرج إلى هذه الحياة، وحين يستغني عن اللبن يخلق الله له الأسنان التي تطحن الطعام وتقطعه، أما ما يتعلق بهضم الطعام داخل جسمه فذاك يطول شرحه، وفي كل حاسة من الحواس، بل في كل عضو من أعضاء الإنسان يظهر لطف الله بعباده. فانت يا عبد الله تتقلب ليل نهار في ألطاف الله تعالى، فأين الشكر على هذه النعم!!!

٥- ومن أعظم لطفه بعباده: أن الله لم يترك عباده هملاً بل حملهم المسؤولية، وأنزل عليهم كتبه وأرسل لهم رسله وأقام عليهم حجته، فكيف حالنا وحال البشرية لولا هذا اللطف العظيم والهداية الكبرى.

(٢) سورة الزلزلة، الآيتان: ٧، ٨.  
(٤) انظر: تفسير القرطبي (١٤/٦٦).

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٤٧.

(٣) سورة لقمان، الآية: ١٦.

إنها والله لنعمة لا تقدر بثمان أبدأ، وإنها لأغلى من الدنيا ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ  
فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ (١).

٦ - والله تعالى لطف بعباده المؤمنين الصادقين:

فمن لطفه بهم : أنه يعفو عن سيئاتهم ويتجاوز عنها .

ومن لطفه بهم : أنه يضاعف حسناتهم ويربيها لهم .

ومن لطفه بهم : أنه يزل السكينة على قلوبهم عند المصائب والشدائد فتتحول إلى  
خير وأجر ورضا وطمأنينة .

ومن لطفه بهم : أنه يسهل لهم الموت ويرسل لهم البشارات عنده .

ومن لطفه بهم : حياتهم الطيبة في البرزخ بعد الموت .

ومن لطفه بهم : أمنهم وأمانهم يوم الفزع الأكبر .

ومن لطفه بهم : اسكانهم الجنات وتخليدهم وإعطائهم ألوان النعيم ، وعلى  
رأسها النظر إلى الوجه الله الكريم .

فانظر - يا عبد الله - إلى هذه الألفاظ بعبادة المؤمنين ، فهل نرضى بغير الله  
معبوداً وهادياً ونصيراً؟

\* \* \*

### محبة الرسول ﷺ (١)

روى الإمام مسلم في صحيحه عن عبد الله بن عمرو بن العاص - رضي الله عنهما - أن النبي ﷺ تلا قول الله عز وجل في إبراهيم ﴿ رَبِّ إِنِّهْنْ أَضَلَّنْ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِ فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (٢). وقال عيسى عليه السلام: ﴿ إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (٣). فرفع يديه، وقال: اللهم أمتي أمتي، وبكى، فقال الله عز وجل: يا جبريل! اذهب إلى محمد - وربك أعلم - فسله. فاتاه جبريل عليه الصلاة والسلام فسأله فأخبره رسول الله ﷺ بما قال - وهو أعلم - فقال الله: يا جبريل! اذهب إلى محمد فقل: إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوءك (٤).

تأملوا حرص هذا النبي الكريم ﷺ على أمته، وخوفه عليها، فهو يدعو لها. وهو أيضاً يخاف عليها: ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (٥).

ولكن لماذا اختار إبراهيم وعيسى - حين تلا - ما ذكر الله في كتابه أنهم قالوه؟ وكيف قال: اللهم أمتي أمتي. وبكى؟ إنه يدل على أمرين:

أحدهما: أن إبراهيم هو الذي جاء بدين الحنيفية القائم على عبادة الله وحده، والبراءة من الشرك وأهله. ومن ثم كان له مع الأصنام وعباد الأصنام ما قصه الله علينا في كتابه. وأمر ﷺ باتباع ملته.

الثاني: وقوم عيسى هم الذين بدّلوا عقيدتهم التي جاء بها نبيهم القائمة على عبادة الله وحده لا شريك له. حيث غلّوا في نبيهم عيسى حتى ألّهوه وعبدوه من دون الله.

والنبي ﷺ يريد لأمته أن تسير على ما سار عليه من اتباع ملة إبراهيم حنيفاً. كما

(١) الجمعة ٨/٣/١٤١٦هـ، في جدة. وتم في الرياض ٢٩/٣/١٤١٦هـ.

(٢) سورة إبراهيم، الآية: ٣٦. (٣) سورة المائدة، الآية: ١١٨.

(٤) رواه مسلم (٢٠٢) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

(٥) سورة التوبة، الآية: ١٢٨.

أنه يخاف عليها أن تسلك مسلك النصارى فتغلو فيه ﷺ كما غلوا في عيسى (١).  
وإذا كان ﷺ حريصاً على أمته، فمن حرصه عليها أنه ما من خير إلا وأخبرها به  
ودلها عليه، وما من شر إلا وحذرها منه، حتى تركها على مثل البيضاء ليلها  
كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك.

وكان مما أمر به ﷺ وحض عليه: محبته وتوقيره وما يتبع ذلك، حتى قال ﷺ:  
«لا يؤمن أحدكم حتى يكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين» (٢).

والمحبة: عمل قلبي ورابطة تربط المؤمن برسول الله ﷺ بحيث تجعل قلبه  
وإرادته في تحقيق ما يحبه الله ورسوله من الأقوال والأعمال.

ولقد تفاوت الناس في تفسير وتطبيق هذه المحبة التي لرسول الله ﷺ، ما بين  
غال فيها حتى لا يبقى في قلبه حب لله تعالى إلا سيراً. وجاف فيها يعامل رسول  
الله ﷺ كما يعامل غيره من الناس.

ولكثرة الخلط في هذه المسائل أحببت أن أبين بعض الأمور في هذا الباب،  
فأقول:

أولاً: قد يقول قائل: إذا كانت محبة الرسول ﷺ يجب أن تقدم على محبة  
النفس والولد والوالد، فكيف تكون محبة الله التي قال تعالى عنها: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا  
أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ (٣). وقال: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ (٤). وقال: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ  
فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ (٥)؟ وما مقتضى صرف هذه العبادة لله؟

ينبغي أن يعلم أن محبة الله تعالى هي محبة العبادة التي لا تكون إلا له، وليس  
في الوجود من يستحق أن يحب لذاته من كل وجه إلا الله تبارك وتعالى. وكل ما  
يحب - سواه تعالى - فمحبته تبع لحبه تعالى. فالرسول ﷺ إنما يحب لأجل الله  
وعبادة الله، كما أنه يطاع لذلك.

(١) رواه البخاري (٣٤٤٥)، وأحمد (١/٢٣، ٢٤، ٢٧، ٥٥) من حديث ابن عباس رضي الله  
عنهما، ولفظه: «لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم، ولكن قولوا: عبد الله ورسوله».

(٢) رواه البخاري (١٥)، ومسلم (٤٤). (٣) سورة البقرة، الآية: ١٦٥.

(٤) سورة المائدة، الآية: ٥٤. (٥) سورة آل عمران، الآية: ٣١.

ولما كان ﷺ واجب الطاعة؛ لأنه رسول الله الذي لا ينطق عن الهوى - تلازمت طاعته مع طاعة الله، فلا تتم إحداهما إلا بالأخرى. وكذلك تلازمت محبته مع محبة الله، فلا تصح إحداهما إلا بالأخرى. ولذا قرن الله تعالى بينهما في قوله: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبُّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ (١).

وقرن الرسول ﷺ بينهما في قوله: «ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما...» (٢). فتلازمهما كتلازم الشهادتين.

ثانياً: هناك من يظن أن حب الرسول ﷺ إعجاب بشخصه وسمو أخلاقه وعظمة تعاليمه وآدابه. وهو خطأ؛ لأننا نرى كثيراً من الكفار ممن يعجبون بالنبي ﷺ ويقدرونه، ويكثرون الكلام في ذلك، وليس هذا إيماناً ولا حباً شرعياً.

هذا أبو طالب: كان يحب رسول الله ﷺ وينافح عنه، إلا أن حبه له لم يكن لله ولا طاعة له، فلم يثمن إيماناً ودخولاً في الإسلام، لأن حبه كان لقرابة وحمية وجاهلية.

ثالثاً: هناك من يظن أن حب الرسول ﷺ هو طاعته، وهذا غير دقيق أيضاً؛ لأنه - وإن كان من لوازم المحبة الطاعة - إلا أنه ليس من لوازم الطاعة المحبة. فإن الإنسان قد يطيع من يكرهه لغرض في نفسه يريد تحقيقه أو خوفاً منه.

لذا فمحبة الرسول ﷺ شيء يشمل الطاعة وغيرها. لكن من كبرى العلامات المحبة: الطاعة.

ومن مظاهر محبته: تمني رؤيته، والشوق إليه، وأن يشرب من حوضه، وأن يكون معه في الجنة.

- محبة قرابته المؤمنين وآل بيته الطيبين وأزواجه وصحابته.

- الاهتمام بستته والدفاع عنها، ونشرها.

(١) سورة التوبة، الآية: ٢٤.

(٢) رواه البخاري (١٦، ١٩٤١)، ومسلم (٤٣)، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

- تصديق أخباره وعدم الاعتراض على شيء منها مما صح سنده .

رابعاً : من علامات محبته ﷺ :

١ - طاعته وموافقته واتباعه: يقول القاضي عياض - رحمه الله - : (اعلم أن من أحب شيئاً أثره وأثر موافقته ، وإلا لم يكن صادقاً في حبه ، وكان مدعياً . فالصادق في حب النبي ﷺ من تظهر علامة ذلك عليه وأولها : الاقتداء به واستعمال سنته ، واتباع أقواله وأفعاله ، وامتنال أوامره واجتناب نواهيه ، والتأدب بأدابه في عسره ويسره ومنشطه ومكرهه ، وشاهد هذا قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (١) . وإيثار ما شرعه على هوى نفسه وموافقة شهواته ، قال الله تعالى : ﴿ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أَوْتُوا وَيُؤْتُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ (٢) .

٢ - تعظيمه ﷺ وتوقيره وتعزيره: قال تعالى : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً \* لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعَزَّزُوا وَتَتَّقُوهُ وَتَسْبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴾ (٣) . فالتسبيح لله : والتعزير والتوقير للنبي ﷺ . والتعزير : اسم جامع لنصره وتأييده ومنعه من كل ما يؤذيه ، وتوقيره : إكرامه وإجلاله وتكريمه وتعظيمه .

وقد وقع في هذه الأمة انحراف في هذا من طائفتين:

إحدهما: جاء منها الجفاء والتفريط في حقوقه ﷺ . ومن ذلك : الاستهانة بهديه وسنته ، وقلة المبالاة بها ، أو الاعتراض على حكمه ، أو الطعن في صدقه أو عدالته ، أو ترك الصلاة والسلام عليه عند ذكره . وما أكثر الجفافة من الملحدين والمارقين والعلمانيين .

والثانية : جاء منها الغلو فيه ورفع فوق منزلته التي أنزله الله إياها ؛ كاعتقاد أنه نور إلهي وأنه خلق من نوره الكون أو اعتقاد أنه يعلم الغيب ، أو أنه يكشف الضر ويشفي المريض ويغفر الذنب . . . إلخ .

وينبغي أن يُعلم أن حبه وتوقيره وتعظيمه ﷺ لم يترك بدون بيان وسنة تحدده ، ولم يترك لكل أحد أن يأتي بما شاء من ذلك ، ولذا فإن التعظيم نوعان:

(٢) سورة الحشر، الآية : ٩ .

(١) سورة آل عمران، الآية : ٣١ .

(٣) سورة الفتح، الآيات : ٨ ، ٩ .

أحدهما: ما يحبه المعظم ويأمر به ويرضاه ويثني على فاعله ، فهذا هو التعظيم المشروع .

الثاني : ما يبغضه ويكرهه ويذم فاعله . فهذا ليس بتعظيم بل هو مناف للتعظيم .  
والنوع الأول كثير ومعروف ومبثوث في الكتاب والسنة .

والنوع الثاني أيضاً قد وردت نماذج له في السنة ؛ كقوله : «لا تطروني كما أطرت النصارى المسيح ابن مريم إنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله»<sup>(١)</sup> .

وقوله : «لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد...»<sup>(٢)</sup> .

وقال لمن قاله له ما شاء الله وشئت : «أجعلتي لله عدلاً ، بل ما شاء الله وحده»<sup>(٣)</sup> .

والسؤال: هل الرافضة الذين ألَّهوا عليّ بن أبي طالب - رضي الله عنه - أو ادَّعوا له النبوة - كانوا معظمين له؟

وهل النصارى الذين ألَّهوا عيسى - عليه السلام - هم معظمون له؟

والجواب واضح : إن هذا ليس بتعظيم ، بل هو غلو وشرك .

وكذا يقال فيمن عظم النبي ﷺ تعظيماً غير مشروع .

\* \* \*

(١) رواه البخاري (٣٤٤٥) ، وأحمد (١/٢٣ ، ٢٤ ، ٢٧ ، ٥٥) .

(٢) رواه البخاري (٤٣٥) ، ومسلم (٥٣١) .

(٣) رواه الإمام أحمد في مسنده (١/٢١٤ ، ٢٨٣ ، ٣٤٧) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما .

## الوطنية وإحياء الآثار الجاهلية<sup>(١)</sup>

سؤال يطرحه المسلم في هذه الأيام على أمته؟ يحتاج إلى جواب عملي ونظري، خلاصته:

هل فعلاً أن أمتنا الإسلامية في عصرها الحاضر لم تعرف بعد ولم تدرك موقعها بين الأمم؟ ومن ثم فهي تتخبط بيناً وشمالاً، مشرقاً ومغرباً. وكأنها بقايا أمة منقرضة لا عقيدة عندها ولا شريعة، ولا تاريخ ولا حضارة؟

وإلا فما الذي يفسر مسيرتها في هذا القرن الحادي والعشرين الميلادي؟ حيث يقود زمامها العلمانيون تارة، والقوميون تارة أخرى، وتلامذة الفكر الغربي تارات وتارات.

لقد مرَّ بعالمنا الإسلامي - في أثناء الاستعمار - محن تخللتها تيارات فكرية متنوعة تستهدف العقيدة والأخلاق، وقد دعمها الأعداء وأوحى بها الفكر الغربي والحضارة الأوروبية، وهي تقوم على ثلاث محاور:

المحور الأول: الدعوة إلى الحرية الشخصية والفكرية.

المحور الثاني: الدعوة إلى العلمانية وفصل السلطة الدينية عن السلطة المدنية.

المحور الثالث: الدعوة إلى تحرير المرأة.

وفيما بين ذلك، الدعوة إلى تطوير التعليم، وتربية الأمة على المناهج الغربية، وعزلها عن منابعها الأصيلة.

وها أنا أقدم لكم نماذج - مما يسمح به وقت الخطبة ومنهجها المقتضي لكونها مفهومة لدى الحاضرين ما أمكن - .

فقد عمَّ العالم العربي وغيره من بلاد الإسلام دعوات إلى القومية، العربية، والهندية، والتركية . . . وغيرها. وقامت هذه الدعوات مدعومة من الاستعمار، وكان للنصارى العرب الدور الكبير في الدعوة إلى القومية العربية، فحملوا لواءها بكل قوة.

وصاحب هذه الدعوات القومية، دعوات وطنية خاصة بكل دولة، عمادها بعث التاريخ السابق على الإسلام، أي تاريخ الجاهليات الوثنية، وإحيائها وإبراز عظمتها. وكان من أبرز الوسائل لذلك، أمر ربما لا ينتبه البعض لخطورته وأثره العقدي في الأمة الإسلامية، ألا وهو:

الاهتمام الشديد بالآثار في بلاد الإسلام، وقد بدأ هذا الاهتمام بنشاط قوي مفاجئ، لبعوث الآثار الأجنبية بعد الحرب العالمية الأولى. حيث جاءت هذه الوفود إلى بلاد الإسلام تنقب عن تلك الآثار القديمة وتكتب عنها، وتعلم شعوب المنطقة أهميتها التاريخية والمالية.

فهل كان هذا الاهتمام الغربي بآثارنا القديمة - وخاصة ما كان قبل الإسلام - عفويًا ونابعًا عن نية سليمة؟ دعوني أضرب مثالاً:

لقد أعلن الثري الأمريكي (روكفلر) بعد الحرب العالمية الأولى - أي قبل ما يقارب ثمانين عاماً - أعلن عن تبرعه بمبلغ عشرة ملايين دولار لإنشاء متحف للآثار الفرعونية يلحق به معهد لتخريج المتخصصين في هذا الفن. ملايين أظنها توازي ميزانية دولة من الدول. ينفقها هذا الثري الغربي على إحياء الآثار الفرعونية في بلاد الإسلام - مصر - ، فما الذي أثمرته مثل هذه الجهود؟

لقد قامت في بلاد الإسلام دعوات متعددة ولكل إقليم جاهلياته القديمة، مع تربية الأمة عليها من خلال الوسائل المختلفة - وخاصة التعليم والإعلام - .

وقد لا تصدقون أن الشاعر أحمد شوقي - الذي يحوي ديوانه عدداً من القصائد الإسلامية - قال قصيدة يجد فيها الفراعنة وقد أهدى هذه القصيدة إلى المستشرق (مرجوليوت) أستاذ اللغة العربية وأستاذ عدد من مفكري مصر في ذلك الوقت، وقال شوقي في مقدمة الإهداء له: «نظمناها تغمياً بمحاسن الماضي، وتقييداً لآثار الآباء، وقضاءً لحق النيل الأسعد الأجد، ونسبها إليك عرفاناً لفضلك على لغة العرب وما أنفقت من شباب وكهولة في إحياء علومها ونشر آدابها».

ومما قاله في هذه القصيدة - واسمحوا لي في هذا النقل فإن الغرض من ذلك نقله على سبيل التحذير والرد وبيان باطله. يقول:

أين الفراعنة الذين استذرى بهم عيسى ويوسف والكليم المصنق

الموردون الناس منهل حكمة  
الرافعون إلى الضحى آباءهم  
وكأنما بين البلى وقبورهم  
فحجابهم تحت الثرى في هيئة  
بلغوا الحقيقة من حياة علمها  
وتبينوا معنى الوجود فلم يروا  
ثم يقول :

لا الفرس أوتوا مثله يوماً ولا  
فرعون فيه من الكئاب مقبل  
تعنو لعزته الوجوه ووجهه  
آبت من السفر البعيد جنوده  
ومشى الملوك مصفدين خدودهم  
مملوكة أعناقهم ليمينه  
بغدادُ في ظل الرشيدِ وجلقُ  
كالسحب قرنُ الشمس منها مفتق  
للشمس في الآفاق عانِ مطرقُ  
وأنته بالفتح السعيد الفيلقُ  
نعلُ لفرعون العظيم ونُمرقُ  
يأبى فيضرب أو يمن فيحتق

ويلاحظ كيف جعل الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - يستقون من كلم  
الفراعنة ، بل استذرى بهم عيسى ويوسف وموسى - عليهم السلام - ثم يجعل  
حضارتهم أعلى من حضارة المسلمين في بغداد ودمشق .

وفي سنة ١٩٥٣م - ١٣٧٣هـ عقد مؤتمر للثقافة الإسلامية برعاية جامعة  
برنستون ومكتبه الكونجرس بواشنطن . قدمت فيه عدد من البحوث ، وشارك فيه  
عدد من الباحثين من العالم الإسلامي ومن الغربيين ، كان منهم عدد من الأمريكان  
قسس يحترفون التنصير : كالدكتور (ميلر بروز) أستاذ الفقه الإنجليزي في جامعة بيل ،  
و (هارولد سميث) أستاذ ونائب رئيس قسم الديانات بكلية ويسترن . وكان هذا  
القياس قبل ذلك رئيساً لقسم الفلسفة والأخلاق بالجامعة الأمريكية بالقاهرة .  
وغيرهم ممن لهم مناصب مربية .

وقد ترجمت بحوث هذا المؤتمر إلى اللغة العربية بعنوان الثقافة الإسلامية والحياة  
المعاصرة ، وفي مقدمته تعريف بالباحثين المشاركين .

ولسنا بصدد مناقشات وأطروحات هذا المؤتمر المتفرقة حول الإسلام . وإنما الذي لفت الانتباه أن باحثين غربيين ، كتبوا بحثين عرضوا فيه لقضية الآثار وأهمية إحيائها في البلاد الإسلامية .

يقول أحدهما (د. كون): «منذ الآن يجب أن يبذل علماء الآثار الغربيون جهداً مشتركاً لتدريب علماء الآثار المسلمين حتى يستطيعوا القيام بالعمل الذي يقومون به . . . ويجب أن يبذل كل جهد ممكن للتأكد من أن هذه الأبنية والأهرام والتماثيل والنقوش سيحافظ عليها» .

ويقول الباحث الثاني (د. ولسون): «منذ حوالي قرن مضى - وهذا الكلام سنة ١٣٧٣ هـ أدت عمليات التنقيب الناجحة التي قام بها بوتلا ولابارد في العراق وماريت في مصر وشليمان في تركيا ، إلى تأسيس مصالح للإشراف على التنقيب وإلى إنشاء متاحف وطنية» .

ثم يقول بعد حديثه عن سقوط الدولة العثمانية : «والذي حدث هو أن عالم الآثار الغربي في كل دولة من تلك الدول ، قد ساعد في إعداد قانون خاص بالآثار للبلد الإسلامي الذي يعمل فيه وأصبح مستشاراً لموظف وطني عيّن من حكومته مديراً لمصلحة الآثار» .

ثم يقول مذكراً بما جرى في الغرب من رفضته لمسيحيته وعودته إلى وثنياته الكلاسيكية :

«لقد كان الغرب من الثقة بقوته الفكرية وبإيمانه الديني بحيث اتخذ أساساً له مواد تنتمي إلى عصر سابق على المسيحية ، وقد تمكن بالاعتماد على هذا الأساس القديم من أن يدرس نفسه ويخطط سبيله للمستقبل ، فهل يصدق هذا القياس على الإسلام؟» .

ما الهدف؟ الهدف واضح ؛ تنشئة الأجيال على القيم التي تستند إلى أساليب الحياة والفكر في هذه الجاهليات الوثنية التي عفى عليها الإسلام .

هذا نموذج لهذه الحرب الموجهة التي تريد أن تفصل بين الأمة الإسلامية وعقيدتها وشريعتها وحضارتها الإسلامية ، وأن يستبدل بها جاهليات وقوميات في كل بلد إسلامي .

١- يوم عاشوراء والرافضة<sup>(١)</sup>

في شهر الله المحرم هذا ، يستقبل المسلمون - في كل مكان - يوماً من الأيام الفاضلة ليصوموه متقربين إلى الله تعالى . فعن ابن عباس - رضي الله عنهما - أنه سُئل عن صوم يوم عاشوراء ، فقال : ما رأيت رسول الله ﷺ صام يوماً يتحرى فضله على الأيام إلا هذا اليوم - يعني يوم عاشوراء - وهذا الشهر - يعني رمضان -<sup>(٢)</sup> .

وقال فيه رسول الله ﷺ - كما في صحيح مسلم عن أبي قتادة - : « احتسب على الله أن يكفر السنة التي قبله » .

ولذا كان الصحابة يحرصون على صيامه حتى كانوا يصومونه أطفالهم ، كما ثبت في الصحيحين وغيرهما عن الربيع بنت معوذ - رضي الله عنها - في صوم عاشوراء - قالت : « فكتنا بعد ذلك نصومه ونصوم صبيانا الصغار منهم ، فإذا سألونا الطعام أعطيناهم اللعبة تلهيهم حتى يتموا صومهم »<sup>(٣)</sup> .

وفي مقابل هذه الطريقة السنية الشرعية عند المسلمين ، يقف الرافضة ليتخذوه مآتماً ، ولا كالمآتم ، لأجل قتل الحسين بن علي - رضي الله عنهما - فيه .

والذي دعاني إلى الحديث - ولو مختصراً - عن بعض عقائد الرافضة ، أمران : أحدهما : أنني كنت وعدتكم الحديث عن استكمال موضوع الوحدة بين الأمة الإسلامية .

والرافضة - وكثير من الجهلة بمذهب الرافضة - طالما تحدثوا عن الوحدة بين أهل السنة والرافضة . ثم ينسبون رفضها إلى من يسمونهم متعصبة أهل السنة . والرافضة : يستخدمون هذا اليوم للحديث عن الوحدة بين المسلمين ، وأنه لا فرق بين السنة والرافضة . ولقد سمعت بأذني - في هذين اليومين من إذاعة الرافضة - مطالبة بالوحدة وعدم التفرق ، ونعي شديد علينا أهل السنة لجهلنا بالمذاهب وأسباب الخلاف .

(١) الجمعة ١٤١٥/١/٨هـ . (٢) رواه: البخاري (٢٠٠٦)، ومسلم (١١٣٢).

(٣) رواه: البخاري (١٩٦٠)، ومسلم (١٢٣٦).

الثاني : أن الرافضة - بما تتوفر لهم من إمكانات - قد حولوا هذه المناسبة إلى دعاية كبرى لعقائدهم الزائفة ، وانحرافاتهم الكبرى ، مستخدمين في ذلك تلك الوسيلة التي طالما خدعوا بها العوام وأشباههم ، ألا وهي محبة آل البيت ، والحزن على ما جرى لبعضهم ، مثل : مقتل الحسين - رضي الله عنه - في يوم عاشوراء .

والمسلمون في كل مكان ، يحبون آل بيت رسول الله ﷺ ، ويوالونهم ويترضون عنهم ، ويعرفون لهم حقهم وقربهم من رسول الله ﷺ - وخاصة الصحابة الكرام منهم مثل : أزواجه ﷺ ، وبناته ، وعلي ، وفاطمة ، والحسن ، والحسين - رضي الله عنهم جميعاً - ، وهم مع ذلك يحبون بقية الصحابة - وعلى رأسهم الخلفاء الثلاثة - أبو بكر ، وعمر ، وعثمان - رضي الله عنهم جميعاً - ورابعهم علي بن أبي طالب رضي الله عنه - .

وأهل السنة وسط في ذلك ، فلا يغفلون فيهم أو في بعضهم كما فعلت الرافضة ، ولا يجفون فيهم ، كما فعلت النواصب من الخوارج والإباضية وغيرهم .

إن السكوت عن هذا الموضوع الخطير - لا يجوز - والقول بأنهم معروفون - وأن أهل السنة - لا يجهلونهم - وأن عوامنا لديهم من صلابة العقيدة ما يجعل سخافات الرافضة لا تفوت عليهم - كما يقولون - .

أقول : وإن كان هذا فيه بعض الحقيقة - إلا أن الخطر قادم علينا من هؤلاء الرافضة :

١ - فقد ارتفعت رؤوسهم هذه الأيام ، وصاروا يتبجحون بأنهم رافضة لهم دينهم الخاص بهم ، ومن ثم فلا يجوز مطالبتهم بما يطالب به أهل السنة مثل الصلاة مع جماعة المسلمين ، وها هم يخططون لحوزات علمية رافضية ، وغزو مركز علي بقية المسلمين في هذه البلاد . والحديث عن خططهم في ذلك له مناسبة أخرى - إن شاء الله تعالى - .

٢ - وآلات الاستقبال للبعث المباشر - من الدشوش وغيرها - ملأت بيوت كثير من أهل السنة ، ومآسي التدمير الفكري والأخلاقي من هذه الدشوش وصلت إلى مرحلة الخطر - والناس عن هذا غافلون - .

وفي هذه الأيام - مناسبة عاشوراء - تحرص دولة الرافضة على البث المباشر بمختلف اللغات - وعلى رأسها العربية - لغزو بيوت المسلمين ، وفيهم النساء والأطفال والنساء والعوام ؛ ليصوروها لهم تلك الأحداث من منظور الرافضة بما فيه من تحزن على ما جرى لأهل البيت وطعن وسبّ ولعن لأصحاب رسول الله ﷺ .

لقد حاول الرافضة منذ زمن طويل ، التقريب بينهم وبين أهل السنة ، ودعوا إلى ذلك بوسائل مختلفة ، وعقدت مؤتمرات ، وأقيمت جمعيات باسم التقريب أو الأخوة ، بل وأصدرت في ذلك مجلات ، وخذع في ذلك بعض من لم يتبصر في عقيدة الرافضة وتقيتهم من علماء أهل السنة .

ولكن الرافضة - هم هم - يعودون أسوأ مما كانوا ؛ لأن عقيدتهم فيها من الغلو والكفر الصراح ، ما يجعل التقارب بينهم وبين بقية المسلمين لا يتم إلا بتوبة صادقة لا تقية فيها من جميع ما في عقائدهم من الكفر ، والعودة إلى دين المسلمين الصحيح .

أما التقارب - وهم على ما هم عليه من عقائد - فلا يمكن أن يتم إلا إذا تم التقارب بين اليهود والمسلمين ، أو بين المسلمين والنصارى ، وتعالوا أعطيكم نماذج من محاولات التقريب :

أ - يقول ابن كثير<sup>(١)</sup> - رحمه الله - عن أحداث سنة ٤٤٢ هـ : إنه (اصطلح الروافض والسنة ببغداد ، وذهبوا كلهم لزيارة مشهد علي ومشهد الحسين ، وترضوا - أي الروافض - في الكرخ على الصحابة كلهم وترحموا عليهم ، وصلوا في مساجد السنة ، وتواد الفريقان وتحابوا . وهذا عجيب جداً ، إلا أن يكون من باب التقية).

هكذا يقول ابن كثير - رحمه الله - وصدق رحمه الله تعالى ؛ لأن هؤلاء الرافضة طالما أثاروا الفتن بين المسلمين في ذلك الوقت ولا يكاد يمر عام إلا وقد وقعت فتنة سببها هؤلاء الرافضة ، حيث يجاهرون بكفرهم وسبهم للصحابة - رضي الله عنهم جميعاً - . وأكبر دليل على كذبهم فيما ذكرناه قبل قليل ونقله ابن كثير - رحمه الله - ، أنه في العام التالي (٤٤٣ هـ) قام الروافض في بغداد بحركة استفزازية لأهل السنة حيث نصبوا أبرجاً كتبوا عليها بالذهب [لاحظوا أبرجاً ، بخط عريض ،

(١) انظر : البداية والنهاية (٦٦/١٢) .

والكتابة بالذهب] ، فماذا كتبوا؟!!!!

كتبوا: «محمد وعلي خير البشر ، فمن رضي فقد شكر ، ومن أبى فقد كفر». هكذا من قدم أبا بكر وعمر وعثمان وفضلهم فقد كفر . ولذلك لم يسكت أهل السنة عن ذلك . فوقع بينهم وبين الرافضة الحرب .

وليس بمستغرب على هؤلاء ، فإن التقية [التي عمادها الكذب والنفاق] أصل من أصول دينهم ؛ لأنهم يقولون : من لا تقية له فلا دين له .

ب - وفي سنة (١١٤٧هـ) بايع أهل إيران (نادر شاه) ملكاً عليهم ، ولم يزل به الرافضة حتى أقنعوه بصحة مذهبهم وبطلان مذهب أهل السنة ، وتوسع في ملكه حتى استولن على الهند وتركستان وبخارى وبلاد الأفغان ، وجرت بينه وبين الدولة العثمانية حروب حتى حاصر مناطق نفوذها في بغداد والبصرة .

فلما صارت بلاده فيها رافضة وسنة<sup>(١)</sup> ، دعا الوزير (أحمد باشا) علامة العراق الشيخ (عبد الله السويدي) - رحمه الله تعالى - ، وأمره بالحوار مع علماء الرافضة ، وإزالة تلك الفروقات بينهم وبين أهل السنة من خلال مؤتمر يُعقد لذلك .

وفعلاً ، عُقد هذا المؤتمر برئاسة علامة العراق «السويدي» ، وبحضور أعداد كبيرة من مجتهدي الشيعة وعلماء أهل السنة والجماعة . وكان (نادر شاه) ملك إيران يرعى المؤتمر ويراقب ما يجري فيه .

وقبيل بدء المؤتمر - أورد الشيخ السويدي - على كبير علماء الرافضة عدة أسئلة ، لا تملك الرافضة عليها جواباً ، وابتدأها بهذا السؤال : «كيف حكم الصحابة عند الشيعة؟» .

فقال الرافضي : ارتدوا إلا خمسة : علياً والمقداد وأبا ذر وسلمان الفارسي وعمار بن ياسر .

فقال له السويدي : إذا كان الأمر كذلك ، فكيف زوج علي بنته أم كلثوم من

(١) جاء (نادر شاه) معه الرافضة إلى سواد العراق ، ولم تزل الرسل تتوارد بينه وبين الوزير (أحمد باشا) والي بغداد ، فطلب من الشاه الإقرار بصحة مذهب الرافضة ورفض مذهب أهل السنة .

عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - وهو كافر مرتد عنكم؟

فقال: إنه مكره.

فقال السويدي: إنكم اعتقدتم في علي منقصة لا يرضى بها أدنى العرب - فضلاً عن بني هاشم - وفضلاً عن علي - الشجاع الصنديد، ليث بني غالب أسد الله في المشارق والمغرب، مثل هذه المنقصة وهي أن يزوج ابنته وهو مكره، وهنا لا يرضى بها أحلاف العرب، بل كم رأينا من قاتل دون عياله وبناته فقتل.

فقال الرافضة - وهنا تحركت النزعة الباطنية - : يحتمل أن تكون زفت لعمر جنية تصورت بصورة أم كلثوم.

وعقد المؤتمر [بعد تلك المناقشات الجانبية التي أظهرت قوة حجاج السويدي وعلمه ومعرفته بمذاهب الرافضة]. ولقوة حججه ودمغه لهم اعترف الرافضة بفضل الصحابة، وبخلافه الخلفاء الأربعة على الترتيب، والكف عن سب الصحابة والظعن فيهم.

وقد وقع على ذلك علماء الرافضة وختموا بخواتمهم، ثم وقَّع على ذلك السويدي - رحمه الله تعالى - .

واقروا تفاصيل المؤتمر في الكتيب المطبوع المشهور للشيخ محب الدين الخطيب بعنوان: (الخطوط العريضة)<sup>(١)</sup>، وفيه ذكر لقصة المؤتمر هذا، لكن هل ثبت الرافضة على ذلك؟

إنهم سرعان ما عادوا إلى ما هم عليه من سب الصحابة؛ لأن المشكلة معهم ليست فقط في سب الصحابة، وإنما في العقائد الكفرية التي يغص بها مذهبهم. وهذا ما سنفصله لاحقاً - إن شاء الله تعالى - .

\* \* \*

(١) انظر: الخطوط العريضة، محب الدين الخطيب.

## الرافضة (١)

وحدة الأمة الإسلامية مطلب لكل مسلم ، والله تعالى أمر المسلمين بها ودعاهم إلى الاعتصام بحبل الله جميعاً ، ونهاهم عن الفرقة والاختلاف .  
ولقد وقع في هذه الأمة نوعان من الاختلاف :

أحدهما: اختلاف غير مذموم: ومبناه على الاجتهاد وطلب الدليل ، وذلك في مسائل الفقه والأحكام الشرعية ، وقد قع هذا في زمن الصحابة - رضي الله عنهم جميعاً - ومن بعدهم .

وهذا الاختلاف بقي - والحمد لله - محموداً لا يؤدي إلى فرقة ولا إلى خصام ، وكم بين الأئمة الأربعة : مالك وأبي حنيفة والشافعي وأحمد - رحمهم الله تعالى - من اختلاف عن اجتهاد في مسائل كثيرة . ومع ذلك كانوا صفياً واحداً وإخوة متحابين تجمعهم عقيدة واحدة ومنهج واحد .

وهذا الاختلاف لا يكون مذموماً ، إلا إذا تحول إلى تعصب أعمى يؤدي إلى ترك ما مع الطرف الآخر من دليل ، أو إلى إنكار الحق الذي مع الآخرين أو الطعن فيهم بغير حق ، أو إلى الشحناء والتباغض والتدابير .

الثاني: اختلاف مذموم: وهو الاختلاف الذي حذر منه النبي ﷺ في مثل قوله :  
«تفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة، كلها في النار إلا واحدة»<sup>(٢)</sup> .

والمقصود به خلاف أهل البدع على مختلف أنواعها ودرجاتها؛ لأن خلافهم يكون في أبواب العقائد وأصول الإسلام التي هي واحدة ولا يخالف فيها منهاج السلف الصالح إلا مبتدع منحرف .

(١) الجمعة ١٥/١/١٤١٥ هـ.

(٢) حديث صحيح : رواه أحمد (٣٣٢/٢) والترمذي (٢٦٤٠) ، وأبو داود (٥٤٩٦) ، وابن ماجه (٣٩٩١) ، كلهم من طريق أبي هريرة بدون زيادة كلها في النار إلا واحدة وقد رواها الترمذي (٢٦٤١) من طريق عبدالله بن عمرو .

وابن ماجه (٣٩٩٢) من طريق عوف ابن مالك بلفظ (واحدة في الجنة وثنتان وسبعون في النار) ، وأحمد (١٤٥/٣) من طريق أنس بن مالك .

وبالنسبة للرافضة ، فإن كثيرين ظنُّوا أن الخلاف بيننا وبينهم يسير ، وأنه يمكن تداركه والقضاء عليه من خلال حوار أو مؤتمر يعقد لذلك .  
وسأعرض لكم نماذج لعقائدهم ، لعلها توضح مدى مفارقتهم لنا - نحن أهل السنة - .

أولاً: يقوم مذهب الرافضة المتأخرين على أصول أربعة

- ١ - العدل : والمقصود به إنكار القدر على مذهب المعتزلة .
- ٢ - التوحيد : ويقصدون به نفي الصفات عن الله وإنكار رؤيته تعالى الجنة ، والقول بخلق القرآن ، ونحو ذلك . فهم يوافقون المعتزلة في ذلك .
- ٣ - النبوة .
- ٤ - الإمامة : وهذا الأصل ميزهم عن أهل السنة وعن المعتزلة الذين وافقوهم في أصلي : العدل والتوحيد . ويقوم مذهبهم في الإمام على أصول خمسة ، هي :  
أ - أن الإمامة محصورة في الاثني عشر من أئمتهم ، بدءاً بعلي - رضي الله عنه - وانتهاءً بالإمام الغائب محمد بن الحسن العسكري ، وهو الإمام الثاني عشر .  
ب - العصمة : ويقصدون بها أن الأئمة معصومون من الصغائر والكبائر أشد من عصمة الأنبياء .  
ج - التقية : ويقصدون بها أن الإنسان تجب عليه التقية بأن يظهر موافقته لأهل السنة إذا خاف ، أو أراد أن يحقق مصلحة .  
د - المهديّة : والمقصود بها أن الإمام المهدي الذي سيخرج ، هو الإمام الثاني عشر - وهم يرتقبون خروجه في كل عام .  
هـ - الرجعة : ويعتقدون فيها أنه لا تقوم الساعة حتى يحيي الله آل البيت وأعداءهم - من الصحابة وغيرهم - ، ثم يقتص بعضهم من بعض . ثم يموتون جميعاً .

ثانياً: شركهم في توحيد الربوبية<sup>(١)</sup>: حيث يصفون صفات الربوبية لأئمتهم .

(١) انظر : أصول الكافي . . . .

وهاكم نماذج من ذلك - منقولة من كتبهم الموثقة عندهم - (١):

١ - زعموا أن أحد أئمتهم قال: أنا رب الأرض - يعني إمام الأرض - . وزعم أنه المقصود بقوله تعالى: ﴿ وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا ﴾ (٢).

٢ - ورووا عن علي - رضي الله عنه - كذباً وزوراً - أنه قال: أنا رب الأرض الذي تسكن الأرض به .

٣ - وفي قوله تعالى: ﴿ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نَعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا ﴾ (٣) . قالوا: يرد إلى أمير المؤمنين فيعذبه عذاباً نكراً .

٤ - وفي تفسير قوله تعالى: ﴿ وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾ (٤) . قالوا: يعني التسليم لعلي ولا يشرك معه في الخلافة .

٥ - وفي أصول الكافي: «عن أبي عبد الله قال: أما علمت أن الدنيا للآخرة للإمام يضعها حيث يشاء ويدفعها إلى ما يشاء جائز له ذلك من الله»، ماذا بقي لله تعالى مع هذا؟!!!

٦ - بل يعتقدون أن الأئمة مدبرون لأحداث الكون من المطر والرعد وغيره . يقولون فيما يروون عن أبي عبد الله - وهم يكذبون عليه - : «ما كان من سحب فيه رعد وبرق (ثم يقولون عن علي رضي الله عنه ) ، أما إنه سيركب السحاب ويرقى في الأسباب ، أسباب السموات والأرضين السبع خمس عوامر وثنتان خراب» . والله تعالى وحده هو الذي يرسل السحاب ويسوقها إلى ما يشاء من بلاده .

٧ - ويروون أن علياً - رضي الله عنه - أوما إلى سحابتين فأصبحت كل سحابة كأنها بساط فركب علي سحابة بمفرده ، وركب بعض أصحاب علي - رضي الله عنه - كسلمان والمقداد علي الأخرى . وجرى في ذلك ما جرى من أمور عجيبة . وفيها يرون أن علياً قال وهو على السحابة - وكذبوا عليه - : «أنا عين الله في أرضه ، أنا لسان الله الناطق في خلقه ، أنا نور الله الذي لا يطفأ ، أنا باب الله الذي يؤتى منه وحجته علي عباده» .

(٢) سورة الزمر، الآية: ٦٩ .  
(٤) سورة الكهف، الآية: ١١٠ .

(١) المرجع السابق .  
(٣) سورة الكهف، الآية: ٨٧ .

٨- بل صفات الربوبية في الأئمة . فيزعمون أن أبا عبد الله قال : ثم مسحنا بيمينه فأفضى نوره فينا» . بل يحيون الموتى . واسمعوا إلى هذه الرواية :

جاء في الكافي<sup>(١)</sup> - أحد أصولهم - عن أبي عبد الله قال : «إن أمير المؤمنين [علي] له خؤولة في بني مخزوم وإن شاباً منهم أتاه فقال : يا خالي ! إن أخي مات وقد حزنت عليه حزناً شديداً ، قال : فقال له : تشتهي أن تراه؟ قال : بلى . قال : فأرني قبره . قال : فخرج ومعه بردة رسول الله ﷺ مشتزراً بها . فلما انتهى إلى القبر ، تلممت شفتاه ، ثم ركضه برجله ، فخرج من قبره وهو يقول بلسان الفرس . فقال أمير المؤمنين : ألم تمت وأنت رجل من العرب؟ قال الميت : بلى ، ولكننا متنا على سنة فلان وفلان - أي أبو بكر وعمر - ، فانقلبت ألسنتنا» .

بل يزعمون أن علياً - رضي الله عنه - افتراء عليه قبحهم الله - ، أحيا موتى مقبرة الجنابة بأجمعهم . وأن سلمان قال : لو أقسم أبو الحسن على الله أن يحيي الأولين والآخرين لأحياهم .

٩- بل زعموا أن الأئمة الاثني عشر هم أسماء الله الحسنى . ففي الكافي عن أبي عبد الله في قول الله عز وجل : ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾<sup>(٢)</sup> . قال : «نحن والله الاسماء الحسنى لا يقبل الله من العباد عملاً إلا بمعرفتنا» .

وفي (الكافي) - الذي هو عندهم كصحيح البخاري - يروون عن أبي عبد الله أنه قال :

«إن الله خلقنا فأحسن صورنا ، وجعلنا عينه في عباده ، ولسانه الناطق في خلقه ، ويده المبسوطة على عباده بالرفقة والرحمة ، ووجهه الذي يؤتى منه ، وبابه الذي يدل عليه ، وخزانه في سمائه وأرضه . بنا أثمرت الأشجار وأينعت الثمار ، وجرت الأنهار ، وبنا ينزل غيث السماء ، وينبت عشب الأرض ، وبعبادتنا عبد الله ، ولولانا ما عبد الله» .

وفي (بحار الأنوار) يروون أن علياً قال - وافتروا عليه - قَبَّحَهُمُ اللهُ - : «أنا وجه الله ، أنا جنب الله ، وأنا الأول ، وأنا الآخر ، وأنا الظهر ، وأنا البطن» .

(٢) سورة الاعراف ، الآية : ١٨٠ .

(١) انظر : أصول الكافي

١٠ - بل وصفوا الأئمة بأنهم يعلمون الغيب . وعقد لذلك صاحب الكافي باباً مستقلاً في أن الأئمة يعلمون علم ما كان وما يكون ، وأنه لا يخفى عليهم شيء .

وروي عن أبي عبد الله أنه قال - افتراء عليه قَبَّحَهُمُ اللهُ - : «إني لأعلم ما في السموات وما في الأرض ، وأعلم ما في الجنة ، وأعلم ما في النار ، وأعلم ما كان ، وما يكون» .

ثالثاً: شركهم في توحيد الألوهية: وهذا باب ضلالة ، دخل فيه هؤلاء إلى الشرك الأكبر من أبواب مختلفة :

١ - فهم حرّفوا نصوص القرآن في الأمر بتوحيد الله والنهي عن الشرك به وجعلوا لها معاني باطنية ربطوها بالأئمة . فمثلاً :

فسروا قوله تعالى - مخاطباً نبيه ﷺ - : ﴿ وَلَقَدْ أَوْحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِن أَشْرَكْتَ لَيَحْبِطَنَّ عَمَلُكَ ﴾<sup>(١)</sup> ، بأن المعنى : «لئن أمرت بولاية أحد مع ولاية علي من بعدك ليحبطن عملك» .

ومثلاً : في قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَمُ بَأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكَ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ ﴾<sup>(٢)</sup> ، قالوا تحريفاً باطنياً لها ، المعنى : «ذلكم بأنه إذا دعي الله وحده بأن لعلي ولاية ، كفرتم . وإن يشرك به من ليس له ولاية تؤمنوا . . .» .

وفي قوله تعالى : ﴿ أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ ﴾<sup>(٣)</sup> ، قالوا : معناه : «إمام هدى مع إمام ضلال في قرن واحد . . .» .

بل قال أحد علمائهم كل آية في الشرك والشفعاء والنهي عن اتخاذ الأوثان والأصنام . . . فهو وارد في الذين نصبوا أئمة غير أئمتهم وعظموهم وأحبوهم والتزموا طاعتهم وجعلوهم شركاء إمامهم الذي عينه الله لهم .

إذن التوحيد في الألوهية - ونصوص القرآن ملأى بتقرير هذا التوحيد - عندهم : هو الإيمان بالأئمة الاثنى عشر ، والشرك : هو الإقرار بإمامة أبي بكر وعمر وعثمان أو غيرهم من الأئمة والخلفاء .

(٢) سورة غافر ، الآية : ١١ .

(١) سورة الزمر ، الآية : ٦٥ .

(٣) سورة النمل ، الآية : ٦١ .

٢- وإذا كان مدار قبول الأعمال عندنا هو التوحيد . فإن مدار قبول الأعمال عند الرافضة هو : الإقرار بولاية أهل البيت . قالوا - فيما روه عن أئمتهم - : «إن من أقر بولايتنا ، ثم مات عليها ، قُبلت منه صلواته وصومه وزكاته وحجه ، وإن من لم يقر بولايتنا لم يقبل الله شيئاً من أعماله» .

وفي رواية عندهم : «لو أن عبداً جاء يوم القيامة يعمل سبعين نبياً ما قبل الله ذلك منه حتى يلقاه الله وولاية أهل بيتي» .

٣- جعلوا الأئمة هم الواسطة بين الله وخلقه في باب العبادات ، فرووا أن الأئمة الاثني عشر هم أبواب الله والسبل إليه ، وهم كسفينة نوح من ركبها نجا ومن تخلف عنها غرق» .

ويروون عن أبي جعفر - أحد أئمتهم - قال : «بنا عبد الله وبنا عُرف الله وبنا وُحد الله» .

بل الدعاء لا يقبل إلا بالدعاء بأسماء الأئمة فيروون : « من دعا الله بنا أفلح ومن دعا بغيرنا هلك» .

ويروون : إن دعاء الأنبياء استجيب بالتوسل والاستشفاع بهم» ، أي : بالأئمة . ولهذا صار دعاء الأئمة - كعلي والحسن والحسين وغيرهم - في حال الشدائد ، بل في حال طلاق المرأة وشدة الولادة ، الاستغاثة بهم من دون الله تعالى عادة عندهم يتربون عليها ، وهذا هو الشرك الأكبر ؛ لأنه دعاء واستغاثة بأموات في أمر لا يقدر عليه إلا الله تعالى .

ولهذا قرروا في كتبهم أن الأئمة هم «الشفاء الأكبر ، والدواء الأعظم لمن استشفئ بهم» .

والرافضة عند زيارتهم لأضرحة أئمتهم يدعونهم من دون الله ، بل ويكتبون رقاعاً توضع على أضرحة هؤلاء الأئمة . ومما يكتبونه فيها : «كتبت إليك يا مولاي صلوات الله عليك مستغيثاً فأغثني عن اللف ، وقدم المسألة لله عز وجل في أمري قبل حلول التلف وشماتة الأعداء» .

٤- قولهم : أن زيارة أضرحتهم والحج إليها أفضل من الحج إلى بيت الله

الحرام : وهذا من الأمور البديهية في مذهبهم وعقيدتهم .

●● جاء في الكافي<sup>(١)</sup> - الذي هو كصحيح البخاري عندنا - : «إن زيارة قبر الحسين تعدل عشرين حجة ، وأفضل من عشرين عمرة وحجة» .

●● ولما جاء أحد الرافضة إلى إمامه وأخبره أنه حج تسع عشرة حجة وتسع عشرة عمرة إلى بيت الله الحرام ، قال له : «حج حجة أخرى واعتمر عمرة أخرى نكتب لك زيارة قبر الحسين» . وهذا سخريه من الإمام كأنه يقول له : لم أتعبت نفسك لو أكملتها عشرين حجة وعمرة لعدلت زيارة واحدة لقبر الحسين !!! .

●● بل بالغوا في ذلك حتى رووا عن أئمتهم أنهم قالوا : «من زار قبر أبي عبد الله كتب الله له ثمانين حجة مبرورة» . وفي رواية : «من أتى قبر الحسين عليه السلام عارفاً بحقه ، كان كمن حج مائة حجة مع رسول الله ﷺ» .

●● بل رووا : «من زار الحسين يوم عاشوراء حتى يظل عنده باكياً ، لقي الله عز وجل يوم القيامة بثواب ألفي ألف حجة ، وألفي ألف عمرة ، وألفي ألف غزوة . وثواب كل حجة وعمرة وغزوة كثواب من حج واعتمر وغزا مع رسول الله وآل بيته» .

●● بل حددوا الأفضلية لتكون في يوم عرفة - يوم حج المسلمين - . فرووا : «من أتى قبر الحسين يوم عرفة عارفاً بحقه كتب الله له ألف حجة وألف عمرة مبرورات متقبلات» .

٥ - بل قالوا : في عدد من روايتهم : أن كربلاء أفضل من الكعبة . وأن الله جعل لها حرماً آمناً كما جعل للكعبة حرماً آمناً .

٦ - ولهذا وضعوا مناسك للمشاهد كمناسك الحج ؛ لأن زيارة الأضرحة فرض من الفرائض عندهم . وفي هذه المناسك للمشاهد والأضرحة شرح لكيفية الطواف ، والصلاة عندها ، والانكباب على القبر ، وكيف يتخذ القبر قبلة كبيت الله .

٧ - تربة الحسين وفضلها وأدابها وأحكامها ، ذكروا روايات عجيبة في ذلك . وذكروا أنها شفاء من كل داء . فذكروا أنه إذا أتى تربة الحسين بدعوا ويقول - وهو

(١) انظر : أصول الكافي .

يأخذ من هذه التربة: «يا مولاي يا ابن رسول الله إني أخذ من تربتك بإذنك اللهم فاجعلها شفاء من كل داء وعزا من كل ذل، وأمناً من كل خوف، وغنى من كل فقر» .

٨- وعندهم : إن الرقاع يستجار ويستقسم بها كما كان يفعل أهل الجاهلية .  
ولهم في ذلك من الشراكيات أمر عجيب .

هذا غيظ من فيض في عقائدهم . . . وبقي منها أقوالهم في الصحابة ،  
ومواقفهم من أهل السنة . . . ومسائل أخرى كثيرة .

فهل يمكن أن نلتقي معهم؟

إن هذا لا يتم إلا مع من أعلن التوبة الصادقة من هذا الشرك والكفر، بشرط أن  
لا يكون فيها تقية، وبقي في الموضوع ما يلي:

١ - مواقف أئمتنا المتأخرين من الرافضة .

٢ - شبه الرافضة باليهود .

٣ - العلاقة بين الصوفية والرافضة .

٤ - أحوال الرافضة في بلاد المسلمين . وأحوال أهل السنة في بلاد الرافضة  
ولها مناسبات أخرى فهي تحتاج إلى شرح طويل والله المستعان .

\* \* \*

شبه الرفضة باليهود<sup>(١)</sup>

إن العالم الإسلامي - اليوم - يواجه أخطاراً عدة محدقة به ، وعلى رأسها  
خطر ان كيران :

أحدهما : خطر اليهود - خاصة مع مرحلة السلام وتطبيع العلاقات معهم - .  
الثاني : خطر الرفضة .

وأعداء الإسلام من اليهود والنصارى وأذئابهم ، علموا أن أحسن وسيلة لحرب  
الإسلام في عالمنا الإسلامي متمثلاً بتوجهه السني الذي هو الغالب - والحمد لله -  
إنما تكون بتشجيع كل طائفة أو نحلة أو فكرة تتعارض مع أصول الإسلام بمنهجه  
السلفي الصحيح . ولذلك تجد ألواناً عجيبة من التأييد والتعاون من جانب أعداء الله  
مع هذه الطوائف والاتجاهات الفكرية المنحرفة .

فالبعثية ، والقومية ، والاشتراكية ، والعلمانية ، على يد من فرّخت؟ ومن  
الذي أيدها وتبناها في عالمنا الإسلامي؟ .

والرفضة وغلاة الباطنية - بل والقاديانية والبهاية - وغيرها ، نشطت بتأييد من  
أعداء الإسلام من اليهود والنصارى وغيرهم .

وإذا كان خطر اليهود معروفاً لدى الجميع - ونسأل الله أن لا تهتز هذه القناعة مع  
مرحلة الاستسلام والتطبيع - فإن خطر الرفضة لا يزال موضع شك عند البعض .

ولذا أحببت أن أعرض لموضوع مهم ، وربما يلاقي استغراباً من البعض ، ألا  
وهو : شبه الرفضة باليهود . وسنعرض لبعض الحقائق في ذلك - باختصارٍ - نرجو  
ألا يكون مخللاً .

أولاً: نشأة الرفضة ودور اليهود فيه: وعند الحديث عن النشأة، لا نتحدث عن  
الشيعة بمعناه الواسع فهذا قد يدخل فيه من شايح علياً - رضي الله عنه - إبان خلافته -  
ومن هؤلاء صحابة كرام رأوا أن الحق معه، فقاتلوا معه من خالفه، فهؤلاء ونحوهم

لا يوصمون بالتشيع بمعناه البدعي ، فينبغي أن يتبته إلى هذا .  
إنما نعني هنا انحرافات الرافضة الأصولية العقدية الكبرى ، فهذه نشأت على يد  
أحد اليهود ، وهو عبد الله بن سبأ .

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله تعالى - : « ولقد ذكر أهل العلم أن  
مبدأ الرفض ، إنما كان من الزنديق عبد الله بن سبأ ، فإنه أظهر الإسلام ، وأبطن  
اليهودية ، وطلب أن يفسد الإسلام ، كما فعل بولس النصراني - الذي كان يهودياً -  
في إفساد دين النصاري » (١) .

ويقول ابن تيمية - رحمه الله - أيضاً : « وأصل الرفض من المنافقين الزنادقة ،  
فإنه ابتدعه ابن سبأ الزنديق ، وأظهر الغلو في علي - رضي الله عنه - بدعوى  
الإمامة ، والنص عليه ، وادّعى العصمة له ، ولهذا لما كان مبدؤه من النفاق ، قال  
بعض السلف : حب أبي بكر وعمر إيمان ، وبغضهما نفاق ، وحب بني هاشم إيمان ،  
وبغضهم نفاق » (٢) .

ويقول الكاتب المعروف - أحمد أمين - في كتابه « فجر الإسلام » : « والحق أن  
التشيع كان مأوى يأوى إليه كل من أراد الإسلام بعداوة أو حقد ، ومن كان يريد  
إدخال تعاليم آبائه من يهودية ونصرانية وزرادشتية وهندية ، ومن كان يريد استغلال  
بلاده والخروج على مملكته ، كل هؤلاء كانوا يتخذون حب آل البيت ستاراً ، يضعون  
وراءه كل ما شاءت أهواؤهم . فاليهودية ظهرت في التشيع بالقول بالرجعة ، وقال  
الشيعة : إن النار محرمة على الشيعي إلا قليلاً ، كما قال اليهود : ﴿ وَقَالُوا لَنْ نَمَسَّنَا  
النَّارَ إِلَّا أَيَّاماً مَعْدُودَةً ﴾ (٣) » (٤) .

وهذا الكلام لا يقوله أهل السنة ، بل يعترف به الرافضة أنفسهم ، فهذا الكشي  
الرافضي يقول : « ذكر بعض أهل العلم أن عبد الله بن سبأ كان يهودياً ، فأسلم ووالى  
علياً - عليه السلام - وكان يقول - وهو على يهوديته - في يوشع بن نون وصي موسى  
بالغلو ، فقال في إسلامه بعد وفاة رسول الله ﷺ في علي عليه السلام مثل ذلك ،  
وكان أول من أشهر القول بفرض الإمامة علي ، وأظهر البراءة من أعدائه ، وكاشف

(٢) مجموع الفتاوى (٤/٤٢٥) .

(١) مجموع الفتاوى (٢٨/٤٨٣) .

(٤) انظر : فجر الإسلام (٢٧٦) .

(٣) سورة البقرة ، الآية : ٨٠ .

مخالفيه وأكفرهم ، فمن ها هنا قال من خالف الشيعة : أصل التشيع والرفض مأخوذ من اليهودية « أ. ه كلام الكشي .

ثانياً: ماذا قال أئمة التابعين عن الرفضة وشبههم باليهود: روى أبو عاصم بن أصرم في كتابه ، وأبو عمر الطلمنكي في كتابه في الأصول عن عبد الرحمن بن مالك بن مغول عن أبيه قال : قلت لعامر الشعبي : ما ردك عن هؤلاء القوم وقد كنت فيهم رأساً ؟ - [الشعبي يتكلم كلام الخبير عنهم ] قال : رأيتهم يأخذون بإعجاز لا صدور لها ، ثم قال لي :

يا مالك! لو أردت أن يعطوني في رقابهم عبيداً أو يملؤوا لي بيتي ذهباً أو يحجوا إلى بيتي هذا على أن أكذب على عليّ - رضي الله عنه - لفعلوا ، ولا والله لا أكذب عليه أبداً . يا مالك ! : إني قد درست أهل الأهواء ، فلم أر فيها أحق من الخشبية - أي الرفضة - ، فلو كانوا من الطير لكانوا رخماً ، ولو كانوا من الدواب لكانوا حميراً . يا مالك ! : لم يدخلوا في الإسلام رغبة فيه لله ، ولا رهبة من الله ، ولكن مقتاً من الله عليهم ، وبغياً منهم على أهل الإسلام ، يريدون أن يغمصوا دين الإسلام كما غمص بولس بن يوشع اليهودي دين النصرانية ، قد حرقهم علي رضي الله عنه . . . . ومنهم عبد الله بن سبأ .

يا مالك : إن محتتهم محنة اليهود .

- قالت اليهود : لا يصلح الملك إلا في آل داود . وكذلك الرفضة قالت : لا تصلح الإمامة إلا في ولد عليّ .

- وقالت اليهود : لا جهاد في سبيل الله حتى يبعث الله المسيح الدجال وينزل سيف من السماء . وكذلك الرفضة قالوا : لا جهاد في سبيل الله حتى يخرج الرضا من آل محمد ، وينادي مناد من السماء اتبعوه . . . .

- واليهود لا يصلون المغرب حتى تشتبك النجوم ، وقد جاء عن النبي ﷺ قال : «لا تزال أمتي على الإسلام ما لم تؤخر المغرب إلى اشتباك النجوم مضاهاة لليهود»<sup>(١)</sup> . وكذلك الرفضة يؤخرون المغرب .

(١) رواه : أبو داود (٤١٨) ، وأحمد (١٤٧/٤) و (٤١٧/٥ ، ٤٢٢) ، والحاكم (١/١٩٠) .

- واليهود حرقوا التوراة، وكذلك الرافضة حرقوا القرآن .
  - واليهود عادوا جبريل فقالوا: هو عدونا . وكذلك الرافضة قالوا: أخطأ جبريل بالوحي .
  - واليهود يستحلون أموال الناس وقد نبأنا الله عنهم أنهم قالوا: ﴿ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ ﴾ (١) . وكذلك الرافضة يستحلون مال كل مسلم .
  - واليهود يستحلون دم كل مسلم، وكذلك الرافضة .
  - واليهود يرون غش الناس ، وكذلك الرافضة .
  - واليهود لا يعدون الطلاق شيئاً إلا عند كل حيضة، وكذلك الرافضة .
  - واليهود ليس لفسائهم صداق . وكذلك الرافضة يستحلون المتعة .
  - واليهود لا يرون المسح على الخفين، وكذلك الرافضة .
- ثم قال لي الشعبي: يا مالك: «فضلتكم اليهود والنصارى بخصلة . قيل لليهود: من خير أهل ملتكم؟ قالوا: أصحاب موسى . وقيل للنصارى: من خير أهل ملتكم؟ قالوا: حوارى عيسى . وقيل للرافضة: من شر أهل ملتكم؟ قالوا: حوارى محمد!!! - أي أصحاب محمد رسول الله ﷺ .»
- ثالثاً: وذكر الإمام الشيخ محمد بن عبد الوهاب - رحمه الله تعالى - في رسالته في الرد على الرافضة، أوجهاً من مشابهة الرافضة باليهود، ومنها:
- أنهم يضاھون اليهود الذين رموا مريم الطاهرة بالفاحشة، يقذف زوجة رسول الله ﷺ عائشة المبرأة، بالبهتان، وسلبوا بسبب ذلك الإيمان .
  - ومنها: أن اليهود مسخوا قردة وخنازير، وقد نقل أنه وقع ذلك لبعض الرافضة في المدينة المنورة، وغيرها، بل قيل: إنهم تمسخ صورهم ووجوههم عند الموت . والله أعلم .
  - ومنها: ترك الجمعة والجماعة - عند الرافضة - ، وكذلك اليهود، فإنهم لا

(١) سورة آل عمران، الآية: ٧٥ .

يصلون إلا فرادى .

- ومنها: شدة عدواتهم للمسلمين، وأخبر الله عن اليهود ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ﴾<sup>(١)</sup>. وكذلك هؤلاء أشد الناس عداوة لأهل السنة والجماعة، حتى أنهم يعدونهم أنجاساً.

- ومنها: أنهم يجمعون بين المرأة وعمتها وبين المرأة وخالتها يشابهون اليهود، فإنهم كانوا يجمعون في شرع يعقوب بين الأختين .

- ومنها: قولهم إن من عداهم من الأمة لا يدخلون الجنة، بل يخلدون في النار، وقد قالت اليهود والنصارى: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾<sup>(٢)</sup>.

- ومنها: تخلفهم عن نصر أئمتهم - كما خذلوا علياً والحسين وزيداً وغيرهم - رضي الله عنهم -، قبحهم الله ما أعظم دعواهم في حب أهل البيت وأجبنهم عن نصرهم . وقد قال اليهود لموسى: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾<sup>(٣)</sup>.  
... إلخ كلامه - رحمه الله - .

رابعاً: وذكر غيرهم أوجهاً أخرى<sup>(٤)</sup> منها:

أن اليهود يغفلون في تقديس الأحيار والرهبان إلى حد العبادة والتأليه، قال تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾<sup>(٥)</sup>. وكذلك الرافضة يغفلون في أئمتهم غلو تأليه وعبادة حتى يضعونهم في درجات فوق مستوى البشر .

- ومنها: أن اليهود ليس لدينهم أسانيد صحيحة، بل ولا ضعيفة، وكذلك الرافضة ليس لعقائدهم وأقوالهم أسانيد صحيحة، بل وضعوا في القرن الرابع أسانيد إلى أهل البيت - كلها كذب وزور - .

- ومنها: أن اليهود يقولون بالتقية وكتمان الحق والموافقة على الباطل . وكذلك الرافضة: من أصول دينهم التقية التي هي الكذب والنفاق .

(٢) سورة البقرة، الآية: ١١١ .

(١) سورة المائدة، الآية: ٨٢ .

(٤) انظر: الصراع بين الإسلام والوثنية (١/٤٩٤) .

(٣) سورة المائدة، الآية: ٢٤ .

(٥) سورة التوبة، الآية: ٣١ .

ونظراً لخطر اليهود القادم - هذه الأيام - وكثير من الناس يجهل تفاصيل عقيدتهم . والمقارنة بينهم وبين الرافضة يفيد في كشف حقيقة الطائفتين ، فإنني سأفصل في بعض القضايا ، وأسأل الله تعالى التوفيق والسداد والإخلاص .  
خامساً : وسأبدأ بالكلام عن الوصية والإمامة عند اليهود والرافضة :

١ - يرى اليهود ضرورة تنصيب وصي بعد النبي يقوم مامه ، وورد في التوراة المحرفة : أن الله كلم موسى وأمره أن يختار يوشع بن نون .  
وفي التوراة : «ف فعل موسى كما أمره الربّ وأخذ يوشع وأوقفه قدام العازار الكاهن وقدام كل الجماعة ، ووضع يده عليه وأوصاه كما تكلم الرب عن يد موسى» .

وعند اليهود أن الله خاطب الوصي «يوشع» ، وقال له : «قم اعبر الأردن أنت وكل هذا الشعب إلى الأرض أنا معطيها لهم ، كل موضع تدوسه بطون أقدامكم لكم أعطيته . . .» .

وقد أخذ الرافضة هذه المسألة عن اليهود فزعموا أن الوصي بعد النبي ﷺ هو علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - ورووا في كتبهم عن أبي عبد الله قال : «عرج بالنبي ﷺ إلى السماء مئة وعشرين مرة ، ما من مرة إلا وقد أوصى الله النبي وآله بولاية عليّ والأئمة من بعده أكثر مما أوصاه بالفرائض» .

وعندهم - كما عند الرافضة - : «أن الله ناجى الوصي - علياً - رضي الله عنه - فروى الشيخ المفيد - شيخ الرافضة - قال : قلت لأبي عبد الله : بلغني أن الرب تبارك وتعالى قد ناجى علياً عليه السلام ، فقال : أجل قد كانت بينهما مناجاة بالطائفت نزل بينهما جبريل» . ورووا - أيضاً أن الله ناجى علياً يوم الطائف ويوم عقبة تبوك ويوم خيبر» .

بل يزعم الرافضة أن الأوصياء - الأئمة - يوحى إليهم : فرووا عن أبي عبد الله - وهذا في كتاب بحار الأنوار ، وبصائر الدرجات - : أنه قال : إن منا لمن ينكت في أذنه ، وإن منا لمن يرى في منامه ، وإن منا لمن يسمع الصوت مثل صوت السلسلة التي تقع في الطست» .

بل زعم الرافضة أن الله جعل طلاق زوجات الرسول بيد عليّ بعد وفاته ﷺ، ويروون في قصة الحمل أن عليّاً أرسل إلى عائشة وهددها قائلاً: إن لم ترحلي الساعة لأبعثنّ إليك بما تعلمين، فقامت وارتحلت خوفاً. ولما سئلت عن ذلك قالت: إن رسول الله ﷺ جعل طلاق نسائه بيد عليّ فمن طلقها في الدنيا بانّت منه في الآخرة». هكذا رووا وكذبوا. ولذا فهم يعتقدون أن عليّاً والأئمة، لهم منزلة تعادل منزلة الرسول.

ويعتقد اليهود أن الله أوقف الشمس ليوشع الوصي، لما أراد أن ينتقم من أعدائه، وكذا الرافضة يعتقدون أن الله تعالى رد الشمس لعلي بن أبي طالب لما فاتته صلاة العصر، حتى يصلّيها وكانت الشمس قد غابت. وهي رواية مكذوبة معروفة في كتب الموضوعات.

وتفاصيل مشابهة الرافضة لليهود فيها كثير من الحقائق المذهلة، حتى في باب الخطط المستقبلية من برتوكولات حكماء صهيون، وبرتوكولات حكماء قم من الرافضة، وهناك كتب ورسائل بينت هذا الموضوع.

\* \* \*

## الفتن والمخرج منها<sup>(١)</sup>

(١) **الفتنة في القرآن** إن مسألة «الفتنة» ومدلولها في الكتاب والسنة يحتاج إلى بيان وإيضاح؛ لأنه قد وقع خلط في هذا الموضوع من جوانب:

**الأول:** كثرة تداول أحاديث الفتن على الألسنة - خاصة أيام الأزمات - وتنزيلها - أو تنزيل بعضها - على هذه الأحاديث وتطبيقها عليها . ويقع الخطأ - هنا - في أمرين :-

**الأول:** عدم تمييز صحيح هذه الأحاديث من ضعيفها . وولع العامة بالغرائب والأحاديث الضعيفة - معلوم - .

**الثاني:** اتخاذ مواقف عملية تجاهها . فتجد الواحد - أو الجماعة - من هؤلاء يتخذ موقفاً عملياً بناء على هذا الحديث الضعيف ، وينسى - أو يُعرض - عن نصوص القرآن . والأحاديث النبوية الصحيحة التي هي منار هداية للمؤمن في كل وقت وخاصة في هذه الأزمات .

**الثاني:** الحديث عن «الفتنة» وذكرها في غير موضعها . حتى أنك تجد أحياناً من يصم من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر بأنه يثير فتنة .

ولا يصم من ينشر المنكر ويحميه ، ويفتن الناس في دينهم وفي عقيدتهم وفي أخلاقهم ، أنه ينشر بلاءً وفتنة .

ويصم السكوت عن الكافرين ، والغلاة الباطنيين وهم ينشرون كفرهم وفسادهم في أمة الإسلام بأنه منطوق وحكمة .

الفتنة كما وردت في القرآن الكريم: قال الراغب الأصفهان: «أصل «الفتن»: إدخال الذهب النار لتظهر جودته من رداءته»<sup>(٢)</sup> . قال تعالى: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُقْتَلُونَ﴾<sup>(٣)</sup> . أي: يحرقون ، وقيل: يقررون بذنوبهم .

(٢) سورة الذاريات، الآية: ١٣ .

(١) الجمعة ٢٨/٥/١٤١٤هـ .

(٣) انظر:

وقال ابن فارس في المعجم: «الفاء والتاء والنون: أصل صحيح يدل على ابتلاء واختبار، من ذلك «الفتنة»، يقال: فتنْتُ أفتنُ فتنًا وفتنتُ الذهب بالنار، إذا امتحنته...»<sup>(١)</sup>. ومنه: الفتان الشيطان... والفتن: الإحراق.

وقد وردت في القرآن على عدة معانٍ ترجع إلى هذا الأصل: فهي إما واردة بمعنى الاختبار والابتلاء وهذا كثير. أو بمعنى ما تخرجه المحنة والاختبار إلى المكروه أو ما يؤول إليه: كالإثم، والتحريق، والفجور، والشرك والكفر، والعذاب، والقتل، والضلالة، والتسليط، ونقف مع بعض هذه المعاني:

أ- الفتنة بمعنى الابتلاء: قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَإِذْ يُلْقُونَ أَمْثَلِ الصَّخْرِ كَثِيرًا فَذُكِّرُوا بِاللَّهِ عَسَىٰ يَهْدِي اللَّهُ وَاثِقًا وَلَا يَهْدِي اللَّهُ الْكَافِرِينَ﴾ (٢).

وهذا استفهام إنكار. ومعناه - كما قال ابن كثير<sup>(٣)</sup> - : (إن الله تعالى لا بد أن يبتلي عباده المؤمنين بحسب ما عندهم من الإيمان، كما جاء في الحديث الصحيح «أشد الناس بلاء الأنبياء، ثم الصالحون، ثم الأمثل فالأمثل، يتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان في دينه صلابة زيد في البلاء»<sup>(٤)</sup>).

وهذه كقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ (٥).

وقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْتَهْمُوا بِالسَّيِّئَاتِ وَالضَّرَّاءِ وَزَلُّوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصُرَ اللَّهُ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ (٦).

ثم قال في الآيات السابقة ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَافِرِينَ﴾ (٧).

وقوله: ﴿مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ دالٌّ على أن الابتلاء والامتحان سنة الله مع جميع أنبيائه

(١) انظر:

(٢) سورة العنكبوت، الآيات: ١-٣.

(٣) انظر: تفسير ابن كثير

(٤) حديث صحيح رواه الترمذي (٢٣٩٨). وابن ماجه (٤٠٢٣). وأحمد (١/١٧٢، ١٧٤، ١٨٠،

(١٨٥)، والحاكم (١/٤٠-٤١). (٥) سورة آل عمران، الآية: ١٤٢.

(٦) سورة البقرة، الآية: ٢١٤. (٧) سورة العنكبوت، الآية: ٣.

ورسله وأتباعهم .

وفتنة الابتلاء والامتحان تكون في الخير وفي الشر :

١ - قال تعالى : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبَلُّوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِنَّا تَرْجِعُونَ ﴾ (١) .

٢ - وقال تعالى : ﴿ وَعَلَّمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ (٢) .

٣ - وقال تعالى : ﴿ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ (٣) .

٤ - وقال تعالى : ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفِثَنَّهُمْ فِيهِ... ﴾ (٤) .

٥ - وقال تعالى : ﴿ وَأَنْ لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَهُمْ مَاءً غَدَقًا \* لِنَفِثَنَّهُمْ فِيهِ ﴾ (٥) .

ب - وتأتي الفتنة بمعنى : «الشرك» ، و «الكفر» ، و «الضلال» ، وهذا كثير في

القرآن الكريم : قال تعالى : ﴿ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجْتُمُوهُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ... الآية ﴾ (٦) .

قال ابن كثير - رحمه الله - (٧) : (لما كان الجهاد فيه إزهاق النفوس وقتل

الرجال ، نبه تعالى على أن ما هم مشتملون عليه من الكفر بالله والشرك به والصدء عن سبيله أبلغ وأشد وأعظم وأطم من القتل . ولهذا قال : ﴿ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ ﴾ .

قال أبو مالك : (أي ما أنتم مقيمون عليه أكبر من القتل ، وقال أبو العالية ومجاهد وسعيد بن جبير وعكرمة والحسن وقتادة والضحاك والربيع بن أنس في قوله تعالى :

﴿ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ ﴾ (٨) . يقول : والشرك أشد من القتل) .

وقال تعالى بعد ذلك : ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ ﴾ (٩) ، أي : شرك ﴿ وَيَكُونَ

(١) سورة الأنبياء ، الآية : ٣٥ .

(٢) سورة الأنفال ، الآية : ٢٨ .

(٣) سورة التغابن ، الآية : ١٥ .

(٤) سورة طه ، الآية : ١٣١ .

(٥) سورة الجن ، الآيتان : ١٦ ، ١٧ .

(٦) سورة البقرة ، الآية : ١٩١ .

(٧) انظر : تفسير ابن كثير . . .

(٨) سورة البقرة ، الآية : ١٩١ .

(٩) سورة البقرة ، الآية : ١٩٣ .

الدين لله ﴿ ، أي : يكون دين الله هو الظاهر على سائر الأديان .

وقال تعالى في قصة سرية عبد الله بن جحش ، والقتال في الشهر الحرام واعتراض المشركين على ذلك : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يَقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ (١) .

والمعنى كما في ابن كثير : (إن كنتم قتلتم في الشهر الحرام ، وفاء إخراجكم منه وأنتم أهله أكبر عند الله من قتل من قتل منهم .

﴿ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ ﴾ ، أي : قد كانوا يفتنون المسلم عن دينه حتى يردوه إلى الكفر بعد إيمانه ، فذلك أكبر عند الله من القتل (٢) .

وهنا نقف وقفات مع هذه الحادثة . لو نظر إليها بعض أهل زماننا لانتقد رسول الله ﷺ وصحابته؟! !

١ - إن الإسلام يقرر حرمة الأشهر الحرم وحرمة المسجد الحرام وأن القتال فيه كبير .

٢ - أن مشركي مكة استغلوا الحادثة إعلامياً . وقال : محمد وأصحابه يقاتلون في الشهر الحرام . فهل كانت قريش تحترم الأشهر الحرم - وهم الذين يتلاعبون بالأشهر الحرم حسب أهوائهم وحاجاتهم؟! ﴿ إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحَلِّقُونَ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُؤْاطُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحَلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ ... ﴾ (٣) .

عجبا لهم : صاروا كأهل العراق يستحلون دم الحسين ويسألون عن دم البعوضة في الحرم!!!

٣ - ثم إن قريشاً هم الذين بدأوا المسلمين وفتنوهم عن دينهم . فتنوا المؤمنين ثلاثة عشر عاماً ، ونشروا الكفر في الحرم ، وأخرجوا من الحرم أهله ، ﴿ ... وَلَا يَزَالُونَ يَقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا ... ﴾ (٤) .

(١) سورة البقرة ، الآية : ٢١٧ . (٢) انظر : ابن كثير (٢٥٢ / ١) وما بعدها .

(٣) سورة التوبة ، الآية : ٣٧ . (٤) سورة البقرة ، الآية : ٢١٧ .

٤- وفي العصر الحاضر: الفتنة عن الدين اعتداء على أقدس ما في الحياة الإنسانية، ومن ثم فهي أشد من القتل وإزهاق الروح وإعدام الحياة.

والفتنة عن الدين تأخذ صوراً وأشكالاً عديدة:

(١) الفتنة والأذى الفعلي. كما فعل المشركون في مكة. وكما يفعل أعداء المسلمين اليوم في الهند وكشمير ويوغسلافيا وغيرها من البلاد الإسلامية - أو - التي يقطنها مسلمون.

وكم جرى على المسلمين من فتن على يد الحكم الشيوعي خلال سبعين سنة، إنها فظائع لا توصف.

(٢) ومن ذلك فرض أنظمة وأوضاع فاسدة تحارب المسلمين في دينهم؛ بحيث يحمى الإلحاد - ويسمى نشره حرية - وتفرض القوانين التي يتيح الربا والزنا عن تراض وشرب الخمر... إلخ، وأي فتنة أعظم من هذه الفتنة؟!

(٣) ويتبع ذلك وسائل إفساد الشباب والمرأة المسلمة، بشتى وسائل الفساد - وهذه فتنة عظيمة - .

(٤) حماية المزارات والقبور، والذبح والنذر لها ودعائها من دون الله تعالى - حتى أصبح الشرك الأكبر - هو عين العبادة والتقرب إلى الله تعالى .

(٥) محاربة أولياء الله تعالى ووصمهم بالتطرف والإرهاب والأصولية - وما هي إلا حرب للإسلام الحق، ولكن لبست بلباس حرب الإرهاب، ثم أضيفت إلى الدعاة إلى الله تعالى. فهناك دول ترتكب الفظائع ويسكت عنها، ومسلمون عزل تنالهم السهام من كل جانب، والعالم يتفرج عليهم ولا يصنع شيئاً.

ومن أعظم أنواع الفتن: فتنة الحرص على الشرف أو المال وطلبهما بالدين، روى الإمام أحمد عن كعب بن مالك أن النبي ﷺ قال: «ما ذئبان جائعان أرسلا في غنم أفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه»<sup>(١)</sup>، وله شاهد من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، ولفظه: «ما ذئبان ضاريان جائعان في غنم افترقت أحدهما في أولها

(١) رواه أحمد (٤٥٦/٣)، (٤٦٠/٣)، والترمذي (٢٣٧٦)، وقال: هذا حديث حسن صحيح.

والآخر في آخرها بأسرع فساداً من امرئ في دينه يحب شرف الدنيا ومالها»<sup>(١)</sup>.

وهذا النوع من الفتنة الذي دل عليه هذا الحديث مما يجب أن ينتبه له العلماء والدعاة إلى الله، فهو مزلق خطر، وقد استوفى ابن رجب رحمه الله هذا الأمر في شرحه لهذا الحديث.

### الإسلام بين مد وجزر:

روى البخاري عن حذيفة - رضي الله عنه - قال: قال النبي ﷺ: «اكتبوا لي من تلفظ بالإسلام من الناس فكبتنا له ألفاً وخمسمائة رجل. فقلنا: تخاف علينا ونحن ألف وخمسمائة؟ فلقد رأيتنا ابتلينا حتى إن الرجل ليصلي وحده وهو خائف»<sup>(٢)</sup>.

وفي رواية مسلم: «أتخاف علينا ونحن ما بين الستمئة إلى السبعمئة». ووجه الجمع بينهما: أن من قال ألفاً وخمسمائة، ذكر الرجال والنساء والمقاتلة من أهل المدينة ومن غيرهم. ومن قال: من الستمئة إلى السبعمئة ذكر الرجال المقاتلين فقط.

قال النووي<sup>(٣)</sup>: (أما قوله: فابتلينا فجعل الرجل لا يصلي إلا سراً، فلعله كان في بعض الفتن التي جرت بعد النبي ﷺ، فكان بعضهم يخفي نفسه ويصلي سراً مخافة من الظهور والمشاركة والدخول في الفتنة والحروب) والله أعلم.

وقال ابن حجر في الفتح<sup>(٤)</sup>:

(وأما قول حذيفة: «فلقد ابتلينا . . . إلى آخره. فيشبه أن يكون أشار بذلك إلى ما وقع في أواخر خلافة عثمان رضي الله عنه من ولاية بعضهم أمراء الكوفة؛ كالوليد بن عقبة، حيث كان يؤخر الصلاة أولاً يقيمها على وجهها وكان بعض الوريثين يصلي سراً خشية الإنكار عليه . . . وفي ذلك علم من أعلام النبوة . . .).

\* \* \*

(١) رواه أبو يعلى في مسنده (٣٣١/١١).

(٢) رواه البخاري (٣٠٦٠)، ومسلم (١٤٩).

(٣) انظر: صحيح مسلم بشرح النووي (١/٣٦١).

(٤) البخاري في الفتح (٦/١٧٨).

## الفتن والمخرج منها<sup>(١)</sup>

### (٢) الفتنة في السنة

●●● روى البخاري في صحيحه عن أم سلمة زوج النبي ﷺ - رضي الله عنها - قالت : استيقظ رسول الله ﷺ ليلة فزعاً يقول : « سبحان الله ماذا أنزل الله من الخزائن ، وماذا أنزل من الفتن؟ من يوقظ صواحب الحجرات لكي يصلين. ربّ كاسية في الدنيا عارية يوم القيامة»<sup>(٢)</sup> .

وفي الصحيح عن أم المؤمنين زينب بن جحش - رضي الله عنها - قالت : استيقظ رسول الله ﷺ مرة من نومه وهو يقول : « لا إله إلا الله، ويل للعرب من شر قد اقترب. فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه» - وعقد سفيان أحد رواة الحديث - بيده عشرة . قالت له زينب : يا رسول الله ! أنهلك وفينا الصالحون؟ قال : «نعم. إذا كثر الخبث»<sup>(٣)</sup> .

وفي يوم من الأيام أشرف رسول الله ﷺ على أطم من أطام المدينة ، فقال لأصحابه : «هل ترون ما أرى؟ إني لأرى مواقع الفتن خلال بيوتكم كمواقع القطر»<sup>(٤)</sup> .

لماذا هذا الفزع وهذا التحذير منه ﷺ لأصحابه؟ :

١ - إنه خوفه الشديد على أمته أن تغير وتبدل . ولهذا فما من خير إلا ودلها عليه . ومن شر إلا وحذرهما منه .

٢ - ولما كان وجود هذه الفتن أمراً قديراً - لا بدّ منه - أراد ﷺ أن ينصح من ينتصح من أصحابه ومن يأتي بعدهم حتى يتعاملوا معها على مقتضى الشرع لينجوا من العقوبات ، وليعتصموا بالله ويتمسكوا بدينه في كل وقت .

٣ - التحذير من مسببات تلك الفتن - وهي كثيرة - . ولا يزال يوجد من ينتفع

(١) الجمعة ٦/٦/١٤١٤ هـ .

(٢) رواه البخاري (١١٥) وفي مواضع أخرى، والترمذي (٢١٩٦) .

(٣) رواه البخاري (٧١٣٩) .

(٤) رواه البخاري (٧٠٦٠) .

بهذه الأحاديث ممن وفقه الله تعالى لذلك .

• ومن أخطر الفتن: جعل بأس هذه الأمة بينها، وتسليط بعضهم على بعض .

روى مسلم عن عامر بن سعد عن أبيه أن رسول الله ﷺ أقبل ذات يوم من العالية، حتى إذا مرَّ بمسجد بني معاوية دخل فركع فيه ركعتين وصلينا معه، ودعا ربَّه طويلاً، ثم انصرف إلينا فقال ﷺ: «سألت ربي ثلاثاً فأعطاني ثنتين ومنعني واحدة، سألت ربي: أن لا يهلك أمتي بالسنة فأعطانيها، وسألته أن لا يهلك أمتي بالفرق فأعطانيها، وسألته أن لا يجعل بأسهم بينهم فمنعنيها»<sup>(١)</sup>.

وفي حديث ثوبان: «إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقتها ومغاربها، وأن أمتي سيبلغ ملكها ما روي لي منها، وأعطيت الكنزين الأحمر والأبيض»<sup>(٢)</sup>، وإني سألت ربي لأمتي أن لا يهلكها بسنة عامة، وأن لا يسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم فيستبيح بيضهم، وإن ربي قال: يا محمد إني إذا قضيت قضاءً فإنه لا يرد، وإني أعطيتك لأمتك أن لا أهلكهم بسنة عامة<sup>(٣)</sup> وأن لا أسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم يستبيح بيضهم<sup>(٤)</sup> ولو اجتمع عليهم من بأقطارها - أو قال من بين أقطارها - حتى يكون بعضهم يهلك بعضاً ويسبي بعضهم بعضاً<sup>(٥)</sup>، وفعلاً، هذا هو واقع الأمة الإسلامية:

- ١ - فهجوم التتار أو الصليبيين - مع ضخامتهما - لم يستأصل شافة المسلمين، بل رُدُّوا على أديبارهم أو أسلموا.
- ٢ - والتسليط في هذه الأمة كان من بعضهم لبعض كما هو مُشاهد.

●●● حذيفة بن اليمان: الصحابي الجليل كان من أكثر الصحابة اهتماماً بهذا

الموضوع .

فقد روى مسلم في صحيحه أن أبا إدريس الخولاني كان يقول: قال حذيفة بن

(١) رواه مسلم (٢٨٩٠).

(٢) قيل: الذهب والفضة، والمراد: كنوز كسرى وقيصر.

(٣) أي: قحطاً يعمهم، بل إن وقع قحط فيكون في ناحية دون ناحية من بلاد الإسلام.

(٤) أي جماعتهم وملكهم، والبيضة أيضاً: العزة والملك.

(٥) رواه مسلم (٢٨٨٩).

اليمان : والله إني لأعلم الناس بكل فتنة هي كائنة فيما بيني وبين الساعة ، وما بي إلا أن يكون رسول الله ﷺ أسراً إليّ في ذلك شيئاً لم يحدثه غيري . ولكن رسول الله ﷺ قال وهو يحدث مجلساً أنا فيه عن الفتن ، فقال رسول الله ﷺ وهو يعدّ الفتن : «منهن ثلاث لا يكدن يذرن شيئاً ، ومنهن فتن كرياح الصيف ، منهن صغار ومنها كبار»<sup>(١)</sup> . قال حذيفة : فذهب أولئك الرهط كلهم غيري .

وتعالوا نتف مع نماذج من هذه الفتن التي حذرنا منها رسول الله ﷺ :

١ - الافتراق والاختلاف: فعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « افتترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة ، وافتترقت النصارى على ثنتين وسبعين فرقة ، وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة»<sup>(٢)</sup> .

٢ - التحريش بين المسلمين - واختلافهم - وإثارة الخصومات والشحناء والحروب والفتن: فعن جابر - رضي الله عنهما - قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «إن الشيطان قد أيس أن يعبد المصلون في جزيرة العرب ، ولكن في التحريش بينهم»<sup>(٣)</sup> .

والتحريش : إنّما يكون بالتهوين من رابطة العقيدة . وإحياء رابطة القومية والوطنية والعصبية للقبيلة ونحوها والرابطة التي تجمع الأمة حقاً هي رابطة الإيمان والعقيدة ، وهذا ما وقع في أول الرسالة حيث إن الله تعالى هو الذي أَلَفَ بين قلوب المؤمنين ﴿لَوْ أَنْفَقْتُ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مَا آَلَفْتُ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ آَلَفَ بَيْنَهُمْ﴾<sup>(٤)</sup> .

٣ - ترك المنكرات حتى تفسدوهم وعدم الأخذ على يد الظالم : فعن أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - قال : أيها الناس إنكم تقرؤون هذه الآية ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾<sup>(٥)</sup> وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : «إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب منه»<sup>(٦)</sup> .

(١) مسلم (٢٨٩١) ، وأحمد (٥/٢٨٨ ، ٤٠٧) .

(٢) رواه (٢٦٤٢) وغيره ، وقد سبق تخريجه .

(٣) رواه مسلم في صحيحه (٢٨١٢) ، والترمذي (١٩٣٨) ، وأحمد (٣/٣١٣) .

(٤) سورة الأنفال ، الآية : ٦٣ . (٥) سورة المائدة ، الآية : ١٠٥ .

(٦) رواه أحمد في مسنده (٢/١ ، ٥ ، ٧ ، ٩) ، وأبو داود (٤٣٣٨) ، والترمذي (٢١٦٩) ، وابن ماجه

٤ - تداعي الأمم علينا: فعن ثوبان - رضي الله عنه - مولى رسول الله قال: قال رسول الله ﷺ: «يوشك أن تداعى عليكم الأمم من كل أفق كما تداعى الأكلة على قصعتها». قال: قلنا يا رسول الله: أمن قلة بنا يومئذ؟ قال: «أنتم يومئذ كثير، ولكن تكونون غشاء كغشاء السيل، ينتزع المهابة من قلوب عدوكم، ويجعل في قلوبكم الوهن». قال: قلنا: وما الوهن؟ قال: «حب الحياة وكرهية الموت»<sup>(١)</sup>.

٥ - ترك الحكم بكتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ: فعن أبي أمامة الباهلي - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «لتتقضن عرى الإسلام عروة عروة فكلما انتقضت عروة تشبث الناس بالنبي تليها، وأولهن نقضاً الحكم، وآخرهن الصلاة»<sup>(٢)</sup>.

٦ - قبض العلماء واتخاذ رؤساء جهال: فعن عبد الله بن عمرو بن العاص - رضي الله عنهما - قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من العباد، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء حتى إذا لم يبق عالماً اتخذ الناس رؤساء جهالاً فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا»<sup>(٣)</sup>.

٧ - رفع الأمانة: فعن حذيفة - رضي الله عنه - قال: «حدثنا رسول الله ﷺ أن الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجال، ثم علموا من القرآن ثم علموا من السنة»<sup>(٤)</sup>.

وحدثنا عن رفعها فقال: «ينام الرجل النومة فتقبض الأمانة من قلبه... ويصبح الناس يتابعون فلا يكاد أحد يؤدي الأمانة. فيقال: إن في بني فلان رجلاً أميناً. ويقال للرجل: ما أعقله، وما أظرفه، وما أجده وما في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان»<sup>(٥)</sup>. ولهذا لما سئل رسول الله ﷺ عن الساعة، قال: «إذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة». قال: كيف إضاعتها؟ قال: «إذا وسد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة»<sup>(٦)</sup>.

#### ٨ - فتنة المال:

أ - قال النبي ﷺ: «لا الفقر أخشى عليكم، ولكن أخشى عليكم الدنيا أن تنافسوها كما تنافسوها فتهلككم كما أهلكتهم»<sup>(٦)</sup>.

(١) رواه الإمام أحمد (٥/٢٧٨).

(٢) رواه الإمام أحمد (٥/٢٥١).

(٣) رواه البخاري (١٠٠)، وفي غير موضع، ومسلم (٢٦٨٣).

(٤) رواه البخاري (٦٤٩٧)، ومسلم (١٤٣).

(٥) رواه البخاري (٥٩).

(٦) رواه البخاري (٣١٥٨).

ب - وقال ﷺ: «ليأتين على الناس زمان لا يبالي المرء بما أخذ المال من حلال أم من حرام...» (١).

٩ - فتنة النساء: فقد حذر ﷺ أنواعاً من التحذير عنهن:

أ - حذر من العري. فحذر من النساء الكاسيات العاريات المائلات المميلات... (٢).

ب - وحذر من الفتنة بهن، فقال: «إن الدنيا حلوة خضرة وإن الله مستخلفكم فيها، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء فإن فتنة بني إسرائيل كانت في النساء» (٣).

وانظروا في هذه الأيام إلى فتن المرأة، وكيف تحولت إلى فتنة حقيقية ذات أثر كبير في الأمة . والله المستعان .

هذه نماذج للفتن ، فما المخرج منها؟

(١) رواه البخاري (٢٠٨٣)، والنسائي (٢٤٣/٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) رواه مسلم (٢١٢٨)، وأحمد (٣٥٥-٣٥٦، ٤٤٠)، كلاهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٣) رواه مسلم (٢٧٤٢)، وأحمد (١٩/٣، ٢٢، ٤٦، ٦١) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .

## الفتن والمخرج منها (١)

## (٣) المخرج من الفتن

سبقت الإشارة إلى أنواع الفتن، ونبين الآن خطوطاً رئيسة في المخرج من هذه الفتن على مستوى الفردة وعلى مستوى الأمة. ويمكن بيان ذلك من خلال ما يلي:

- ١ - التعوذ بالله من الفتن: والمؤمن ليس له في كل أوقاته وأحواله إلا الله، فكيف به في وقت الفتن [على مختلف أشكالها وصورها]؟؟؟
- ١ - انظروا إلى رسول الله ﷺ وهو ممن عُفِرَ له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، كيف كان يدعو؟

عن عائشة - رضي الله عنها - أن النبي ﷺ كان يقول: «اللهم إني أعوذ بك من الكسل والهرم والمأثم وعذاب النار، ومن شر فتنة القبر، وعذاب القبر، ومن فتنة النار وعذاب النار، وأعوذ بك من فتنة المسيح الدجال، اللهم اغسل عني خطاياي بماء الثلج والبرد...» (٢).

٢ - وعن أنس - رضي الله عنه - قال: كان نبي الله ﷺ يقول: «اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل والجبن والبخل والهرم، وأعوذ بك من عذاب القبر، وأعوذ بك من فتنة الحيا والممات» (٣).

٢ - الحذر من الانتكاسة في الفتنة، حين لا يعرف الإنسان المعروف ولا ينكر المنكر: اسمعوا إلى هذا الحديث من حذيفة وعمر - رضي الله عنهما - قال: كنا عند عمر - رضي الله عنه - فقال: أيكم سمع رسول الله ﷺ يذكر الفتن؟ فقال قوم: نحن سمعناه. فقال: لعلكم تعنون فتنة الرجل في أهله وجاره؟ قالوا: أجل. قال: تلك تكفرها الصلاة والصيام والصدقة.

ولكن أيكم سمع النبي ﷺ يذكر الفتن التي تموج موج البحر؟ قال حذيفة:

(١) الجمعة ١٣/٦/١٤١٤هـ.

(٢) رواه البخاري (٦٣٦٨، ٦٣٧٥) وفي غير موضع، ومسلم (٥٨٩)، والترمذي.

(٣) رواه البخاري (٦٣٦٣، ٦٣٦٧، ٦٣٦٩، ٦٣٧١)، ومسلم (٢٧٠٦).

فأسكت القوم . فقلت : أنا . قال : لله أبوك - وهي كلمة مدح معتادة ، أي : لله أبوك حيث أتى بمثلك .

قال حذيفة : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «تعرض الفتن على القلوب كالحصير عوداً عوداً [أي كما ينسج الحصر عوداً عوداً وشظية شظية] ، أي قلب أشربها نكت فيه نكتة سوداء، وأي قلب أنكرها نكت فيه نكتة بيضاء ، حتى تصير على قلبين: على أبيض مثل الصفا، فلا تضره فتنة ما دامت السموات والأرض، والآخر : أسود مرباداً [ أي بياض يسير فيه سواد ] كالكوز مجخياً [أي منكوساً] لا يعرف معروفًا ولا ينكر منكراً إلا ما أشرب من هواه» (١) .

وحالة القلب المنكوس الذي رأى المعروف منكراً والمنكر معروفاً من أخطر الحالات التي قد تصيب الفرد وقد تصيب الأمة من الناس .

٣ - الحذر من السير في ركاب المنكر؛ لأن الكبراء رضوا به: روى مسلم في صحيحه عن أم سلمة - رضي الله عنها - أن رسول الله ﷺ قال : «ستكون أمراء فتعرفون وتنكرون، فمن عرف فقد برئ، ومن أنكر سلم، ولكن من رضي وتابع» . قالوا: أفلا نقاتلهم؟ قال : «لا، ما صلوا» (٢) .

قال النووي - رحمه الله - : (قوله : «من عرف فقد برئ» معناه : من عرف المنكر ولم يشتبه عليه فقد صارت له طريق إلى البراءة من إثمه وعقوبته بأن يغيره بيديه أو بلسانه ، فإن عجز فليكرهه بقلبه . وقوله : «ولكن من رضي وتابع» ، أي : ولكن العقوبة والإثم على من رضي وتابع) (٣) .

٤ - السير في ركب جماعة المسلمين وإمامهم؛ عن حذيفة قال : كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني .

فقلت : يا رسول الله ! إنا كنا في جاهلية وشر فجاءنا الله بهذا الخير فهل بعد هذا الخير من شر؟ قال : «نعم» . قلت : وهل بعد ذلك الشر من خير؟ قال : «نعم وفيه

(١) رواه مسلم (١٤٤) بتمامه . وأخرج البخاري الجزء الأول منه (٥٢٥) وفي غير موضع .

(٢) رواه مسلم (١٨٥٤) ، وأبو داود (٤٧٦٠ ، ٤٧٦١) ، والترمذي (٢٢٦٥) ، وغيرهم .

(٣) صحيح مسلم بشرح النووي . . .

دخن» [أي فيه كدر] قلت: وما دخنه؟ قال: «قوم يهدون بغير هديي تعرف منهم وتنكر». قلت: فهل بعد ذلك الخير من شر؟ قال: «نعم دعاة على أبواب جهنم من أجابهم إليها قذفوه فيها». قلت: يا رسول الله! صفهم لنا. قال: «هم من جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا». قلت: فما تأمرني إن أدركني ذلك؟ قال: «تلتزم جماعة المسلمين وإمامهم». قلت: فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام؟ قال: «فاعتزل تلك الفرق كلها ولو أن تعض بأصل شجرة حتى يدركك الموت وأنت على ذلك» (١).

أ - انظروا إلى صفات الحالة الأخيرة التي خشي الصحابي الجليل حذيفة - رضي الله عنه - أن يدركها: «دعاة على أبواب جهنم من أجابهم إليها قذفوه فيها» .

● أن هؤلاء الدعاة إلى الباطل ليسوا يهوداً ولا نصارى ولا أعاجم، وإنما هم من جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا» .

ب - فما المخرج من هذه الفتنة العظيمة؟ قال: «تلتزم جماعة المسلمين وإمامهم» إن وجدا جميعاً فيها ونعمت، وإلا فالتزم أحدهما. قال: فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام؟ قال: فاعتزل تلك الفرق كلها، والمعنى أنه لا يجوز أن تسير في ركب الباطل مهما كان أتباعه كثيرين، بل عليك البقاء على الحق ولو كنت وحدك .

٥ - أهمية التأصيل العلمي القائم على منهج شرعي؛ وهذا لا بد منه وقت الفتن؛ لأن كثيرين يخوضون بغير علم فيؤدي خوضهم إلى أنواع من البلاء والتفرق والتصرفات الطائشة .

ومما يلاحظ: انتشار القصص والروايات الواهية الضعيفة وقت الفتنة، فيكثر القصص والذين يوردون الحكايات والقصص التي لا أصل لها، انظر إلى قول ابن عمر - رضي الله عنه - كما رواه ابن حبان - «لم يكن يُقَصَّ في زمان رسول الله ﷺ ولا أبي بكر ولا عمر ولا عثمان إنما كان القصص في زمن الفتنة» (٢) .

إن التأصيل العلمي الشرعي لا بد منه؛ لأمر:

(١) رواه البخاري (٣٦٠٦) وفي مواضع أخرى، ومسلم (١٨٤٧) .

(٢) رواه ابن حبان (١١١) موارد الظمان، وإسناده صحيح، وهو موقوف على ابن عمر رضي الله عنهما .

١ - أن الوصول إلى الحق والصواب لا يتم إلا بالرجوع إلى الكتاب والسنة وأقوال سلف الأمة .

٢ - إنه يحمي من الاجتهادات التي تمليها الظروف والأهواء ، ويرجع الأمور إلى أصولها الصحيحة .

٣ - أن سرعة الأحداث في الفتن تؤدي ببعض الناس إلى سرعة التعامل معها ، ومن ثم فأصحابها أحرى - والحالة هذه - أن يستبطنوا التعامل معها بهدوء وروية ، وهو ما يحتاجه الجانب الشرعي .

٤ - أن الإنسان تتغير أحواله وقت الفتنة ، فهو بأشد الحاجة إلى قسر نفسه إلى الحق ولو كان مرأ .

انظر إلى تحذير رسول الله ﷺ من فتنة الدجال ، حين قال : «من سمع بالدجال فلا يأتيه ، فإن الرجل يسمع به ويقول أنا أعرفه إنه الكذاب، ثم لا يلبث أن يذهب إليه فيتبعه»<sup>(١)</sup> .

العلم وقت الفتن له أهمية، روى البخاري عن أبي بكره قال : لقد نفعني الله بكلمة سمعتها من رسول الله ﷺ أيام الجمل بعد ما كدت أن ألحق بأصحاب الجمل فأقاتل معهم . قال : لما بلغ رسول الله ﷺ أن أهل فارس قد ملكوا عليهم بنت كسرى قال : «لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة»<sup>(٢)</sup> .

خطر الابتلاء بالأشخاص: روى البخاري عن عبد الله بن زياد الأسدي قال : «لما سار طلحة والزبير وعائشة إلى البصرة بعث عليّ عمار ابن ياسر وحسن بن علي، فقدمنا علينا الكوفة فصعدا المنبر ، فكان الحسن بن علي فوق المنبر في أعلاه، وقام عمار أسفل من الحسن ، فاجتمعنا إليه فسمعت عماراً يقول: إن عائشة قد سارت إلى البصرة ، والله إنها لزوجة نبيكم في الدنيا والآخرة ولكن الله تبارك وتعالى ابتلاكم ليعلم إياه تطيعون أم هي؟»<sup>(٣)</sup> .

(١) هذا معنى حديث صحيح رواه أحمد (٤/٤٣١ ، ٤٤١)، وأبو داود (٤٣١٩) من حديث عمران ابن

حصين رضي الله عنه . (٢) رواه البخاري (٤٤٢٥ ، ٧٠٩٩) .

(٣) رواه البخاري (٧١٠٠) وهو موقوف على عمار رضي الله عنه، وقوله : «إنها لزوجة نبيكم في الدنيا والآخرة» له حكم الرفع إلى رسول الله ﷺ .

٦ - التزام الطائفة المنصورة التي لا تضرها الفتن، وهم الغرباء: حديث: «لا تزال طائفة من أمتي على الحق منصوراً لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله تعالى» (١).

\* وحديث: «بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ...» (٢).

فما هي هذه الطائفة؟ وما هي صفاتها؟ ، حتى نسلك مسلكها .

١ - إنها قائمة بالحق، صادعة به، لا تهاب، وهي إذا كانت كذلك لا يضرها من خالفها أو خذلها .

٢ - أنها سالكة مسلك السلف الصالح في منهجها العقدي والشرعي .

٣ - أنها مجاهدة في سبيل الله تعالى .

٤ - أنهم غرباء يصلحون ما أفسد الناس، أو يصلحون إذا فسد الناس .

فعلنى المؤمن في كل وقت - وفي وقت الفتن خاصة - أن يسعى ليكون من هذه الطائفة الناجية المنصورة .

٧ - وحين تختلط الأمور - ولا تميز الصفوف - وتستحكم الفتنة، فعلى المؤمن أن يفرّ بدينه - ويسلم به - .

ولعل هذا في أزمّة محددة، وأماكن محددة . مثل ما جرى للمسلمين الباقين في الأندلس أيام محاكم التفتيش، أو المسلمين في ما كان يسمى بالاتحاد السوفيتي حين احتل بلادهم الشيوعيون . وهنا الأولى بالمسلم أن يفرّ بدينه:

١ - قال ﷺ: «العبادة في الهرج كهجرة إلي» - الهرج: استحكام القتل بين المسلمين (٣) .

(١) رواه البخاري (٧٣١٢)، ومسلم (١٠٣٧).

(٢) رواه عبد الله بن أحمد في زوائد المسند (١/٣٩٨)، والترمذي (٢٦٣١)، وابن ماجه (٣٩٨٨) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه . ورواه مسلم (١٤٥)، وابن ماجه (٣٩٨٦)، وأحمد (٣٨٩/٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٣) رواه مسلم (٢٩٤٨)، والترمذي (٢٢٠٠)، وأحمد (٢٥/٥).

- ٢- وقال ﷺ: «يوشك أن يكون خيرَ مالِ المؤمنِ غنمٌ يتبع بها شعفَ الجبال»<sup>(١)</sup> .
- ٣- وقال ﷺ: «بادروا بالأعمال الصالحة فتأ كقطع الليل المظلم، يصبح الرجل مؤمناً، ويمسي كافراً»<sup>(٢)</sup> .

وهناك نوع من الفرار في الفتن يمكن أن يسمى بالفرار الجزئي من الفتن، أي الفرار من أنواع الفتن لا يخوض فيها .

فمثلاً: حين يخوض الناس في قضية أو حادثة، فالأولى بالمؤمن أن لا يلزم نفسه في الخوض فيها، بل قد يكون من الأسلم له إذا لم تتضح له الأمور أن يبتعد عن الخوض فيها . لكن لا يعتزل الناس لأجلها، وإنما يعمل ويدعو إلى الله في مجالات أخرى واضحة مفيدة للأمة .

الهجرة وقت الفتن: قال تعالى: ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾<sup>(٣)</sup> .

وروى البخاري عن عطاء بن رباح قال: زرت عائشة مع عبيد ابن عمير، فسألها عن الهجرة؟ فقالت: لا هجرة اليوم، كان المؤمن - وفي رواية: «كان المؤمنون» - يفر أحدهم بدينه إلى الله وإلى رسوله مخافة أن يفتن عليه، فأما اليوم فقد أظهر الله الإسلام فالمؤمن يعبد ربه حيث شاء، ولكن جهاد ونية»<sup>(٤)</sup> .

قال الحافظ بن حجر<sup>(٥)</sup>: (أشارت عائشة إلى بيان مشروعية الهجرة وأن سببها خوف الفتنة . والحكم يدور مع علته، فمقتضاه أن من قدر على عبادة الله في أي موضع اتفق لم تجب الهجرة منه، وإلا وجبت، ومن ثم قال الماوردي: إذا قدر على إظهار الدين في بلد من بلاد الكفر فقد صارت البلد به دار إسلام، فالإقامة فيها أفضل من الرحلة منها؛ لما يترجى من دخول غيره في الإسلام).

(١) رواه البخاري (١٩) وفي غير موضع من الصحيح ، وأبو داود (٧٠٨٨)، والنسائي (١٢٣/٩) -

(١٢٤)، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .

(٢) حديث صحيح (١١٨)، والترمذي (٢١٩٦)، وأحمد (٣٠٤/٢)، وأحمد (٣٧٢، ٣٩٠، ٣٩١) من حديث

أبي هريرة رضي الله عنه . (٣) سورة الحج، الآية: ٤٠ .

(٥) فتح الباري (٧/٢٢٩) .

أبي هريرة رضي الله عنه .

(٤) البخاري (٤٣١٢) .

ونقول: أما قول الماوردي: (صارت به دار إسلام) فلا يوافق عليه. وكان الماوردي لم يكن يتصور حالة يقدر فيها الفرد على إظهار الدين إلا حالة واحدة فقط.

٨ - وأخيراً: إن أعظم مخرج من الفتنة تمييز الأمور - حتى لا يختلط على المسلمين مصطلح الفتنة، وفي الكتاب والسنة بيان - وأي بيان - لأسباب هذه الفتنة حتى نحذرنا:

- ١ - ففسو المنكر وعدم إنكاره - والسكوت عن الدعاة على أبواب جهنم - فتنة .
  - ٢ - والتفرق والاختلاف القائم على البدع والأهواء وشهوات الدنيا، فتنة .
  - ٣ - ووجود الأئمة المضلين الذين خافهم رسوله الله ﷺ على أمته، فتنة .
  - ٤ - والقتال - حين يكون لأجل الدنيا - لا في سبيل الله تعالى، فتنة .
- ولهذا لما قيل لأحد الصحابة: ألا تشارك في القتال . قال: (نحن قاتلنا على عهد رسول الله ﷺ، حتى لا نكون فتنة ويكون الدين لله . وأنتم تريدون منا أن نقاتل حتى تكون فتنة؛ لأن قتالكم لأجل الدنيا .

- ٥ - والأموال والأولاد والنساء . . . إلخ، فتنة يجب ضبطها والحذر منها .
  - ٦ - وأختم ذلك بثلاثة أنواع من الفتنة؛ هي من أخطر الفتن:
- أولها: الشرك بالله والكفر به والصد عن دينه، وهذا الشرك عام سواء كان بالكفر بالله وعبادة غير الله أو برفض الحكم بما أنزل الله، أو باستحلال ما حرم الله، هو من أعظم الفتنة . فكيف نحذرنا أيها المسلمون !!!
- وثانيها: الموالاة بين المؤمنين - وتمييز صفوف غيرهم - ومعاداة الكافرين:

١ - قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ \* فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصِيبُوا

عَلَى مَا أَسْرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ ﴿١﴾.

قال ابن جرير: ((إن ذلك من الله خبر عن ناس من المنافقين كانوا يوالون اليهود والنصارى، ويغشون المؤمنين. ويقولون: نخشى أن تدور دوائر، إما اليهود والنصارى، وإما لأهل الشرك من عبدة الأوثان، أو غيرهم على أهل الإسلام، أو تنزل بالمنافقين نازلة، فيكون بنا إليهم حاجة)).

قال ابن جرير: ((لا شك أنه من كلام المنافقين)).

إذن، موالاة الكفار من دون المؤمنين، هو من الفتنة التي يجب الحذر منها. ولا مخرج من الفتنة إلا بموالاة المؤمنين موالاة حقيقية بالقلب واللسان والجوارح. ومعاداة الكفار سرّاً وجهراً، قال تعالى - بعد أن بيّن أن المؤمنين بعضهم أولياء بعض -: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ فِئْسَادٌ كَبِيرٌ﴾ (٢).

قال الطبري (٣): (عن ابن إسحاق: ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ فِئْسَادٌ كَبِيرٌ﴾، أي: إلا يوال المؤمن المؤمن من دون الكافر - وإن كان ذا رحم به - ﴿تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ﴾، أي: شبهة في الحق والباطل، وظهور الفساد في الأرض بتولي المؤمن الكافر دون المؤمن).

وقال ابن كثير (٤): (أي إن لم تجانبوا المشركين، وتوالوا المؤمنين، وإلا وقعت الفتنة في الناس، وهو التباس الأمر، واختلاط المؤمن بالكفار فيقع بين الناس فساد منتشر عريض).

تأملوا - أيها الإخوة المؤمنون - الآية. وتأملوا كلام شيوخ المفسرين فيها. وقارنوا بحال الأمة الإسلامية اليوم، وكيف انعكس أمر الولاء والبراء، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وثالثها: وهو من عجائب مواقع الفتنة ومعانيها: ما ورد في قوله تعالى عن إبراهيم - عليه السلام - والذين معه. قال تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ

(١) سورة المائدة، الآيتان: ٥١، ٥٢.

(٢) سورة الأنفال، الآية: ٧٣.

(٣) انظر: تفسير الطبري، تفسير سورة الأنفال، آية: [٧٣].

(٤) انظر: ابن كثير، تفسير سورة الأنفال، آية: [٧٣].

وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ \* رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاعْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾

يقول ابن جرير الطبري<sup>(٢)</sup> - عن الآية الأخيرة: (يقول تعالى ذكره مخبراً عن إبراهيم خليله والذين معه: يا ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا فجحداً وحدانيتك، وعبداً غيرك بأن تسلطهم علينا فيبدو أنهم على حق وأنا على باطل فتجعلنا بذلك فتنة لهم).

ثم روى عن قتادة قال: (لا تظهرهم علينا فيفتنوا بذلك يرون أنهم إنهما ظهروا علينا لحق هم عليه).

فلتأمل هذه الفتنة حين يرضى المسلمون بالهوان، ويتركوا الجهاد في سبيل الله فيتسلط عليهم الأعداء - كما هو واقع الأمة الإسلامية الآن - فتتحول إلى فتنة تصد عن دين الله تعالى، ونحن السبب في ذلك، والله المستعان.

\* \* \*

(١) سورة الممتحنة، الآيتان: ٤، ٥.

(٢) انظر: تفسير الطبري، تفسير سورة الممتحنة، آية ٤، ٥.



## الفصل الثالث من أعمال القلوب

- ١- العبودية والاستقامة .
- ٢- أحوال القلب .
- ٣- سلامة الصدر .
- ٤- أسباب شرح الصدر .
- ٥- لا تزول قدما عبد حتى يسأل عن أربع .
- ٦- كن في الدنيا كأنك غريب .
- ٧- الثبات على دين الله .

العبودفة والاستعانة<sup>(١)</sup>

تمر مواسم الخفرات والعبادات على الفرد وعلى الأمة ، فتنقل أهل الخفر والصلاآ إلى أبواب من العبادات والطاعات التي ، لا تنقضي إلا بالموت : ﴿ وَأَعْبُدُ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴾<sup>(٢)</sup> .

ولما كان العبد مأموراً بعبادة الله وحده لا شريك له ، وكان تحقيق هذا مما تعوقه صوارف متنوعة من النفس والهوى وشياطين الجن والإنس ، أمر بالاستعانة بالله ، والتوكل عليه حتى تتحقق هذه العبودفة : وقد قرن الله في كتابه بين الأمر بعبادته والتوكل عليه في أكثر من موضع :

١ - قال تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأُمُورُ كُلُّهَا فاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾<sup>(٣)</sup> .

٢ - وقال تعالى : ﴿ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾<sup>(٤)</sup> . والإنابة هي العبودفة .

٣ - وقال تعالى : ﴿ وَأذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً \* رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً ﴾<sup>(٥)</sup> .

٤ - وقال تعالى : ﴿ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أَنِيبُ ﴾<sup>(٦)</sup> .

٥ - ومن أجمها وأوضحها قوله تعالى في سورة الفاتحة : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾<sup>(٧)</sup> .

فتأمل هذه الآفة التي نتلوها في كل صلاة مرات ، كيف جمعت بين هذين الأصلين العظيمين : العبادة والاستعانة ، فالأولى هي غاية العباد التي خلقتوا لها ، والثانية وسيلة إليها . وكما أن الإنسان لا يعبد إلا الله وحده لا شريك له إذا أراد تحقيق العبادة الصحيحة ، فكذلك ينبغي ألا يستعين إلا بالله وحده على تحقيق هذه

(٢) سورة الحجر ، الآفة : ٩٩ .

(٤) سورة الممتحنة ، الآفة : ٤ .

(٦) سورة هود ، الآفة : ٨٨ .

(١) الجمعة ١٩ / ١٢ / ١٤١٥ هـ .

(٣) سورة هود ، الآفة : ١٢٣ .

(٥) سورة المزمل ، الآيتان : ٨ ، ٩ .

(٧) سورة الفاتحة ، الآفة : ٥ .

العبودية وحصولها وزوال معارضها .

وبعض الناس يغفل عن حاجته إلى ربه في أن يعينه على العبادة والطاعة ، وتأمل قوله تعالى في سورة الفاتحة بعد الآية السابقة : ﴿ هِدَايَا الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ \* صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾ (١) .

فالإنسان محتاج إلى الإعانة على الهداية والطاعة في جميع الأحوال والاقوات ، والعبد محتاج إلى الإعانة على العبادة في ثلاثة أحوال :

\* إعانة قبل فعل العبادة حتى يعرفها ويعلمها العلم الصحيح ، ويلتزمها بعزم قلبي غير متردد .

\* وإعانة أثناء فعل العبادة حتى يقوم بها على وفق الشرع مخلصاً بها لله تعالى .

\* وإعانة بعدها على عبودية أخرى من الاستغفار والتوبة والعمل الصالح ، وهكذا حتى يقضي الإنسان نجه .

والناس في باب العبادة والاستعانة ، أو التوكل ، على أقسام :

١ - قسم منهم : أعرضوا عن عبادته والاستعانة به تعالى ، بل إن سأله تعالى أو استعان به فعلى حظوظ نفسه وشهواته ، لا على مرضاة ربه وحقوقه .

والله تعالى يسأله من في السموات والأرض ، من أوليائه وأعدائه ، ويمد هؤلاء هؤلاء .

وأبغض خلقه إبليس ، ومع ذلك لما سأله حاجة أعطاه إياها . لكن لا لتكون عوناً على مرضاته وإنما زيادة في شقوته . وهكذا كل من سأله أمر لم يكن من طاعته كما يسأله أهل الكفر والفجور والعصيان .

وهذا باب ينبغي أن يتأمله المؤمنون في كل زمن - وخاصة في هذه الأيام - فإجابة الله لسائله ليست لكرامة كل سائل عليه ، بل يسأله عبده الحاجة فيقضيها له وفيها هلاكه وشقوته ويكون قضاؤها له من هوانه عليه وسقوطه ، ومنعها من غيره ؛ لأنه يريد كرامته ومحبتة ومعاملته بلطفه . وقد يظن لجهله أن الله لا يحبه ولا يكرمه ، وإذا رآه يقضي حوائج غيره ، فلربما أساء ظنه بربه . والواجب عليه أن ينظر في الأمر بنظر

(١) سورة الفاتحة ، الآيات : ٦ ، ٧ .

البصيرة الإلهية التي تزن الأمور بميزان الآخرة الباقي، لا بميزان الدنيا الفانية. ولا حول ولا قوة إلا بالله.

٢- وقسم آخر: له نوع عبادة لله بلا استعانة، وهذا يكثر في القدرية ومن ضعفت أعمال القلوب عندهم من أهل السنة.

فالقدرية: يظنون أن الله قد أعان بخلق الآلات وسلامتها وإرسال الرسل، ولم يبق بعد ذلك إعانة تطلب من الله تعالى. وغفلوا عن أن الله تعالى يهدي من يشاء ويضل من يشاء، فهو سبحانه وتعالى تطلب منه المعونة على نفس الهداية.

وهناك أصحاب عبادة واتباع سنة، ولكنهم أصحاب عجز وضعف وخور لضعف التوكل عندهم، ومن ثم يكثر عندهم التعلق بالأسباب، وتضعف أعمال القلوب عندهم من المحبة والرجاء والخوف ونحو ذلك.

٣- وقسم عندهم توكل ومحبة وأعمال وقلوب مع ضعف في العبادة واتباع السنة فيها، وهذا يكثر من ينتسب إلى الزهادة والتصوف الذي تنتشر فيهم البدع وخاصة بدع العبادات مع تركيز على أعمال القلوب وأحوالها ومقاماتها.

٤- وقسم آخر: جمعوا بين العبادة والاستعانة بالله عليها، فعبادة الله غاية في قلوبهم؛ إذ هو مرادهم ومطلوبهم، وهم أيضاً مستعينون به تعالى على تحقيق هذه العبادة.

وهؤلاء هم أفضل الأقسام وأجلها. فهم يسألون الله تعالى الإعانة على تحقيق مرضاته، كما قال النبي ﷺ لمعاذ بن جبل: «يا معاذ! والله إني لأحبك، فلا تنس أن تقول دبر كل صلاة: اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك»<sup>(١)</sup>.

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية، تأملت أنفع الدعاء، فإذا هو سؤال العون على مرضاته، ثم رأيت في الفاتحة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾<sup>(٢)</sup>، وهذا ما يجب أن يكون عليه المسلم بحيث يجمع بين العبادة واتباع السنة والإخلاص لله تعالى فيها، والتوكل على الله والاستعانة به، وخوفه ورجاؤه ومحبته وغير ذلك من أعمال

(١) حديث صحيح رواه أبو داود (١٥٢٢)، وأحمد (٢٢٩/٥، ٢٣٣، ٢٣٦، ٢٣٩).

(٢) سورة الفاتحة، الآية: ٥.

القلوب التي تقوي الاعتماد على الله والصلة به ، خاصة أزمئة الشدائد والمحن .

وهناك سنة من سنن الله تعالى في عباده ينبغي أن يتدبرها العقلاء ، وخلاصتها :  
أن كل من أعرض عن الحق أو شيء منه وجحدته ، فلا بد أن يقع في مقابله من  
الباطل : وهذه أمثلة لذلك :

١ - هؤلاء الكفار والمشركون تكبروا عن عبادة الله وحده لا شريك له ، فرضوا  
لأنفسهم بعبادة الأحجار والأوثان والطواغيت .

٢ - وهذا إبليس ، تكبر عن السجود لآدم وقد أمره الله بذلك ، فرضي لنفسه  
بالعبودية لكل كفر وفساد لذرية آدم حيث يقودهم إلى كل فسق ورذيلة وكفر وتكبر  
على الله تعالى .

٣ - وهؤلاء أهل البدع تكبروا عن اتباع نصوص الوحي من الكتاب والسنة  
وتلقي الهدي من مشكاتها . ثم رضوا لأنفسهم في مقابل ذلك بتقليد أقوال أئمة  
البدع المخالفة للفطرة والعقل والشرع .

٤ - والجهمية نزهوا الرب عن الاستواء على عرشه كما أخبر عن نفسه وبما يليق  
بجلاله . فجعلوه في أجواف البيوت والحوانيت والحمامات وقالوا هو في كل مكان -  
تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً - .

٥ - ونزهوه عن صفات كماله ونعوت جلاله حذراً يزعمهم من التشبيه ،  
فشبهوه بالجمادات التي ليس لها سمع ولا بصر ولا كلام ، وشبهوه بالمعدومات .

٦ - ومن رغب عن العمل لوجه الله تعالى وحده ، ابتلاه الله بالعمل لوجوه  
الخلق . فرغب عن العمل لمن ضره ونفعه وموته وحياته وسعاده بيده ، فابتلي بالعمل  
لمن لا يملك له شيئاً من ذلك من الخلق .

٧ - وكذلك من رغب عن التعب لله تعالى عبادة وطاعة ، ابتلي بالتعب في  
خدمة الخلق ولا بد . وهذا مشاهد . فكم من إنسان أفرغ جهده ونفسه وطاقته في  
خدمة مخلوق مثله ، ولو طلب منه ربع ذلك ليصرفه لربه ، لم صرفه ، ولا استكثره  
على مولاه .

٨- ومن رغب عن إنفاق ماله في طاعة الله تعالى ، ابتلي بإنفاقه لغير الله تعالى وهو راغم . وهذا - نعوذ بالله من الخذلان في أمر تحبه النفوس وتتعلق به - فكم من إنسان إذا جاءه داعي الإنفاق في سبل الخير المتنوعة - وما أكثرها وما أوسع مجالاتها في كل وقت - بخل وكف يده ، وتردد وتلجلج ، وغمر قلبه خوف الفقر والخوف على الصببية . ثم هو في مقابل ذلك ينفق أمواله في أتفه الأمور ؛ لإرضاء مخلوق ، أو طلباً لجاه أو غير ذلك مما هو من عاجل الدنيا ولا يبقى منه شيء يوم القيامة .

٩- ومن رغب عن الوحي واستمداد الهدى منه ، ابتلي بكناسة الأذهان وزبالة الأفكار ، فصار عبداً لها .

وتأملوا حال حياة أصحاب المذاهب العقلية ، الذين أعرضوا عن منهاج الأنبياء ، وأصبحوا عبيداً لفلاسفة الفكر المادي البحت - قديماً وحديثاً - .

١٠- وفي أعمال القلوب ترى من هذا عجباً :

من نقصت محبته لربه تعالى ، تعلق قلبه بغير الله ، فصار محباً له مطيعاً .

ومن نقص خوفه من ربه تعالى ، خاف من غير الله تعالى وصار يرهبه ويقدم طاعته على طاعة ربه تعالى .

ومن نقص رجاؤه لربه تعالى ، تعلق قلبه بغير الله ، فصار يرجوه في جلب نفع أو دفع ضرر .

وكذا بقية أنواع العبادة وأعمال القلوب . من تعلق فيها بغير الله ، وكَلَّه الله تعالى إلى ذلك الغير وتخلَّى عنه ، وبألها من غربة للقلب والنفوس والروح . ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴾ (١) .

\* \* \*

## أحوال القلب (١)

## انشرحه

لقد تبين من خلال الأدلة المتنوعة أن مواطن الهداية والنور والسعادة والحبور إنما هو القلوب إذا استنارت بنور الله تعالى، ولما كان القرآن العظيم المعجز نوراً مبيناً، فتعالوا نتدارس عدداً من الحقائق القرآنية والأنوار الربانية، لعل الله تعالى أن يهدي قلوبنا ويشرح صدورنا لهذا الهدي المبين؛ لتتحقق لنا السعادة في الدنيا والآخرة.

أولاً: شرح الصدور بالإيمان؛ يقول الله تعالى: ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبِهِمْ مِّن ذِكْرِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ \* اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِي تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ وَمَن يُضَلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن هَادٍ﴾ (٢).

وقوله: ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ معناه: هل يستوي هذا ومن هو قاسي القلب بعيد عن الحق، فلا يلين عند ذكر الله ولا يخشع ولا يعي ولا يفهم.

فهناك فرق بين القلوب المنشرحة بالإسلام، والقلوب القاسية: (وهذه الآية تصور حقيقة القلوب التي تتلقى الإسلام فتشرح له وتندى به، وتصور حالها مع الله، حال الانسراح والفتح والنداوة والبشاشة والإشراق والاستنارة، كما تصور حقيقة القلوب الأخرى في قساوتها وغلظتها وموتها وجفافها وعتمتها وظلامها. ومن يشرح الله صدره للإسلام ويمد له من نوره، ليس قطعاً كالقاسية قلوبهم من ذكر الله. وشتان شتان بين هؤلاء وهؤلاء) (٣).

ثم ذكر الله تعالى أعظم وسيلة لشرح الصدور، ألا وهي هذا القرآن الذي أنزله الله تعالى، وهو كلامه: فهو ﴿أحسن الحديث﴾: لأنه كلام الله. وهو ﴿متشابه﴾: يشبه بعضه بعضاً في الأحكام والإعجاز.

(٢) سورة الزمر، الآيات: ٢٢، ٢٣.

(١) الجمعة ١١/١١/١٤١٤هـ.

(٣) في ظلال القرآن (٥/٣٠٤٨).

وهو ﴿مثنائي﴾: تتكرر آياته وقصصه ومواعظه وتوجيهاته، ولكنها لا تختلف ولا تتعارض، ومهما كرر الإنسان وأعاد تلاوة آياته فإن عبره وعجائبه وعلومه لا تنقضي.

قال المفسرون في قوله ﴿مثنائي﴾: أي مردد حتى يفهم الناس عن ربهم عز وجل. ثم إن الله تعالى ذكر صفة المؤمنين الأبرار - عندما يستمعون إلى القرآن الذي هو كلام الجبار المهيمن العزيز الغفار. فذكر أنهم عندما يسمعون آيات الوعد والوعيد والتخويف والتهديد، يصيبهم الوجل والخوف الشديد، ويتأثرون تأثراً شديداً تقشعر منه الجلود، ثم إنهم سرعان ما ﴿تَلِينَ جُلُودَهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾؛ وذلك لما يرجون ويؤملون من رحمته ولطفه.

هذا هو منهج المؤمنين في تلقي القرآن، والعيش مع القرآن والسير إلى الله في رحاب القرآن، يتلقونه على أنه كتاب هداية ونور للقلوب، لا كما يتلقاه قساة القلوب؛ حيث تحرقهم الشبهات والشهوات فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء أويله وتحريفه.

ولقد عقد ابن كثير - رحمه الله - مقارنة بين تلقي المؤمنين للقرآن وتلقي الكفار، فذكر عدة فروق؛ منها:

\*\* أن سماع المؤمنين هو تلاوة الآيات، حيث يجدون أعظم الراحة والبهجة والفرح للقلوب.

أما الكفار والمعرضون، فسماعهم إنما هو لتغيمات الآيات من أصوات القينات.

\*\* إن المؤمنين إذا تليت عليهم آيات الرحمن خروا سجداً وبكياً، بأدب وخشية، ورجاء ومحبة، وفهم وعلم، كما قال الله تعالى عنهم: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تَلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ (١).

وقال تعالى عنهم: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ (٢). كما هو حال الكفار والمعرضين، الذين لا يسمعون القرآن، وإذا سمعوه أو ذكروا

(٢) سورة الفرقان، الآية: ٧٣.

(١) سورة الأنفال، الآية: ٢.

به ، رأيتهم متشاغلين عنه لاهين ، بل المؤمنون - إذا سمعوه - رأيتهم مصغين إلى آياته ، فاهمين بصيرين بمعانيها ، فلهذا هم يعملون بها ويسجدون عندها عن بصيرة وعلم .

\*\*\* إنهم يلزمون الأدب عند سماعها - كما كان الصحابة - رضي الله عنهم - عند سماعهم كلام الله من تلاوة رسول الله ﷺ تقشعر جلودهم ، ثم تلين قلوبهم إلى ذكر الله ، ولم يكونوا يتصاخون ولا يتكلفون ما ليس فيهم ، بل عندهم من الثبات والسكون والأدب والخشية ما لا يلحقهم أحد في ذلك (١) .

ويقول تعالى : ﴿ فَمَنْ يَرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يَرِدْ أَنْ يَضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيْقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (٢) .

﴿ فَمَنْ يَرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ ﴾ ، أي : ييسره له وينشطه ويسهله لذلك ، وهذه علاقة على الخير كما في الآية السابقة : ﴿ أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّنْ رَبِّهِ ﴾ (٣) .

قال ابن عباس - رضي الله عنهما - في معنى ذلك : (يوسع قلبه للتوحيد والإيمان به . وكذلك قال غيره .

وهذه حال المؤمن حين يقبل على الله يقذف الله في قلبه نور الإيمان ويشرح له صدره ، فيصبح هذا الإيمان أعلى عنده من الدنيا وما فيها . يقدم من أجله ماله وروحه طائعاً مختاراً في سبيل الله تعالى .

ولكن في مقابل هذا المؤمن ، يأتي الكافر : ﴿ وَمَنْ يَرِدْ أَنْ يَضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيْقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ ﴾ (٤) . قال ابن عباس - رضي الله عنهما - : (يجعل الله عليه الإسلام ضيقاً ، والإسلام واسع ، وذلك حين يقول : ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ يقول : ما جعل عليكم في الإسلام من ضيق) .

وقال ابن جريج : ﴿ ضَيْقًا حَرَجًا ﴾ بـ « لا إله إلا الله » ، حتى لا تستطيع أن تدخله ، كأنما يصعد في السماء من شدة ذلك عليه .

(١) انظر : تفسير ابن كثير (٧/ ٨٥) ط . الشعب .

(٢) سورة الانعام ، الآية : ١٢٥ .

(٣) سورة الزمر ، الآية : ٢٢ .

(٤) سورة الانعام ، الآية : ١٢٥ .

وهذه من علامات الكفار والفساق تضيق صدورهم بـ «لا إله إلا الله» ، وبأحكام الإسلام وشرائعه، فكم من قبوريّ أو صوفيّ غالٍ يضيق صدره حين يسمع الدعوة إلى توحيد العبادة. وكم من فاسق يضيق صدره حين يسمع التذكير بتحريم الربا أو الزنا أو الخمر، أو وجوب تطبيق شريعة الله تعالى، وكم من علماني قد عمي قلبه وبصيرته وخيمت عليه لوثاته الفكرية المنحرفة فصار حشر الفؤاد يكاد يعميه الحنق والحقد على كل دعوة إلى تحكيم الكتاب والسنة وبيان شمولهما لكل نواحي الحياة.

وقد ورد تفسير هذه الآية عن رسول الله ﷺ بما يزيل شبهة الجبرية: فعن عمرو بن مرة عن أبي جعفر قال: سئل النبي ﷺ: أي المؤمنين أكيس؟ قال: «أكثرهم ذكراً للموت، وأكثرهم لما بعده استعداداً». قال: وسئل النبي ﷺ عن هذه الآية: «فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ». قالوا: كيف يشرح صدره يا رسول الله؟! قال: «نور يُقذف به فينشرح له وينفسح». قالوا: فهل لذلك من أمانة يُعرف بها؟ قال: «الإجابة إلى دار الخلود، والتجافي عن دار الغرور، والاستعداد للموت قبل لقاء الموت»<sup>(١)</sup>.

إذاً المسألة بحاجة منك أيها العبد إلى أن تُقبل على الله، والصراع بين الحق والباطل والكفر والإيمان قائم:

١ - أخبار دامية، تدمي القلوب، حتى أصبح الإنسان لا يستطيع متابعة الأخبار المتعلقة بهذه المأساة، مأساة المسلمين في البوسنة:

الملاحظ في القضية الأخيرة، أن هناك مؤامرة جديدة، بأسلوب جديد، ضد المسلمين هناك. شارك فيها مع الصرب المنفذين كل من:

\* هيئة الأمم المتحدة وخاصة أمينها البطرس.

\* دول حلف الأطلسي.

أما الجديد في هذه المؤامرة، فهو:

●● هيئة الأمم المتحدة رتبوا في البداية وقفاً لإطلاق النار مكّن الصرب من

الاحتفاظ بمواقفهم.

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٢/ ١٧٤ - ١٧٥).

●● ضرب الصرب بالغارات الجوية ، ولكن بقنابل لم تنفجر . ولماذا لم تنفجر!!!

●● في ظلمة الليل كانوا ينقلون جنود الأمم المتحدة بطائرات الهيلوكوبتر .  
السرف في هذا التحول : التصنيع الحربي للمسلمين ، وتشغيلهم لمصانع السلاح وإحياء روح الجهاد في الأمة .

ولقد صرَّح الأمريكان : أنهم لا يريدون للحرب أن تمتد إلى مناطق أخرى من أوروبا . والخوف إنما هو من المسلمين خاصة .

وقضايا المسلمين كثير والأعداء كثير :

١ - اليهود وحقدهم وأطماعهم .

٢ - والنصاري وحقدهم وأطماعهم .

وشواهد التاريخ الحديث في مجازرهم التي لا تبعد عن مجازر الصرب ، لا تزال حاضرة :

- مجزرة دير ياسين .

- مجزرة صبرا وشاتيلا .

- مجزرة مسجد إبراهيم الخليل بمدينة الخليل .

... وغيرها كثير وكثير .

\* \* \*

## سلامة الصدر (١)

حادثة من حوادث السيرة النبوية، وقصة من قصص الصحابة رواها الإمام أحمد ورواها أبو يعلى والبزار، وقال عنها المنذري في الترغيب والترهيب - وقد أورد الحديث - : «إسناده على شرط البخاري ومسلم» .

فما هي هذه الحادثة؟ وما مدلولها؟

عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال : كنا جلوساً مع رسول الله ﷺ فقال : يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة، فطلع رجل من الأنصار تنطف لحيته من وضوئه قد تعلق نعليه في يده الشمال، فلما كان الغد قال النبي ﷺ مثل ذلك، فطلع ذلك الرجل مثل المرة الأولى، فلما كان اليوم الثالث قال النبي ﷺ مثل مقالته أيضاً، فطلع ذلك الرجل مثل حاله الأولى. فلما قام النبي ﷺ، تبعه عبد الله بن عمرو بن العاص - رضي الله عنهما - فقال : إني لاحيت أبي - أي خاصمت - فأقسمت أن لا أدخل عليه ثلاثاً فإن رأيت أن تؤويني إليك حتى تمضي، فعلت! قال : نعم. قال أنس : وكان عبد الله يحدث أنه بات معه تلك الليالي الثلاث فلم يره يقوم من الليل شيئاً غير أنه إذا تعار - أي استيقظ - وتقلب على فراشه ذكر الله عز وجل وكبر حتى يقوم لصلاة الفجر، قال عبد الله : غير أنني لم أسمعه يقول إلا خيراً. فلما مضت الثلاث ليال وكدت أن أحترق عمله قلت : يا عبد الله! إني لم يكن بيني وبين أبي غضب ولا هجر ثم، ولكن سمعت رسول الله ﷺ يقول لك ثلاث مرات : (يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة، فطلعت به فلم أرك تعمل كثير عمل، فما الذي بلغ بك ما قال رسول الله ﷺ؟ فقال: ما هو إلا ما رأيت. قال: فلما وليت دعاني فقال: ما هو إلا ما رأيت غير أنني لا أجد في نفسي لأحد من المسلمين غشاً، ولا أحسد أحداً على خير أعطاه الله إياه).

(١) الجمعة ١٢/٥/١٤١٦هـ.

(٢) رواه أحمد (١٦٦/٣)، والنسائي في الكبرى (٢١٥/٦) رقم (٢٠٦٩٩) من حديث الزهري =

قال عبد الله : هذه التي بلغت بلك وهي التي لا نطبق . وفي رواية البزار : ما هو إلا ما رأيت يا ابن أخي إلا أني لم أبت ضاغناً على مسلم<sup>(٢)</sup> - أو كلمة نحوها - .

هذه الحادثة درس في سلامة الصدر ، ينبغي أن يقف عنده كل مسلم ، وخاصة حين تضعف الأخوة في الله ، ويكثر الحسد والحقد والضعينة ، مما يوغر الصدور والقلوب ويفرقها ، مما يؤدي إلى التدابر والتقاطع والاختلاف - ولا حول ولا قوة إلا بالله - .

\* فهذا الصحابي شهد له رسول الله ﷺ بمحضر من الصحابة - ثلاث مرات في ثلاثة أيام - بأنه من أهل الجنة ، وبعد التفتيش عن حاله وعن السبب الذي به بلغ ما بلغ ، لم يوجد سبب ظاهر من عبادة وطاعة ونوافل حتى كاد عبد الله بن عمرو أن يحتقر عمله .

ولكن السبب بان في النهاية : إنه سلامة الصدر . فهو لا يجد في نفسه لأحد من المسلمين غشاً . وهو لا يحسد أحداً على خير آتاه الله إياه . وهو أيضاً يبيت على فراشه حين يبيت وليس في قلبه ضعينة على أحد .

\* ورضي الله عن الصحابي الشاب العابد الزاهد عبد الله بن عمرو الذي بلغ به الحرص على معرفة سبب هذه الشهادة الكبرى أن يبيت عنده ثلاث ليال ليعرف حاله ، وفعلاً أطلع على الحال ، وصارحه في النهاية وعرف السبب .

إن بعض الأعمال الصالحات - فيها خير وثواب عظيم - وليس فيها جهد ، فهي لا تحتاج إلى جهد شاق ، ولا إلى مال ، مثل هذه الصفة العظيمة التي كانت سبباً في هذه الشهادة : سلامة الصدر التي تعمر القلب بالأخوة والمحبة بين المؤمنين وما يتبع ذلك من تألف وتعاون ، ونصرة وقيام بحقوق الأخوة الواردة في الأحاديث عن رسول الله ﷺ .

ومنها : قوله ﷺ : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه »<sup>(١)</sup> .

= عن أنس بن مالك رضي الله عنه . وإسناده قال فيه المنذري في الترغيب والترهيب (٣/٥٤٨ - ٥٤٩) : إسناده على شرط البخاري ومسلم ، لكن قال بعض الحفاظ أن هذا الحديث لم يسمعه الزهري من أنس ، إنما رواه عن رجل عن أنس . انظر : حاشية السنن الكبرى للنسائي .  
(١) رواه البخاري (١٣) ، وفي غير موضع . ومسلم (٤٥) .

ومنها: ما رواه عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - أن رسول الله ﷺ قال: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه - أي لا يسلمه لعدوه - من كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته، ومن فرج عن مسلم كربة فرج الله عنه بها كربة من كرب يوم القيامة، ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة»<sup>(١)</sup>.

وقال ﷺ: «كل المسلم على المسلم حرام عرضه وماله ودمه»<sup>(٢)</sup>.

وقال ﷺ: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً»<sup>(٣)</sup>.

وقال ﷺ: «المؤمنون كالجسد الواحد...»<sup>(٤)</sup>.

إن هذه الأحاديث تقتضي وتوجب التعاون والتناصر بين المسلمين، وهذا لا يكون إلا إذا وجد ما هو دون ذلك وهو سلامة الصدور وخلوها من الأحقاد والأضغان وما يسبب ذلك من الغيبة والنميمة والحسد وغير ذلك.

وتعالوا إلى عدد من الوقفات المتضمنة لأحاديث وأحداث وأحوال لسلفنا الصالح - رحمهم الله تعالى - في هذا الباب:

أولاً: وأبدؤها بهذا الحديث الذي رواه أبو داود والإمام أحمد - وهو حديث حسن - : وأحب أن تعوه أسماعكم وقلوبكم - .

روى أبو طلحة الأنصاري وجابر بن عبد الله - رضي الله عنهم - عن النبي ﷺ أنه قال: «ما من امرئ مسلم يخذل امرأ مسلماً في موطن تنتهك فيه حرمة، ويُتقص فيه من عرضه إلا خذله الله في موطن يحب فيه نصرته. وما من امرئ ينصر مسلماً في موضع يُتقص فيه من عرضه، ويتهك فيه من حرمة إلا نصره الله في موضع يحب فيه نصرته»<sup>(٥)</sup>.

وإذا كان هذا حال من يسكت عن نصرة أخيه والدفاع عن عرضه، فكيف حال الذي يباشر ذلك ويجاهر به؟

(١) رواه البخاري (٢٤٤٢)، ومسلم (٢٥٨٠).

(٢) حديث صحيح رواه الترمذي (١٩٢٧)، وابن ماجه (٣٩٣٣)، وأحمد (٢/٢٧٢، ٣٦٠).

(٣) رواه البخاري (٤٨٤)، ومسلم (٢٥٨٥).

(٤) رواه البخاري (٦٠١١)، ومسلم (٢٥٨٦)، كلاهما من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه.

(٥) رواه أبو داود (٤٨٨٤)، وأحمد (٣٠/٤).

ثانياً: وقد جعل ﷺ كَفَ الشَّرِّ عن الناس لوحده صدقةً وأجرًا يؤجر عليه المؤمن . ففي بعض ألفاظ الحديث المشهور «كل سُلامى من الناس عليه صدقة» . قالوا: فمن لم يجد؟ قال: «يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر» . قالوا: فمن لم يستطع؟ قال: «يرفع عظماً من الطريق» . قالوا: فمن لم يستطع؟ قال: «فليعن ضعيفاً» . قالوا: فمن لم يستطع ذلك؟ قال: «فليدع الناس من شره» . وفي لفظ: «فليمسك عن الشر فإن له صدقة»<sup>(١)</sup> .

وروى البخاري ومسلم عن أبي ذر - رضي الله عنه - قال: قلت يا رسول الله !: أي الأعمال أفضل؟ قال: «الإيمان بالله والجهاد في سبيله» . قلت: فإن لم أفعل؟ قال: «تعين صانعاً أو تصنع لآخر منه» . قلت: أرايت إن ضعفت عن بعض العمل؟ قال: «تكف شركك عن الناس فإنها صدقة»<sup>(٢)</sup> .

فانظر كيف جعل كف الشر عن الناس صدقة . لما لذلك من أثر على الأمة .

ثالثاً: ولقد كان رسول الله ﷺ يكره نقل الكلام الذي يؤدي إلى إيغار الصدور وجفوة النفوس: فقد روى عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: «لا يُبلغني أحد عن أحد من أصحابي شيئاً، فإني أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر»<sup>(٣)</sup> .

فإذا كان هذا حال رسول الله ﷺ ، فكيف بمن دونه!!!

رابعاً: أبو دجانة الصحابي المجاهد دخل عليه بعض أصحابه وهو مريض - ووجهه يتهلل - فقيل له: ما لوجهك يتهلل؟ فقال: ما من عمل شيء أوثق عندي من اثنتين: كنت لا أتكلم فيما لا يعنيني . والآخرى فكان قلبي للمسلمين سليماً»<sup>(٤)</sup> .

خامساً: وابن عباس - رضي الله عنهما - شتمه رجل فقال له ابن عباس: «إنك لتشتمني وفي ثلاث خصال: إني لآتي على الآية في كتاب الله عز وجل فلوددت أن

(١) رواه مسلم (١٠٠٨) . (٢) واه البخاري (٥١٨) ، ومسلم (٨٤) .

(٣) رواه الإمام أحمد (٣٧٥٩) ، وصححه أحمد شاكر .

(٤) انظر: سير أعلام النبلاء (١/٢٤٣) .

جميع الناس يعلمون منها ما أعلم . وإني لأسمع بالحاكم من حكام المسلمين يعدل في حكمه فأفرح به ولعلي لا أقاضى إليه أبداً . وإني لأسمع أن الغيث قد أصاب بلداً من بلدان المسلمين فأفرح به ومالي به من سائمة»<sup>(١)</sup> .

سادساً : وبعض الصحابة تصدق بعرضه : فهذا عُلْبَة بن زيد بن عمرو بن زيد الأوسي الأنصاري ، حين حضر رسول الله ﷺ على الصدقة ، وجاء كل رجل من الصحابة بطاقته ، فقال علبَة بن زيد : اللهم إنه ليس عندي ما أتصدق به ، اللهم إني أتصدق بعرضي علي من ناله من خلقك فأمر رسول الله ﷺ منادياً ينادي : أين المتصدق بعرضه البارحة؟ فقام علبَة فقال : قد قبلت صدقتك .

وفي رواية أنه قال : «من آذاني أو شتمني أو لمزني فهو له حل»<sup>(٢)</sup> .

ويروى هذا عن أبي ضمضم أنه جاد بعرضه وأنه قال : اللهم إنه لا مال لي أتصدق به على الناس ، وقد تصدقت عليهم بعرضي ، فمن شتمني أو قذفني فهو في حل . قال ابن القيم - رحمه الله - معلقاً : «وفي هذا الجود من سلامة الصدر وراحة القلب والتخلص من معاداة الخلق ما فيه»<sup>(٣)</sup> .

سابعاً : ونختم بشيء من حياة شيخ الإسلام ابن تيمية في هذا ، فقد كان - رحمه الله - سليم الصدر حتى على أعدائه الذين آذوه .

يقول ابن مخلوف عنه - وكان بينهما ما كان حتى إنه أفتى بقتل شيخ الإسلام - يقول : ما رأينا مثل ابن تيمية حرصنا عليه فلم نقدر عليه . وقدر علينا فصفح عنا وحاجج عنا» - يريد حين عرض السلطان قلاوون على ابن تيمية قتل أعدائه - .

ويقول ابن القيم - رحمه الله - : «كان بعض أصحاب ابن تيمية الأكابر يقول : وددت أني لأصحابي كابن تيمية لأعدائه وخصومه ، وما رأيت يدعو على أحد من خصومه قط ، بل كان يدعو لهم ، وجتته يوماً مبشراً بموت أكبر أعدائه وأشدهم عداوة وأذى له ، فنهزني وتنكر لي ، واسترجع ، ثم قام من فوره إلى بيت أهله فعزاهم وقال : إني لكم مكانه ، ولا يكون لكم أمر تحتاجون فيه إلى مساعدة إلا

(١) انظر : صفة الصفوة (١/ ٧٥٣) . (٢) ذكره ابن حجر في الإصابة (٥٦٥٩) وذكر من رواه .

(٣) انظر : مدارج السالكين (٢/ ٢٩٣) .

وساعدتكم فيه - أو نحو هذا الكلام - فسروا به ودعوا له وعظموا هذه الحال منه .  
فرحمه الله ورضي الله عنه .

### أسباب شرح الصدر<sup>(١)</sup>

مقدمة في شرح صدره ﷺ : وقع حسياً ومعنوياً . قال تعالى : ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾<sup>(٢)</sup> . أي : أما شرحنا لك صدرك .

١ - أما حسياً ، فالثابت من ذلك مرتان :

إحداهما : وهو صغير مسترضع في بني سعد .

وقد ثبت هذا في صحيح مسلم عن أنس بن مالك - رضي الله عنهما - : « أن رسول الله ﷺ أتاه جبريل - عليه السلام - وهو يلعب من الغلمان ، فأخذه فصرعه فشق عن قلبه فاستخرج القلب ، واستخرج منه علقة سوداء ، فقال : هذا حظ الشيطان ، ثم غسله في طست من ذهب بماء زمزم ، ثم لامه ، ثم أعاده في مكانه . وجاء الغلمان يسعون إلى أمه - أي ظئره ومرضعته - ، فقالوا : إن محمداً قد قتل ، فاستقبلوه وهو منتقع اللون »<sup>(٣)</sup> ، قال أنس : وكنت أرى أثر ذلك المخيط في صدره .

الثانية : في قصة الإسراء والمعراج : ثبت في الصحيحين وغيرهما عن أنس رضي الله عنه أنه : « جاء ثلاثة نفر ، فلم يكلموه حتى احتملوه فوضوعه عند بئر زمزم فتولاه جبريل : فشق جبريل ما بين نحره إلى لبتة ، حتى فرغ من صدره وجوفه ، فغسله من ماء زمزم بيده ، حتى أنقى جوفه ، ثم أتى بطست من ذهب ، محشواً إيماناً وحكمة ، فحشا به صدره ولغاديدته - يعني عروق حلقه - ثم أطبقه »<sup>(٤)</sup> . ثم أسري به وعرج به إلى السماء .

وهاتان قصتان ثابتتان لا مجال لمستشرق أو مستغرب أو متعقلن أن ينكر ذلك ، وهو من إرهابات نبوته ومعجزاته ﷺ .

(١) الجمعة ١٨/١١/١٤١٤هـ . (٢) سورة الشرح ، الآية : ١ .

(٣) رواه مسلم (١٦٢) ، وأحمد (٣/١٢١ ، ١٤٩ ، ٢٨٨) من حديث أنس رضي الله عنه .

(٤) حديث صحيح رواه البخاري (٣٨٨٧) ، ومسلم (١٦٢) ، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه .

ورواه البخاري (٣٤٩) ، ومسلم (١٦٣) من حديث أبي ذر رضي الله عنه .

٢- وأما المعنوي : فقد شرح الله صدره ونوره . ومن اطلع على سيرته رأى ذلك واضحاً .

أسباب انشرح الصدر:

أسباب شرح صدر المؤمن كثيرة ومتنوعة وينبغي أن يعلم أنه لا بد من الجمع في هذه الأسباب بين العلم والعمل ، وأن يتبع معرفتها بالتطبيق - ونحن نذكر بعضها باختصار - .

١ - التوحيد : بأنواعه الثلاثة ، وبحسب كماله وقوته وزيادته يكون انشراح صدر صاحبه . قال تعالى : ﴿ أَقَمَّنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ ﴾ (١) .

ولا شك أن التوحيد وخلوصه لله وكماله ، من أعظم أسباب شرح الصدر . وضده الضلال والشرك من أعظم أسباب ضيق الصدر وانحراجه .

٢ - نور الإيمان الذي يقذفه الله تعالى في قلب العبد ، وهذا النور يشرح الصدر ويوسعه ، ويفرّح القلب .

وإذا فُقد هذا النور من قلب العبد ضاق وحرّج ، وصار في أضيق سجن وأصعبه .

وأعظم أسباب نور الإيمان : التوحيد الخالص لله تعالى ، ولذا كانت لا إله إلا الله أعلى شعب الإيمان ، ولكن دون ذلك شعب كثيرة تقوي الإيمان وتزيده . قال ﷺ : «الإيمان بضع وستون - أو بضع وسبعون شعبة - أعلاها قول لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان» (٢) .

٣ - ومن أسباب شرح الصدر : العلم النافع ، فهو يوسع الصدر حتى يكون أوسع من الدنيا . والمقصود : العلم الموروث عن المبعوث رحمة للعالمين ﷺ ، فإن أهله أشرح الناس صدراً ، وأوسعهم قلباً وأطيبهم عيشاً .

٤ - الإنابة إلى الله تعالى ومحبته بكل القلب ، والإقبال على الله تعالى والتنعم بعبادته . وهذا من أعظم أسباب شرح الصدر ، حتى قال بعض العابدين - وهو يجد

(٢) رواه : البخاري (٩) ، ومسلم (٣٥) .

(١) سورة الزمر، الآية : ٢٢ .

هذه اللذة العظيمة - : ((إن كان أهل الجنة في مثل هذا النعيم الذي نحن فيه الآن إنهم لفي عيش طيب)).

قال ابن القيم - رحمه الله - وهو يعدد هذه الأسباب - : (وللمحبة تأثير عجيب في انشراح الصدر، وطيب النفس، ونعيم القلب، لا يعرفه إلا من له حس به، وكلما كانت المحبة أقوى وأشد، كان الصدر أفسح وأشرح. ولا يضيق إلا عند رؤية البطالين الفارغين من هذا الشأن، فرؤيتهم قذئ عينه ومخالطتهم حمى روحه.

ومن أعظم أسباب ضيق الصدر: الإعراض عن الله تعالى، وتعلق القلب بغيره، والغفلة عن ذكره، ومحبة سواه، فإن من أحب شيئاً غير الله عُدب به، وسُجن قلبه في محبة ذلك الغير، فما في الأرض أشقى منه ولا أكسف بالاً، ولا أنكد عيشاً، ولا أتعب قلباً.

٥ - ومن أسباب شرح الصدر: دوام ذكره على كل حال وفي كل موطن، قال تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾<sup>(١)</sup>. وقد جعله النبي ﷺ أعظم من الجهاد في سبيل الله.

وذكر الله له تأثير عجيب في نعيم القلب وانشراح الصدر وللغفلة تأثير عجيب في ضيقه وحبسه.

٦ - ومن أسباب شرح الصدر: الإحسان إلى الخلق ونفعهم بما يمكن من العلم، والجاه، والمال، ونفع البدن، وكل أنواع الإحسان.

والمحسن الكريم أشرح الناس صدرأ، وأطيبهم نفساً، وأنفعهم قلباً. وعكسه البخيل الذي ليس فيه إحسان إلى الخلق، فهو أضيق الناس صدرأ وأنكدهم عيشاً.

٧ - ومن أسباب شرح الصدر: الشجاعة، فإن الشجاع منشرح الصدر، واسع البطن، متسع القلب، وعكسه الجبان، فهو من أضيق الناس صدرأ، لا فرحة له ولا سرور، ولا لذة له ولا نعيم إلا من جنس ما للحيوان.

وهكذا تتكامل هذه الأسباب: فالجهل بالله وأسمائه وصفاته ودينه، والإعراض عن الله تعالى، والغفلة عن ذكره، والبخل والجبن، لا يجد أصحابها

(١) سورة الرعد، الآية: ٢٨.

سرور الروح ولذتها ونعيمها .

٨- ومن أسباب شرح الصدر: إخراج دغل القلب وحقده، وكل صفة مذمومة توجب ضيقه وعذابه .

وهذا سبب مهم؛ لأنه - كما أنه لا بدّ لحصول انشراح الصدر - من الإتيان بأسباب ذلك، فلا بدّ أيضاً من إخراج الأوصاف المذمومة من القلب .

٩- ومن أسباب انشراح الصدر: ترك فضول:

- النظر .

- والكلام .

- والاستماع .

- والمخالطة .

- والأكل .

- والنوم .

والمراد بالفضول: ما زاد عن الضرورة والحاجة من هذه الأشياء، التي إذا زاد تعاطيها، تحولت إلى آفة من آفات النفوس والقلوب .

وانظروا إلى فضول النظر: وخاصة في غير ما أحله الله، كم يورث في القلوب من حسرات؟، وكم من قلب هام أزماناً تطول أو تقصر، وذلك بسبب فضول النظر، وقس على ذلك الأمور الأخرى .

ف«لا إله إلا الله» ما أضيّق صدر من ضرب في كل آفة من هذه الآفات بسهم، وما أنكد عيشه، وما أسوأ حاله، وما أشدّ حصر قلبه .

و«لا إله إلا الله» ما أنعم عيش من ضرب في كل خصلة من تلك الخصال المحمودة بسهم، وكانت همته دائرة عليها، حائمة حولها، فلهذا نصيب من قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾<sup>(١)</sup> .

ولذلك نصيب وافر من قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾<sup>(٢)</sup> .

\* \* \*

(١) سورة الانفطار، الآية: ١٣ .

(٢) سورة الانفطار، الآية: ١٤ .

## لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع (١)

تعود الطيور هذه الأيام إلى أوكارها :

حيث انتهت هذه الإجازة الصيفية ، والناس فيها أصناف :

أ - صنف قضاها بالباطل ، سفر محرم ، وترك للصلوات ، وارتكاب لأنواع من المحرمات - خاصة من يسافر إلى بلاد الغرب - ونحوها ، وهو لا يقصد من سفره إلى هناك إلا ما يغضب الله تعالى .

ب - وصنف اتقى الله في نفسه ووقته وأهله . فقضى وقته في طاعة الله . وهؤلاء ما بين مقل ومكثر .

ومن هؤلاء من قضى إجازته في الدعوة إلى الله تعالى وعمل الخير فنتفع وانتفع . نفع غيره بإرشادهم والأخذ بأيديهم إلى ما فيه رضا الله تعالى ، وإلى ما فيه صلاحهم في الدنيا والآخرة ؛ فكان له النفع في ذلك بأن يكون له رضا الله ويكون له من الأجر والحسنات مثل ما حصل لهؤلاء من جراء توجيههم لهم وإرشاده إياهم .

ج - وصنف ثالث : مختلف عن هذين الصنفين قضى إجازته ووقته بلا هدف ولا غاية ، فأمضاها سدى ، لا في الطاعة ولا في العصيان . فهذا قد خسر أعظم خسارة ؛ إذ قد ضيع ما لا يمكن إدراكه ولا تعويضه وهو عمره فخسارته أعظم من خسارة المال ؛ إذ المال يمكن تعويضه ويمكن الاكتفاء منه بالقليل بخلاف العمر والوقت .

وبما أننا في مرحلة الحصاد - حصاد غمار هذه الإجازة - أحببت أن أقف مع أحد الأحاديث النبوية العظيمة ينبغي لنا أن نتدبر مدلولاته وأن نفهمه جيداً . وفي هذا الحديث أمور أربعة :

١ - سائل : هو الله عز وجل .

٢ - ومسؤول : وهو العبد الضعيف الذي كثيراً ما يضيع نفسه وينسى مصالحها .

٣ - وموضوع للسؤال : وهو ما سوف يُذكر في الحديث .

٤ - ووقت السؤال : وهو يوم القيامة ، يوم الفرع الأكبر ﴿...يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ

شياً ﴿١﴾، ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٢٤﴾ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴿٢٥﴾ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ﴿٢٦﴾ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٢٧﴾﴾ ﴿٢﴾، ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ سُقِيَ وَسَعِيدٌ ﴿٣﴾﴾.

روى الترمذي - بسند صحيح - عن أبي بركة الأسلمي - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يُسأل عن أربع: عن عمره فيما أفناه، وعن شبابه فيما أبلاه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه، وعن علمه ماذا عمل به» ﴿٤﴾.

وتأملوا معي كيف خصَّ مرحلة الشباب، مع أنها داخلة في العمر؛ وذلك لأن الشباب وقت القوة والنشاط والقدرات المتعددة. بخلاف عهدي الصغر والكبر، فالشاب يحوي عدداً من النعم التي سيسأل عنها أصحابها ماذا عملوا بها؟ يقول الحسن البصري ﴿٥﴾: «أدرت أقواماً كان أحدهم أشحَّ على عمره منه على درهمه».

إن من أعظم أنواع الفراغ لدى كثير منا - ومن شبابنا بصفة خاصة - :

■ الفراغ العقلي: قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ ﴿٦﴾.

ومعنى الفراغ العقلي: أن يعيش الإنسان حياته كيفما اتفق ليس له مبدأ يدافع عنه ويسعى لتحقيقه. بحيث يكون همه دينه معرفته والتعمق فيه والدفاع عنه.

وكم رأينا من أهل الباطل - لا أقول من اليهود والنصارى - ولكن ممن يتنسب إلى الإسلام وهو يحمل أفكاراً: علمانية، أو قومية، أو ثورية حداثة، أو غيرها... ويفني فيها عمره ووقته وجهده.

■ الفراغ القلبي: وفراغ القلب القاتل حين يفرغ من الإيمان ولذة العبادة والطاعة لله تعالى من صلاة وذكر وقراءة قرآن، وكم من إنسان ملأ قلبه بضد ذلك:

(١) سورة المزمل، الآية: ١٧. (٢) سورة عبس، الآيات: ٣٤-٣٧.

(٣) سورة هود، الآية: ١٠٥.

(٤) حديث صحيح رواه الترمذي (٢٤١٩)، والدارمي (٥٣٧). كلهم من حديث أبي بركة الأسلمي رضي الله عنه وله شاهد من حديث ابن مسعود رضي الله عنه، أخرجه الترمذي بسند ضعيف (٢٤١٨).

(٥) شرح السنة ١٤/٢٢٥. (٦) سورة النحل، الآية: ١٢.

أ- فهذا ملاً قلبه بالأغاني والممثلين والممثلات وأشكال الفن الرخيص .

ب- وذاك ملاً قلبه بالكرة .

ج- وهذا بالشهوات المحرمة ، يلاحقها في كل مكان .

د- وتلك بشيء مما سبق - أو - بالأزياء - وتقليد الكافرات والعاشرات . . . .

إلخ .

هـ- وهذا بالمال والدنيا يجمعها من أي طريق .

أما القلب الذي ملئ بالإيمان : وإيمانه لا يطلب منه أن يترك دنياه يعمرها . فهذا قليل في هذه الأيام - والله المستعان - .

وينتج عن هذين الفراغين :

■ الفراغ النفسي: وهو حالة خطيرة يتحول فيها الإنسان إلى لاهٍ عابثٍ .

إن أعداء الإسلام - وعلى رأسهم اليهود - يدركون أهمية الوقت بالنسبة لهم ولغيرهم ، ولذلك :

أ- فبالنسبة لهم كافحوا وحافظوا على أوقاتهم حتى وصلوا إلى ما وصلوا .

ب- وبالنسبة لغيرهم - وخاصة المسلمين - عملوا على تدميرهم - بتحويلهم إلى شعوب لا هدف لها سوى الأكل والشراب ، يقولون في مخططاتهم<sup>(١)</sup> :

« ولكي تبعد عن أن تكشف بأنفسها أي خط عمل جديد سنلهيها أيضاً بأنواع شتى من الملاهي والألعاب ومسرحيات الفراغ والمجامع العامة وهلم جرا» .

ثم يقولون<sup>(٢)</sup> : « وسرعان ما نبدأ الإعلان في الصحف داعين الناس إلى الدخول في مباريات شتى في كل نوع من أنواع المشروعات ؛ كالقن ، والرياضة ، وما إليها» .

ثم يقولون<sup>(٣)</sup> « وهذه المتع الجديدة ستلهي ذهن الشعب حتماً عن المسائل التي سنختلف فيها معه ، وحالما يفقد الشعب تدريجياً نعمة التفكير المستقل بنفسه سيهتف جميعاً معنا» .

(١) برتوكولات حكماء صهيون ، البرتوكول الثالث عشر .

(٢) برتوكولات حكماء صهيون ، البرتوكول الثالث عشر .

(٣) برتوكولات حكماء صهيون ، البرتوكول الثالث عشر .

### كن في الدنيا كأنك غريب<sup>(١)</sup>

قال الحسن: بلغني أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه: إنَّما مثلي ومثلكم ومثل الدنيا كقوم سلكوا مفازة غرباء، حتى إذا لم يدروا ما سلكوا منها أكثر أو ما بقي أنفذوا الزاد وحسروا الظهر، وبقوا بين ظهرائي المفازة لا زاد ولا حَمُولَة، فأيقنوا بالهلكة، فبينما هم كذلك؛ إذ خرج عليهم رجل في حلة يقطر رأسه فقالوا: إن هذا قريب عهد بريف، وما جاءكم هذا إلا من قريب، فلما انتهى إليهم قال: علام أنتم؟ قالوا: على ما ترى. قال: أرأيتم إن هديتكم إلى ماء رواء ورياض خضر ما تعملون؟ قالوا: لا نعصيك شيئاً، قال: عهودكم وموآثيقكم بالله. قال: فأعطوه عهودهم وموآثيقهم بالله لا يعصونه شيئاً. قال: فأوردهم ماءً ورياضاً خضراً. فمكث فيهم ما شاء الله ثم قال: يا هؤلاء الرحيل. قالوا: إلى أين؟ قال: إلى ماء ليس كمائكم وإلى رياض ليست كرياضكم، فقال جل القوم - وهم أكثرهم - : والله ما وجدنا هذا حتى ظننا أن لن نجده، وما نضع بعيش خير من هذا؟ وقال طائفة - وهم أقلهم - : ألم تعطوا هذا الرجل عهودكم وموآثيقكم بالله لا تعصونه شيئاً، وقد صدقكم في أول حديثه. فوالله ليصدقنكم في آخره. قال: فراح فيمن اتبعه، وتخلف بقيتهم، فنذر بهم عدو فأصبحوا من بين أسير وقتيل<sup>(٢)</sup>.

وهذا مثل رسول الله ﷺ مع أمته، حيث كانوا قبل بعثته على ضلالة وذل وضعف بين الأمم، فجاءهم بالبراهين الدالة على صدقه وأنهم إن اتبعوه اهتدوا وسعدوا ودانت لهم العرب والعجم، ولكنه حذرهم من الاغترار بالدنيا والركون إليها وأمرهم بالاستعداد للأخرة والعمل لها. فانقسم الناس تجاه ذلك إلى فريقين: الأكثرون ركنوا إلى الدنيا وشغلوا بها عن الآخرة ولم يزالوا في سكرة الدنيا حتى

(١) الجمعة ٦/٤/١٤١٦هـ.

(٢) انظر: جامع العلوم والحكم (٢/٣٧٩ - ٣٨٠)، وقال ابن رجب: خرج ابن أبي الدنيا وخرجه الإمام أحمد من حديث علي بن زيد بن جدعان، عن يوسف بن مهرا ن عن ابن عباس - رضي الله عنهما - مختصراً.

قلت: ورواه (ابن أبي الدنيا في ذم الدنيا ٨٨، وابن المبارك في الزهد ٥٠٧ - عن الحسن بلغنا -، وحديث ابن عباس رواه أحمد (١/٢٦٧)، والبزار (٢٤٠٧)، والطبراني في الكبير (١٢٩٤٠)، وحسنه الهيثمي والعراقي.

فجأهم الموت وهم غافلون فهلكوا ، حيث لم يعملوا بوصية نبيهم ﷺ . والأقلون قبلوا وصية هذا النبي الكريم وصدقوه وعملوا للأخرة ولم يأخذوا من الدنيا إلا البلاغ ، أما جلّ همهم ومبتغاهم فهو ما عند الله في الآخرة وما أعدّه لعباده المؤمنين من النعيم المقيم . فصاروا بذلك سائرين على خطى نبيهم الذي رحل عن الدنيا دون أن يتعلق قلبه بها .

وقد اعتبر بذلك السلف ، فقال الحسن - راوي هذا الحديث - : «لم يزل الليل والنهار سريعين في نقص الأعمار ، وتقريب الآجال ، هيهات قد صحبا نوحاً وعاداً وشمود وقرونأ بين ذلك كثيراً ، فأصبحوا وقد قدموا على ربهم ووردوا على أعمالهم وأصبح الليل والنهار غضين جديدين ، لم يبلهما ما مرأ به مستعدّين لمن بقي بمثل ما أصابا به من مضي» .

وأيامنا تطوى وهن مراحـلُ	نسير إلى الآجال في كل لحظةٍ
إذا ما تخطته الأمانى باطلـل	ولم أر مثل الموت حقاً كأنهـ
فكيف به والشيب للرأس شاملُ	وما أقبح التفريط في زمن الصبا
فعمرك أيام وهن قلائـلُ	ترحل من الدنيا بزاد من التقى

قال الفضيل بن عياض - رحمه الله تعالى - لرجل : كم أتت عليك؟ قال : ستون سنة ، قال : فأنت منذ ستين سنة تسير إلى ربك يوشك أن تبلغ . فقال الرجل : إنا لله وإنا إليه راجعون . فقال الفضيل : أتعرف تفسيره؟ تقول : أنا لله عبد وإليه راجع ، فمن علم أنه لله عبد وأنه إليه راجع فليعلم أنه مسؤول ، ومن علم أنه مسؤول فليعدّ للسؤال جواباً . فقال الرجل : فما الحيلة؟ قال : يسيرة . قال : ما هي؟ قال : تحسن فيما بقي يُغفر لك ما مضى ، فإنك إن أسأت فيما بقي أخذت بما مضى وبما بقي» (١) .

وما هذه الأيام إلا مراحـلُ	يبحث بها داع إلى الموت قاصدُ
وأعجب شيء - لو تأملت - أنها	منازل تطوى والمسافر قاعدُ

(١) جامع العلوم والحكم (٢/ ٣٨٣) .

ولقد كانت هذه وصايا السلف لإخوانهم في الله يذكرونهم بقيمة الدنيا والآخرة حتى يعطوا كلاً منهما ما تستحق:

١ - فهذا الإمام الأوزاعي - رحمه الله - كتب إلى أخ له : «أما بعد، فقد أحيط بك من كل جانب، واعلم أنه يسار بك في كل يوم وليلة، فاحذر الله، والمقام بين يديه، وأن يكون آخر عهدك به والسلام».

٢ - وكتب بعض السلف إلى أخ له : «يا أخي يخيل لك أنك مقيم، بل أنت دائب السير، تساق مع ذلك سوقاً حثيثاً، الموت موجه إليك، والدنيا تطوى من ورائك، وما مضى من عمرك فليس بكارٍ عليك حتى يكرَّ عليك يومُ التغابن».

كيف كانت وصية النبي ﷺ لأصحابه في هذا الباب؟

١ - لقد كان ﷺ يقول : «ما لي وللدنيا، إنما مثلي ومثل الدنيا كمثل راكب قال في ظل شجرة ثم راح وتركها»<sup>(١)</sup>.

وتأملوا هذا المثل : كم نزلنا في أسفارنا في أمكنة متنوعة : مرة نزل مكاناً طيباً معشباً، ومرة على جنب نهر أو ماء، ومرة تحت ظل شجرة مورقة، ومرة تحت جسر، ومرة في مكان وعرفه حجارة وشوك.

ولكن هل تعلقت قلوبنا في هذه الأمكنة التي نزلنا فيها ساعة أو تزيد قليلاً، هل فرحنا بالطيب أو حزنا على الوعر منه؟

لا ، إننا لأننا مسافرون كان لنا هدف آخر . أما ما نزلنا فيه فلم يكن لنا فيه غاية سوى الراحة سوية، ثم عجلنا بالرحيل عنه .

هذه هي الدنيا ، محطة قصيرة تبلغنا إلى المقام الدائم في الآخرة .

لما دخل رجل على أبي ذر - رضي الله عنه - جعل يقلب بصره في بيته فقال : يا أبا ذر ! أين متاعكم؟ قال : إن لنا بيتاً نوجه إليه . قال : إنه لا بد لك من متاع ما دمت ها هنا . قال : إن صاحب المنزل لا يدعنا فيه . يعني بالموت المكتوب على كل نفس .

(١) حديث صحيح رواه الترمذي (٢٣٧٨)، وابن ماجه (٤١٠٩)، وأحمد (٤٤١/١)، والحاكم (٣١٠/١) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه . وله شاهد من حديث ابن عباس رضي الله عنهما رواه أحمد (٣٠١/١)، وله شاهد آخر من حديث عمر رضي الله عنه رواه الحاكم (٣٠٠/١) - (٣٠١).

وروى الإمام أحمد في الزهد : أن المسيح - عليه الصلاة والسلام - قال : من ذا الذي يبنى على موج البحر داراً ، تلکم الدنيا فلا تتخذوها قراراً .

٢ - ومن وصاياه ﷺ وصيته المشهورة لعبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - حيث روى البخاري في صحيحه عنه قال : أخذ رسول الله ﷺ بمنكبي فقال : « كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سيل » . وكان ابن عمر يقول : « إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح ، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء ، وخذ من صحتك لمرضك ومن حياتك لموتك » (١) .

وفي هذا الحديث وصية لابن عمر ولغيره من المؤمنين ألا يتخذ الدنيا دار إقامة ولا وطناً ، بل يكون فيها على أحد حالين : كأنه غريب مقيم في بلد غربة ، أو كأنه مسافر غير مقيم البتة .

**فالحال الأولى :** أن ينزل المؤمن نفسه منزلة الغريب الذي يقيم في بلد الغربة .

وأبرز صفات من كان على مثل هذه الحال :

١ - أنه غير متعلق القلب ببلد الغربة ؛ لأنها ليست بلده ، فنظرته إليها شبيهة بنظر المسافر إلى مكان جلس فيه ساعة ثم هو يغادره ، فهو غير متعلق به .

٢ - أن قلبه متعلق ببلده ووطنه الذي سيرجع إليه ، فهو يتذكره دائماً ويهتم بما يجري فيه ، ويفرح لأجله ويحزن .

٣ - أن إقامته في بلد الغربة ليست عن رغبة فيها ، بل هو مقيم فيها لضرورة وحاجة ماسة ، ولذا فهمه فيها التزود بما ينفعه من مال ومتاع عند عودته إلى وطنه .

٤ - وأبرز صفات الغريب أنه لا ينافس أهل البلد الذي هو غريب بينهم ، فهو لا يفرح بما يحصل لهم في عزهم ، كما أنه لا يجزع من الذل الذي ينزل عليهم . روي عن الحسن - رحمه الله - أنه قال : المؤمن في الدنيا كالغريب لا يجزع من ذلها ولا ينافس في عزها ، له شأن وللناس شأن .

فالنبي ﷺ أوصى بأن يكون الإنسان في الدنيا كالغريب في بلد ما ، لا يتعلق قلبه بهذا البلد مهما كان فيه من متاع ووسائل الراحة وجمال الطبيعة في أرضها

(١) رواه البخاري (٦٤١٦) .

وهوائها . بل قلبه معلق بالآخرة الوطن الذي ينتهي إليه جميع الخلق وهم فيه خالدون . ومن عرف هذا وعمل له استعداداً لما بعد الموت ولم يتعلق بالدنيا مهما أقبلت مزدهرة .

والحال الثانية: أن ينزل المؤمن نفسه في الدنيا كأنه مسافر غير مقيم البتة، وإنما هو سائر في قطع منازل السفر حتى ينتهي به السفر إلى آخره وهو الموت . وأبرز صفات من هذه حاله :

١ - أخذه وتحصيله للزاد في سفره الذي يبلغ به إلى مكان إقامته .

٢ - إنه ليس له همة من الاستثكار من متاع الدنيا الذي يثقل عليه في سفره . فهو حريص على أن يكون خفيف الحمل من دنياه ولا يأخذ معه إلا ما يحتاج إليه في سفره .

٣ - أن قلبه متعلق بمنتهى سفره، وإذا كان منتهى سفره أهله وماله ووطنه وأحبابه سارع الخطى وأخذ معه ما يتحفهم به .

وكذا المؤمن في هذه الحياة ، هو كالمسافر لا يستقر له قرار ولا يهدأ له بال حتى يرجع إلى أهله . والمؤمن مستقر سفره في الآخرة عند ربه تعالى ، فهو يستعد كل يوم لسفره هذا ، ولا يتعلق بالدنيا .

ولو تبصر الدنيا وراء ستورها	رأيت خيالاً في منام سيصرم
كحلم بطيف زار في النوم وانقضى	المنام وراح الطيف والصبّ مغرم
فجزها ممراً لا مقراً وكن بها	غريباً تعش فيها حميداً وتسلم
أو ابن سبيل قال في ظل دوحه	وراح وخالها يتقسم
أخا سفر لا يستقر قراره	إلى أن يرى أوطانـه ويسلم

### الثبات على دين الله (١)

أتدرون ما أعظم ما يبتلى به الإنسان، وأشدّه وأقساه على القلب والفؤاد؟  
إنه الانتكاسة بعد الاستقامة، والنكوص من بعد السير في الطريق الصحيح.  
والضلالة بعد الهدى.

إن مدرسة - رمضان - علمتنا دروساً ودروساً. ولكن - والله - إن أقسى هذه  
الدروس وأشدّها وطأة على النفس، أن ترى نماذج كثيرة استقامت على دين ربها في  
رمضان، ثم رجعت بعده القهقري. ولا حول ولا قوة إلا بالله.  
لقد شاهدنا نماذج - مؤسفة جداً - توجد بيننا نحن المسلمين:

أ - أناس عادوا إلى الصلاة، وإلى المساجد وأقبلوا على القرآن العظيم. فلما  
انتهى رمضان رجعوا إلى ما كانوا عليه من ترك للصلاة في الكلية أو ترك لها في  
المساجد.

ب - وأناس آخرون كانوا مقيمين على أنواع من المعاصي والمنكرات، فلما جاء  
رمضان رجعوا إلى ربهم تائبين مطيعين. ولكن سرعان ما نكصوا على أعقابهم  
عائدين إلى ما كانوا عليه بعد رمضان.

ج - وأناس ازدادوا في رمضان إيماناً على إيمانهم، وعاهدوا ربهم على توبة  
نصوح وعمل صالح، وسير في الطريق مهما واجههم. فلما انتهى رمضان ذهبت  
وعودهم أدراج الرياح، ورجعوا عما كانوا عزموا عليه من سمو الطاعة والمبادرة إلى  
الخيرات. وكل ذلك بسبب الكسل والركون.

ونماذج . . . ونماذج مؤسفة، أغواها الشيطان: إما بالنكوص، أو بالتقصير.  
قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ  
لَهُمْ﴾ (٢).

إن الثبات على دين الله من أعظم صفات المؤمنين، ولذا سنقف اليوم مع طائفة

(١) الجمعة ١٠/٧/١٤١٤ هـ.

(٢) سورة محمد، الآية: ٢٥.

أو فئة أو قبيلة من القبائل التي كانت لها مواقف عظيمة - وخاصة أيام المحن - .  
قبيلة أحب أن تقفوا عند تاريخها طويلاً: وتأخذوا العبر والدروس من  
مواقفها:

قبيلة كانت نائية الديار، بينها وبين المدينة النبوية في عهد الرسول ﷺ الفيافي  
والقفار. والقبائل المتسلطة التي لم تستجب بعد لداعي الهدى.  
ولكنها - على بُعد الدار - استجابات وانقادات وأسلمت ولم تنتظر القبائل  
الأخرى، حتى تهتدي لتلحق بها.  
هذه القبيلة هم بنو عبد القيس الذي كانوا يسكنون الأحساء - وكانت قديماً  
تسمى بالبحرين - :

أ - أسلمت، وتعلمت دين ربها، فلما هاجر الرسول ﷺ إلى المدينة وصلّى  
صلاة الجمعة فيها، كان ثاني جمعة جمعت في الإسلام في مسجد (جواثي) عند  
وفد عبد القيس في البحرين - الأحساء حالياً - .

ب - وهذه القبيلة، وفدت على الرسول ﷺ لكن تميزت وفادتها بميزتين:  
إحداهما: أن الله أخبر رسوله ﷺ بقدمهم، فأخبر الرسول أصحابه فانتظروا  
قدوم هذا الوفد الكريم، حتى إن عمر - رضي الله عنه - ترقبهم على مشارف المدينة،  
ثم جاء يسير معهم إلى رسول الله ﷺ .

والميزة الأخرى: حبهم للعلم وطلبه، فكانوا يسألون أنواعاً من الأسئلة عن  
الإيمان، وعن الأشربة، وغيرها. فهم وفد علم وإيمان.

ج - ولكنهم الموقف العظيم لهم. الذي سطره التاريخ بأحرف من نور، كان  
يوم أن نكص الكثير على أدبارهم - يوم ظهور المنتبئين الكذابين، ثم ارتداد الجزيرة  
العربية كلها إلا قليلاً بعد وفاة رسول الله ﷺ . حيث لم يثبت إلا مكة والمدينة  
والطائف. وكان ممن ثبت بنو عبد القيس في البحرين - الأحساء - .

أما بقية المدن والقبائل فقد ارتدت على أدبارها، حتى بعض قبائل أهل البحرين  
مثل بني بكر بن وائل الذي لم يكتفوا بالرد بل ذهبوا إلى كسرى يطلبون أن يولي  
عليهم من يعيد لهم الامجاد فولى عليهم المنذر بن النعمان - ابن آخر ملوك الحيرة - ،  
فقالوا: هو أحق بهذا الأمر من ابن أبي قحافة .

فهجموا على بني عبد القيس المؤمنين الصادقين الذين أبو الارتداد عن دينهم

واستقاموا، وحاصروهم حصاراً شديداً.

وفي أثناء هذه الفتنة العظيمة والهول المروع - وبينهم وبين المدينة مساحات شاسعة - ، والقبائل من حولهم ارتدت على أديارها . اشتد الأمر على هؤلاء المؤمنين وتزلزت الأرض من تحت أقدامهم .

وهنا يأتي مواقف الرجال : قام فيهم - الجارود بن المعلن العبدي - فقال لهم بعد الصلاة والسلام على رسول الله وبعد حمد الله والثناء عليه :

(يا معشر عبد القيس ! أتعلمون أنه كان لله أنبياء قبل محمد عليه الصلاة والسلام . قالوا : نعم ، قال : تعلمونه أم ترونه ؟ قالوا : نعلمه . قال : فما فعلوا ؟ قالوا : ماتوا . قال : فإن محمداً ﷺ مات كما ماتوا . وإني أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله . فقالوا : ونحن أيضاً نشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وأنت أفضلنا وسيدنا) . رأيتم مواقف الرجال في الحن . وأي محن !!! .

ولما حوصروا من المرتدين في حصن (جواثا) ، بلغت القلوب الحناجر .

وأرسل شاعرهم إلى أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - يقول :

ألا أبلغ أبا بكر رسولاً	وفتيان المدينة أجمعينا
فهل لكم إلى قوم كرام	قعود في (جواثا) مُحصرينا
كأن دمانهم في كل فج	شعاع الشمس يغشى الناظرينا
توكلنا على الرحمن إننا	وجدنا الصبر للمتوكلينا

فيرسل إليهم أبو بكر الصديق ، العلاء بن الحضرمي - رضي الله عنهم أجمعين - وينصر الله عباده الموحدين الثابتين ، حتى عادت جزيرة العرب إلى دين الله القومي لتبدأ الفتوحات الإسلامية المظفرة في مشارق الأرض ومغاربها .



## الفصل الرابع

### من قضايا الدعوة إلى الله

- ١- الوحدة الإسلامية .
- ٢- لمحات إعلامية -١-
- ٣- لمحات إعلامية -٢-
- ٤ - هل هذه الأمة أمة استكانة وخضوع؟
- ٥ - مكر أعداء الله وعاقبته - ١ -
- ٦ - المسار التاريخي لمكر أعداء الله وعاقبته - ٢ -
- ٧ - مواقف المعاندين للدعوة - ١ -
- ٨ - مواقف المعاندين للدعوة - ٢ -
- ٩ - مواقف المعاندين للدعوة [المنافقون] - ٣ -
- ١٠ - مواقف المعاندين للدعوة [من صفات المنافقين] - ٤ -

### الوحدة الإسلامية (١)

أعداء الإسلام - اليوم - إذا كانوا يخافون من الإسلام، فإنهم يخافون أكثر حين يؤدي التمسك بالإسلام على المنهج الحق، إلى الوحدة بين الأمة الإسلامية. ولهذا حارب أعداؤنا دين الإسلام ولا يزالون يحاربونه، وكذلك حاربوا وبكل قوة أن تقوم بين المسلمين وحدة على أصول ومنطلقات إسلامية صحيحة.

واسمحوا لي - أن نقطع اليوم - أجزاء من محاضرة ألقاها أحد الكتاب العرب المشهورين بالكتابة في المجلات والصحف. وقد عنيت بهذه المحاضرة لأطلعكم على مضمونها؛ لأمرين:

الأول: أن الكاتب يعتبر أحد أقطاب الناصرية، ويكفي أن تعلموا أنه رأس تحرير مجلة (العربي) الكويتية التي نشأت في ظل الناصرية في أواخر الخمسينات الميلادية. وقد تولى هذا الكاتب كتابة افتتاحية العربي في محرم سنة ١٣٩٦ هـ بعد وفاة رئيس التحرير السابق (أحمد زكي).

الثاني: أن شهادته وتحليله - على ضوء المحاضرة - جاءت بعيدة عن أن يتهم صاحبها بأنه إسلامي متمز أو نحو ذلك من الألقاب. ومن ثم فلو أن ما قاله وكتبه أحد الكتاب الإسلاميين لقليل: هذه عادة الإسلاميين من علماء ودعاة وموجهين، يرجعون أحوال الأمة الإسلامية إلى مؤثرات دينية - عفى عليها الزمن - وتجاوزتها أحوال العالم واتجاهاته السياسية والاقتصادية، بل والدينية.

ألقى الأستاذ أحمد بهاء الدين رئيس تحرير مجلة العربي وقت إلقاء المحاضرة وهو عام ١٩٧٧ م - أي ١٣٩٧ هـ - ألقى محاضرة بعنوان: (الوحدة العربية إزاء العالم).

بدأها بالحديث عن أن العالم كله ضد الوحدة العربية، والقوى الكبرى بالذات ضد ذلك، ثم أسهب في الحديث عن المؤامرة العالمية ضد الدولة العثمانية؛ لأنها كانت تمثل وحدة الأمة الإسلامية. وبعد أن بين أن سياسة التفرقة والتمزيق سياسة عالمية للدول الكبرى. وضرب لذلك أمثلة، قال المحاضر:

«لقد كتبت غير مرة، منذ وقت غير بعيد صائحاً: إننا نعيش الآن الحرب الصليبية العاشرة، وأضيف هنا أن أول ما تستهدفه هذه الحرب الصليبية العاشرة هو الوحدة العربية، وإذا كنت أستخدم كارهاً تعبير الحروب الصليبية العاشرة؛ فلأن هذا هو الاسم التاريخي للحروب الصليبية الغابرة...» إلخ.

ثم بدأ يستعرض الحروب الصليبية واحدة واحدة مبيناً أن منطلق تلك الحروب من أوروبا ضد المسلمين، كان دينياً في الأساس، وأن هدف أوروبا كان احتلال القدس ثم تبعه هدف آخر وهو إقامة دول نصرانية في قلب العالم الإسلامي.

ولأن المستقر في كتب التاريخ، أن عدد الحروب الصليبية المعروفة كانت ثمانية، فقد استعرضها واحدة واحدة، وذكر خلال ذلك مقاومة المسلمين واسترداد صلاح الدين الأيوبي لبيت المقدس، وتوالي الحملات الصليبية بعد ذلك التي وجهت السابعة منها إلى مصر واحتلوا دمياط واندفعوا نحو القاهرة، ولكن قائد الحملة لويس التاسع هُزم ووقع أسيراً بيد المسلمين. ثم ذكر أن الحملة الصليبية الثامنة والأخيرة تحركت من فرنسا، والتي غيرت اتجاهها بعد الإبحار إلى المشرق - غيرت اتجاهها إلى تونس - . إلى أن أنهى السلطان قلاوون تلك الحروب بطرد آخر الصليبيين من بلاد المسلمين.

ثم قال المحاضر بعد هذا الاستعراض:

«ولكن هل انتهت القضية عند هذا التاريخ؟ كلا، فإننا نعيش صورة جديدة منها في الحاضر. ومن حقنا أن نضيف إلى الحروب الثمانية المسجلة في كتب التاريخ حربين آخرين، ربما تحت نفس العنوان».

وبعد أن تحدث عن المؤامرة على الدولة العثمانية - دولة الرجل المريض - كما يسمونه - وكيف أن أوروبا بعد طرد المسلمين من الأندلس بدأت تواجه خطر الغزو الإسلامي أو التركي من الشرق بعبور الأتراك من آسيا إلى أوروبا واحتلال البلقان بأكلمه والوصول إلى حدود امبراطوريات روسيا والنمسا وغيرها. ثم جاءت الحرب العالمية لتمزق العالم الإسلامي وتقضي على الخلافة في تركيا. يقول المحاضر:

«ومن هنا يمكن القول إن الحرب الصليبية التاسعة بدأت منذ انحلال الامبراطورية التركية؛ إذ بدأت إنجلترا وفرنسا وروسيا تدعي كل منها حقها في

حماية أقلية من أقليات العالم العربي انتحالاً لأسباب التسلل والتدخل» .

ثم ذكر كيف تقاسمت تلك الدول العالم الإسلامي وكيف انتهت بدخول (اللورد اللنبي) إلى القدس . ودخول الجنرال (غورو) إلى دمشق الذي قال حين وقف على قبر صلاح الدين الأيوبي : «ها قد عدنا يا صلاح الدين» .

يقول المحاضر - معلقاً على هذه العبارة - : «فالجنرال غوروا حين نطق لسانه بهذه الكلمة وهو يقف أمام قبر صلاح الدين كان يعرف طبعاً ، أنه جاء غازياً لاستعمار الشرق ، ولكن غلب عليه ما تعلمه في المدرسة وما وراءه من تراث ، فخفق قلبه ونطق لسانه بما طاف بخاطره في تلك اللحظة ، وسواء قالها بالمعنى الديني أو بالمعنى العسكري أو بالمعنى الحضاري ، فلا شك أن العناصر الثلاثة كانت متداخلة وهو يقول هذه الكلمة - وإن تغلب فيها عنصر على آخر - .»

ثم يقول المحاضر : «لقد دام هذا النظام الذي أسفرت عنه الحرب التي أسميناها بالحرب التاسعة ، دام هذا النظام إلى سنة ١٩٤٨م» .

وقامت حركات التحرر ضد الاستعمار ، ثم قامت الحرب العالمية الثانية التي غيرت الظروف الدولية تغيراً دقيقاً . وجاءت فكرة إقامة وطن قومي لليهود في فلسطين ؛ لأن وجود مثل هذا الوطن على غمط الممالك اللاتينية القديمة (زمن الحروب الصليبية) فهي نفس فكرة إقامة دولة في قلب الشرق تحرس مصالحهم ، ويمسكون منها بخناق العالم العربي ، نفس ما ترجمه وزير الطيران الأمريكي السابق (سيمنجتون) حين وصف إسرائيل بأنها بمثابة «حاملة طائرات غير قابلة للغرق» . فوجد الصليبيون في ظهور الدعوة الصهيونية وسيلة مواتية بديلة عن الحرب الصليبية .

يقول المحاضر : «بهذا المعنى أقول : إننا منذ سنة ١٩٤٨ م ، ونحن نعيش الحرب الصليبية العاشرة ، وربما كان من أكبر الأخطاء التي وقع فيها العقل العربي العام بعد نكبة ١٩٤٨ م ، أنه كان يفكر دائماً في النزاع العربي الإسرائيلي بمنطق قصير الأجل ، منطق الحرب الواحدة التي ستهزمننا أو تهزمهم ، في حين أننا لو كنا تأملنا الأمر في إطاره التاريخي الطويل ومن منظور الأهداف السياسية والاقتصادية لشتى القوى في

عالم اليوم لأدركنا أنها إحدى تلك المواجهات الحضارية الطويلة التي تأخذ أشكالاً شتى من الحرب ومن السلم . . .» .

ثم ذكر تجربة مرة مرَّ بها في حرب ١٩٦٧م المشهورة فقال: «لقد كان من حظي - أقصد من سوء حظي - أنني كنت محجوزاً في بارس يوم سقوط القدس في يونيو ١٩٦٧ - لاحظوا تعبير المحاضر - سقوط القدس - ، وكان مفهوماً أن يفرح الإسرائيليون واليهود والفرنسيون وأصدقاؤهم ، ولكن ما رأيته كان مهرجاناً باريسياً كاملاً دام حتى الفجر وكانهم كسبوا حرباً عالمية ، وكانت روح الشماتة في العربي في ذلك الوقت ، أقسى على النفس من أن توصف ، وكنت أسأل الأصدقاء ، فيقول معظمهم : هذا ثار الجزائر ، وآخرون يقولون : هذا ثار السويس» .

إذا كان المحاضر قد اعتبر القضية قضية حروب صليبية ، ومعنى ذلك أنها ضد الإسلام .

ومن ثم جاءت الحروب الصليبية الأولى ممثلة في الحملات الصليبية الثمان الأولى .

ثم جاءت الحملة الصليبية التاسعة التي تمثلت في ما يسمى بالاستعمار الحديث الذي مزق العالم الإسلامي .

ثم جاءت الحملة الصليبية العاشرة ممثلة في سعي الغرب لإنشاء دولة لليهود في قلب العالم الإسلامي .

أقول: إننا نعيش الحرب الصليبية الحادية عشرة ممثلة في حرب الأصولية الإسلامية في شتى أنحاء العالم الإسلامي .

\* \* \*

## - لمحات إعلامية - (١)

- ١ -

١ - منهاج الرسول الإعلامي : في خطبة الحج:

أ - كانت إعلامية عالمية حيث حضرها أكثر من مائة ألف حاج . وافوا الحج مع رسول الله ﷺ .

ب - أنها خطبة في حجة الوداع . أي أن النبي ﷺ ودع فيها الناس .  
وعلى أي شيء ركزت : لقد قامت على قاعدتين عظيمتين:

أحدهما : إعلان مبادئ وأحكام وقواعد عامة : «إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في بلدكم هذا في شهركم هذا...» (٢) .

الثانية : التطبيق العملي الفوري لتلك المبادئ العامة :

أ - فأمور الجاهلية موضوعة تحت قدمي النبي ﷺ .

ويبدأ التنفيذ العملي لمبادئ الإسلام : «لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى» (٣) .

ب - وحينما يعلن الرسول ﷺ حرمة الربا ، يبدأ التنفيذ العملي فوراً ، كل ربا في الجاهلية موضوع ، وأول ربا يضعه ربا أقرب الناس إليه ، ربا عمه العباس (٤) .

تعالوا لنقارن ذلك بالمفارقات الإعلامية في عصرنا الحاضر : ولن أطيل بذكر نماذج لذلك ؛ لأنني أظن أن العامي يدرك ويستطيع أن يعطيك عدداً من الأمثلة على هذه المفارقات :

١ - الفرق بين التغطية الإعلامية لحادث أو كلاهما في أمريكا حيث أنهم المسلمون ثم تبين براءتهم من هذا الحادث .

(١) الجمعة ٢٧/١٢/١٤١٥ هـ . (٢) رواه البخاري (٦٧) ، ومسلم (١٦٧٨) .

(٣) رواه أحمد (٤١١/٥) من حديث رجل من أصحاب النبي ﷺ ، وهو حديث صحيح .

(٤) رواه مسلم (١٢١٨) وهو جزء من حديث طويل .

والتغطية الإعلامية لتدمير شعب بكامله حيث سويت مدنه وقراه بالأرض «الشيشان».

٢- السير وراء ركب الإعلام الغربي في حرب ما يسمونه بالاصولية والتطرف والإرهاب حتى تعدى ذلك إلى الإسلام نفسه، من خلال مقالات وأفلام تشوه صورة المسلمين.

٣- إحدى الصحف القاهرية الكبار نشرت مقالاً يقول : إن العلمانية مبدأ عظيم ممتاز ؛ لأنه ينقي الإسلام كدين من الخوض في وحل السياسة . ثم تعيد نشره إحدى صحفنا التي تصدر في الرياض .

وفي وقت سعة الدولة الإسلامية وفي زمن أشهر خلفاء بني العباس، هارون الرشيد (الذي شوهدت تاريخه قصص ألف ليلة وليلة وكتابات الصليبي جرجي زيدان وغيره).

أنقل لكم موقفاً من مواقفه تجاه أمر يتعلق بهذا الدين ، لتستتجوا من خلاله كيف ستكون سياسته الإعلامية نظرية وتطبيقاً :

روى الخطيب البغدادي في تاريخه بسنده إلى علي بن المديني قال : «قال محمد بن خازم : كنت أقرأ حديث الأعمش عن أبي صالح على أمير المؤمنين هارون الرشيد، فكلما قلت : قال رسول الله ﷺ، قال : صلى الله على سيدي ومولاي، حتى ذكرت حديث : «التقى آدم وموسى» . فقال عمه - أي عم الخليفة : علي - : يا محمد أين التقيا؟ قال : فغضب هارون، وقال : من طرح إليك هذا؟ وأمر به فحبس . ووكل بي من حشمه من أدخلني عليه في محبسه، فقال : يا محمد، والله ما هو إلا شيء خطر ببالي، وحلف لي بالعتق وصدقة المال، وغير ذلك من مغلفات الأيمان : ما سمعت ذلك من أحد ، ولا جرى بيني وبين أحد فيه كلام .

قال : فلما رجعت إلى أمير المؤمنين ، كلمته فقال : ليدلني على من طرح إليه هذا الكلام . فقلت : يا أمير المؤمنين ! قد حلف بالعتق ومغلفات الأيمان أنه إنما هو شيء خطر ببالي، لم يعجر بيني وبين أحد فيه كلام . قال : فأمر به فأطلق من الحبس،

وقال لي : يا محمد ، ويحك ! إنَّما توهمت أنه طرح إليه بعض الملحدِين هذا الكلام الذي خرج منه فيدلني عليهم فأستبيحهم»<sup>(١)</sup>.

هل سيجرؤ صاحب وسيلة إعلامية على الاستهانة بأحكام الإسلام والدعوة إلى الإعراض عن دين الله وأحكامه؟!!!

يقول الكاتب د. عبد العزيز رمضان في آخر المقال صفحة ١١ من الجريدة التي سبقت الإشارة إليها :

«أما لفظ علماني فيعني أن الدين لله والوطن للجميع ويعني تنزيه الدين عن إدخاله في شؤون الدولة ، وإبراء الدين من المظالم والتجاوزات التي ترتكبها الحكومة في ممارستها لشؤون الحكم» .

وقال : «إن الدين الإسلامي برئ مما ارتكبه الحكومات الإسلامية على مدى التاريخ من تصرفات لا صلة لها بالدين من قريب أو بعيد . . .» .

ثم يقول : «من ثمَّ ، فالعلمانية لا تعني إنكار الدين ، وإنَّما تعني تأكيد بقاء الدين وإبعاده عن أحوال السياسة إسلامياً فهو قدير على ذلك»<sup>(٢)</sup> .

(١) انظر : تاريخ بغداد ، للخطيب البغدادي ١٤ / ٨٧ .

(٢) انظر : جريدة الرياض ، العدد ٩٨٠٣ ، ٢٧ / ٤ / ١٩٩٥ م ، الصفحة الحادية عشرة .

## - لمحات إعلامية - (١)

- ٢ -

أنقلكم إلى مجلس عالم من العلماء، يغص بالآلاف، - يعلم تلاميذه ويربيهم على صدق القول، وقبول الحق - ممن جاء به، وعدم الاستكبار على الناس، ثم الرجوع السريع إلى الحق - وكانت أشهر وسائلهم الإعلامية: الكتب - .

قال ابن العربي المالكي في أحكامه: أخبرني محمد بن قاسم العثماني غير مرة، قال: وصلت الفسطاط، فجئت مجلس أبي الفضل الجوهري، فكان مما قال: إن النبي ﷺ طلق وظاهر وألى - أي من نسائه - .

فلما خرج، تبعته حتى بلغ منزله في جماعة، فجلس معنا في الدهليز - وعرفهم غيري - فإنه رأى شارة الغربة، فلما انفض عنه أكثرهم قال لي: أراك غريباً، هل لك من كلام؟ فقاموا: فقلت له: حضرت المجلس، وسمعتك تقول: (ألى رسول الله ﷺ وصدقت. و«طلق» وصدقت و«ظاهر»، ولم يكن، ولا يصح أن يكون؛ لأن الظهار منكر من القول وزور، وذلك لا يجوز أن يقع من النبي ﷺ، فضمني إلى نفسه، وقبّل رأسي، وقال: أنا تائب من ذلك جزاك الله من معلم خيراً.

قال محمد بن قاسم: ثم انقلبت إليه، وبكرت في الغد إليه فالفيتة قد جلس على المنبر، فلما دخلت الجامع رأني، وناداني بأعلى صوته: مرحباً بمعلمي، افسحوا للمعلمي، فتناولت الأعناق إليّ، وتحذقت الأبصار نحوي، وتعرقني يا أبا بكر - أي أصابني عرق شديد من الحياء - .

قال: وتبادر الناس إليّ يرفعونني على الأيدي، ويتدافعونني حتى بلغت المنبر - وأنا لعظيم الحياء، لا أعلم في أي بقعة أنا، والجامع غاص بأهله، وأسأل الحياء بدني عرقاً. وأقبل الشيخ على الخلق فقال لهم: أنا معلمكم وهذا معلمي؛ لما كان بالأمس قلت لكم كذا وكذا، فما كان أحد منكم فقه عني ولا ردّ عليّ، فاتبعني إلى منزلي وقال لي كذا - وأعاد ما جرى بيني وبينه - . أي مسألة الطلاق والظهار - ، وقال: أنا تائب من قولني بالأمس، راجع عنه إلى الحق، فمن سمعه ممن حضر فلا

يعود إليه ، ومن غاب فليبلغه من حضر ، فجزاه الله خيراً ، وجعل يحتفل لي في الدعاء والخلق يؤمنون»<sup>(١)</sup> .

انظروا إلى الأستاذ وإلى التلميذ ، كل واحد منهما أعجب من الآخر في خلقه وأدبه ، وجهه للحق وتمسكه به .

١ - فالخطأ قد يقع ، ولكن كيف يصحح؟ ومتى يتم التصحيح؟

٢ - وبأي أسلوب تربى الأمة عليه ، في تعظيم دينها واحترام وتوقير رسولها ﷺ .

٣ - والاحترام والتقدير المتبادل بين الأستاذ والتلميذ .

٤ - وقارنوا بوسائل الإعلام المعاصرة وكيف تحول كثير منها إلى واقع مؤسف .

ولقد علمنا أسلافنا - رحمهم الله تعالى - أن نرجع إلى الحق وأن نكون معه دائماً .

روى الخطيب البغدادي في تاريخه ، عن عبد الرحمن بن مهدي قال : (كنا في جنازة فيها عبيد الله بن الحسن وهو على القضاء ، فلما وضع السرير جلس وجلس الناس حوله ، قال : فسألته عن مسألة فغلط فيها ، فقلت : أصلحك الله ، القول في هذه المسألة كذا وكذا ، إلا أنني لم أرد هذه ، وإنما أردت أن أرفعك إلى ما هو أكبر منها ، فأطرق ساعة ، ثم رفع رأسه ، فقال : إذا أرجع وأنا صاغر ، إذا أرجع وأنا صاغر ؛ لأن أكون ذنباً في الحق أحب إليّ من أكون رأساً في الباطل)<sup>(٢)</sup> .

وروى البيهقي بسنده إلى يحيى بن سعيد وربيع بن أبي عبد الرحمن قالوا : (كان عمر بن عبد العزيز يقول : ما من طينة أهون عليّ فكأ ، وما من كتاب أيسر عليّ رداً من كتاب قضيت به ، ثم أبصرت أن الحق في غيره ففسخته) .

صورة أخرى إعلامية: مقابلة هرقل لأبي سفيان - سيد قريش وأشدّ الناس عداوة لرسول الله ﷺ آنذاك - .

(١) نقلاً عن تغليظ الملام على المتسرعين إلى الفتيا وتغيير الأحكام للشيخ حمود التويجري - رحمه الله -

(٤٦ - ٤٧) .

(٢) انظر : تاريخ بغداد ، للخطيب البغدادي (٣٠٨/١٠) ط دار الفكر .

وموضوع المقابلة حيث كان عدوه الأكبر آنذاك رسول الله ﷺ - قد سبق أن سقنا قصته كاملة وهي معروفة (١).

١ - سأله هرقل عنه وعن نسبه ، وعماء يدعو إليه ، وعن أتباعه ، والحرب بينهم وبينه .

٢ - وأجاب أبو سفيان إجابات صحيحة دقيقة .

٣ - وكان يخشى - وهو المشرك - أن يؤثر وأن يتناقل العرب عنه أنه يكذب في أحاديثه . فكيف بنا نحن المسلمين وقد سُئل رسول الله ﷺ : هل يكون الرجل كذاباً ، فقال : « لا » (٢) .

واستكمالاً للموضوع السابق - وقفات أو لمحات إعلامية - ومع دخول العام الهجري الجديد ١٤١٦ هـ ، أحب أن أقف وقفة تتعلق بحاسبة النفس : فإننا إذا توسعنا في مصطلح الإعلام ، فيشمل أمرين : أحدهما : وسائل الإعلام المعروفة .

والثاني : كل ما يصدر عن الإنسان وينقله إلى غيره من كتاب ، أو كلام يقوله في مجالسه ، أو دروس أو خطب ، أو محاضرات في المدارس والجامعات أو على عموم الناس .

فهذه كلها في منهج الإسلام لها قيود وضوابط ، وأحب - ونحن نودع عاماً مضمناً - أن أذكركم ونفسي بقوله تعالى : ﴿ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ (٣) . أي : حاضر .

رقابة ومحاسبة تامة على كل ما يصدر منك من قول أو فعل ، ولن ينفعك أحد - مهما كان - إذا قلت الباطل من أجله .

هل نحاسب أنفسنا جميعاً في أي موقع كنا ، حتى في مجالس سمرنا وأحاديثنا

(١) رواه البخاري (٧) .

(٢) رواه مالك في الموطأ (٩٩٠) كتاب الكلام ، الباب ٩ حديث رقم (١٩) ، وهو مرسل أو معضل . قال أبو عمر بن عبد البر : لا أحفظه مسنداً من وجه ثابت . وهو حديث حسن مرسل .

(٣) سورة ق ، الآية : ١٨ .

مع أقاربنا وغيرهم؟ فنبتعد كل البعد عن:

- كلمة الباطل .

- رد الحق .

- الغيبة والنميمة .

... وغير ذلك مما لا يمكن أن يتخلص أحد عن المسؤولية فيه .

\* \* \*

هل هذه الأمة أمة استكانة وخضوع<sup>(١)</sup>

بعض الدارسين والمحللين يرون أن الإسلام - ومنهاج السلف بشكل خاص - يبنى في أتباعه الاستسلام للأمر الواقع .

فهل هذه الأمة الإسلامية فاقدة لأصولها ومقومات استقلالها في عصرنا الحاضر؟

وهل بلغت من الضعف وعدم الثقة بالنفس إلى حد أنها رضيت بالأمر الواقع وسلمت قيادها لغيرها؟

وهل عبادة الصليب والدولار ، وإخوان القردة والخنازير وأذنبهم أحق بالريادة والقيادة العقديّة والفكرية والأخلاقية وغيرها من أهل القرآن وأتباع سيد الأنام محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام؟ أصحاب العقيدة العقيدة الصافية والشريعة الكاملة؟ .

إنني أتساءل : هل الاستسلام للأمر الواقع - كما يقول بعض الناس اليوم - هو من سمات هذه الأمة الإسلامية؟ ومن ثم فينبغي أن يكون تعاملنا مع هذا الإسلام بعقيدته وشريعته ، لا يتعدى أحد حالتين:

١ - إما حالة ذكر وإشادة بتاريخ سابق ، ملئ بالبطولات والتطبيق الحق للإسلام ، والاقترار على ذلك والاكتفاء به .

٢ - أو حالة تطبيق خاص للإسلام يقصره على حياة الإنسان الخاصة عبادة وخلقاً ، ثم إبعاد الدين عن شؤون الحياة كما هو منهج العلمانيين .

إن رسول الله ﷺ لما أخبرنا عن الفتن التي ستأتي بعده ، مثل فتن عودة الشرك ، وأتباع هذه الأمة لليهود والنصارى ، ومثل قوله ﷺ : « لا يأتي زمان إلا والذي بعده شرّ منه »<sup>(٢)</sup> . . . ونحو ذلك من الأخبار مما يدخل تحت أبواب الفتن وأشرط الساعة . فهل أخبرنا عنها لنستسلم لها ونكتفي بالتصديق بما أخبر به ﷺ؟ كما قد يفهمه

(١) الجمعة ١٤/١١/١٤١٥ هـ .

(٢) رواه : البخاري (٧٠٦٨) ، الترمذي (٢٢٠٦) من حديث أنس رضي الله عنه .

البعض فيقوله بلسان مقاله أو بواقع حاله؟

وقبل أن أنتقل إلى استقراء منهاج السلف في فهم هذه النصوص والتعامل معها أحب أن أبين ما يلي:

١ - أن هذه النصوص داخله ضمن إطارين يتعلقان بنبوته محمد ﷺ:

أحدهما: دلائل نبوته وصدقه، كلما وقع أمر أخبر به ازددنا إيماناً وتصديقاً، وربما كان ذلك سبباً في إسلام بعض الكفار من اطلع وعرف إخبار الرسول ﷺ بذلك.

والثاني: أن هذا من البلاغ المبين الذي بلغه ﷺ أمته، فهو ﷺ ما من خير إلا ودلّ أمته عليه، وما من شرٍ إلا وحذّر أمته منه<sup>(١)</sup>. ومن ذلك كثير مما أخبر به ﷺ مما سيقع في هذه الأمة من الفتن.

وإنما قلت: (كثيراً)؛ لأن بعض ما أخبر به ﷺ خير، كفتح بيت المقدس والقسطنطينية<sup>(٢)</sup>. وفتح روما، وظهور المهدي في آخر الزمان<sup>(٣)</sup>. ونزول عيسى ابن مريم في آخر الزمان ونحوها<sup>(٤)</sup>، فهذه خير وهي من دلائل نبوته ﷺ.

٢ - إن الرسول ﷺ، إنما أخبر على وجه التحذير، حتى نبذل الأسباب في درئها عنا وعن الأمة، وحتى يتصحح من أراد الله له الخير فيبتعد عن هذه الشرور ويعمل ما استطاع داعياً إلى الله ومحذراً الأمة منها ومن الفتنة فيها.

٣ - وأكبر دليل على ذلك أن كثيراً من الناس استفادوا من علمهم بما أخبر عنه ﷺ من تلك الفتن، فحذروها، وتعاملوا معها على الوجه الشرعي:

ماذا فعل المسلمون لما عادت عبادة الأوثان إلى جزيرة العرب - عند ذي الخليفة

(١) رواه: مسلم (١٨٤٤).

(٢) حديث صحيح، رواه: أحمد (١٧٦/٢)، والحاكم (٤٢٢/٣)، (٥٠٨/٤)، وصححه ووافقه الذهبي.

(٣) ثبت ذلك في أحاديث صحيحة. انظر: صحيح الجامع للألباني (٥٣٠٤، ٥٣٠٥، ٦٧٣٤، ٦٧٣٦، ٦٧٣٨).

(٤) ثبت ذلك في عدة أحاديث صحيحة، منها ما رواه البخاري في صحيحه رقم (٣٤٤٨)، ومسلم (١٥٥).

كما أخبر ﷺ<sup>(١)</sup>. لقد برؤوا بفعل الواجب فكسروا الصنم وقاتلوا الذين ارتدوا. وماذا فعلوا لما رأوا هذه الأمة بدأت تقلد اليهود والنصارى - كما قال ﷺ -: «حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه»<sup>(٢)</sup>. لقد قاوموا هذا بكل ما أوتوا من قدرات وفعلوا ما أوجب الله عليهم تجاه هذه المنكرات. وماذا فعلوا لما وجد الافتراق الذي أخبر عنه ﷺ؟ هل رضوا بهذه الفرق؟ وأدخلوها ضمن التعددية الحزبية كما تسميها ديمقراطية هذا العصر؟ أم أنهم ردوا عليها وفضحوها وبينوا ما فيها من بدع وضلالات، وبينوا للناس طريق السنة والاتباع للسلف الصالح.

٤ - ودعوني أضرب مثلاً مما سيقع مما أخبر عنه ﷺ:

لقد أخبر ﷺ أنه سيخرج في آخر الزمان المسيح الدجال<sup>(٣)</sup>. وحذر أمته منه تحذيراً كبيراً وأكثر عليهم في ذلك حتى ظن الصحابة أن الدجال قد خرج في أطراف المدينة النبوية. وبين ﷺ: صفاته الخلقية، وما معه من الفتن، والخوارق، وحاله وما سيجري معه، وكيف يقتل؟

فما الذي يستفيد المسلمون من هذه الأخبار التفصيلية إذا كانت واقعة لا محالة كما أخبر الصادق المصدوق؟

إن الأمر واضح جداً. سيستفيدون الحذر منه والبعد عنه، وعن فتنه، وسيستفيع بهذه الأخبار من وفقه الله تعالى وعلم بها وامتثل أمر رسول الله ﷺ. بل الأمر واضح؛ ما رأيكم لو خرج الدجال في هذه الأيام؟ وادّعى أنه المسيح المخلص، وأمر السماء فأمرت، ثم أمر الأرض فأثبتت، وأتى الخربات من المدن القديمة وأمرها أن تخرج كنوزها فأقربت عليه كنوزها المدفونة، وأتى إلى شاب فقتله، ثم

(١) قال رسول الله ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى تضطرب آليات دوس حول ذي الخلصة»، رواه: البخاري (٧١١٦)، ومسلم (٢٩٠٦).

(٢) حديث صحيح رواه البخاري (٣٤٥٦، ٧٣٢٠)، وأحمد (٨٤/٣، ٨٥، ٩٤) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ولفظه: «لتبعن سنن من كان قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع حتى لو سلكوا جحر ضب لسلكتموه». قلنا: اليهود والنصارى يا رسول الله! قال: «فمن؟».

(٣) ثبت ذلك في أحاديث كثيرة جداً. انظر بعضها في: صحيح البخاري، حديث (٣٤٣٩، ٣٤٤٠، ٣٤٤١)، وفي صحيح مسلم (١٦٠، ٢٩٣٣، ٢٩٣٤، ٢٩٣٦).

أحياء<sup>(١)</sup> . . . إلى غير ذلك مما يجري من أحواله .

ما رأيكم لو خرج الآن، كم سيتبعه من الناس ويؤمنون به ويخدعون؟

بل أقول: ماذا سيصنع بعض المكذبين به من المؤمنين بما جاء عن رسول الله ﷺ؟ أظن أن الكثير منهم أيضاً سيقول: هذا هو الكذاب، ولكن تعالوا ننظر ماذا يصنع، ونتفرج عليه - كما يقولون -؟

إن العلم بحديث رسول الله ﷺ يفيد في هذا فقد ورد عنه ﷺ أنه قال: «من سمع منكم بالدجال، فلا يأتيه، فإن الرجل يسمع بالدجال فيقول: هذا هو الكذاب - صدق رسول الله ﷺ - ثم لا يزال الأمر به فيذهب إليه فيراه ويرى أعماله فيفتن به ويتبعه»<sup>(٢)</sup> - أو كما ورد عنه ﷺ - .

إذاً هذه فائدة عظيمة تعلمنا كيف نحذر من الدجال ونحذر منه نساءنا وأطفالنا، ومن حولنا فلا نذهب إليه حتى للفرجة، وهكذا لو تأملنا بقية النصوص الواردة في الفتن .

أما المواقف العملية الكبرى - في تاريخ هذه الأمة - فتلك يطول شرحها . لكن لا بد من الإشارة إليها خاصة في هذه الأيام التي رأينا وسمعنا الكثير ممن سلّم للأمر الواقع، وسلّم للأقدار على منهج الجبرية - كما وقع لبعض الصوفية حين هجم الصليبيون والتتار - على العالم الإسلامي، فركنوا إلى زواياهم الصوفية، وتركوا الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والجهاد في سبيل الله تعالى .

لكن المؤمنين الصادقين، العارفين بربهم المصدقين بما جاء عن نبيهم، الفاهمين لهذا الدين وكماله وبقائه إلى آخر الزمان ومبشرات نصرته وانتشاره وبلوغه ما بلغ الليل والنهار<sup>(٣)</sup> .

أما هؤلاء، فقد وقفوا من تلك الأحداث العظيمة موقفاً سليماً من الناحية المنهجية والعقدية، عملياً من الناحية الجهادية والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

(١) ثبت ذلك كله في صحيح مسلم (٢٩٣٧) من حديث النواس بن سمعان الكلابي .

(٢) حديث صحيح رواه أحمد (٤٧٤)، وأبو داود (٤٣١٩)، والحاكم (٥٣١/٤) .

(٣) حديث صحيح رواه ابن حبان في صحيحه (١٦٣١، ١٦٣٢)، انظر: الصحيحة للألباني (٣) .

وكان لهذه المواقف أثر كبير في هذه الأمة .

وأمامي عدد من الأمثلة على فترات متباعدة من تاريخ الإسلام : وسأبدأ اليوم  
بالمثال الأول :

لقد ارتدت الجزيرة العربية - بعد انتقال رسول الله ﷺ إلى الرفيق الأعلى - .

وواجه الصحابة محنتين عظيمتين :

إحدهما : وفاة رسول الله ، ونزولها عليهم كالصاعقة ، حتى أصبحوا - كما  
قال أحد الصحابة يعبر عن ذلك - كالطير بلله المطر .

والثانية : الردة الواسعة التي شملت الجزيرة العربية كلها سوى مكة والمدينة  
والطائف ، وبلدة بني عبد القيس في الأحساء .

فكيف واجه الصديق هذه المحن؟ هل سلم للأمر الواقع؟ وبما أخبر به ﷺ من أنه  
سيكون في هذه الأمة متنبون كذابون؟<sup>(١)</sup> .

يقول المستشرق الأمريكي (د . بابارد دودج) - مدير الجامعة الأمريكية في بيروت  
سابقاً - ، وهو يصف علاقة الشرق بالغرب ، والواجب تجاهها :

«ير العالم بضروب من التغير السريع لم يشهد مثلها من قبل :

أولها : أن القارات الواسعة التي كان يعرفها أبائنا قد أصبحت الآن عالماً مترابط  
الحلقات ، وحلت الرغبة في السفر وفي تبادل الأفكار محل الانعزالية واعتزاز كل  
شخص ببيئته وتفكيره .

وهذا الكلام كان قبل أربعين عاماً ، أما اليوم فقد تطور هذا سريعاً حتى صار  
العالم كأنه مدينة أو دولة واحدة .

والتغير الثاني المهم : انتشار الروح العلمي وقبوله بين الناس ، فبعد أن كانت  
المدارس في الشرق والغرب دينية في الغالب أصبح الكثير منها دنيوياً . . . وانضم  
إلى العلم تطور الفنون والصناعات .

ثم يقول - وهو يعدد أهم التغيرات الإيجابية - وعلى رأسها المساواة بين أجناس

(١) رواه البخاري (٣٦٠٨) وفي غير موضع ، ومسلم (١٥٧) .

البشر، والمساواة بني الرجل والمرأة، ونشوء القوميات وسيادة مبادئ هيئة الأمم المتحدة -:

«ومن التغيرات ذات الأثر الإيجابي في الموقف تطور فكرة المساواة بين أجناس البشر، وكذلك بين الرجال والنساء، وتمتع كثير من الشعوب باستقلالها بعد أن كانت خاضعة أو واقعة تحت سيطرة الاستعمار، ولهذا أهميته الخاصة في حياة الإسلام. ويتصل بهذه الظاهرة نمو فكرة القوميات، بعد أن كانت أم كثيرة تخضع لخليفة واحد أو لكنيسة عامة. وكذلك ظهر على مسرح الحياة الإنسانية عامل جديد هو هيئة الأمم المتحدة؛ التي أصبحت تتطلب من الأفراد في مختلف الشعوب المشتركة فيها ولاءً لها وتعلقاً بمبادئها».

وبعد أن يشير إلى أن هذه المرحلة التي يمر بها مرحلة انتقال كبير، يقول:

«لقد كانت أسباب التفاهم بين الغرب والشرق في الماضي ناقصة، وكثيراً ما أدى ذلك إلى عداة ديني وحروب، أما اليوم فالموقف جدّ مختلف - فكلنا - غربيين وشرقيين - مسلمين ومسيحيين - تواجهنا مشكلات هائلة، وعلينا أن نجاهد لنستبقي لأبنائنا أساساً قوياً من الإيمان، ومن الطبيعي في هذا العصر - الذي تحاول فيه المادية هدم الاعتقاد في القيم الروحية، أن يحسّ المفكرون من بني البشر بمعنى جديد من الأخوة في جهادهم لحل معضلاتهم المشتركة وفي اتجاههم إلى الله رب العالمين ليلهمهم العون والتوفيق»<sup>(١)</sup>.

انظروا:

١ - أسباب التفاهم ناقصة في الماضي وأدت إلى حروب دينية.

٢ - واليوم نحارب ضد المادية والإلحاد.

وقد سقطت الشيوعية. فماذا قال الغرب: لقد قال صراحة: إن العدو الجديد هو الإسلام.

\* \* \*

(١) انظر: الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة، ترجمة مؤتمر عام ١٩٥٣م في أمريكا.

## مكر أعداء الله وعاقبته (١)

-١-

يتكالب أعداء الله - في كل زمن - محاربين دين الله ورسله وأتباعهم، ويتفنن هؤلاء الأعداء في كل عصر بما يناسبه من وسائل الحرب والعداء .

وفي عصرنا الحاضر - الذي تميز بوسائله الحديثة المتنوعة من إعلامية ومادية وغيرها - ازدادت ضراوة الحرب اشتعالاً ، وجاهر كثير من أعداء الله معلنين حرباً صريحة على هذا الدين وأتباعه المتمسكين به ، وأخذت الحرب شكل لافتات متنوعة . ربما كان أشدها وأكثرها أثراً وخطراً تلك الحرب النفسية التي تحاول أن تززع العقيدة في قلوب المسلمين ، وأن تزرع أنواعاً من اليأس في صدور الدعاة إلى الله تعالى .

ووقفنا اليوم مع أحد الدروس القرآنية حول هذا الموضوع :

- فهل ما يفعله الأعداء اليوم بدعاً لم يقع مثله من قبل؟

- وما أنواع المكر والكيد الذي مكروه وكادوه؟

- وكيف كانت عاقبة مكر الماكرين وآثارها في الدنيا والآخرة؟

- وما الدروس المستفادة من استقراء ذلك علماً وعملاً؟

١ - إن هذا العداء وهذه الحرب سنة الله تعالى الجارية ، وقدره وامتحانه لعباده المؤمنين من الرسل وأتباعهم . قال تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْبَرًا مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ (٢) .

قال ابن كثير - رحمه الله تعالى - : «وكما جعلنا - في قريتك يا محمد - أكابر من المجرمين ، ورؤساء ودعاة إلى الكفر والصدّ عن سبيل الله ، وإلى مخالفتك وعداوتك ، كذلك كانت الرسل من قبلك يبتلون بذلك ، ثم تكون لهم العاقبة ، كما

(١) الجمعة ١٤١٥/٦/٢٢ هـ .

(٢) سورة الانعام ، الآية : ١٢٣ .

قال تعالى: ﴿وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً من المجرمين﴾، والأكابر: العظماء، وقيل: الأشرار. والقرية: هي المدينة الكبيرة والعاصمة<sup>(١)</sup>.

إنها سنة جارية أن ينتدب في كل قرية نفر من أكابر المجرمين فيها يقفون موقف العداء من دين الله ورسول الله، ثم يكرون مكرهم في القرى، ويتعاونون فيما بينهم على هذا المكر والعداء، وحينئذ يبتلى المؤمنون وينفذ قدر الله تعالى، وتحقق الحكمة التي أرادها الله تعالى من هذا الابتلاء.

قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَاطِئِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ \* وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ﴾<sup>(٢)</sup>.

إن هذه الآيات تدل على حقيقة ودرس يجب أن نقف عنده طويلاً ون تأمله: إنه قدر الله العظيم النافذ الذي لا راد له:

\* قدره أن يكون لكل نبي عدو من شياطين الإنس والجن، وتأملوا كيف اجتمع هؤلاء على هذه الحرب والعداوة.

\* وقدره أن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً. روى ابن أبي حاتم وابن جرير وغيرهما - والإمام أحمد، وهذا لفظه - : عن أبي ذر - رضي الله عنه - قال: أتيت النبي ﷺ وهو في المسجد، فجلست فقال: «هل صليت؟». قلت: لا، قال: «قم فصل». قال: فقممت فصليت، ثم جلست، فقال: «يا أبا ذر! تعوذ بالله من شر شياطين الإنس والجن». قال: قلت: يا رسول الله! وللإنس شياطين؟ قال: «نعم»، ﴿... شَاطِئِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا...﴾<sup>(٣)</sup> «(٤)».

قال ابن كثير - رحمه الله - بعد ذكره لطرقه - : «فهذه طرق هذا الحديث ومجموعها يفيد قوته وصحته والله أعلم».

وقدره تعالى في أن تصغى إلى هذا الزخرف المزين لقلوب الذين لا يؤمنون

(١) تفسير ابن كثير (١٧٢/٢) ط دار المعرفة. (٢) سورة الأنعام، الآيتان: ١١٢، ١١٣.

(٣) سورة الأنعام، الآية: ١١٢.

(٤) رواه: النسائي (٢٧٥/٨)، وأحمد (١٧٨/٥، ٢٦٥) من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

بالآخرة ، ويرضوه ويقرّفوا ما يقترفون من العداوة لأنبياء الله ورسله وأتباعهم .

٢- وإذا تقرر أن هذا الذي يجري من المعركة بين الحق والباطل ، بين الرسل وأتباعهم والحق الذي معهم ، وبين شياطين الإنس والجن وباطلهم وزخرفهم وغرورهم ، إذا تقرر أن هذا يجري بمشيئة الله ويتحقق بقدر الله السابق . فإن المسلم ينبغي أن يتجه إلى تدبّر حكمة الله في ذلك ، ويأخذ العبرة والعظة ، وإن من أهم الحقائق التي تقرّها هذه الآيات :

● أن الذين يقفون بالعداوة لكل نبي من الأنبياء ولأتباع كل نبي ، هم شياطين : شياطين من الإنس ومن الجن ، وإنهم جميعاً يؤدون وظيفة واحدة ، وإن بعضهم يخدع بعضاً ويضله ويوحي إليه زخرف القول غروراً ، يحارب به أولياء الله تعالى وعباده الصالحين .

● أن هؤلاء الشياطين - شياطين الإنس والجن - لا يفعلون شيئاً من عداة الأنبياء وإيذاء أتباعهم إلا بقدر الله تعالى ؛ لأنهم في قبضته تعالى ، وهو سبحانه وتعالى يتلي بهم أولياءه لا أمر يريده الله تعالى من تمحيص هؤلاء الأولياء ، وتطهير قلوبهم وامتحان صبرهم وثباتهم على الحق ، وتمييز صفوفهم حتى يخرج منها من كان في قلبه نفاق أو دغل . ثم تكون العاقبة لهم في النهاية .

إن الله يتلي عباده ويمتحنهم بهذا التسليط : لينظر : هل يصبرون ويثبتون على ما معهم من الحق بينما باطل يتفش عليهم ويستطيل ؟ وهل يتخلصون من حظوظ أنفسهم ، ويبيعونها لله تعالى على السراء والضراء والمنشط والمكره ؟

● هوان الشياطين من الإنس والجن على الله ، وهوان كيدهم وأذاهم ؛ فهم ما يستطيعون بقوة ذاتية لهم ، وما يملكون أن يتجاوزوا ما أذن الله به على أيديهم .

وهذه حقيقة كبرى : فإن المؤمن الذي يعلم أن الله هو الذي يُقدّر وهو الذي يأذن ، وأن مشيئة الله هي النافذة ﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ (١) . إن المؤمن الذي يؤمن بهذا خليق بأن يتوكل على الله وحده ، وأن يستهين بهؤلاء الأعداء

(١) سورة التكويد ، الآية : ٢٩ .

من الشياطين مهما تبلغ قوتهم وسلطانهم المدعى، أمام قدرة الله وعظمته وجبروته وبطشه.

● أما ظاهرة تعاون الأعداء فيما بينهم ضد الإسلام، فأمر مشاهد ومعلوم:

والمعركة التي يقودها الباطل ضد الحق، يتجمع فيها أصناف الشياطين من مشرق ومغرب، ويتعاونون وينسقون لإمضاء خطة مدبرة، مقررة وسانلها ﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾<sup>(١)</sup>: فبعضهم يمدّ بعضاً في وسائل الخداع والغواية، ومن ثمَّ يغوي بعضهم بعضاً، وهذه ظاهرة في كل تجمع للشّر في حرب الحق وأهله: يعين بعضهم بعضاً على الضلالة دون الهدى، ويزين بعضهم لبعض حرب الحق وأهله ووسائل وأساليب حربه، ومهما قلنا في شرح ذلك، فلن نفي ببدلول الآية القرآنية المؤثر العميق ﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾<sup>(١)</sup>.

● ولكن هذا الكيد والعداء كله ليس طليقاً، إنه محاط بمشيئة الله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾: إن هذا الكيد - على ضخامته وتجمع قوى الشر العالمية عليه - مقيد - فهو لا ينطلق كما يشاء بلا قيد ولا ضابط، ولا يصيب من يشاء بلا معقب ولا رادع. إنه لا ينطلق كما يحب الطغاة ويرسمون - وهو الذي يوحون به إلى أتباعهم ليخوفوهم ويعلقوا قلوبهم بهم - كلاً: إن إرادتهم مقيدة بمشيئة الله، وقدرتهم محدودة بقدر الله، وما يستطيعون أن يضرروا أولياء الله بشيء إلا بإرادة الله، ومردّ الأمر كله إلى الله الواحد القهار.

● وهنا يقف المؤمن أمام هذه الحقائق، موقف المؤمن الواثق المطمئن إلى وعد الله، الذي تعلّق قلبه بربه تعالى تعلق الموقنين، فهو معتصم بربه وحده، متوكل عليه وحده، مطيع له وحده، عابد له وحده، خائف منه وحده، راجع له وحده.

أما مكر أعداء الله وكيدهم، فمهما بدا ضخماً وعظيماً، فهو لا يحيق إلا بأهله في نهاية المطاف: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْبَارًا مُّجْرِمِينَ لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾<sup>(٢)</sup>.

نعم: إن كيد أكابر المجرمين - مهما ضخّم واستطال - فإنه لا يحيق إلا بهم في

(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٢٣.

(١) سورة الأنعام، الآية: ١١٢.

نهاية المطاف . والمؤمنون لا يخوضون المعركة لوحدهم . فالله معهم وهو وليهم وهو حسبهم ، وهو الذي يردّ كيد الكائدين . ﴿ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ .  
 وإذا كان هؤلاء يمكرون فإن الله تعالى يمكر بهم : ﴿ وَمَكْرُوهَا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ (١) .

٣- واسمع إلى هذا التحذير من الله لأهل القرى : ﴿ أَقَامِنَ أَهْلَ الْقُرَىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسًا بَيِّنًا وَهُمْ نَائِمُونَ ﴾ (٩٧) أو ﴿ أَمِنَ أَهْلَ الْقُرَىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسًا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴾ (٩٨) أقاموا مكر الله فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون ﴿ (٩٩) ﴾ (٢) .

فمن الذي يأمن مكر الله من المؤمنين؟

فكيف بأعداء الله الماكرين؟

وكيف كانت عاقبة الماكرين؟

قال تعالى : ﴿ قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ \* ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقِقُونَ فِيهِمْ... ﴾ (٣) .

نعم : قد مكر الذين من قبل قريش ، ومكرت قريش ومكر من بعد قريش ، وكانت النتيجة واحدة : ﴿ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ ﴾ . فانهدم عليهم بنيانهم الذي شيدوه فتحول إلى مقبرة لهم : ﴿ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ . فبنيانهم الذي بنوه واحتموا به لم يفكروا أن يأتيهم الخطر من جهته ، ولكن هذه عاقبة المكر السيء ولا يحق المكر السيء إلا بأهله .

وتلك سنة الله تعالى مع جميع الماكرين ﴿ وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسِعِلَّمُ الْكُفَّارَ لِمَنْ عَقِبَى الدَّارِ ﴾ (٤) .

فهؤلاء ليسوا بأشدّ مكرأ ولا تدبيرأ ولا كيدأ من كان قبلهم ، فأخذهم الله وهو خير الماكرين ، بل هو سبحانه له المكر جميعاً ، فأين مكر هؤلاء وكيدهم !؟

(١) سورة آل عمران، الآية : ٥٤ . (٢) سورة الاعراف، الآيات : ٩٧ - ٩٩ .

(٣) سورة النحل، الآيات : ٢٦ ، ٢٧ . (٤) سورة الرعد، الآية : ٤٢ .

واسمعوا لهذا النداء ولهذا البيان، ولتتدبر ما فيه: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ (٤٢) مهطعين مقنعي رءوسهم لا يرتد إليهم طرفهم وأفئدتهم هواء (٤٣) وأنذر الناس يوم يأتيهم العذاب فيقول الذين ظلموا ربنا أخرنا إلى أجل قريب نجب دعوتك وتتبع الرسل أو لم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال (٤٤) وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال (٤٥) وقد مكروا مكروهم وعند الله مكروهم وإن كان مكروهم لتزول منه الجبال (٤٦) ﴿(١)

\* \* \*

## مكر أعداء الله وعاقبته (١)

## المسار التاريخي لمكر أعداء الله وعاقبته (٢)

١- هؤلاء قوم نوح، أول قوم نشأ فيهم الشرك وعبادة الأصنام؛ لأن من قبلهم عشرة قرون إلى آدم الذي أهبطه الله من الجنة، كانوا على التوحيد الخالص لله تعالى. وكان سبب نشوء الشرك فيهم الصور المعظمة - لأناس صالحين - تحولت تلك الصور إلى أصنام تعبد من دون الله تعالى حين زين لهم الشيطان ذلك.

فبعث الله نبيه نوحاً - عليه السلام - ودعا قومه إلى عبادة الله وحده لا شريك له، ونوع في دعوته، سراً وجهاراً، ترغيباً وترهيباً، وطال به المقام على هذا حتى بلغ ألف سنة إلا خمسين عاماً، وهو يدعوهم إلى الله ليلاً ونهاراً. دأب طويل، وصبر جميل، وجهاد ما أعظمه من جهاد، ﴿... وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ (٢).

وبعد ألف سنة إلا خمسين عاماً رفع شكواه إلى ربه تعالى: ﴿قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالَهُ وَوَلَدَهُ إِلَّا خَسَارًا (٢١) وَمَكَرُوا مَكْرًا كَبِيرًا (٢٢) وَقَالُوا لَا تَنْزُرُ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا (٢٣) وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا (٢٤)﴾ (٣).

ولماذا عصوه - وهو نبي الله الصادق؟ - ولماذا لم يستجيبوا بعد ذلك الجهد الكبير وطرق شتى أساليب الدعوة في ذلك الزمن الطويل؟ إنه يذكر سببين:

الأول: اتباع الكبراء والملا من لم يزد ماله وولده إلا خساراً. فشغلوا بالمال والأولاد والجاه والسلطان عن أن يستجيبوا للنبي الله نوح - عليه السلام - وساروا وراءهم عامة الناس، إلا من هداه الله ووقفه.

الثاني: أن أولئك الكبراء لم يكتفوا بالضلال في أنفسهم، بل صاروا دعاة ضلالة ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا كَبِيرًا﴾ (٤). أي: مكرًا كبيراً وعظيماً: ﴿وَقَالُوا لَا تَنْزُرُ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ (٥).

(١) الجمعة ٢٩/٦/١٤١٥ هـ.

(٢) سورة هود، الآية: ٤٠.

(٣) سورة نوح، الآيات: ٢١-٢٤.

(٤) سورة نوح، الآية: ٢٢.

(٥) سورة نوح، الآية: ٢٣.

قال ابن كثير - رحمه الله - : (والمعنى في قوله : ﴿وَمَكْرُوا مَكْرًا كَبِيرًا﴾ ؛ أي :  
باتباعهم في تسويلهم لهم أنهم على الحق والهدى ، كما يقولون لهم يوم القيامة :  
﴿بَلْ مَكْرَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا﴾ (١) (٢) .

وإنه لمكر عظيم - كما وصفه الله - ذلك الذي صدّ قوم نوح عن الاستجابة له وقد  
مكث فيهم ذلك الزمن الطويل ، مكر لإبطال دعوة نوح وإغلاق الطريق في وجهها ،  
وصدّ للناس عنها ، ولم يقتصر الأمر على هذا ، بل تعداه إلى تزيين الكفر لهم  
وحشهم على التمسك به ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ  
وَنَسْرًا﴾ ، فاستمسكوا بعبادة أصنامكم وآلهتكم ، ودعوا نوحاً وما يدعو إليه .

فكيف كانت عاقبة الماكرين؟ وكيف كان مآل الكافرين في الدنيا والآخرة؟ ﴿مِمَّا  
خَطَبْنَا بِهِمْ أُغْرِقُوا فَأَدْخَلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا﴾ (٣) .

وانظروا إلى هذه الآية القصيرة وما فيها من إعجاز : ذكرت السبب ﴿مِمَّا  
خَطَبْنَا بِهِمْ﴾ ، وعذاب الدين ﴿أُغْرِقُوا﴾ ، وعذاب الآخرة إما في النار أو عذاب القبر  
﴿فَأَدْخَلُوا نَارًا﴾ ، ثم ختمت بانقطاع الناصر والمعين لهم لما حل بهم بأس الله تعالى .

وأغرق الله أهل الأرض جميعاً من الكافرين - حتى ولد نوح - عليه السلام - لم  
ينفعه أبوه لما اختار طريق الغواية . ونجى الله نوحاً والقلة المؤمنة معه في السفينة  
وكانت آية للعالمين ، وعبرة للمتعاظمين . ولكن أين الكبراء؟ ، وأين الجاه؟ أين  
الأموال؟ أين الأولاد؟ أين التبجح بالمكر والكيد على نوح ودعوته والمتبعين له؟ .

لقد كانت العقوبة شاملة للأتباع والمتبعين؛ إذ لم ينج من قوم نوح الكافري  
أحد : فامرأة نوح الخائنة ، وولده الكافر الذي ظنّ أن لجوءه إلى الجبل سوف  
يعصمه ، وغيرهم وغيرهم ، أحاط بهم عذاب الله تعالى .

روى ان أبي حاتم - بإسناد قاله عنه ابن كثير - رحمه الله تعالى - : (حديث  
غريب ورجاله ثقات) ، عن ابن عباس - رضي الله عنه عنهما - قال : قال رسول الله  
ﷺ : «لورحم الله من قوم أحدأ لرحم امرأة، لما رأت الماء حملت ولدها ثم صعدت الجبل،  
فلما بلغها الماء صعدت به منكبها ، فلما بلغ الماء منكبها وضعت ولدها على رأسها ، فلما بلغ

(١) سورة سبأ، الآية: ٣٣ . (٢) انظر: ابن كثير (٤/٤٢٦) ط دار المعرفة .

(٣) سورة، نوح، الآية: ٢٥ .

الماء رأسها رفعت ولدها يدها، فلو رحم الله منهم أحداً لرحم هذه المرأة» (١).

٢- وهؤلاء قوم صالح - عليه السلام - دعاهم إلى الإيمان بالله، وأيده الله بالمعجزات الظاهرات، ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾ (٢).

فريق استجاب له وآمن وهم القلة، وفريق أبى واستكبر وهم الكثرة، بل إنهم تطيروا وتشاءوا من نبي الله صالح ومن معه: ﴿قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾ (٣).

لكن هل سكت قوم صالح عن صالح - عليه السلام -؟ قال تعالى عنهم: ﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ \* قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ (٤).

فهؤلاء رهط من قوم صالح ضاقوا ذرعاً به وبدعوته وحقته، فبيتوا فيما بينهم أمراً، والعجب أنهم تداعوا إلى القسم بالله تعالى على هذا الشر والمنكر العظيم الذي يبيتونه وهو قتل نبي صالح من أنبياء الله مع أهل بيته الصالحين، وهكذا أحكموا الخطة والتدبير أن يقتلوه وأهله ليلاً، ثم يقولوا لوليّه مقسمين الأيمان أنهم ما شهدوا مهلك أهله. يقول ابن كثير - رحمه الله - في هذه الآية: ((يخبر الله تعالى عن طغاة ثمود ورؤوسهم، الذين كانوا دعاة قومهم إلى الضلالة والكفر وتكذيب صالح، وآل بهم الحال إلى أنهم عقروا الناقة، وهموا بقتل صالح أيضاً، بأن يبيتوه في أهله ليلاً فيقتلوه غيلة، ثم يقولوا لأوليائه من أقربيه: إنهم ما علموا بشيء من أمره، وإنهم لصادقون فيما أخبروهم به من أنهم لم يشاهدوا ذلك» (٥)، ولكن هل تمت المؤامرة والمكر والكيد؟

قال تعالى: ﴿وَمَكْرُؤًا مَكْرًا وَمَكْرُؤًا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (٥) فأنظر كيف كان عاقبة مكْرهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين (٥) فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا إن في ذلك لآية لقوم

(١) انظر تفسير ابن كثير (٤/٤٢٧) ط دار المعرفة.

(٢) سورة النمل، الآية: ٤٥. (٣) سورة النمل، الآية: ٤٧.

(٤) سورة النمل، الآيتان: ٤٨، ٤٩. (٥) انظر: ابن كثير

يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ ﴿١﴾ .

لقد مكروا ودبروا ، ولكن الله كان لهم بالمرصاد ، يراهم ويرى مكربهم وكيدهم ويطلع عليهم ، وهم لا يشعرون بذلك . فأنزل عليهم الصاعقة فأخذتهم وهم ينظرون ، فما استطاعوا من قيام وما كانوا منتصرين ، ودمرهم الله أجمعين فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا ، وأبقاها الله تعالى آية للعالمين ، فأين مكر الماكرين من مكر الله ؟ وأين قواهم وحيلهم ومؤامراتهم التي يظنون أنه لا يطلع عليها أحد؟ أين هذا كله أمام علام الغيوب؟ ﴿ وَتَقَدَّرْنَا الْإِنْسَانَ وَتَعَلَّمَ مَا تُوسَّسُ بِهِ نَفْسُهُ وَتَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ (٢) . وقال تعالى: ﴿ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴾ (٣) . وفي ذلك لعظة وعبرة لمن هداه الله ووقفه فرجع وتاب وأناب إلى الله تعالى .

٣- أما مكر اليهود ومؤامراتهم وكيدهم ، فإنه لم يقتصر على غيرهم من الشعوب والأمم ، بل تعدى ذلك إلى أنبياء الله - عليهم الصلاة والسلام - .

فقد أرسل الله إليهم نبي الله عيسى بن مريم - عليه الصلاة والسلام - فدعاهم إلى التوحيد وعبادة الله وحده لا شريك ، وأيده الله بأنواع من المعجزات والدلائل القاطعة الدالة على نبوته ، وعلمه الله الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل ، ودعا قومه قائلاً: ﴿ ... وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا \* إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبِّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴾ (٤) .

فهل استجابوا لنبيهم وأنابوا إلى ربهم ؟ لا ، لم لم يستجيبوا . قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا أَحَسَّ عَيْسَىٰ مِنْهُمْ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ \* رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾ (٥) .

ولا بدَّ للدعوة من أنصار ، وكان لكل نبي حواريون ، وهؤلاء حواريو عيسى آمنوا به ، وعاهدوا على نصرته دينه واتباع رسوله ، فهي بيعة منهم لرسول الله وعهد منهم لله ﴿ ... فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾ .

هذه حال القلة المؤمنة التي استجابت لنبي الله عيسى . أما الكثرة الكاثرة من بني

(١) سورة النمل، الآيات: ٥٠ ، ٥٢ . (٢) سورة ق، الآية: ١٦ .

(٣) سورة غافر، الآية: ١٩ . (٤) سورة آل عمران، الآيات: ٥٠ ، ٥١ .

(٥) سورة آل عمران، الآيات: ٥٢ ، ٥٣ .

إسرائيل فكان لهم شأن آخر مع نبي الله عيسى - عليه السلام - قال تعالى عنهم : ﴿ وَمَكْرُؤًا وَّمَكْرَ اللَّهِ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ \* إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنِي مَرْيَمَ قُلْ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ وَأَطِيعْ أَمْرًا مِّنَ اللَّهِ إِنَّكَ فَتَكُونُ مِنَ السَّاجِدِينَ \* وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاحْكُمْ بَيْنَكُم مِّمَّا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ (١).

وكيف كان مكر هؤلاء اليهود المكذبين؟ لقد كان مكرًا متعدد الصور - كما ذكرت ذلك كتب التفسير - :

١ - فقد كفروا بنبي الله عيسى ، ولم يستجيبوا له ، ولم يخضعوا لما جاء به من شريعة الإنجيل .

٢ - اتهموه - عليه الصلاة والسلام - بالكذب والشعوذة وأن ما أيده الله به من معجزات إحياء الموتى بإذن الله وإبراء الأكمة والابرص بإذن الله - ما هو إلا سحر ودجل . وليس برسول صادق مؤيد من عند الله .

٣ - ولم يقتصروا على هذا ، بل طعنوا في عرضه ، وزعموا أنه ابن زنى ، ورموا أمه مريم الصديقة الطاهرة بهذه الجريمة البشعة . وذلك نوع قدر من التشويه .

٤ - ووشوا به إلى الحاكم الروماني الكافر الذي يسيطر على بلاد الشام ، فزعموا - كما يقول ابن كثير عنهم - : (( أنه يضل الناس ويصددهم عن طاعة الملك ، ويفند - أي يفرق - الرعايا ، ويفرق بين الأب وابنه . . . إلى غير ذلك مما تقلدوه في رقابهم ورموه به من الكذب )) .

وبهذه الوشاية والتحريض - سلم لهم الحاكم الروماني الوثني أن يتولوا عقابه ، وفعلاً دبر اليهود المؤامرة والمكيدة لقتل عيسى - عليه السلام - والقضاء عليه وعلى أتباعه . قال تعالى : ﴿ وَمَكْرُؤًا وَّمَكْرَ اللَّهِ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ (٢) .

فهؤلاء أرادوا أمراً - وهو قتل عيسى وصلبه - ، ومكروا في ذلك ، ولكن الله تعالى مكر بهم وهو خير الماكرين ، فنجاه الله منهم ، وطهره من مخالطة الكافرين والبقاء بينهم ؛ لأنهم رجس ونجس ، فأكرمه بأن رفعه إليه .

قال تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنِي مَرْيَمَ قُلْ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ وَأَطِيعْ أَمْرًا مِّنَ اللَّهِ إِنَّكَ فَتَكُونُ مِنَ السَّاجِدِينَ \* وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاحْكُمْ بَيْنَكُم مِّمَّا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ (١)

(٢) سورة آل عمران ، الآية : ٥٤ .

(١) سورة آل عمران ، الآيتان : ٥٤ ، ٥٥ .

وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴿١﴾ . وكان لذلك حكمة أرادها الله تعالى ، وسينزل في آخر الزمان متبعاً لمحمد ﷺ حاكماً بشريعة القرآن .

وهكذا تتعدد الصور: صور مكر أعداء الله في كل قوم، ولكن الله لهم بالمرصاد يكر بهم تعالى وهو خير الماكرين، وأن هذه القصص لتعطينا دروساً ودروساً في أن أعداء الله مهما تفننوا في أساليب المكر والكيد للمسلمين فإن الله يقابل مكرهم بمكر وكيدهم بكيد . فتكون العاقبة دائماً لعباده الصادقين .

وما كل نبي إلا وقد مكر الكفار من قومه ، فعاد مكرهم إليهم وحقاق بهم ما كانوا يمحرون

٤- ونختم هذه النماذج بالمكر برسول الله ﷺ وأصحابه ، وكان من آخرها ورسول الله ﷺ بين أظهرهم في مكة - مكرهم ليلة الهجرة، حين انتهى رأيهم ومكرهم إلى حبسه وأسره عندهم ، أو نفيه من الأرض وطرده منها، أو قتله، وعزموا في النهاية على الأخير ، ولكن بطريقة خاصة ، تشارك فيها جميع القبائل ، حتى يتفرق دمه فيها . قال تعالى : ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿٢﴾ .

وقد أطلع الله نبيه على ذلك ، فبات علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - تلك الليلة على فراش رسول الله ﷺ وخرج ﷺ حتى لحق بالغار، وبات المشركون يحرسون علياً يحسبون رسول الله . كما روى الإمام أحمد عن ابن عباس - رضي الله عنهما - (٣) .

نعم ، ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ : وأين مكر البشر الضعاف من مكر الله القوي العزيز ، حيث أبطل مكرهم وكيدهم وهم لا يشعرون، وكذا كل مكر وكل ماكر على الإسلام على مدار التاريخ ، فمن الذي يقوى على مواجهة مكر الله؟

(١) سورة آل عمران، الآية: ٥٥ .

(٢) سورة الانفال، الآية: ٣٠ .

(٣) رواه أحمد في مسنده (١/٣٤٨) . وقال الشيخ أحمد شاكر - رحمه الله تعالى - : (في إسناده نظر من أجل عثمان الجزري) .

- ٥- وفي تاريخ الإسلام ، مكرت جموع وأم :  
أ- التار .  
ب- الصليبيون .  
ج- الاستعمار الحديث .  
د- الناصريون والقوميون والعلمانيون .  
هـ- الحداثيون وأرباب الفكر العفن .  
و - وغيرهم وغيرهم .  
وبقي الإسلام وسيبقى ، ولا تزال طائفة من هذه الأمة منصورة لا يضرها من خذلها ولا من خالفها حتى يأتي أمر الله تعالى .

\* \* \*

## مواقف المعاندين للدعوة (١)

- ١ -

١ - الأنبياء كانت دعوتهم واضحة قوية : فهي قائمة على :

أ - الدعوة إلى توحيد الله . ﴿ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ (٢) .

ب - الدعوة إلى تصديق هؤلاء الأنبياء في رسالتهم التي جاءوا بها من عند الله تبارك وتعالى . ﴿ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا ﴾ (٣) .

ج - الإيمان بالبعث بعد الموت والجزاء والحساب .

٢ - ومع صدق الرسل ، ونصاعة دعوتهم ، إلا أن كثيراً من أممهم كذبوهم وحاربوهم .

وقد قصَّ الله تعالى علينا شيئاً مما جرى لهم ، ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصصِهِمْ عِبْرَةً لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (٤) .

٣ - وأول ما يلاحظ في دعوة الأنبياء :

الموقف الأول: استجابة الضعفاء ورفض المترفين والكبراء لدعوتهم : قال تعالى عن قوم نوح : ﴿ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا تَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا تَرَاكَ إِلَّا اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِادِّئِ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴾ (٥) .

وتأمل قوله : ﴿ أَرَادُوا ﴾ .

وقوله : ﴿ بَادِي الرَّأْيِ ﴾ أي : أن هؤلاء الضعفاء - على حد زعم الملأ والكبراء - استجابوا لكم دون تأمل ولا فكر ولا نظر . . . .

وفي سورة أخرى في قصة نوح : ﴿ قَالُوا أَنْتُمْ مِثْلُ لَكُمْ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ ﴾ (٦) .

(١) الجمعة ٢٢/٤/١٤١٤ هـ .  
 (٢) سورة هود، الآية : ٥٠ .  
 (٣) سورة نوح، الآية : ٣ .  
 (٤) سورة يوسف، الآية : ١١١ .  
 (٥) سورة هود، الآية : ٢٧ .  
 (٦) سورة الشعراء، الآية : ١١١ .

وفي قصة نبي الله صالح: ﴿ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتَضَعُّوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ آتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ \* قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴾ (١).

وفي قصة سيدنا موسى: ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيْعًا يَسْتَضَعِفُ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ \* وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أُمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴾ (٢).

وقال الله لمحمد ﷺ: ﴿ وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تَطَّعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرْطًا \* وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفِرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَفِيضُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴾ (٣).

وقال تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مِنَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ مَنْ بَيْنَانَا... ﴾ (٤)، فيأبى الشريف أن يسلم، ويقول: أسلم فأكون أنا وهذا الوضع سواء.

قال الزجاج: «كان الشريف ربما أراد الإسلام فيمتنع عنه لثلاث يقال: أسلم قبله من هو دونه، فيقيم على كفره لثلاث يكون للمسلم السابقة عليه في الفضل» (٥). ولهذا، فكثيراً من يطالب الملائة بطرد هؤلاء الضعفاء.

أ- فقال تعالى عن نوح أنه قال: ﴿ وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَأُوا رِبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴾ (٦) وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ (٦).

ب- وقال تعالى لمحمد ﷺ: ﴿ وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ

(٢) سورة القصص، الآيات: ٤، ٥.

(٤) سورة الأنعام، الآية: ٥٣.

(٦) سورة هود، الآيات: ٢٩، ٣٠.

(١) سورة الأعراف، الآيات: ٧٥، ٧٦.

(٣) سورة الكهف، الآيات: ٢٧، ٢٨.

(٥) معاني القرآن للزجاج.

الظالمين ﴿١﴾ .

ج- قصة ابن مکتوم : ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى ١ ﴾ أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى ٢ ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزْكِي ٣ ﴾ أَوْ يَذْكَرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى ٤ ﴿ أَمَا مِنْ اسْتَفْتَى ٥ ﴾ فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى ٦ ﴿ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزْكِي ٧ ﴾ وَأَمَا مِنْ جَاءَكَ يَسْعَى ٨ ﴿ وَهُوَ يَخْشَى ٩ ﴾ فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى ١٠ ﴿ (٢) .

الموقف الثاني: محاولات زرع الشك وزعزعة الثقة بالأنبياء .

قال تعالى : ﴿ مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرُكَ تَقْلِبُهُمْ فِي الْبِلَادِ ٤ ﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالنَّبَاتِ لِیُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ٥ ﴿ (٣) .

أ- وأول ما يلاحظ : أن المكذبين يشككون في سلامة عقول الأنبياء :

١- قال تعالى عن قوم نوح - عليه السلام - أنهم : ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فْتَرَبِّصُوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ ٤ ﴾ ، ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ٥ ﴾ .

٢- وفرعون قال عن موسى - عليه السلام - : ﴿ قَالَ إِنْ رَسُولُكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ٦ ﴾ .

٣- وقال عن محمد ﷺ : ﴿ أَوْلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ٧ ﴾ .

ب- محاولة التشكيك في إخلاص الرسل : وذلك بدعوى أنهم يريدون بدعتهم الوصول إلى مصالح دنيوية من العلو في الأرض - أو الملك - أو غير ذلك . . . .

\* قال الله تعالى في قصة موسى - عليه السلام - وفرعون : ﴿ قَالَ لِلْمَلَأِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ٣٤ ﴾ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ٣٥ ﴾ (٨) .

\* وفي آية أخرى : ﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَلْفِتْنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمُ الْكِبْرِيَاءُ فِي

- |                                  |                                       |
|----------------------------------|---------------------------------------|
| (١) سورة الأنعام، الآية : ٥٢ .   | (٢) سورة عبس، الآيات : ١ - ١٠ .       |
| (٣) سورة غافر، الآيتان : ٤ ، ٥ . | (٤) سورة المؤمنون، الآية : ٢٥ .       |
| (٥) سورة القمر، الآية : ٩ .      | (٦) سورة الشعراء، الآية : ٢٧ .        |
| (٧) سورة الاعراف، الآية : ١٨٤ .  | (٨) سورة الشعراء، الآيتان : ٣٤ ، ٣٥ . |

الأرض... ﴿١﴾.

\* وقال عن نوح - عليه السلام - : ﴿ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مِنْ سَمَانٍ مَاءً سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴾ (٢).

ويلحظ : حرصهم على الدنيا . فهكذا موازينهم . ﴿ وَتَكُونُ لَكُمْ أَعْتَابًا ﴾ (٣).

الأرض... ﴿٣﴾.

ج- تكذيب الرسل والشك في صدقهم : قال تعالى : ﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرًا كُلٌّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ ﴾ (٤).

وقال تعالى : ﴿ كُلُّ كَذِّبٍ الرُّسُلِ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴾ (٥).

د- أما أهل الكتاب والمنافقون ، فكان لهم دور عظيم متنوع في الصد عن دعوة

محمد ﷺ :

\* \* \*

(٢) سورة المؤمنون ، الآية : ٢٤ .

(٤) سورة المؤمنون ، الآية : ٤٤ .

(١) سورة يونس ، الآية : ٧٨ .

(٣) سورة يونس ، الآية : ٧٨ .

(٥) سورة ق ، الآية : ١٤ .

## مواقف المعاندين للدعوة - ٢ - (١)

ومن وسائل أعداء الرسل أيضاً:

أولاً: حين يفشل الأعداء في الشك في صدق الرسل وسلامة أهدافه، يلجأون إلى أسلوب التهديد والعذاب والإيذاء.

قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ﴾ (٢)، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ﴾ (٣)، ولقد جاء هذا التهديد على صور عديدة:

أ - التهديد بالرجم: قال تعالى عن نوح - عليه السلام - أنه قال له قومه: ﴿لئن لم تنته يا نوح لتكونن من المرجمين﴾ (٤)؛ أي: من المقتولين أقبح قتلة.

بل إبراهيم - عليه السلام - توعدّه أبوه آزر بهذا، فقال له: ﴿قال أرأغب أنت عن آلهي يا إبراهيم لئن لم تنته لأرجمنك واهجرني ملياً﴾ (٥).

وقال تعالى عن شعيب - عليه السلام -: ﴿قالوا يا شعيب ما نفقه كثيراً مما تقول وإنما نراك فينا ضعيفاً ولولا رهطك لرجمناك وما أنت علينا بعزيز﴾ (٦)، وفيما سبق يلاحظ إجماعهم على الرجم.

ب - التهديد بالقتل: قال تعالى: ﴿وقال فرعون ذروني أقتل موسى﴾ (٧).

وقال تعالى عن فرعون وقومه: ﴿فلما جاءهم بالحق من عندنا قالوا اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه واستحيوا نساءهم﴾ (٨).

وقال الله تعالى عن اليهود: ﴿... أفكلمنا جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقاً كذبتم وفريقاً تقتلون﴾ (٩).

(٢) سورة غافر، الآية: ٥.

(٤) سورة الشعراء، الآية: ١١٦.

(٦) سورة هود، الآية: ٩١.

(٨) سورة غافر، الآية: ٢٥.

(١) الجمعة ٣٠/٤/١٤١٤هـ.

(٣) سورة إبراهيم، الآية: ١٣.

(٥) سورة مريم، الآية: ٤٦.

(٧) سورة غافر، الآية: ٢٦.

(٩) سورة البقرة، الآية: ٨٧.

والفرق بين الرجم والقتل : أن الرجم قتلة شنيع ، أما القتل فهو مجرد التخلص من الرسول بأية طريقة .

ج- الإحراق بالنار: قال الله تعالى عن إبراهيم - عليه السلام - : ﴿ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴾ (١) .

ونفذوا هذا ، ولكن كما قال الله تعالى : ﴿ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَيَّ إِبْرَاهِيمَ ﴾ (٢) .

د- الإخراج والنفي من البلاد: قال تعالى عن قوم شعيب - عليه السلام - أنهم قالوا : ﴿ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَنَعُودَنَّ فِيهَا مَلِئِينَ ﴾ (٣) .

وقال تعالى عن محمد ﷺ : ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ﴾ (٤) .

وقال تعالى - أيضاً - لمحمد ﷺ : ﴿ وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ﴾ (٥) .

هـ- السجن: قال الله تعالى على لسان فرعون لموسى - عليه السلام - : ﴿ قَالَ لَنْ آتِخَذَ مِنْهَا غَيْرِي لِأَجْعَلَكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴾ (٦) .

و- التمثيل والصلب: قال الله تعالى عن الطاغية فرعون أنه قال للسحرة الذين آمنوا بموسى - عليه السلام - : ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكْرَتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ \* لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (٧) .

(٢) سورة الأنبياء، الآية : ٦٩ .

(٣) سورة الأنفال، الآية : ٣٠ .

(٦) سورة الشعراء، الآية : ٢٩ .

(١) سورة الأنبياء، الآية : ٦٨ .

(٢) سورة الأعراف، الآية : ٨٨ .

(٥) سورة الإسراء، الآية : ٧٦ .

(٧) سورة الأعراف، الآيتان : ١٢٣ ، ١٢٤ .

- أما ما واجهه محمد ﷺ وأصحابه من التهديد والإيذاء والقتل والتشريد، فكثيرٌ جداً:

١ - فقد عذب كثير من أصحابه الكرام، ومات بعضهم تحت التعذيب .  
٢ - ورسول الله ﷺ أصدروا قراراً بقتله . وذلك في مقر دار الندوة قبيل الهجرة .

٣ - المضايقة الاقتصادية [حصار شعب أبي طالب] .

٤ - بل وصل الأمر بقريش إلى المتابعة للمسلمين في دول أخرى لا تدخل ضمن سلطاتها؛ وذلك حين هاجر المسلمون إلى الحبشة . وكانت أساليبهم بعد المطاردة الجسدية إلى البحر أن توجهوا إلى النجاشي وقومه من خلال:  
أ - إغراؤهم بالمال والهدايا الثمينة .

ب - اتهام المسلمين بفساد العقيدة والمقاصد، وأنهم جاءوا بدين جديد فرقوا به الجماعة . . . إلخ .

ج - لما فسدت الوسيلتان الأوليان لجأوا إلى أسلوب جديد مآكر؛ ألا وهو: اتهام المسلمين بمخالفتهم لدين النجاشي النصرانية، وأنهم يقولون في عيسى وأمه قولاً عظيماً<sup>(١)</sup> - والوثنية لا تعترف بدين النصارى ولكنها الحرب المتعددة الوجوه والاصطياد في الماء العكر - .

٥ - أنواع من الأذى عديدة للرسول ﷺ وصحبه الكرام - رضي الله عنهم - :

١ - إلقاء السلى عليه ﷺ وهو يصلي .

٢ - عقبة بن أبي معيط وخنقه لرسول الله ﷺ .

٣ - ما جرى له في الطائف .

٤ - ما جرى له يوم أحد .

وما هذه إلا نماذج .

(١) انظر ما جرى من المشركين في الحبشة مع النجاشي في: السيرة النبوية لابن هشام (١/٣٣٣ - ٣٣٨) .

ثانياً: محاولة الإغراء بالمال وغيره:

سبق بيان أن الرسل - عليهم الصلاة والسلام - بينوا لقومهم أنهم لا يريدون أجراً ولا مالاً على دعوتهم، ولكن كثيراً ما يحاول أعداء الرسل إغراء قومهم وإغراء الرسل بالمال وغيره:

أ - فهذا فرعون يغري السحرة الذين جاءوا لمبارزة موسى - عليه السلام - . قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّا لَنَا أَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ \* قَالَ نَعَمْ وَإِنِّكُمْ إِذَا لَمِنَ الْمُقْرَبِينَ ﴾ (١).

ب - وقال تعالى عن محمد ﷺ: ﴿ فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ \* وَذُوا لَوْ تَدْرَهُنَّ فَيُدْهِنُونَ ﴾ (٢).

والإدهان: هو اللين والمصانعة في الكلام وغيره. والمعنى: أنهم لو ترك بعض ما لا يرضاه قومك فيرضون عنك فتلين ويلينون.

أ - وهذه سورة الكافرون تدل على شيء من ذلك؛ حيث ورد أنهم طلبوا أن يتنازل عن شيء من دينه فنزلت السورة. ونزل قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ ﴾ (٣).

ب - في قصة قريش حين عرضوا عليه عروضاً من هذا القبيل، من المال، أو الملك، أو الجاه والشرف.

(٢) سورة القلم، الآيتان: ٨ ، ٩ .

(١) سورة الشعراء، الآيتان: ٤١ ، ٤٢ .

(٣) سورة الزمر، الآية: ٦٤ .

## مواقف المعاندين للدعوة - ٣ - (١)

## مواقف المنافقين

١ - لقد فصلَ الله في كتابه صفات المنافقين وأحوالهم ومؤامراتهم ومواقفهم من الدعوة ومن الرسول ﷺ . حتى نزلت سور تكاد تكون بكاملها فيهم ، ولعل من الحكم في ذلك :

أ - أن خطرهم عظيم ، وتأثيرهم كبير ؛ فجاءت الآيات كثيرة لذلك .

ب - أن فضحهم جزء من جهادهم . وقد نفع ذلك فتخلص النفاق - في بعض الأوقات - حتى أصبحوا مرعوبين . وقد صورَ الله ذلك في مثل قوله تعالى : ﴿ يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تَنْزَلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُبَيِّنُ لَهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ اسْتَهِزْءُوا إِنَّا اللَّهُ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ ﴾ (٢) .

ج - تحذير المؤمنين منهم ، وهذا على وجهين :

أحدهما : تحذيرهم من الانخداع بأقوالهم ومكرهم وعداوتهم .

الثاني : التحذير من التلبس بشيء من صفاتهم حتى حذر الرسول ﷺ صراحة ، فقال : « آية المنافق ثلاث.... » (٣) ، وقال أيضاً ﷺ : « أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً.... » (٤) .

٢ - النفاق لا يظهر إلا عند عزة الإسلام . ولذا لم يظهر في مكة .

٣ - واستقصاء بيان عداوة المنافقين للرسول ﷺ ولدعوته ولأصحابه مما يطول .

وستقتصر علي ذكر نماذج من ذلك :

١ - فمن صفاتهم - بل من أبرزها - : دعواهم أنهم مصلحون . قال تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لَّا

(١) تابع لما قبله ، الجمعة ١٤١٤/٥/٧ هـ ، والجمعة ١٤١٤/٥/١٤ هـ .

(٢) سورة التوبة ، الآية : ٦٤ . (٣) رواه البخاري (٣٣) ، ومسلم (٥٩) .

(٤) رواه البخاري (٣٤) ، ومسلم (٥٨) .

يشعرون ﴿١﴾.

إن هناك فرقا بين من يعمل الذنوب [وهو معتقد حرمتها شاعر بعصيانه - وبين من يعمل الذنوب وهو مستحل لها مستهتر في حكمها .

وكذلك المنافقون : حين يزعمون أن كفرهم ونفاقهم واستهزاءهم وموالاتهم للكافرين وحربهم الخفية للدعوة وللرسول ﷺ ، إنما هو إصلاح . إن هذا جمع بين جرئيتين :

أحدهما : إفساد وكفر .

والثانية : الزعم - مع هذا - أنه إصلاح - قلباً للحقائق .

فمثلاً : إذا ثبطوا عن الجهاد مع رسول الله ﷺ زعموا أن هدفهم الإبقاء على المؤمنين لئلا يقتلوا .

٢ - ومن صفاتهم: أنهم يأمرن بالمنكر وينهون عن المعروف : قال تعالى : ﴿ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِّنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ ... ﴾ (٢) ، وهذه أيضاً من الصفات العامة لهم .

٣ - ومن صفاتهم : إثارة الفتنة بين المؤمنين : وذلك مثل ما فعلوه في ماء المريسيع في قصة بني المصطلق حين اختصم على الماء رجلان أحدهما : أنصاري ، والآخر : مهاجري ، فنادى الأنصار : يا للأنصار ، ونادى المهاجرين : يا للمهاجرين !!!

فأشعل المنافقون الموقف ، فقالوا : أو قد فعلوها - يعني الرسول والمهاجرين - قد نافرونا وكاثرونا في بلادنا والله ما أعدنا وجلايب قريش - والجلابيب هي الأزر الغلاظ ؛ لأن المشركين في مكة كانوا يعيرون المؤمنين بها - إلا كما قال الأول : سمَّن كلبك يأكلك . أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل . . .

ثم أقبل على أصحابه يثير فيهم الفتنة ويقول : (احللتموهم بلادكم وقاسمتموهم أموالكم . أما والله لو أمسكتهم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير داركم) (٣) ، ففضحهم الله في سورة المنافقين .

(٢) سورة التوبة، الآية : ٦٧ .

(١) سورة البقرة، الآيتان : ١١ ، ١٢ .

(٣) انظر : سيرة ابن هشام (٣/٢٩١) .

٤ - ومن صفاتهم: إشاعة الفاحشة والطعن في الرسول ﷺ وآل بيته الطيبين:

ومن أمثلة ذلك: حادثة الإفك . وقد حدثت في مرجع رسول الله ﷺ من المريسيع<sup>(١)</sup>، فنزل قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تحْسِبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ \* لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ﴾<sup>(٢)</sup>.

وقد نتج عن هذه الفتنة التي انطلقت من إشاعة الفاحشة، أمور أخرى، منها:

١ - إثارة الفتنة وتمزيق الصف المسلم، حتى جرى بين الصحابة ما جرى في المسجد.

٢ - الطعن في الرسول - شخصياً - وفي أقرب الناس إليه، وهم أبو بكر وابنته وآل بيته.

٣ - غرس عدم الثقة في المؤمنين، فإذا كانت المؤمنة التقية - أم المؤمنين - عائشة رضي الله عنها - قد وقعت في هذا، فما بالك ببقية المؤمنات والصحابيات الجليلات. وهذا أسلوب مكر خبيث يطعن فيه ببعض المؤمنين، ثم يسحب هذا الطعن على جميع المؤمنين، فتهتز الثقة بهم جميعاً وينتقل هذا إلى عدم الثقة فيما يدعون إليه.

(١) وقوع بعض الصحابة في الفتنة والخوض في الإفك.

(٢) الصراع بين الأوس والخزرج بين يدي الرسول ﷺ.

(٣) وقوع بعض الصحابة في اضطراب وحيرة، خاصة حين تأخر الوحي شهراً.

\* \* \*

(١) انظر الحديث بطوله في: صحيح البخاري رقم (٤٧٥٠).

(٢) سورة النور، الآيتان: ١١، ١٢.

## مواقف المعاندين للدعوة - ٤ - (١)

### من صفات المنافقين

٥ - ومن صفاتهم: اتخاذ مساجد الضرار: ففضحهم الله تعالى ونزلت الآيات: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفْنَ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ (٢).

ضراراً: مضارة ومنافسة لمسجد الرسول ﷺ، أو مضارة لمسجد قباء، فقد بنوه بجواره.

٦ - ومن صفاتهم: البخل، والجبن حال الخوف، وسلاطة اللسان عند الأمن، قال تعالى: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعْرِضِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَاسَ إِلَّا قَلِيلًا \* أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِالنِّسَةِ جِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَٰئِكَ لَمْ يُؤْمِرُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ (٣).

فتأملوا صفة هذه المنافق: «هو شجاع فصيح بارز حيشما كان أمن ورخاء، وهو جبان صامت متزور حيشما كان هناك شدة خوف، وهو شحيح بخيل على الخير، وأهل الخير لا ينالهم منه إلا سلاطة اللسان».

٧ - ومن صفاتهم: التشبث عن الجهاد مع رسول الله ﷺ: قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ﴾ (٤).

وقال تعالى: ﴿... وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا \* وَلَوْ دَخَلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سَأَلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا...﴾ (٥).

وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالُوا لِلْإِخْوَانِ هُمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٦).

(١) الجمعة ١٤/٥/١٤١٤ هـ.

(٢) سورة التوبة، الآية: ١٠٧.

(٣) سورة الاحزاب، الآيتان: ١٨، ١٩.

(٤) سورة التوبة، الآية: ٨١.

(٥) سورة الاحزاب، الآيتان: ١٣، ١٤.

(٦) سورة آل عمران، الآية: ١٦٨.

وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لِيُطِئَنَّ﴾ (١).

٨ - ومن صفاتهم: الاستهزاء والسخرية بالمؤمنين: قال تعالى: ﴿وَلَنْ سَأَلْتَهُمْ لِيَقُولُوا إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ...﴾ (٢).

وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جَهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ...﴾ (٣).

هذه صفتهم زمن رسول الله ﷺ، وفي العصر الحاضر تجددت صور هذا الاستهزاء فهم يسخرون من:

١ - إقامة الحدود ويصفونها بالقسوة.

٢ - ومن المرأة وحجابها.

٣ - ومن المظاهر الإسلامية عموماً.

٩ - ومن صفاتهم: رفض التحاكم إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ:

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ (٤).

وقال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُوثِنَ بِالْمُؤْمِنِينَ \* وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ \* وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ \* أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمْ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولَهُ بَلْ أُوثِنَ لَهُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (٥).

١٠ - ومن صفاتهم: موالة الكافرين من المشركين واليهود والنصارى: قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فإِنَّهُمْ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ \* فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ...﴾ (٦).

(٢) سورة التوبة، الآية: ٦٥.

(١) سورة النساء، الآية: ٧٢.

(٤) سورة النساء، الآية: ٦٠.

(٣) سورة التوبة، الآية: ٧٩.

(٦) سورة المائدة، الآيتان: ٥١، ٥٢.

(٥) سورة النور، الآيات: ٤٧ - ٥٠.

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نَطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ (١).

وقال تعالى واصفاً حالهم مع هؤلاء: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾ (٢).

نعم ، إذا التقوا بالمؤمنين تظاهروا بالحرص عليه والدفاع عنه . ولكن إذا خلوا إلى شياطينهم وأسيادهم وأصحاب مشورتهم قالوا: نحن معكم . نحن نسير على توجيهاتكم وخططكم . أما كلامنا وتظاهرنا بالدين ، إنما هو استهزاء وتغطية لما نحن ننفذه فعلاً .

#### الهدف من فضح المنافقين:

١ - الحذر من صفاتهم . [عمر - رضي الله عنه - كان يخاف ويسأل حذيفة] (٣) .

٢ - كشف وسائلهم حتى لا نغتر بهم .

٣ - أهمية غرس العقيدة الصحيحة ، بحيث يكون العبادة والحب والخوف والرجاء لله وحده .

وسنواصل بعد الحديث عن أعداء الرسول ، ونتحدث عن صفات أتباع الرسول - إن شاء الله تعالى - تباعاً .

\* \* \*

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٤ .

(١) سورة الحشر، الآية: ١١ .

(٣) انظر: سير اعلام النبلاء للذهبي (٢/٣٦٤) .



## الفصل الخامس

### حول اليهود

- ١- نحن أحق بموسى منكم - ١ -
- ٢- نحن أحق بموسى منكم - ٢ -
- ٣- الرسول ﷺ ويهود بني قريظة - ١ -
- ٤- الرسول ﷺ ويهود بني قريظة - ٢ -
- ٥- الرسول ﷺ ويهود بني قريظة - ٣ -
- ٦- السلام مع اليهود ماذا يعني؟ - ١ -
- ٧- السلام مع اليهود ماذا يعني؟ - ٢ -

### نحن أحق بموسى منكم (١)

روى البخاري ومسلم عن أبي موسى الأشعري - رضي الله عنه - قال : كان يوم عاشوراء يوماً تعظمه اليهود وتتخذة عيداً ، فقال رسول الله ﷺ : «صوموه أنتم» .

وفي رواية : كان أهل خيبر يصومون يوم عاشوراء ، يتخذونه عيداً ، ويلبسون نساءهم فيه حلّهم وشارتهم - أي الزينات - فقال رسول الله ﷺ : «فصوموه أنتم» .

وروى الشيخان - أيضاً - عن عبد الله بن عباس - رضي الله عنهما - قال : قدم رسول الله ﷺ المدينة ، فرأى اليهود تصوم عاشوراء ، فقال : ما هذا؟ قالوا : هذا يوم صالح نجّى الله فيه موسى وبني إسرائيل من عدوهم ، فصامه . فقال ﷺ : «أنا أحق بموسى منكم» ، فصامه ﷺ وأمر بصيامه (٢) .

وفي رواية : فقال لهم : ما هذا اليوم الذي تصومونه ؟ قالوا : هذا يوم عظيم ، أنجى الله فيه موسى وقومه ، وغرق فيه فرعون وقومه ، فصامه موسى شكراً ، فنحن نصومه ، فقال رسول الله ﷺ : «فنحن أحق وأولى بموسى منكم» . فصامه ﷺ وأمر بصيامه (٢) .

وفي رواية لأبي داود : حين صام رسول الله ﷺ يوم عاشوراء وأمر بصيامه ، قالوا : يا رسول الله ! إنه يوم تعظمه اليهود والنصارى ، فقال رسول الله ﷺ : «فإذا كان العام القابل - إن شاء الله - صمت اليوم التاسع ، فلم يأت العام المقبل حتى توفي رسول الله ﷺ» (٣) . قال العلماء : (المعنى : لأصومن التاسع والعاشر مخالفة لليهود) .

ووقفنا - في مناسبة عاشوراء - ومشروعية صيامه عندنا وقفة لا تختص بهذا اليوم ، وإنما تمتد لتقعّد قاعدة من قواعد الصراع العقدي بين الإسلام وغيره من الملل والنحل .

وقفة مع قوله ﷺ لما رأى اليهود تصوم يوم عاشوراء ، لأن الله نجّى فيه ونصر موسى ومن معه : «نحن أحق وأولى بموسى منكم» (٤) .

(١) الجمعة ١١/١/١٤١٦هـ .

(٢) رواه البخاري (٢٠٠٤) ، وفي غير موضع من الصحيح ، ومسلم (١١٣٠) .

(٣) رواه أبو داود (٢٤٤٥) . (٤) سبق تخريجه .

فما الأصول والقواعد التي يدلّ عليها هذا الحديث وغيره من أدلة الكتاب والسنة؟

أولاً: أن العقيدة التي تجمع الأنبياء والرسل جميعاً واحدة، تقوم على عبادة الله وحده لا شريك له، وإن اختلفت شرائعهم.

وشريعة كل نبي تبع لهذه العقيدة ومنبثقة منها، ولا تصح العقيدة لأي قوم إلا باتباع الشريعة التي جاء بها نبيهم. ومن ثم قال كل نبي لقومه: ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ \* فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ (١). فالتلازم بين الشريعة والعقيدة جاء به جميع الرسل - عليهم الصلاة والسلام -.

ثانياً: أخوة الأنبياء فيما بينهم، ونحن نؤمن بهم جميعاً دون أن نفرق بينهم ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَأَتْهُ وَكُتِبَ وَرُسُلُهُ لَا تَفْرُقَ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ (٢). فمن فرق بين الرسل فقد كفر، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا (١٥٠) أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا (١٥١) وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجْرَهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (١٥٢)﴾ (٣).

ولقد علمنا رسول الله ﷺ كيف تكون مدرسة الأنبياء واحدة:

١ - روى البخاري في صحيحه عن أبي سعيد - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «يجيء نوح وأمه، فيقول الله تعالى: هل بلغت؟ فيقول: نعم إي رب. فيقول لأمه: هل بلغكم؟ فيقولون: لا، ما جاءنا من نبي. فيقول لنوح: من يشهد لك؟ فيقول: محمد ﷺ وأمه، فنشهد أنه بلغ، وهو قوله جل ذكره: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ (٤)» (٥).

تأملوا: آخر نبي وأمه، يشهدون لأول الرسل نوحاً أنه بلغ الرسالة، وأدّى

الأمانة.

(١) سورة الشعراء، الآيات: ١٠٩، ١١٠. (٢) سورة البقرة، الآية: ٢٨٥.

(٣) سورة النساء، الآيات: ١٥٠ - ١٥٢. (٤) سورة البقرة، الآية: ١٤٣.

(٥) البخاري - كتاب الأنبياء، حديث رقم (٣٣٣٩)، وفي غير موضع. وأحمد (٣/ ٣٢، ٥٨).

٢- وقد كان ﷺ يدافع عنهم ويبرئهم مما رموا به . فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : دخل النبي ﷺ البيت - أي الكعبة - فوجد فيه صورة إبراهيم وصورة مريم فقال ﷺ : «أما هم فقد سمعوا أن الملائكة لا تدخل بيتاً فيه صورة، هذا إبراهيم مصوراً فما له يستقسم؟» (١).

٣- ولما سُئل رسول الله ﷺ : من أكرم الناس؟ قال : «أقوامهم» . فقالوا : ليس عن هذا نسألك ، قال : «فيوسف نبي الله ابن نبي الله ابن خليل الله» . قالوا : ليس عن هذا نسألك ، قال : «فمن معادن العرب تسألون؟ خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا» (٢).

٤- بل إن النبي ﷺ أمر بقتل الوزغ (٣) ، لأنه كان ينفخ على إبراهيم - عليه السلام - حين ألقى في النار . وقد روى أحمد وابن ماجه : أن إبراهيم لما ألقى في النار ، لم يكن في الأرض دابة إلا أطفأت عنه ، إلا الوزغ ، فإنها كانت تنفخ عليه ، فأمر النبي ﷺ بقتلها (٤).

قفوا وتأملوا هذا الحكم الشرعي - مشروعية قتل الوزغ - وما هي العلة؟ لأنه كان ينفخ على إبراهيم - عليه السلام - أي أصرة هذه التي تجمع بين أنبياء الله؟ وصدق رسول الله ﷺ حين قال ليهود : «نحن أحق بموسى منكم» .

٥- ويربط رسول الله ﷺ بين المسجد الحرام والمسجد الأقصى ، فعن أبي ذر رضي الله عنه قال : قلت يا رسول الله ! أي مسجد وضع في الأرض أول؟ قال : «المسجد الحرام» ، قال : قلت : ثم أي؟ قال : «المسجد الأقصى» ، قلت : كم كان بينهما؟ قال : «أربعون سنة» . «ثم أينما أدركت الصلاة بعد فصله فإن الفضل فيه» (٥).

وعلى هذا ، فبناء سليمان - عليه السلام - لبيت المقدس ، إنما هو تجديد لمسجد نبي قبله ، كبناء إبراهيم - عليه السلام - للكعبة (٦).

٦- ويمتدح ﷺ موقفاً عظيماً من مواقف يوسف - عليه الصلاة والسلام - وهو

(١) البخاري (٣٣٥١-٣٣٥٢).

(٢) البخاري رقم (٣٣٥٣) ، وانظر : رقم (٣٣٨٢) . (٣) البخاري رقم (٣٣٥٩) .

(٤) أورده ابن حجر في الفتح (٣٩٥/٦) ، ط . سلفية أولى ، وسكت عنه .

(٥) رواه البخاري (٣٣٦٦) . (٦) انظر تحقيق ذلك والخلاف فيه في : الفتح (٤٠٨/٦) .

في السجن ، حيث إنه سجن ظلماً بمكيدة امرأة العزيز التي راودته عن نفسه ، وصرحت للنسوة اللاتي تحدثن عنها فاحتالت عليهن حتى رأينه فقطعن أيديهن وقالت لهن - كما ذكر الله تعالى عنها - : ﴿ قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاودْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونَا مِنَ الصَّاغِرِينَ \* قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ﴾ (١) . فسجنوه ، ومكث في السجن بضع سنين ، وجرى له في السجن مع بقية المسجونين ما جرى ، ثم رأى الملك رؤياه ، وطلب تعبيرها ، فتذكر أحد أصحاب يوسف - عليه السلام - الذين خرجوا من السجن يوسف وتعبيره للرؤى ، فطلب مقابلته في السجن ، فقبله ، وعبر له رؤيا الملك ، وكان تعبيره لها ذا أثر عظيم في اقتصاد مصر لسنوات طويلة .

فأعجب الملك هذا التعبير للرؤيا ، وأمر بالإفراج عنه ، بل وأن يأتوا به إليه ليقابله فوراً . قال تعالى : ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ ﴾ (٢) .

لكن هيهات أن يقبل يوسف الخروج من السجن إلا بعد أن تكشف الحقيقة حول سبب سجنه ؛ لأن المعلن للناس أمر عظيم يتعلق بالعرض حيث اتهم بمراودة امرأة العزيز .

ولهذا أبى يوسف - عليه السلام - أن يخرج - مع أنه ذاق أهوال السجن بضع سنين - . قال تعالى عن يوسف - عليه السلام - : ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَيَّ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴾ (٣) . وإنما قال : ﴿ مَا بَالُ النِّسْوَةِ ﴾ ؛ لأنهن شواهد على تصريح امرأة العزيز وكشفها للحقيقة أمامهن حيث ذكرت أنها راودته وأنه استعصم وأنه إن لم ينفذ هذه الجريمة فسيكون مصيره السجن .

واستدعى الملك النسوة ، وكشفن الحقيقة كما قص الله ذلك واعترفت امرأة العزيز بفعلتها .

فلما كشفت الحقيقة وظهرت براءة يوسف - عليه السلام - خرج من السجن معزواً مكرماً . قال تعالى : ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصُهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ

(٢) سورة يوسف ، الآية : ٥٠ .

(١) سورة يوسف ، الآيتان : ٣٢ ، ٣٣ .

(٣) سورة يوسف ، الآية : ٥٠ .

لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿١﴾ . . . إلى آخر الآيات ، حيث مَكَّنَ اللهُ لِيُوسُفَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ -  
كما هو معلوم من بقية قصته .

فكيف امتدح نبينا محمد ﷺ موقف يوسف - عليه السلام - ؟ لقد امتدحه  
بأسلوب يدل على مبلغ التواضع الذي بلغه نبينا محمد بن عبد الله عليه الصلاة  
والسلام .

لقد قال ﷺ - كما روى عنه البخاري - : «يرحم الله لوطاً لقد كان يأوي إلى ركن  
شديد، ولو لبثت في السجن طول ما لبث يوسف لأجبت الداعي» (٢) .

قال ابن حجر - رحمه الله - : (أي لأسرعت الإجابة في الخروج من السجن ولما  
قدمت طلبت البراءة ، فوصفه بشدة الصبر حيث لم يبادر بالخروج ، وإنما قاله ﷺ  
تواضعاً) (٣) .

٧ - أما حديثه ﷺ عن موسى - عليه الصلاة والسلام - ، فكثير ، فمنه : حديث  
صيام عاشوراء : «نحن أحق بموسى منكم» .

ومن ذلك : حديثه عن إيذاء بني إسرائيل له حين اتهموه بغيب في جلده . قال  
ﷺ : «إن موسى كان رجلاً حياً ستيراً لا يرى من جلده شيء استحياءً منه ، وآذاه من آذاه من  
بني إسرائيل ... » وذكر بقية الحديث وتبرئة الله له كما في البخاري (٤) .

ولما قسم النبي ﷺ في يوم من الأيام قسماً قال رجل : إن هذه لقسمة ما أريد بها  
وجه الله ، فلما أخبر عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - رسول الله ﷺ بقول هذا  
القاتل ، قال : فغضب حتى رأيت الغضب في وجهه ، ثم قال : «يرحم الله موسى ، قد  
أوذى بأكثر من هذا فصير» (٥) .

اعتراض من منافق على قسمة قسمها رسول الله ﷺ ، وأنها لكلمة كبرى قالها  
هذا طعناً في الهادي البشير ﷺ ولكنه - عليه الصلاة والسلام - يتصبر ويتذكر إخوانه  
الصابرين من المرسلين ومنهم موسى . والله يقول له : ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ

(١) سورة يوسف ، الآية : ٥٤ . (٢) رواه البخاري (٣٣٧٢) و (٣٣٨٧) .

(٣) الفتح (٦/٤١٣) ، ط . سلفية أولى . (٤) رواه البخاري (٣٤٠٤) .

(٥) رواه البخاري (٣٤٠٥) .

الرُّسُلُ ﴿١﴾ .

وكم في هذه الأيام من معترض على شريعة الإسلام وحدودها وأحكامها، في تحريم الزنا والربا وشرب الخمر، وفي تشريع الحجاب للمرأة المسلمة . . . وغيرها من أحكام الإسلام التي تشمل جميع نواحي الحياة .

ويدافع النبي ﷺ عن أخيه موسى، ويمنع تفضيله عليه إذا كان على وجه الحمية والعصبية وانتقاص المفضل .

روى البخاري عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : استب رجل من المسلمين ورجل من اليهود ، فقال المسلم : والذي اصطفى محمداً ﷺ على العالمين - في قسم يقسم به - فقال اليهودي : والذي اصطفى موسى على العالمين . فرجع المسلم عند ذلك يدهُ فلطم اليهودي ، فذهب اليهودي إلى النبي ﷺ فأخبره الذي كان من أمره وأمر المسلم . فقال : « لا تخبروني على موسى ، فإن الناس يصعقون فأكون أول من يُفِيق ، فإذا موسى باطش بجانب العرش ، فلا أدري أكان فيمن صَعِقَ فأفاق قبلي ، أو كان ممن استثنى الله » (٢) .

وفي رواية للبخاري - أيضاً - : بينما يهودي يعرض سلعته أعطى بها شيئاً كرهه فقال : لا والذي اصطفى موسى على البشر ، فسمعه رجل من الأنصار فقام فلطم وجهه ، وقال : تقول والذي اصطفى موسى على البشر والنبي ﷺ بين أظهرنا؟ فذهب إليه فقال : أبا القاسم ! إن له ذمةً وعهداً ، فما بال فلان لطم وجهي؟ فقال : « لم لطمت وجهه؟ » ، فذكره . فغضب النبي ﷺ حتى روي في وجهه ، ثم قال : « لا تفضلوا بين أولياء الله ، فإنه يُنفخ في الصور فيصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله ، ثم ينفخ فيه أخرى فأكون أول من بُعث فإذا موسى أخذ بالعرش ، فلا أدري أحوسب بصعقته يوم الطور أم بُعث قبلي » (٣) .

ولا شك أن الأنبياء يتفاضلون : ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ ﴾ (٤) .

(٢) رواه البخاري (٣٤٠٨) .

(١) سورة الأحقاف ، الآية : ٣٥ .

(٤) سورة البقرة ، الآية : ٢٥٣ .

(٣) رواه البخاري (٣٤١٤) .

ولا شك أن محمداً ﷺ أفضل المرسلين وهو سيد ولد آدم، ولكن المفاضلة الخاصة بين نبيين إذا جاءت على وجه الحمية والعصية فلا تجوز.

والرسول ﷺ هنا، يعلمنا ويعطينا دروساً تربوية كبرى، فإذا كان هو، وهو من هو - عليه الصلاة والسلام - يعلم أصحابه كيف يكون احترام أنبياء الله ومعرفة منازلهم. وأن بغضنا لليهود أو النصارى لأجل كفرهم، وشركهم وتحريفهم لكتبهم، وكفرهم وتكذيبهم بمحمد ﷺ -، كل ذلك لا يجعلنا نتعدى أو نظلم، فنتكلم بكلام قد يشم منه النقص لأنبياء الله السابقين، بل نحن في كل وقت وأن نعلن ولاءنا لأنبياء الله جميعاً ومنهم موسى وعيسى - عليهما وعلى نبينا أفضل الصلاة والتسليم - فنحن أحق بموسى من اليهود، ونحن أحق بعيسى من النصارى.

\* \* \*

## نحن أحق بموسى منكم (١)

-٢-

في الجمعة الماضية، وتعليقاً على قوله ﷺ لليهود لما رأهم يصومون يوم عاشوراء: «نحن أحق بموسى منكم» (٢) - كانت الإشارة إلى أخوة الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - وكيف كان رسولنا ﷺ يتحدث عنهم، ويذكر مآثرهم ومواقفهم وصبرهم. ومنهم موسى عليه الصلاة والسلام الذي قال فيه رسول الله ﷺ في أحد المواقف التي أغضبتة: «يرحم الله أخي موسى قد أودى بأكثر من هذا فصبر» (٣).

واليوم نعرض للشق الثاني من الموضوع، ألا وهو: لماذا كان رسول الله ﷺ وصحبه أحق بموسى من اليهود؟

وما الذي صنعه اليهود حتى لا يكونوا أهلاً للانتساب إلى نبي الله موسى؟

إن اليهود الذين بُعث فيهم رسول الله ﷺ قد رفضوا الهدى بحجة اتباع الآباء والأجداد. فقد ورد أنه لما دعا رسول الله ﷺ اليهود إلى الإسلام، ورغبهم فيه، وحذّرهم عذاب الله ونقمته، قال له رافع بن خارجه ومالك بن عوف - وهما من أحابير يهود بني قينقاع - : بل نتبع يا محمد ما وجدنا عليه آباءنا، فهم كانوا أعلم وخيراً منا. فأنزل الله تعالى فيهم: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ (٤).

فهو التقليد الأعمى الذي يقوده الهوى والتعصب لقوميتهم وعرقهم، وهو التاريخ الممتد لهؤلاء اليهود - منذ عهد يعقوب - عليه السلام - وإلى أن يخرجوا مع الدجال إذا خرج حيث سيكون معه سبعون ألفاً من يهود أصبهان - كما ثبت ذلك في الحديث الصحيح - ويستثنى منهم المؤمنون الصادقون أتباع أنبيائهم ومن آمن منهم بمحمد ﷺ واتبعوه.

(١) الجمعة ١٨/١/١٤١٦هـ.

(٢) رواه البخاري (٢٠٠٤)، وفي غير موضع من الصحيح، ومسلم (١١٣٠).

(٣) رواه البخاري (٣١٥٠) وفي غير موضع، ومسلم (١٠٦٢).

(٤) سورة البقرة، الآية: ١٧٠.

وحتى لا يطول بنا المقام - والحديث عنهم طويل - نجيب عن التساؤلات السابقة

بما يلي:

أولاً: أن ذم اليهود والحديث عن طبيعتهم ومكرهم وكيدهم وكفرهم وتكذيبهم بأنبيائهم بل وقتلهم لهم ، إلى آخر ما ورد فيهم جاء به كتاب رب العالمين الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد .

فالعداء معهم ليس سببه - قضية أو أزمة معينة - إذا انتهت زال العداء : قال تعالى عنهم : ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (١) .

و ﴿تَأَذَّنَ﴾ بمعنى : أعلم ، أو أمر . يقول ابن كثير - رحمه الله - : (وفي قوة الكلام ما يفيد معنى القسم من هذه اللفظة ، ولهذا تُلْقِيَت باللام في قوله ﴿لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ﴾ أي : على اليهود . إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب ، أي بسبب عصيانهم ومخالفتهم أوامر الله وشرعه ، واحتيالهم على المحارم . ويقال : إن موسى - عليه السلام - ضرب عليهم الخراج سبع سنين ، وقيل : ثلاث عشرة سنة ، وكان أول من ضرب الخراج . ثم كانوا في قهر الملوك من اليونانيين والكشديانيين والكلدانيين ، ثم صاروا في قهر النصارى وإذلالهم إياهم وأخذهم منهم الجزئى والخراج ، ثم جاء الإسلام ومحمد عليه أفضل الصلاة والسلام ، فكانوا تحت صغاره وذمته يؤدون الخراج والجزئى . قال العوفي عن ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير هذه الآية : هي المسكنة ، وأخذ الجزية منهم . وقال علي بن أبي طلحة عنه : هي الجزية ، والذين يسومونهم سوء العذاب محمد ﷺ وأمته إلى يوم القيامة . . . قلت - أي ابن كثير - : ثم آخر أمرهم أنهم يخرجون أنصار الدجال ، فيقتلهم المسلمون مع عيسى ابن مريم - عليه السلام - وذلك آخر الزمان (٢) .

فهذا خبر الله عن ملاحمنا مع اليهود ، فهل نعي هذه الحقائق القرآنية التي لا يتركها إلهها شك أو ريب؟!!

(١) سورة الاعراف ، الآية : ١٦٧ .

(٢) انظر : تفسير ابن كثير (٢/٢٥٩) ط . دار المعرفة .

واسمعوا هذه الآيات التي تبين الفرق بين أمة محمد واليهود وكيف يكون الصراع بينهم . قال تعالى : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ (١١٠) لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُولُوكُمْ الْأُدْبَارَ ثُمَّ لَا يَنْصُرُونَ ﴾ (١١١) ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا تَقَفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴾ (١١٢) ﴿ (١) .

١ - فخيرية هذه الأمة في نفسها ، وخيريتها للناس حين تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتؤمن بالله .

وقد روى البخاري عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ قال : «خير الناس للناس تأتون بهم في سلاسل في أعناقهم حتى يدخلوا في الإسلام» (٢) .

ورواه البخاري مرفوعاً بلفظ : «عجب الله من قوم يدخلون الجنة بالسلاسل» (٣) . قال العلماء : هؤلاء قوم كفار أسرهم المؤمنون المجاهدون في سبيل الله ، فعرفوا صحة الإسلام فدخلوا فيه؟ (٤) .

٢ - أما أهل الكتاب - فمن آمن منهم - وهم قلة - فهم إلى خير وفلاح - ومن فسق منهم وهم الأكثرون ، فقد كتب الله عليهم الهزيمة حين يقابلهم المؤمنون الصادقون . قال تعالى عنهم : ﴿ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا تَقَفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ ﴾ . قال ابن عباس رضي الله عنهما - وغيره : أي بعهد من الله وعهد من الناس . قال ابن كثير : «أي ألزمهم الله الذلة والصغار أينما كانوا فلا يأمنون ﴿إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ﴾ أي : بذمة من الله ، وهو عقد الذمة وضرب الجزية عليهم وإلزامهم أحكام الملة . ﴿وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ﴾ ، أي : أمان منهم لهم كما في المهادن والمعاهد والاسير إذا آمنه واحد من المسلمين ولو امرأة وكذا عبد على أحد قولي العلماء .

(١) سورة آل عمران ، الآيات : ١١٠ - ١١٢ .

(٢) رواه البخاري (٤٥٥٧) . (٣) رواه البخاري (٣٠١٠) .

(٤) انظر : الفتح (٦/١٤٥) ، ط . سلفية الأولى ، وفيه أقوال أخرى ، ما ذكرته أرجحها والله أعلم .

﴿وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ﴾ ، أي : ألزموا فالتزموا بغضب من الله وهم يستحقونه ،  
 ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ﴾ ، أي : ألزموها قدراً وشرعاً ، ولهذا قال : ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا  
 يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقِّ﴾ ، أي : وإنما حملهم على ذلك الكبر والبغي  
 والحسد ، فأعقبهم ذلك الذلة والصغار والمسكنة أبداً ، متصلاً بذلة الآخرة<sup>(١)</sup> .

ولخبث اليهود ، ابتلاهم الله ففرقهم ، قال تعالى : ﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ  
 أُمَّمًا...﴾<sup>(٢)</sup> .

فالحقائق ثابتة لا تتغير أبداً ، سواء منها ما يتعلق بديننا دين الإسلام الذي لا يقبل  
 الله من أحد سواه ، أو ما يتعلق بطبائع أهل الكتاب عموماً واليهود خصوصاً .  
 فنحن المسلمين أحق بموسى وسليمان وداود وعيسى وغيرهم من أنبياء الله  
 تعالى .

ثانياً: أن اليهود قد برزت انحرافاتهم الخطيرة ، واعتراضاتهم على شرع الله  
 تعالى وأمره ، حتى وأنبياؤهم بين ظهرانيهم ، فكيف بهم بعد موت أنبيائهم وتحريف  
 أحبارهم ورهبانهم لكتب الله المنزلة عليهم :

١ - انظروا ماذا صنعوا بموسى بعد أن نجاه الله وبنى إسرائيل من فرعون الطاغية  
 وذلك بمعجزة عظيمة باهرة وهي تحويل البحر إلى ييس يمشون عليه ، لقد طلبوا من  
 موسى - حين رأوا قوماً يعبدون الأوثان - أن يجعل لهم آلهة كما لهؤلاء آلهة . ولكن  
 لوجود موسى الذي نصحهم وبين لهم عقيدة التوحيد وحظر الشرك كفوا . فلما  
 غاب عنهم موسى لمناجاة ربه عند جبل الطور ، سرعان ما عبدوا العجل الذي صنعه  
 لهم السامري!!!

٢ - وتعتوا على موسى فقالوا له يوماً من الأيام : لن نؤمن لك حتى نرى الله  
 جهرة . فأخذتهم الصاعقة ، ثم بعثهم الله من بعد موتهم ورجعوا إلى الطاعة .

٣ - ولأنهم أهل شهوة وعبادة مال : فقد قالوا لموسى لن نصبر على طعام واحد -  
 وهو من أعظم الطعام المن والسلوى - ولما حرّم عليهم صيد السمك يوم السبت

(١) انظر : تفسير ابن كثير - رحمه الله - (١/٣٩١) عند تفسير هذه الآيات .

(٢) سورة الأعراف ، الآية : ١٦٨ .

احتالوا على ذلك بما قصه الله عنهم<sup>(١)</sup>. ولما حرم الله عليهم الشحوم، احتالوا فأذابوه وباعوه وأكلوا ثمنه<sup>(٢)</sup>.

٤- وسار بهم موسى إلى الأرض المقدسة لفتحها، فلما تقدموا واستطلعوا أحوالها قالوا: إن الأرض المقدسة تدر لبناً وعسلاً، إلا أن سكانها من الجبارين، فنكصوا عن الجهاد، بل قالوا: ﴿... يَا مُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾<sup>(٣)</sup>. فابتلاههم الله بآتيه أربعين سنة، قيل: إنهم كانوا يسيرون يوماً وليلة أو أكثر يبحثون عن مدينة يأوون إليها، فإذا انتهبوا وجدوا أنفسهم في مكانهم الأول.

ثالثاً: واستمرت انحرافاتهم الخطيرة - بعد موسى - عليه السلام - :

(١) فقتلوا عدداً كبيراً من أنبيائهم. قال تعالى عنهم: ﴿... كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾<sup>(٤)</sup>.

وآخر من حاولوا قتله: عيسى - عليه السلام -، الذي نجاه الله ورفع له إليه. ثم محمد ﷺ: الذي نجاه الله وسلمه منهم.

(٢) وحرفوا دين اليهودية والديانة النصرانية، وذلك بما قام به (بولس) الذي كان له الدور الأكبر في تحريف الديانة النصرانية وتحويلها إلى التثليث والشرك، و(بولس) هذا يهودي من الفرنسيين، وكان من الدّ أعداء عيسى - عليه السلام - فلما رفع دخل في النصرانية وادّعى أن عيسى أوحى إليه بأن يدعو إلى الديانة المسيحية، ونشط في الدعوة إليها وزعم أنه يتلقى التعاليم المسيحية إلهاماً، وصار أحد الرسل السبعين الذين نزل عليهم روح القدس في اعتقاد النصارى. وصار (بولس) معلماً لمرقص ولوقا صاحبي الأناجيل المعروفة عند النصارى.

(١) في قوله تعالى: ﴿وَأَسْأَلُهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِثَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرْعًا وَيَوْمَ لَا يَسْتَوْنَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبَلُّوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾<sup>(١٦٦)</sup> وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةُ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَعَلَّهْمُ يُتَّقُونَ﴾<sup>(١٦٧)</sup> ﴿[الأعراف: ١٦٣، ١٦٤].

(٢) حديث صحيح رواه البخاري (٢٢٣٦)، وفي غير موضع من الصحيح، ومسلم (١٥٧١)، وأبو داود (٣٤٨٦)، والترمذي (١٢٩٧) وغيرهم من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

(٣) سورة المائدة، الآية: ٢٤. (٤) سورة المائدة، الآية: ٧٠.

وهكذا قلب هذا اليهودي الديانة والملة التي جاء بها عيسى - عليه السلام .  
 رابعاً؛ ومن أعجب ما رأيت من تعلق اليهود بموسى - عليه السلام - وما جاء به  
 أمران :

الأمر الأول : تعلقهم بما أخبر الله عنهم أن الله اصطفاهم على العالمين - أي عالمي  
 زمانهم - حتى نشأ عندهم ما يزعمون به أنهم شعب الله المختار . مع أن الله كتب  
 عليهم الذلة والصغار وسوم العذاب إلى يوم القيامة .

الأمر الثاني : احتجاجهم على عنصريتهم لبني جنسهم وجواز الاعتداء على  
 غيرهم بقصة موسى حينما وكز المصري الفرعوني حين استنصر به الإسرائيلي الذي  
 كان يختصم معه . فلما وكزه موسى قضى عليه .

وموسى لم يكن يقصد قتل الرجل ، وإنما أراد أن يدفع أذى الفرعوني على  
 الإسرائيلي بضربة تكفه عن الأذى ولكن هذه الضربة أدت إلى قتله . فلما رآه موسى  
 قتيلاً . ﴿ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ ﴾ (١) . ثم أخذ يستغفر الله مما فعل ،  
 فغفر الله وكل ذلك كان قبل النبوة .

فكيف يحتج اليهود بهذا على ما هو معروف من طبيعتهم ومواقفهم من غير  
 اليهود؟ ولكن لا يستغرب هذا منهم .

خامساً؛ موقف اليهود من محمد بن عبد الله ﷺ مع علمهم ويقينهم الذي لا  
 شك فيه أنه نبي ، وتلك قصة أخرى طويلة معروفة .

هذه القاعدة : «نحن أحق بموسى منكم» (٢) ، نطبقها أيضاً على غير اليهود :

١ - نطبقها على النصارى فنقول : نحن أحق بعيسى منكم فهو عبد الله ورسوله  
 وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه . ونبرأ إلى الله ممن عبده من دون الله أو من زعم  
 أنه قتل وصُلّت : ﴿ بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ (٣) .

٢ - ونطبقها على الرافضة الذين يلتقون مع اليهود في يوم عاشوراء ويفعلون فيه  
 ما يفعلون نوحاً على الحسين وآل البيت .

فنحن نقول : نحن أولى بالحسن والحسين وبقية آل البيت الطيبين منكم !!! .

(١) سورة القصص ، الآية : ١٥ . (٢) حديث صحيح سبق تخريجه .

(٣) سورة النساء ، الآية : ١٥٨ .

## الرسول ويهود بني قريظة (١)

-١-

مدارسة وقراءة سيرة رسول الله ﷺ وهدية في جميع الأمور ، واجب على المسلمين ؛ حتى يستنيروا بنور ذلك الهدي وتلك السيرة في حياتهم ومواقفهم .

وهدي النبي ﷺ مع المشركين والمنافقين واليهود ، جاء كله مفصلاً في الكتاب والسنة والسيرة . وصراع المسلمين اليوم قائم على أشده مع هذه الطوائف :

- مع المشركين والملاحدة في الهند وروسيا وغيرها .

- ومع اليهود والنصارى في فلسطين والبوسنة وغيرها .

- ومع المنافقين داخل المجتمعات الإسلامية .

ووقفنا اليوم مع هدي الرسول ﷺ مع اليهود ، وسنخصص عدداً من الدروس لموقف واحد فقط معهم أو مع طائفة منهم ، ألا وهو موقفه ﷺ من يهود بني قريظة .

\* فماذا صنع يهود هذه الطائفة التي كانت تسكن المدينة النبوية؟

\* وما الذي فعله بهم الهادي البشير ﷺ؟

\* وماذا كان من أحداث وأحداث بين ذلك؟

هذه دروس ومواقف من السيرة النبوية نقدمها للمتتبعين على السلام والاستسلام لليهود اليوم .

في غزوة الأحزاب التي تحزَّب فيها على الرسول ﷺ وأصحابه في المدينة قوى الكفر كلها:

\*\* قريش بحقدتها وثاراتها .

\*\* وقبائل العرب من غطفان وغيرهم بشركهم ومطامعهم .

\*\* والمنافقون - داخل الصف الإسلامي - بمؤامراتهم وتشييطهم .

\*\* وأخيراً: اليهود- يهود بني قريظة- الباقين إلى ذلك الوقت داخل المدينة حيث نقضوا العهود بينهم وبين رسول الله ﷺ وانضموا إلى بقية جحافل الأحزاب الغزاة.

وقد امتحن المسلمون وزلزلوا زلزالاً شديداً كما ذكر الله تعالى ، ولكن العاقبة كانت لهم ، حيث نصرهم الله وهزم الأحزاب ، فرجعوا إلى بلادهم خائنين ، ﴿ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَأْتُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ۝ (١) .  
أما اليهود- يهود بني قريظة- فقد رجعوا إلى حصونهم كالفئران ، ينتظرون الحساب .

وأما الرسول ﷺ فقد رأى أن يعطي جيشه قسطاً من الراحة قبل الزحف على الخائنين ناكثي العهود . ولكن الأوامر الصريحة جاءت من السماء ، من عند الله بأن يسارع قبل أن يضع جنده السلاح إلى الزحف على حصون اليهود؛ لإنزال العقاب الذي يستحقونه .

روى البيهقي عن عائشة - رضي الله عنها - أن رسول الله ﷺ كان عندها ، قالت : فسلم علينا رجل ونحن في البيت ، فقام رسول الله ﷺ وقمت في أثره ، فإذا رجل على فرس والنيبي ﷺ متكئ على معرفة الفرس يكلمه . قالت : فرجعت . فلما دخل النبي ﷺ قلت : من ذلك الرجل الذي تكلمه؟ قال : «من تشبههينه؟» . قلت : بدحية الكلبي . قال : «ذاك جبريل أمرني أن أمضي إلى بني قريظة» (٢) .

وروى ابن إسحاق قال : لما أصبح رسول الله ﷺ انصرف من الخندق راجعاً إلى المدينة والمسلمون قد وضعوا السلاح ، فلما كانت الظهر أتى جبريل رسول الله ﷺ معتجراً بعمامة من استبرق على بغلة عليها رحاله ، عليها قطيفة من ديباج فقال : أو قد وضعت السلاح يا رسول الله؟ قال : «نعم» . فقال جبريل : ما وضعت الملائكة السلاح بعد ، وما رجعت الآن إلا من طلب القوم ، إن الله يأمرك بالمشير إلى بني قريظة» (٣) .

(١) سورة الأحزاب ، الآية : ٢٥ .

(٢) رواه البيهقي (٨/٤) وفي إسناده عبد الله بن عمر العمري وهو لين الحديث .

(٣) انظر : السيرة النبوية ، لابن هشام (٣/٢٣٣) .

وأصدر الرسول ﷺ أمره سريعاً ، فأذن بلال في الجيش - حسب الأمر النبوي - : «من كان سامعاً مطيعاً فلا يصلين العصر إلا في بني قريظة»<sup>(١)</sup>.

وسار علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - حاملاً اللواء في مقدمة الجيش إلى بني قريظة . وتتابعت الكتائب بقيادة رسول الله ﷺ حتى أحاطت بحصون يهود ، وطوّقتها من كل مكان . وهنا وقفتان :

الوقفة الأولى: أن اليهود كانوا - كما هم الآن - يعلمون أن الإسلام دين الحق ، وأن الرسول نبي صادق . ولقد كان في يهود بني قريظة رجل حذر قومه من مغبة نقض العهود مع رسول الله ﷺ . ولكن يهود لم يستجيبوا له وإنما استجابوا لحبي بن أخطب فنقضوا العهد .

فلما هزمت الأحزاب ، جاء اليهودي وجمع زعماء بني قريظة ، فلما اجتمعوا حوله : وبّخهم على نقضهم العهود وخيانتهم للمسلمين وذكرهم بما نصحهم به من قبل . ثم قال لهم : يا بني قريظة ، لقد رأيت غبراً ، رأيت دار إخواننا - بني النضير - خالية بعد ذلك العز والخلب والشرف والرأي ، تركوا أموالهم قد تملكها غيرهم وخرجوا خروج ذلّ .

ثم قال لهم : لا والتوراة ما سلط هذا - يعني رسول الله ﷺ - على قوم قط والله بهم حاجة . وقد أوقع بيني قينقاع وكانوا أهل عُدّة وسلاح ونخوة فلم يُخرج أحدٌ منهم رأسه حتى سباهم فكلمهم فيهم فتركهم على إجلانهم من يثرب .

ثم دعا هذا الرجل - واسمه عمرو بن سعدئ - قومه إلى الدخول في الإسلام ؛ ليحقنوا دماءهم ويتبعوا الحق ، وقال لهم : يا قوم قد رأيتم ما فأطيعوني وتعالوا تتبع محمداً ، ثم أقبل على زعيمهم كعب بن أسد وقال له : والتوراة التي أنزلت على موسى عليه السلام يوم طور سيناء إنه للعز والشرف في الدنيا - يعني الدخول في الإسلام - .

وبينما الاجتماع قائم وابن سعدئ يكلم قومه إذا بطلان الجيش النبوي تظهر عليهم زاحفة فقال : هذا الذي قلت لكم .

(١) انظر : السيرة النبوية ، لابن هشام (٣/ ٢٣٤) .

وقد رفض (يهود) - كما هي عاداتهم - هذه النصيحة الغالية وأبوا الدخول في الإسلام مع علمهم أنه حق وصدق . ثم عرض عليهم الإقرار بالجزية - مع أنه لا يدري هل يقبلها رسول الله أم لا؟ فركب يهود رؤوسهم ورفضوا ذلك . وقد خرج ابن سعدى من الحصن وحقن المسلمون دمه وذهب ولا يدري إلى أين ذهب .

إن معرفة اليهود بالإسلام هي التي تجعلهم يجندون جميع القوى لحربه ، كما فعلوا قبل حين حزّبوا الأحزاب .

الوقف الثانية: بعد قصتهم مع ابن سعدى - اليهودي - مباشرة وحين رأوا جيش المسلمين قد أقبل ، ويحمل اللواء في المقدمة علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - فاضت نفوسهم المجبولة على الشر والحقد ببعض ما تختزنه من خبث ودناءة ، حيث سمعوا ابن عم رسول الله ﷺ السب والشتم والقذف في رسول الله ﷺ ونسائه الطيبات الظاهرات إلى حدّ أنه لم يجرؤ أحد من أصحاب السير والمؤرخين أن يورد نصه لبشاعته ودنائه وخسّته !!!

ولم يجبههم المسلمون على ذلك ، إلا أن علياً قال لهم : السيف بيننا وبينكم . ولما أقبل رسول الله ﷺ بعد ذلك أشفق عليّ على رسول الله ﷺ أن يسمع في نفسه ونسائه ذلك السب القبيح . فقال علي - رضي الله عنه - بعد أن أتى إليه قبل أن يقرب من حصونهم - : لا عليك يا رسول الله ! أن تدنو من هؤلاء الأخابث . فقال النبي ﷺ : «لعلك سمعت منهم أذى؟» قال : نعم يا رسول الله . فقال ﷺ : «لو رأوني لم يقولوا من ذلك شيئاً» .

ثم واصل ﷺ تقدمه نحو حصون يهود ، ومعه جمع من أصحابه ، حتى دنا من حصونهم بحيث يسمع كلامهم ويسمعون كلامه ، ثم نادى نفرأ من قادتهم فلما ظهروا قال لهم - واسمعوا ما قال وهو النبي الرؤوف الرحيم ، صاحب الخلق العظيم - لقد قال لهم ﷺ : «يا إخوان القردة وعبدة الطاغوت ، هل أخزاكم الله وأنزل بكم نقمته؟» (١) . نعم . جيش جرار ، وأفعال رجال ، ثم أقوال تليق بهؤلاء الأندال .

وهنا برزت طبيعة يهود العجيبة المتقلبة ، حيث إنهم كانوا قبل قليل تفيض

(١) السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٢٣٤) .

قلوبهم وألسنتهم: سفاهة وتطاولاً وغدراً ونكثاً للعهود، ثم إذا بهم لما رأوا الحق والصدق والقوة والتصميم على معاقبتهم على ما ارتكبوه من الغدر والخيانة، فقد أسقط في أيديهم، فأنكروا أن يكونوا شتموه وشتموا نساءه وانطلقوا يحلفون كذباً أنهم ما فاهوا بشيء من ذلك، ثم أخذوا يسمعون رسول الله ﷺ لين الكلام وجميل الإطراء له، ظناً منهم أن هذا الأسلوب سيساهم في تخفيف عقوبة خيانتهم، وقالوا لرسول الله ﷺ: يا أبا القاسم ما كنت جهولاً<sup>(١)</sup>.

وهؤلاء هم اليهود: قبل قليل كانوا يشتمون ويسبون ويهددون ويتوعدون ويتفوهون بأقذع الألفاظ في الهادي البشير. والآن - حين رأوا القائد والجيش الإسلامي - لجأوا إلى أسلوب المكر والخديعة يُذكرون القائد الرسول بما يمتاز به من الحلم والصفح في عبارات كلها مدح وثناء، ونسى هؤلاء في خضم عبارات المدح أنهم هم الذين قالوا المندوب رسول الله ﷺ أثناء غزوة الأحزاب: «لا عهد بيننا وبين محمد ولا عقد»!!!.

كما نسى هؤلاء ما قالوه قبل دقائق من السبِّ والشتم المقذع لرسول الله ﷺ وآل بيته الطاهرين.

وتلك طبيعة اليهود، يد مضرجة بدماء المسلمين، واليد الأخرى للمصافحة والسلام.

وقد أحكم المسلمون حصار اليهود وطوّقوا حصونهم من كل جانب، وقطع الاتصال بينهم وبين الخارج ووضع المسلمون أيديهم على نخيلهم ومزارعهم الواقعة خارج الحصون، وقاوم اليهود مقاومة شديدة، ولكنهم بعد عشرين ليلة من الحصار بدأ الضعف يتسرب إلى نفوسهم وأخذ الرعب من قلوبهم مأخذه حيث أيقنوا أن المسلمين لن ينصرفوا حتى تستسلم يهود. فأخذوا يفكرون بالطريقة التي تحقن بها دماؤهم.

وهاج اليهود وماجوا يبحثون عن حلٍّ لما هم فيه، وإذا بزعيمهم كعب بن أسد يدعو قومه إلى اجتماع تاريخي مهم، دعاهم فيه إلى إنفاذ الموقف، وجرى نقاش

(١) السيرة النبوية لابن هشام (٣/٢٣٤).

يدل على النفسية التي يجدها اليهود حين يقابلون الحق والصدق .

لقد اقترح عليهم زعيمهم أحد حلول ثلاثة :

**الحل الأول:** أن يدخلوا في الإسلام ويتبعوا رسول الله ﷺ حيث قال لهم :  
أتذكرون يا بني قريظة ما قال لكم ابن خراش - من أحبار اليهود - : إنه يخرج بهذه  
القرية نبي فاتبعوه وكونوا له أنصاراً ، وتكونون آمنتم بالكتابين الأول والآخر . ثم  
دعا كعب قومه إلى الإسلام قائلاً : فوالله لقد تبين لكم أنه نبي مرسل ، وأنه الذي  
تجدونه في كتابكم ، وما منعنا من الدخول معه إلا الحسد للعرب حيث لم يكن من  
بني إسرائيل ، فاتبعوه تأمنوا على دماثكم وأموالكم ونسائكم .

وقد رفض بنو قريظة هذا الاقتراح قائلين : لا نفارق حكم التوراة ولا نستبدل به  
غيره .

**الاقتراح الأول:** الهجوم على المسلمين هجوماً انتحارياً حتى يفكوا الحصار ، فقد  
قال لهم كعب : فإذا أبيتم عليّ هذه فلنقتل أبناءنا ونساءنا ثم نخرج إلى محمد  
وأصحابه مصلتين السيوف - ليس وراءنا ما نخاف عليه - حتى يحكم الله بيننا وبين  
محمد ، فإن نهلك نهلك ولم تترك وراءنا نسلًا ، وإن نظهر فسنجد النساء والأبناء .  
ورفض بنو قريظة الاقتراح الثاني لزعيمهم قائلين : نقتل هؤلاء المساكين ، فما خير  
العيش بعدهم .

**الاقتراح الثاني:** أخذ المسلمين على غرة حيث قال كعب : فإذا أبيتم عليّ هذه فإن  
الليلة ليلة السبت وإنه عسى أن يكون محمد وأصحابه قد أمنونا فيها فانزلوا لعلنا  
نصيب منهم غرة .

فرفضوا الاقتراح قائلين : نفسد سبتنا علينا ونُحدث فيه ما لم يحدث من كان  
قبلنا .

فلما رأى هذه أجوبتهم يشس منهم ، وقال : « ما بات منكم رجل منذ ولدته أمه  
ليلة واحدة من الدهر حازماً »<sup>(١)</sup> .

\* \* \*

(١) السيرة النبوية لابن هشام (٣/٢٣٥-٢٣٦) .

## الرسول ويهود بني قريظة (١)

- ٢ -

■ لا يزال الحديث مستمراً عن موقف الرسول ﷺ من يهود بني قريظة ، فقد رفض اليهود أي اقتراح من الاقتراحات الثلاثة التي طرحها عليهم زعيمهم كعب بن أسد ، وها هم أمام قوات المسلمين تحيط بهم من كل جانب . ومن ثم لم يبق أمامهم إلا أحد حلين :

\* إما القتال والدخول في معركة فاصلة بينهم وبين المسلمين .

\* وإما الاستسلام لرسول الله ﷺ دون قيد أو شرط .

أما القتال والدخول في معركة حاسمة ، فإن الرعب قد سيطر على قلوبهم حتى أصبح مجرد التفكير فيه يثير الهلع والخوف الشديد . ومن ثم فلم يبق أمامهم إلا الاستسلام والنزول على حكم رسول الله ﷺ دون قيد أو شرط . وهذا هو الذي مالوا إليه فعلاً وقرروه أخيراً .

وقد بقي عندهم - أمام هذا الاستسلام - مطمع واحد وهو أن يعفو عنهم رسول الله ﷺ ويحقن دماءهم ويكتفي بإجلالهم كما فعل مع إخوانهم من بني قينقاع وبني النضير الذين تردوا واستسلموا ثم عفا عنهم .

فقد أرسلوا أحد زعمائهم وهو - نباش بن قيس - ، والتقن بالقائد ﷺ - بعد السماح له بذلك - وعرض عليه ما يطلبه بنو قريظة وهو السماح لهم بالخروج من يشرب مع نسائهم وذراريهم وما تقدر الإبل على حمله من متاع - سوى السلاح - على أن يتركوا بقية كل ما يملكون للمسلمين . ولكن رسول الله ﷺ رفض هذا العرض رفضاً قاطعاً (٢) .

ثم رجع هذا اليهودي إلى قومه في حصونهم وأبلغهم الجواب ، ولكنهم لم

(١) الجمعة ٨/٥/١٤١٥ هـ .

(٢) انظر : حاشية السيرة النبوية لابن هشام (٣/٢٣٦) ، ط . المكتبة العلمية ، بيروت .

يأسوا فأرسلوه مرة أخرى بعرض ثانٍ مشتمل على تنازلات أكثر وفيه يطلبون أن يسمح لهم رجالاً ونساءً وأطفالاً بالجلاء عن يثرب والنجاة بأرواحهم، وترك كل ما يملكون للمسلمين من مال وسلاح ومتاع... وغير ذلك.

ورفض الرسول ﷺ مرة أخرى هذا العرض - من هؤلاء الخونة الذين خانوا الله ورسوله في أحلك الظروف أيام الأحزاب - وأبلغهم أنه لا يقبل منهم إلا التسليم بدون قيد أو شرط.

وهنا أسقط في أيديهم ، وازدادت المخاوف ، ودبَّ الرعب في قلوبهم ، وأحاط القلق والحيرة فيهم وفي تصرفاتهم .

■ ■ ثم كانت آخر المحاولات لتخفيف العقوبة التي كانوا يتوقعونها جزاء غدرهم وخيانتهم ونقضهم العهود والمواثيق . وتقوم هذه المحاولة على استشارة بعض حلفائهم في الجاهلية من المسلمين من صحابة رسول الله ﷺ عليهم يجدون عندهم مخرجاً من هذه الأزمة .

وطلبوا من الرسول ﷺ أن يرسل إليهم واحداً من الصحابة حدوده وعيِّنوا اسمه .

فما هي قصة هذا الصحابي معهم؟ وما مدلولها؟ وما هي الدروس والعبر التي نستفيدها منها في صراعنا اليوم مع يهود؟

إنها قصة عجيبة وحادثة تحتاج إلى تأمل؛ لأنها ترتبط بعقيدة الولاء والبراء، والموالاتة والمعاداة، التي غابت عن كثير من المسلمين في هذه الأيام، بل إن بعضهم داسها بقدميه ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

تعالوا نعرض القصة من أولها، وما جرى فيها: لقد اجتمع يهود بني قريظة وناقشوا الجواب الأخير الذي أتاهم من الهادي البشير ﷺ، فقرروا أن يطلبوا من النبي ﷺ أن يسمح لأحد حلفائهم بأن يأتي إليهم ليستشيروه. وكان أبو لبابة بن عبد المنذر الأنصاري - رضي الله عنه - حليفاً لبني قريظة، وكانت أمواله وأولاده في منطقتهم، لذلك كانوا يعتقدون أنه أقرب الصحابة إليهم. ولذا اختاره اليهود وطلبوا أن يجتمع بهم ليستشيروه. وقد سمح النبي ﷺ له أن يذهب إليهم كما طلبوا، وقال له: « اذهب إلى حلفائك فإنهم أرسلوا إليك من بين الأوس ».

وذهب أبو لبابة - رضي الله عنه - إلى بني قريظة<sup>(١)</sup>، وعندما دخل حصنهم الرئيسي قابله النساء والصبيان وجهشوا إليه ليكون من شدة الحصار. ولعل اليهود دبّروا ذلك ليؤثروا على هذا الصحابي.

وهنا اجتمع بزعمائهم، وشرحوا له أوضاعهم وأحوالهم وما هم فيه من همٍّ وضيقٍ وشدة نتيجة الحصار المتنوع، ثم استشاروه: هل من مصلحتهم النزول على حكم النبي ﷺ دوغماً قيد أو شرط؟ فكيف جاء الجواب؟

تعالوا إلى أبي لبابة نفسه؛ ليحدثنا عن ذلك، حيث قال: «ذهبت إليهم فقام إليّ كعب بن أسد، فقال: يا أبا بشير، قد عرفت ما بيننا، وقد اشتد علينا الحصار، وقد هلكننا، ومحمد لا يفارق حصننا حتى تنزل على حكمه، فلو زال عنا لحقنا بأرض الشام أو خيبر، ولم نطأ له أرضاً، ولم نكثر عليه جمعاً أبداً، أما ترى قد اخترناك على غيرك؟. ثم استشاره كعب بن أسد قائلاً: أنزل على حكم محمد؟ فقال أبو لبابة:

نعم - وأشار بيده إلى حلقه أنه الذبح - . قال أبو لبابة: فوالله ما زالت قدمايا عن مكانهما حتى عرفت أني خنت الله ورسوله».

فما الذي فعله أبو لبابة من الخيانة؟ إنها إشارة أفهمت اليهود أن الموت سيكون مصيرهم إن هم نزلوا على حكم رسول الله ﷺ: فهل هانت هذه الغلظة على هذا الصحابي الجليل؟

وهل سكت عنها لعلها تبقى سرّاً لا يعلم به أحد؟ لا، وألف لا. لقد كان الإيمان الصادق يعمر قلبه والولاء لدينه ولرسوله يخالط دمه ويجري في شرايينه.

هذا الدرس تقدمه للذين يضعون أيديهم في أيدي اليهود، ونقدمه للذين يتآمرون مع اليهود والنصارى على إخوانهم المسلمين، نقدمه لدعاة التقارب بين الأديان حتى يلغى الكفر بالطاغوت والولاء والبراء.

■ ■ إن هذه الغلظة - وهي غلظة كما يلاحظ لا تتغير من ميزان المعركة ورجحان كفتها للمسلمين - تحوّلت خلال ثوان إلى جبل عظيم وقع على كاهل هذا الصحابي،

(١) انظر قصة أبي لبابة في: السيرة النبوية لابن هشام (٣/٢٣٦).

وأنتى له حملة؟ فكيف يصنع؟ وكيف يواجه المسلمين؟ بل كيف يواجه رسول الله ﷺ وقد بدرت منه هذه الهفوة؟

أولاً: لقد استيقظ الإيمان في الحال، حيث قال عن نفسه: «فو الله ما زالت قدماي عن مكانهما حتى عرفتُ أنني خنت الله ورسوله».

ولذا ورد أنه استرجع في الحال وفاضت عيناه بالدموع.

ولما رآه كعب بن أسد زعيم بني قريظة على هذه الحال قال له: ما لك يا أبا لبابة؟ فقال: خنت الله ورسوله. ثم غادر حصن كعب بن أسد مهموماً حزيناً.

ثانياً: أين يذهب؟ لقد ضاقت عليه الأرض بما رحبت، وأظلمت في وجهه الدنيا، وصارت لا تساوي عنده شيئاً، واستولى عليه همٌ عظيم تنوء بحمله الجبال.

ثم بعد ذلك: كيف يبلغ رسول الله ﷺ نتيجة الاجتماع مع يهود بني قريظة؟ وماذا جرى؟ وماذا رأى؟ وماذا يرى؟

أسئلة يجب أن يسمع المسلمون تفاصيلها من هذا الصحابي الموفد. ولكن أين أبو لبابة وهذه الأسئلة، لقد كان في عالم آخر.

ثالثاً: دوغما تردد توجه إلى المسجد - وعيناه تذر فان بالدموع - وقرر أن يربط نفسه بإحدى سوارى المسجد إلى أن يموت أو يتوب الله عليه.

قال ابن إسحاق: ثم انطلق أبو لبابة على وجهه ولم يأت رسول الله ﷺ حتى ارتبط في المسجد إلى عمود من عمدته وقال:

«لا أبرح مكاني حتى يتوب الله عليّ مما صنعت، وأعاهد الله ألا أطأ بني قريظة أبداً، ولا أرى في بلد خنت الله ورسوله فيه أبداً». وانزل الله فيه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (١).

وإن في قصة أبي لبابة لعبراً يا أمة العقيدة، يا أتباع الملة الحنفية - ملة إبراهيم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام - ملة الولاء والبراء والكفر بالطاغوت: ﴿إِنَّا بَرَاءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ﴾ (٢).

لقد ربط هذا الصحابي نفسه بسلسلة على الاسطوانة التي ينصرف إليها رسول الله ﷺ من صلاة الصبح ، وهي تقع عند باب أم سلمة - رضي الله عنها - .

ولما بلغ رسول الله ﷺ قصة أبي لبابة وما صنع بنفسه - وكان قد استبطأه - قال : «أما إنه لو جاءني لاستغفرت له، فأما إذ قد فعل ما فعل، فما أني بالذي أطلقه من مكانه حتى يتوب الله عليه» .

واستمر أبو لبابة على هذه الحال أياماً - قيل إنها سبع عشرة ليلة - حتى كاد يذهب سمعه وبصره .

ولكن كيف كان يصلي وهو بهذه الحال؟ كانت امرأته وابنته تأتيه في وقت الصلاة فتفك رباطه ، ثم إذا انتهت عاد كما كان . وكذا كان يصنع عند الحاجة .

أي امتحان مرَّ به هذا الصحابي ، بسبب كلمة وإشارة؟ ولكنه الإيمان المستيقظ . وماذا يقول أولئك الذي لا يقولون كلمة ، وإنما يقولون كلمات ، ولا يفعلون فعلة ، وإنما أفعالاً وأفعالاً ، يوالون فيها أعداء الله؟

فاتقوا الله أيها المؤمنون في دينكم ، وفي عقيدتكم السلفية ، اتقوا الله في كلامكم ، وفي أفعالكم ، لا تكونوا عوناً لأعداء الله على المسلمين ، إن الرسول ﷺ قال في الحديث الصحيح : «إن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله ، لا يلقى لها بالاً ، يهوي بها في نار جهنم»<sup>(١)</sup> .

نعم ، لقد أقام هذا الصحابي مربوطاً - عن اختيار منه - لعل الله أن يكفر عنه هذا الذنب وهذه الغلطة التي هي : كلمة وإشارة .

ولما علم الله منه صدق التوبة ، أنزل الله توبته عليه ، فنزلت على رسول الله ﷺ في السحر وهي في بيت أم سلمة التي تقول :

سمعت رسول الله ﷺ من السحر وهو يضحك ، قالت : فقلت : مم تضحك ، أضحك الله سنك؟ قال : «تیب على أبي لبابة» . قالت : فقلت : أفلا أبشره يا رسول الله؟ قال : «بلى» . فقامت على باب حجرتها - وذلك قبل أن يضرب عليهن الحجاب - فقالت : «يا أبا لبابة! أبشر فقد تاب الله عليك» .

(١) رواه البخاري (٦٤٧٧) ، وأحمد (٣٣٤/٢) كلاهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

قالت: فشار الناس إليه ليطلقوه، فقال: لا والله حتى يكون رسول الله ﷺ يطلقني بيده، فلما مرَّ عليه رسول الله ﷺ خارجاً إلى صلاة الصبح أطلقه.

ويا لها من فرحة وسعادة تغمر هذا الصحابي بعد ذلك الامتحان العسير، لقد أراد - رضي الله عنه - أن ينخلع من كل ماله تكميلاً لتوبته فقال رسول الله ﷺ له: «يكفيك الثلث أن تصدق به». وهذه كانت عادة الصحابة في مثل هذه المواقف كما جرى لكعب بن مالك حين تخلف عن غزوة تبوك.

■ ■ وأخيراً، ما هي أهم الدروس المستفادة من قصة أبي لبابة - رضي الله عنه - مع يهود بني قريظة؟

يمكن أن نجمل أهمها فيما يلي:

أولاً: أن موالات أعداء الله من اليهود والنصارى وغيرهم لا تجوز أبداً في أي حال من الأحوال، ولا تجوز لا بالأقوال ولا بالأفعال، فضلاً عن المودة والمحبة القلبية. ونصوص ذلك من الكتاب والسنة قاطعة واضحة كل الوضوح:

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (١).

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوِّكُمْ أَوْلِيَاءَ تَلْقَوْنَ إِلَيْهِمْ بِالْمُودَةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُوْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمُودَةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ (٢). . . . إلى آخر الآيات.

وهذا الصحابي لما أخبر يهود بما يمكن أن يكون قد استنتجه من عزم رسول الله ﷺ على قتلهم، صار فعله هذا خيانة لله ولرسوله، كما قال عن نفسه.

ثانياً: أن من أخطر وسائل اليهود - وكذلك النصارى - في حرب الإسلام والمسلمين، ما يقومون به من الاتصال ببعض المسلمين، من خلال أساليب ووسائل متنوعة - مثل ما فعلوا مع أبي لبابة - رضي الله عنه - من حيث كونه حليفاً لهم، وداره وأمواله وأولاده قريبة منهم، والهدف من تلك الاتصالات عقد تحالفات فردية

(٢) سورة الممتحنة، الآية: ١.

(١) سورة المائدة، الآية: ٥١.

أو جماعية لحرب الإسلام والمسلمين تحت رايات مختلفة .

لقد استخدم هذا الأسلوب - من جانب أعداء الله - في زمن الحملات الصليبية الأولى ، واستخدمه المغول بعد ذلك في هجومهم على العالم الإسلامي ، واستخدمه المستعمرون الأوروبيون في استعمارهم للحديث للعالم الإسلامي ، ولا يزال يُستخدم إلى الآن .

والواجب على المسلمين ، الانتباه إلى مثل هذه الأساليب الخبيثة التي يستخدمها أعداء الله لحرب المسلمين .

ثالثاً : يجب أن يكون لدينا يقين أن مثل هذا لن يضرّ المؤمنين الصادقين ، فإن الله يرد كيد مثل هذه التحالفات في نحور أصحابها ، وأكبر مثال على ذلك ما نحن بصدده من غزوة الأحزاب وما تلاها ، فإن قوى الكفر لما تحزبت على المسلمين وتحالفوا على القضاء عليهم ، هل أفادهم شيئاً؟ . لا . ﴿ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴾ (١) .

لكن هذا إنما يكون حين نعود إلى الله عوداً صادقاً ، ونؤسس إيماننا وأعمالنا على عقيدة صافية صحيحة .

رابعاً : إن هذه الأمة الإسلامية لا عاصم لها - وهي تواجه ما تواجه - إلا بالإيمان الصادق بالله والعقيدة الصحيحة القائمة على منهاج وعقيدة السلف الصالح رحمهم الله تعالى .

والنفوس إذا تربت على ذلك ، استيقظ فيها الإيمان وخاصة حين يبدر منها خطأ أو زلل أو ذنب ، فإن المؤمن المتقي لله لا يستمر على خطئه وذنبه ، بل سرعان ما يرجع ويتوب ، كما في قصة أبي لبابة ، وقصة الذين تخلّفوا عن غزوة تبوك وغيرها .

خامساً : التوبة ، التوبة يا معاشر المؤمنين ! من كل الذنوب - وعلى الأخص من تلك الذنوب التي يتعدى ضررها إلى الغير - من غيبة ، أو نسيمة ، أو أي كلام أو فعل يؤدي إلى إيذاء يقع على أي مؤمن في أي مكان أو زمان .

لتكن قصة أبي لبابة - وهو يشعر بالذنب في أول لحظة ، ثم يفعل بنفسه ما فعل

من ربط نفسه بسارية في المسجد ليلاً ونهاراً... لتكون قصته أمام أعينكم، واعلموا أن الله تواب رحيم لمن تاب وأناب وأبدل بسيئاته حسنات. ﴿وَإِنِّي لَفَقَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾ (١).

أسأل الله تعالى أن يتوب علينا جميعاً بمنه وكرمه.

الرسول ويهود بني قريظة<sup>(١)</sup>

- ٣ -

بعد لقاء بني قريظة بأبي لبابة الأنصاريّ - رضي الله عنه - انقطع أملهم في التخفيف من العقوبة التي يستحقونها . وكان المفترض أن يدفع اليهود إلى الاستبسال والقتال حتى الموت ، خاصة وأن وضعهم أفضل بكثير من وضع المسلمين :

●● فاليهود لم يخرجوا من مكة ، وحصونهم تؤيهم ، فيها الغذاء الكافي لشهور طويلة ، وفيها آبار المياه ، وهي أيضاً قد آوتهم وأكتهم من البرد .

●● وعلى العكس من ذلك ، فالمسلمون لتوهم خرجوا من ظروف هي أصعب وأشدّ ما مرّ بهم ؛ حيث كانوا في معركة الخندق يواصلون الليل بالنهار في الحراسة والمرابطة في وجه أعدائهم المتحزبين الذين يعدّون بالآلاف ، إضافة إلى أن المسلمين كانوا في حالة مجاعة شديدة ، والجوّ في غاية البرودة ، وكانوا يرابطون حول حصون يهود بني قريظة في العراء ، فيجتمع عليهم الجوع والبرد .

ومع هذا الفارق الواضح بين وضع الفريقين ، إلا أن اليهود انهارت قواهم وتحطمت معنوياتهم ، وقذف الله في قلوبهم الرعب . حتى صاروا - وهم على تلك الحال من القوة والمنعة والتحصين ووفرة السلاح وكثرة العدد ووجود الغذاء والماء الكافي - يفكرون في كل شيء ، إلا استعمال السلاح للدفاع عن حصونهم .

فهل يعي المسلمون هذه الحقيقة في صراعهم مع اليهود؟ بل هل يعي المسلمون غيرها من الحقائق عن اليهود؟

حقد أسود على الإسلام والمسلمين قد امتلأت به قلوبهم ، عداوة وبغضاء تستخدم فيها شتى الوسائل لحرب كل مسلم في أي مكان ، نقض لليهود والمواثيق - مهما كانت صيغتها - ، ومع من كانت - متى ما وجدوا الفرصة سانحة ، وفي مقابل ذلك تفرق واختلاف فيما بينهم ، ﴿بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى﴾<sup>(٢)</sup> . رعب وخوف ملازم لهم ، ﴿لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قَرْيٍ مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ

(٢) سورة الحشر، الآية: ١٤ .

(١) الجمعة ١٢/٨/١٤١٥ هـ .

جُدْرُ ﴿١﴾. ثم آخر الحقائق: جبن وخور إذا ما قابلوا المؤمنين الصادقين.

وحتى لا يطول الحصار، ولثلا يستمر اليهود في الماطلة، صاح علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - حامل اللواء - والزيير بن العوام. وقال: والله لأذوقن ما ذاق حمزة، ولا فتحنَّ حصنهم، ثم تحركَّ معه بقية الجيش لهجوم كاسح على يهود في حصونهم. فلما رأوا كتائب الجيش الإسلامي تتحرك وأيقنوا أن الهجوم على حصونهم لا مفرَّ منه، طلبوا إيقاف الهجوم، وأعلنوا الاستسلام والنزول على حكم رسول الله ﷺ دون قيد أو شرط.

وقد أوقف المسلمون الهجوم، وسارع اليهود إلى فتح الحصون بعد أن ألقوا سلاحهم، وأخذوا في مغادرة الحصون مستسلمين - رجالاً ونساءً وأطفالاً - أما الرجال: فقد وضعت القيود في أيديهم، ثم وضعوا في حبس خاص بهم. وأما النساء والذراري: فقد عزلوا عن الرجال ووضعوا في دار الضيافة في المدينة النبوية ووكل بهم عبد الله بن سلام. وكان عدد الرجال ما بين الستمائة إلى السبعمائة، وقيل: هم ثمانمائة. أما النساء والذرية فكانوا قرابة الألف.

ووقف الجميع ينتظرون الحكم في هؤلاء اليهود الخائنين!!! فكيف تم الحكم؟ وكيف نقذ؟

ولما كان بنو النضير وبنو قينقاع من اليهود حلفاء الخزرج في الجاهلية، قد شفَعوا فيهم وقبل النبي ﷺ شفاععة عبد الله بن أبي بن سلول فيهم، فاكتفى بإجلانهم من المدينة.

فقد رغب الأوس - وهم حلفاء بني قريظة - أن يشفعوا فيهم كما فعل إخوانهم الخزرج مع حلفائهم، وتوجه وفد من وجوه الأوس إلى رسول الله ﷺ، وطلبوا منه أن يتكرم بالتخفيف من عقوبة هؤلاء اليهود ولو بنفيهم من المدينة، كما فعل مع بني قينقاع.

وقد كان رسول الله ﷺ بما جبل عليه من نبل وكرم ومراعاة لأصحابه - خاصة الذين آووه ونصروه - لا يردُّ لطالب أمراً يقدر عليه. وها هو قد استجاب قبل لرأس

النفاق حين طلب من الرسول ﷺ أن يهب له حلفاء من اليهود. فكيف لا يستجيب لأصحابه الكرام من الأوس؟

قال ابن إسحاق: فلما أصبحوا نزلوا على حكم رسول الله ﷺ فقال الأوس: يا رسول الله! إنهم كانوا موالينا دون الخزرج، وقد فعلت في موالي إخواننا بالأمس ما قد علمت، وقد كان رسول الله ﷺ قد حاصر بني قينقاع فنزلوا على حكمه فسألهم إياهم عبد الله بن أبي بن سلول فوهبهم له. فلما كلمته الأوس قال رسول الله ﷺ: «ألا ترضون يا معشر الأوس أن يحكم فيهم رجل منكم؟» قالوا: بلى، قال رسول الله ﷺ: «فذاك سعد بن معاذ»<sup>(١)</sup>. هـ كلام ابن إسحاق.

وكان سعد - رضي الله عنه - جريحاً في المدينة؛ لأنه أصيب في الخندق، ولذا لم يشترك في حصار بني قريظة.

وقد طابت نفوس الأوس بهذا التفويض، حيث كانوا يأملون من ورائه أن يخفف سيدهم سعد بن معاذ من عقوبة حلفائه اليهود، ومن ثم توجه أعيان منهم من المعسكر النبوي في بني قريظة إلى المدينة لمقابلة سيدهم الشاب الجريح وإبلاغه القرار النبوي بشأن اليهود.

وقابلوا سيدهم سعداً - رضي الله عنهم - في المسجد النبوي وأخبروه أن النبي ﷺ قد جعل أمر بني قريظة إليه ليحكم فيهم بما يريه الله تعالى، وطلبوا منه أن يراف في الحكم بحلفائه، وذكروه بأن النبي ﷺ لم يجعل إليه أمرهم إلا ليحسن فيهم.

ولما كان سعد - رضي الله عنه - جريحاً، هياً له قومه دابة - حماراً - ليركبها إلى مقر قيادة النبي ﷺ في بني قريظة ليعلم الحكم هناك.

وسار سعد - رضي الله عنه - يحف به قومه يقولون له: يا أبا عمرو، حلفاؤك ومواليك وأهل النكابة ومن قد علمت، يا أبا عمرو أحسن في مواليك فإن رسول الله ﷺ إنما ولأك لتحسن فيهم، فلما أكثروا عليه قال لهم - وهو يقرب من القيادة النبوية - : «لقد آن لسعد أن لا تأخذه في الله لومة لائم».

ولما دنا سعد - رضي الله عنه - كما في صحيح البخاري - قال النبي ﷺ: «قوموا

(١) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/٢٣٩ - ٢٤٠).

إلى سيدكم - أو خيركم -» (١).

ولما استقرَّ بسعد المقام بين يدي رسول الله ﷺ في مقرِّ قيادته في بني قريظة قال له: «احكم فيهم يا سعد»، فقال: الله ورسوله أحق بالحكم، فقال له النبي «قد أمرت أن تحكم فيهم».

ولكن سعد بن معاذ - رضي الله عنه - وقد علم حرص قومه الأوس على التساهل في الحكم في حلفائهم اليهود أحب أن يستوثق من الجميع، ووقف الحكم الشاب الجريح في المعسكر، ووجه حديثه إلى قومه الأوس خاصة، وإلى من في المعسكر عامة قائلاً: عليكم بذلك عهد الله وميثاقه أن الحكم كما حكمت؟ قالوا: نعم. ثم اتجه إلى النبي ﷺ وأشار إلى الناحية التي هو فيها، ثم قال - وهو معرض عن رسول الله ﷺ إجلالاً له وإكباراً - : وعلى من ها هنا، وأشار إلى الخيمة التي فيها رسول الله ﷺ فقال عليه الصلاة والسلام: نعم. وفي رواية أنه أشار إلى بني قريظة المحجوزين جانباً في المعسكر ليستوثق منهم أيضاً قائلاً لهم: أترضون بحكمي؟ قالوا: نعم. وكان هؤلاء اليهود قد بقي لديهم شيء من الأمل، بعد أن علموا أن حلفاءهم الأوس قد بذلوا وساطتهم لدى الرسول القائد ﷺ ليخفف من عقوبتهم، وأنه نتيجة لهذه الوساطة قد جعل أمر هؤلاء اليهود لحليفهم وسيد حلفائهم سعد بن معاذ - رضي الله عنه - .

وانتظر الجميع في لحظات رهيبة سعداً ليعلن الحكم النهائي في هؤلاء اليهود، وقد كان الجميع لا يعلمون ما هو الحكم الذي سيصدره سعد بن معاذ. وإذا كان سعد حليفاً لليهود بني قريظة في الجاهلية، فقد كان أيضاً خبيراً بحلفائهم وإخوانهم من اليهود.

- أليس هؤلاء هم الذين أسمعوا سعداً - في أثناء غزوة الأحزاب وقد أرسله رسول الله ﷺ مع وفد إليهم يطلب منهم الوفاء بالعهد.

- أليسوا هم الذين أسمعوا سعداً ومن معه شتم النبي ﷺ وسبّه سباً قبيحاً.

- أليسوا هم الذين نقضوا العهد وانضموا إلى الأحزاب فصارت خطوط

(١) رواه: البخاري (٣٠٤٣)، ومسلم (١٧٦٨).

المسلمين من الخلف مكشوفة، حيث أصرُّوا على المشاركة الفعَّالة في استتصال شأفة المسلمين مغتتمين استحكام المحنة حين تحزبت عليهم الأحزاب .

- ألم ينصح هؤلاء اليهود - وهم حلفاؤه - أن يبقوا على عهدهم مع رسول الله ﷺ ، ولكنهم أجابوه جواباً فاحشاً وهم في نشوة الفرح بإطباق الأحزاب على المسلمين . وكان مما قالوا : «من هو رسول الله ﷺ ، لا عهد بيننا وبين محمد!» .

إن سعداً كان خبيراً بهؤلاء اليهود ونفسياتهم وما جبلت عليه ، وكان أيضاً مدركاً لمقدار الغدر والخيانة ونقض العهود التي وقع فيها بنو قريظة .

وهنا نطق سعد بالحكم ، وكان صارماً وقوياً وحاسماً ، واستمع الجميع إليه وهو يعلن حكمه قائلاً : «أحكم فيهم أن تقتل المقاتلة وأن تسبى النساء والذرية ، وأن تقسم أموالهم» .

فلما نطق بهذا الحكم - علَّق النبي ﷺ عليه تعليقاً تهتز له الجبال الشامخات حيث قال - كما في صحيح البخاري - : «لقد حكم فيهم بحكم الله من فوق سبع سموات»<sup>(١)</sup> .

لقد وافق حكم سعد - رضي الله عنه - حكم الله تعالى ، ومن ثم - ومع هول الحكم - صمت الجميع من الأوس ومن غيرهم ، ولم يعترض عليه أحد حتى من اليهود حيث لم يرد أن أحداً منهم ناقش هذا الحكم أو عارضه!!!

ولما صدر الحكم ، رجع النبي ﷺ إلى المدينة لتنفيذ حكم الله في هؤلاء اليهود الخونة ، فأمر بحفر خنادق عميقة لتدفن فيها جثثهم بعد قتلهم ، ولما حفر الخنادق جلس النبي ﷺ ومعه كبار الصحابة ، ثم أمر بإحضار الرجال من بني قريظة المحكوم عليهم بالقتل - وقد ميّز المقاتلة من غيرهم بإنبات الشعر كما ثبت ذلك في الصحيح - ، فأعدموا دفعة دفعة ، كلما قتلت دفعة رُمي بها في الخنادق ووروا التراب . . . وهكذا . وقد تم قتل هؤلاء اليهود في ليلة واحدة ، وجرت عملية القتل على ضوء مشاعل سعف النخل ، كما في بعض الروايات .

وكان عل رأس الذين نُفِّذَ فيهم هذا الحكم سيدُ بني النضير ، حبي بن أخطب

(١) رواه : البخاري (٣٠٤٣) ، ومسلم (١٧٦٨) .

الذي حزب الأحزاب وجمع جيوشها لغزو المدينة، وحمل بني قريظة على نكث العهد، وأعطاهم العهد أن يكون مصيره مصيرهم، فاستسلم حيي للمسلمين ضمن بني قريظة، ولما حان تنفيذ الحكم فيه أتى به رسول الله ﷺ وعليه حلة فقاحية - أي لونها يضرب إلى الحمرة - قد شقها عليه من كل ناحية قدر أمثلة لثلاث يسليها، مجموعة يدها إلى عنقه بحبل، فلما وقف عند رسول الله ﷺ قال له ﷺ: «ألم يمكن الله منك؟»، فقال حيي: «أما والله ما لمت نفسي في عداوتك، ولكنه من يخذل الله يخذله الله»<sup>(١)</sup>، ثم ضربت عنقه وألقي بجثته في الخندق.

ثم أتى بزعيم بني قريظة كعب بن أسد، فقال له النبي ﷺ: «يا كعب؟ قال: نعم يا أبا القاسم. قال: «ما انتفعتم بنصح ابن خراش [حبر من أحبارهم] لكم وكان مصدقاً بي، أما أمركم باتباعي، وإن رأيتموني تقرئوني السلام؟». قال: بلى والتوراة يا أبا القاسم، ولولا أن تعيرني يهود بالجزع من السيف لاتبعتك، فأمر النبي ﷺ أن يقدم فتضرب عنقه فضربت.

وفي قصص بني قريظة وتنفيذ حكم الإعدام تفصيلات وأحداث فيها عبر، أعرضنا عنها لضيق الوقت.

أما سعد بن معاذ - رضي الله عنه - الذي أصدر الحكم، فقد انفجر جرحه بعد إثلاج صدره بهذا الحكم مباشرة ومات - رضي الله عنه - .

وفي ختام هذه الغزوة وأحداثها عدد من الوقفات والدروس:

أولاً: من هو سعد الذي حكم في هؤلاء اليهود وأصدر حكمه السابق؟

١ - إنه سيد الأوس الذي أسلم علي يد مصعب بن عمير في المدينة قبل الهجرة. فلما أسلم وقف على قومه فقال:

«يا بني عبد الأشهل، كيف تعلمون أمري فيكم؟ قالوا: سيدنا فضلاً وأيمنا نقيية. قال: فإن كلامكم علي حرام رجالكم ونسأؤكم، حتى تؤمنوا بالله ورسوله. قال الراوي: فوالله ما بقي في دار عبد الأشهل رجل ولا امرأة إلا وأسلموا. فكان رضي الله عنه من أعظم الناس بركة علي قومه.

(١) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/٢٤١).

٢- وسعد هو الذي اهتز عرش الرحمن لموته، فقد روى البخاري ومسلم والترمذي عن جابر بن عبد الله - رضي الله عنهما - قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «اهتز العرش لموت سعد بن معاذ». وفي رواية لمسلم - وذكرها البخاري أيضاً - : «اهتز لها عرش الرحمن عز وجل»<sup>(١)</sup>. أي: لجنائز سعد بن معاذ رضي الله عنه.

قال الإمام الذهبي: (وقد تواتر قول النبي ﷺ: «إن العرش اهتز لموت سعد فرحاً به»)<sup>(٢)</sup>.

وفي رواية عند أحمد والحاكم وصححه ووافقه الذهبي عن جابر قال: جاء جبريل إلى رسول الله ﷺ فقال: من هذا العبد الصالح الذي مات؟ فتحت له أبواب السماء، وتحرك له العرش، فخرج رسول الله ﷺ فإذا سعد، قال: فجلس على قبره...»<sup>(٣)</sup>.

٣- وسعد هو الذي روى فيه أنس بن مالك - رضي الله عنهما - قال: لما حملت جنازة سعد بن معاذ، قال المنافقون: ما أخف جنازته!!! يعني لحكمه في بني قريظة، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: «إن الملائكة كانت تحمله»<sup>(٤)</sup>.

وقد ثبت أن سبعين ألفاً من الملائكة نزلوا إلى الأرض ليشهدوا جنازته، هذه بعض مناقب سعد بن معاذ الذي أصدر حكمه في بني قريظة.

ثانياً: أن هذا الحكم الذي صدر هو حكم الله في هؤلاء اليهود الخونة، ومن ثم فلا يجوز لمسلم الاعتراض عليه ولا نقده، ولا يجوز وصفه بما وصفه به أعداء الإسلام وأعداء النبي ﷺ من أنه قسوة ووحشية.

فالمعترض عليه معترض على حكم الله وحكم رسوله ﷺ. وهذا الحكم هو الذي يليق بهؤلاء الخونة ناكثي العهود مع أكرم الخلق ﷺ ومن معه من المسلمين.

ثالثاً: ما الذي حول الأوس والخزرج من عرب ضعفاء أمام اليهود يتحكمون فيهم، بل ويهددونهم في كل حالة قائلين: قد أظل زمان نبي تبعه، فنقتلكم به قتل

(١) رواه: البخاري (٣٨٠٣)، ومسلم (٢٤٦٦). (٢) انظر: سير أعلام النبلاء (١/٢٩٢).

(٣) رواه أحمد (٣/٣٢٧)، والحاكم (١/٢٠٦) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

(٤) حديث صحيح، رواه: الترمذي (٣٨٤٩)، والحاكم (٣/٢٠٧)، وصححه ووافقه الذهبي.

عاد وإرم، وكان العرب في المدينة يتهافتون عليهم ويقبلون أحكامهم، بل إن غالب سلاحهم كان يصنعه اليهود، واقتصاد المدينة يسيطر عليه أيضاً اليهود.

ما الذي حوّل الأوس والخزرج من تلك الحالة إلى هذه الحالة العظيمة التي أصبحوا فيها هم يتحكمون فيهم، بل ويحكم واحد منهم في قبيلة كاملة من قبائل اليهود؟

إنه الإسلام، ولا شيء غير الإسلام.

واليوم لما كان غالب صراعنا مع اليهود تحت رايات العروبة والعلمانية وغيرها، انقلب الأمر فصار حالنا كحال الأوس والخزرج في الجاهلية. يصيبنا الرعب حينما يذكر اليهود، ونتسابق إلى التعاون معهم والاستسلام لهم، وهما هم اليهود مستأسدين، يحاولون التحكم في المسلمين واقتصاد المسلمين!!!

ألا هل من معتبر؟

\* \* \*

السلام مع اليهود... ماذا يعني؟<sup>(١)</sup>

- ١ -

١ - مرَّ على المنطقة قرون بعد انبثاق فجر الإسلام فيها، وهي منطقة إسلامية، وأحوالها ونظمها تنبثق من الإسلام، ومع وجود الانقسام ونشوء الدول المختلفة في القرون المتتالية، ومع وجود أهل الكتاب في خارج جزيرة العرب، إلا أن المنطقة ظلت منطقة إسلامية.

٢ - ولما جاءت الحروب الصليبية وهجمت على الإسلامي، رسخت مفهوم المشرق الإسلامي، في مقابل دول الغرب النصرانية.

٣ - وفي العصر الحديث - بعد الحربين العالميتين - بدأ مفهوم جديد لهذا الشرق الإسلامي، يعتمد على إزالة المفهوم والمصطلح الإسلامي عنه واستبدال بعبارة «الشرق الإسلامي»، أو المنطقة الإسلامية، أو نحوها. عبارة ومصطلح «الشرق الأوسط». حتى يكون مسمى المنطقة إقليمياً بحتاً حيث نزعته عنه صفة الإسلام والعربية لغة القرآن الكريم، والذين نادوا بهذا المصطلح:

أ - المستعمرون من دول أوروبا الذين استعمروا كثيراً من بلاد المشرق الإسلامي، ورسخوا هذا المصطلح الجديد حتى بعد طردهم من بلاد المسلمين.

ب - المستشرقون أذئاب الاستعمار الذين رسخوا هذا المفهوم في كتاباتهم عن الإسلام، والتاريخ الإسلامي. ومن هؤلاء «برنارد لويس» المستشرق الذي اشتهرت كتاباته في هذا الموضوع.

ج - وفي أثناء ذلك وبعد ذلك، جاء اليهود لينشئوا دولة لهم في قلب العالم الإسلامي وفي مقدسات المسلمين. ومن ثم رسخوا ذلك المفهوم الاستعماري واقعياً.

ومن المؤسف والمحزن، طغيان هذا المصطلح - خاصة في وسائل الإعلام وفي المحافل الدولية، حتى صار مصطلح «الشرق الأوسط» لا يكاد ينفك عن أي قضية

من قضاياها المختلفة: السياسية، أو الاقتصادية، أو الجغرافية، أو الفكرية... أو غيرها.

٤- ومع أننا نقول: إن العبرة بالأعمال والأفعال، لا بالأقوال والمصطلحات، إلا أن الواقع العملي يرسخ هذا المفهوم، فكيف إذا واكبه تركيز إعلامي وفكري، يقرره ويرسخه.

٥- إن الذي دعاني إلى الإشارة إلى هذه المسألة المتمثلة في مصطلح «الشرق الأوسط» هو أن أحداث السلام مع اليهود تتسارع بشكل كبير، ويريد اليهود ثمناً باهظاً وعاجلاً في مقابل إلقاء أعباء الضفة والقطاع عن كواهلهم ليتولّى مشاكلها الآخرون، مع بقائها ضمن الهيمنة العسكرية اليهودية، إن الإنسان ليعجب:

أ- قبل خمسين عاماً كان اليهود شذاً يباحثون عن موطن قدم ومأوى لهم في الشرق الإسلامي.

ب- واليوم يقود اليهود مسيرة الشرق الأوسط: عسكرياً، وأمينياً، واقتصادياً، وفكرياً، من خلال مرحلة السلام التي تمر بسرعة البرق، مخترقة جميع الحجب والحواجز الصخرية الشاهقة التي بنيت خلال سنين متطاولة من الصراع مع اليهود.

ويقابل هذا من جانب المسلمين - أو كثير منهم بالأصح - برود، عماده اللامبالاة بما يجري، أو الخضوع للأمر الواقع.

ونحن نقول: أن يوجد اللص الذي يدخل بيتك ويسرق ما فيه. فهذا أمر قد يحصل، ولكن أن تستقبل اللص بالأحضان وتمكنه من سرقة بيتك ثم تودعه بألف تحية وسلام، فهذا معناه أنه قد وقع تغيير في مزاجك وتكوينك الفكري، وهذا الذي لا نريد للأمة الإسلامية أن تصل إليه.

٦- وإنني أتساءل: هل تغير اليهود، حتى نستقبل السلام معهم هذا الاستقبال الحافل؟

إن اليهود هم اليهود: مع موسى - عليه السلام -، ثم مع عيسى - عليه السلام -، ثم مع محمد بن عبد الله ﷺ. وأتباع ملته وإلى اليوم، وحتى يخرج الدجال في آخر الزمان، حين يكون قوام جيشه اليهود كما ثبت في الأحاديث الصحيحة.

إن اليهود هم اليهود: عداً للأديان جميعاً، وحرماً على الإسلام خاصة، هم اليهود: خسةً ونذالةً، مع كبرياء وغطرسة على أم الأرض جميعاً. هم اليهود: نقضاً للعهد والمواثيق متى حانت الفرصة ووجدوها مواتية. ألم ينقضوا العهد مع رسول الله ﷺ مع يقينهم أنه رسول الله حقاً وصدقاً وأن الله ناصرهم ومؤيده. فكيف لا ينقضون عهدهم مع من دونه من أتباع ملته؟

نعم: اليهود هم اليهود: أصحاب المؤامرات المتتالية، والأطماع التوسعية، والحلم بالسيطرة على العالم تحت مُلكٍ ملكٍ من نسل داود.

٧- وقد يقول قائل: فما بالهم هذه الأيام يمدون أيديهم للسلام؟ ويتنازلون عن الأراضي للفلسطينيين، ويبدون رقةً ورحمةً بجيرانهم المسلمين لمساعدتهم اقتصادياً، ويخططون مع من حولهم لبناء شرق أوسط قويٍّ مستقل عن التبعية للغرب أو الشرق؟

والجواب عن هذه الأسئلة إنما يكون بإدراك الخلفيات والأهداف البعيدة لليهود فقط.

إن اليهود يخططون وينفذون - وهم أهل المكر والدهاء -، لبناء «شرق أوسط» يكون فيه الطرف اليهودي الصهيوني هو المتفوق من وجوه عديدة أبرزها:

الجانب العسكري، والجانب الاقتصادي. ويتم هذا من خلال نظام قطبي تمثل فيه «إسرائيل» المركز، وتكون بقية الدول أطرافاً مرتبطة بهذا المركز على أحد وجهين: الوجه الأول: إما جماعياً بعلاقات دائرية تحيط به وتجري من حوله وتدور كما تدور الإلكترونات حول النواة. والغرض التأكيد على القطب والتسليم بمركزيته وقيادته.

الوجه الثاني: وإما ثنائياً بعلاقات خاصة، قد تتحول في المستقبل إلى تعاون مركز، يؤدب من يخرج عن الخط من الجيران، أو تعاون اقتصادي يبعد من لا فائدة فيه من الدول العربية الضعيفة اقتصادياً.

وهذا التخطيط - الذي ينفذ الآن فيما يسمى بالشرق الأوسط - أو بالأصح: ينفذ في عالمنا العربي والإسلامي - ما هو إلا امتداد نوعي، وتغيير في الأساليب والوسائل

فقط ، للفكر الصهيوني وللعقيدة اليهودية التوسعية التي تنتهي - حسب مخططاتهم - بالهيمنة على العالم .

فالخطة والاستراتيجية اليهودية لم تتغير ، هي نفسها التي قرأناها وكتب عنها الكثير في سنوات الصراع مع اليهود منذ إنشاء دولتهم على أرض فلسطين الإسلامية .

لكن الخطة تنفذ الآن بأدوات العصر وأساليبه ، وبلافتات وأواخر القرن العشرين الميلادي : الديمقراطية ، التعاون الأمني والاقتصادي ، حقوق الإنسان ، أنظمة الأمم المتحدة .

لقد كان حلم رواد الصهيونية قبل مائة عام أن تقوم دولة لليهود قوية على أرض مقدسات المسلمين ، وقد تمت هذه المرحلة وتحقق هذا الحلم ؛ لأسباب لا تخفى على البصير ، وتم من خلال ذلك :

١ - إنشاء دولة لليهود ، عاصمتها القدس . ويسمونها الآن العاصمة الأبدية التي لا يمكن التنازل عنها .

٢ - تفوق اليهود عسكرياً . وأبرز مظاهر هذا التفوق : القوة النووية اليهودية . والعجيب أنه مع كون هذه القوة النووية قريبة جداً من مصالح الغرب الحيوية ، فإن الغرب لم يجرؤ حتى الآن على محاسبة اليهود على ذلك ، ولو ظاهرياً أمام شعوبهم وشعوب المنطقة .

٣ - ضمان أمن هذه الدولة من عدة وجوه ، أبرزها : ضمان الحلفاء من الغرب لها أمنياً وعسكرياً بالتفوق على العرب واقتصادياً . . . إلخ .

نعم : لقد تحقق حلم الصهاينة اليهود الكبار في أوائل هذا القرن : هرتزل ، وايزمان ، وغيرهم . وقامت دولة لهم قوية كما كانوا يحلمون .

أما صهاينة آخر هذا القرن : بيغن ، رابين ، بيريز ، وغيرهم . فإنهم يحملون نفس الراهة - أعني راية التوسع والهيمنة - لكنها أكثر مكرراً ودهاءاً . ويقوم هذا المخطط الجديد على الأمور التالية ، التي تنفذ في مرحلة السلام الحالية :

(١) قيام نظام إقليمي جديد في العالم الإسلامي - يسمى الشرق الأوسط - يتميز المركز فيه - الذي هو دولة إسرائيل - بالوجه الغربي الديمقراطي المتحضر . أما الدول

الأخرى في المنطقة، فتبقى متخلفة في هذه الجوانب.

(٢) وعلى ضوء ذلك؛ تتأهل دولة المركز لتنال الثقة الكاملة لتكون هي نقطة الاتصال - وتنظيم العلاقات، وتنفيذ البرامج، وصياغة الاتفاقيات، والحصول على المساعدات، من جانب دول العالم، وبالأخص: أمريكا، وأوروبا، واليابان.

(٣) الصعود على أكتاف الآخرين من دول المنطقة؛ لتحقيق الأطماع اليهودية، فأعباء قيادة المنطقة وتنفيذ المخططات المرسومة لا تقوم على كاهل اليهود وحدهم، بل لا بدّ من خلال اتفاقيات السلام أن تقوم دول أخرى بذلك. وهي تصب في النهاية في جيوب اليهود - إن صح التعبير - .

(٤) إبقاء التفوق العسكري اليهودي من جميع الوجوه، وذلك حتى يضمن سير النظام الجديد في الخط المحدد له، وحتى تظل دول الأطراف الأخرى في المنطقة ضعيفة لا تستطيع إلا السير ضمن المخطط المرسوم.

(٥) ثم يأتي بعد ذلك - وفق هذا النظام وهذه الخطط اليهودية - فرض أنماط جديدة على طبيعة العلاقات بين دول المنطقة يضيفُ بعداً جديداً وخطيراً، ألا وهو: مرعاة مصالح دول المنطقة في أي قرارات تُتخذ، ومعنى ذلك أن مصلحة إسرائيل - التي هي الجزء الرئيس في نظام الشرق الأوسط الجديد - يجب أن تؤخذ بعين الاعتبار، بحيث يمكن لإسرائيل أن تعترض على أي قرار تتخذه أية دولة زاعمة أن ذلك يضر بمصالح المنطقة.

ومعنى هذا، أن تتحول دول المنطقة في علاقتها ومواقفها ومصالحها ومخططاتها الخاصة، بكل دولة لا تتخذ استقلالاً، وإنما تمر عبر بوابة مصلحة اليهود حتى يسمح لها بالمرور أو لا يسمح.

(٦) أما أكبر وأهم البرامج التي يجب أن تنفذ خلال هذه المرحلة - مرحلة السلام - فتقوم على ما يلي:

أ- غزو عقيدي فكريّ ثقافي، يطيح بمسلمات لدى المسلمين، من أبرزها:

- مفهوم الإسلام بنظامه الشامل.
- عقيدة الولاء والبراء.
- ما هو مستقر عند المسلمين عن اليهود وحقدهم ومكرهم.

• عدم الاعتراف بصحة الأديان الأخرى بناءً على بطلانها ونسخها بشريعة الإسلام.

وذلك من خلال الحوار بين الأديان، الذي عُقد أحد مؤتمراته عند بابا الفاتيكان، وحضره مندوبون من المسلمين.

ب- وفي ضمن ذلك يتركز غزو فكري وأخلاقي يفسد على المنطقة شبابها وزبدة رجالها.

ج- حرب الأصولية الإسلامية، وهذا له قواعده وخططه الخاصة وسيأتي تفصيل ذلك فيما بعد إن شاء الله تعالى.

\* \* \*

## السلام مع اليهود... ماذا يعني؟<sup>(١)</sup>

- ٢ -

١ - ما هي خطط اليهود في مرحلة السلام؟، وهل يتنازل القوي - إن كان هناك تنازل - دون مقابل؟، وهل الظروف والأحوال هي تملّي على اليهود حيثيات وبنود السلام، أم أن اليهود يتحركون من خلال مرحلة مدروسة محسوبة؟.

٢ - سأنقلكم إلى الوراثة مائة عام؛ لأطلعكم على نتف مما قرره حكماء اليهود، ولن أتدخل في النص، بل سأنقله بحروفه، وأترك تقويمه والحكم عليه من خلال مرحلة السلام الحالية، وسيكون ما أنقله متعلقاً بالجانب الاقتصادي؛ لأنه قد عقد قبل أيام في المغرب مؤتمر اقتصادي لدول الشرق الأوسط، كانت إسرائيل فيه هي العقل المدبر والمخطط له، وقد انتهى فيه إلى مقررات وخطط تنموية مستقبلية للمنطقة، ليس هذا مجال تفصيلها.

فماذا قال حكماء اليهود قبل مائة عام فيما سمي بـ «برتوكولات حكماء صهيون»؟ حول هذا الموضوع:

قالوا في البرتوكول الثاني - والنص بحروفه - : «إن غرضنا الذي نسعى إليه، يحتم أن تنتهي الحروب بلا تغيير حدود، ولا توسع إقليمي، وينبغي تطبيق هذا ما أمكن، فإذا جرى الأمر على هذا قدر المستطاع تحولت الحرب إلى صعيد اقتصادي، وهنا لا مفرّ أن تدرك الأمم من خلال ما نقدم من مساعدات ما لنا من قوة التغليب، تغليب فريق على آخر، ومن التفوق ونفوذ اليد العليا الخفية، وهذا الوضع من شأنه أن يجعل الفريقين تحت رحمة عملائنا الدوليين الذين يملكون ملايين العيون اليقظة التي لا تنام، ولهم مجال مطلق يعملون فيه بلا قيد، وحينئذ تقوى حقوقنا الدولية العامة على كل الحقوق القومية الخاصة، في نطاق المعنى المألوف لكلمة حق، فيتسنّى لنا أن نحكم الشعوب بهذه الحقوق تماماً كما تحكم الدول رعاياها بالقانون المدني داخل حدودها»<sup>(٢)</sup>. انتهى ما نقلته بحروفه . . .

(١) الجمعة ٨/٦/١٤١٥ هـ.

(٢) برتوكول حكماء صهيون، البرتوكول الثاني، ترجمة عجاج نويهض.

وتأملوا فيه ما يلي :

١ - الحروب تنتهي بلا تغيير حدود ولا توسع إقليمي ، ثم تتحول الحرب - هكذا - إلى صعيد اقتصادي .

٢ - نفوذ اليهود مالياً يجعل الفرقاء تحت رحمة عملاء اليهود الدوليين الذين يملكون ملايين العيون اليقظة التي لا تنام .

٣ - بعد ذلك يتسنى لليهود أن يحكموا الشعوب تماماً كما تحكم الدول رعاياها بالقانون المدني داخل حدودها .

وكما قلت في مناسبة سابقة فإن اليهود يتبجحون أحياناً بنشر خططهم لنشر الرعب في العالم من غير اليهود، ولكن لا يجوز أن نغضب أعيننا عن هذا الذي قاله اليهود قبل مائة عام، وهم الآن ينفذونه حرفياً .

٣ - بعد هذا نكمل الموضوع بطرح قضية عرف بها اليهود من قديم الزمن ومهروا فيها ؛ لما فيها من سحت وباطل وحرام، ألا وهي : استحلالهم الربا وأكلهم له .

وقد عرّف اليهود بذلك قبل الإسلام مع حرمة في شريعتهم ، قال تعالى عنهم : ﴿ وَأَخَذَهُمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ (١) .

ويقال : إنهم هم الذين نقلوه إلى العرب قبل الإسلام فانتشر في قريش واشتهر في معاملاتهم إلى أن جاء الإسلام وحرّمه .

وقد بقي اليهود - عباد المال والذهب والفضة - هم أرباب الربا وهم زعماء البنوك الكبرى في أوروبا وأمريكا، حتى صار أحد أسس الرأسمالية الغربية التي لا ينفك عنها، وتحول إلى ما يسميه دعاة الربا في بلاد الإسلام : ضرورة اقتصادية ، وما هو بضرورة ، ولكنها هيمنة غربية وراءها تجار وعبدة المال : اليهود ﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يُوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعْمَرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحِّجِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعْمَرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ (٢) .

ولكن ماذا قال اليهود في برتوكولاتهم - قبل مائة عام - حول إغراق العالم من

(٢) سورة البقرة، الآية : ٩٦ .

(١) سورة النساء، الآية : ١٦١ .

غير اليهود بأنواع من الفساد الاقتصادي بسبب الربا؟

تقول البرتوكولات - وها أنا أيضاً أنقل النص بحروفه - : «أول عناصر الفساد كما ستعلم يتبدى هكذا: توضع الموازنة السنوية كالعادة، ثم لا تلبث أن تعتلّ أوضاعها بالتقيح المتزايد المتكرر سنة بعد أخرى، فتتضخم، وتتهالك على نفسها وذلك للسبب التالي: يأخذون بتجاذب أطرافها وجرّها إلى منتصف الطريق، ثم تختلّ دواليها، فتضطرب وتتسكع في السير، فيطلبون موازنة إضافية رتقاً للخلل، فإذا وضعوا هذا أنفقوه في ثلاثة أشهر، ثم عادوا يطلبون ملحقاً مالياً آخر للترقيع، وبالتالي ينتهي كل هذا إلى موازنة تصفية. فتأتي السنة الجديدة، ولا بد أن تبني على إرث السابقة ومنها موازنة التصفية ناقلة جميع أرقامها، وذلك كله خبط وعوار وفساد، فالانحراف الذي يقع في مدار السنة الجديدة يبلغ إلى خمسين بالمائة، وعلى هذا ترى أن الموازنة قد بلغت ثلاثة أضعاف في عشر سنوات، والعلّة في خراب خزانات دول الجويم - الأيمن غير اليهود -، حتى أمست فارغة: تعود إلى تلك الأساليب والطرق مما صنعناه نحن لها، ثم يأتي دور القروض فيمتصّ ويلتقم ما بقي، وما بعد ذلك إلا الإفلاس. ولا يخفى عليكم أن الأنظمة الاقتصادية التي من هذا النوع نحن افترضناها وقدمناها إلى الجويم - للتخريب لا يمكننا أن نجري عليها ونطبقها عندنا...»<sup>(١)</sup>.

ثم تقول البرتوكولات عن قروض الربا وآثارها: «وما هو القرض الداخلي الحقيقي؟ القرض هو إصدار الحكومات سندات على الخزانة تحتوي على التزام نسبة استهلاكية لمجموع رأس مال القرض، فإذا كان القرض مرتباً له فائدة خمسة بالمائة، ففي عشرين سنة تظل هذه الدولة تدفع من هذه الفائدة ما حكمه حكم العيب، حتى يوازي ما يدفع أصل القرض»<sup>(٢)</sup>.

هذا ما قاله اليهود قديماً، وهو ما يجري في عالم اليوم حتى تحولت كثير من دول العالم الثالث - كما هو التعبير الاستعماري السائد - تحت رحمة الدائنين الذين يسكونها بخناقها حتى في ثمن رغيف الخبز الذي هو آخر رفق الفقراء.

ولكن كيف ستكون الحال - في مرحلة السلام - إذا دخل رأسمال اليهود في صلب شركات المسلمين ورؤوس أموالهم؟

(١) برتوكول حكماء صهيون، البرتوكول العشرون، ترجمة عجاج نويهض.

(٢) برتوكول حكماء صهيون، البرتوكول العشرون، ترجمة عجاج نويهض.

إن الأمر يحتاج إلى يقظة وإلى عمل . لقد حذّر الله من الربا أعظم تحذير ، بل أذن تعالى بالحرب لمن لم يترك الربا ، قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ \* فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلُمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴾ (١) .

روى ابن جرير وابن أبي حاتم - وغيرهما - عن ابن عباس - رضي الله عنهما - في هاتين الآيتين قال : « فمن كان مقيماً على الربا لا ينزع عنه فحق على إمام المسلمين أن يستتبهه ، فإن نزع ، وإلا ضربت عنقه » .

وعنه أيضاً قال : يقال يوم القيامة لأكل الربا : خذ سلاحك للحرب . وأنى له الحرب في هذه المواقف !!! .

وعن قتادة قال : أوعدهم الله بالقتل كما تسمعون ، فجعلهم بهرجاً أينما ثقفوا . والبهرج : المباح ، أي مباحة دماؤهم . روى هذه الآثار ابن جرير وغيره .

كما حذّرنا الله من اليهود وكيدهم ومكرهم ، وقد فضحهم الله في آيات كثيرة - وهذا أمر معلوم لا يحتاج إلى بيان - . بل إن رسول الله ﷺ الذي توفي ودرعه مرهونة عند يهودي على ثلاثين صاعاً من شعير (٢) استدانها - وهذا يدل على نفوذ اليهود في ذلك الوقت - هو الذي أجلى اليهود عن المدينة النبوية وهو الذي قال قبيل وفاته : « لأخرجن اليهود والنصارى من جزيرة العرب حتى لا أدع مسلماً » (٣) . كما في صحيح مسلم وغيره . ثم أجلاهم بعد ذلك عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - عن جزيرة العرب كلها .

٤ - وهناك قضية أخرى من قضايا السلام ، يعطيها اليهود أعظم اهتمام ، ألا وهي : الوقوف في وجه التيار الإسلامي المتنامي في البلاد الإسلامية ، ويعبرون عنه بالتيار الأصولي ، ويقول اليهود : إن مدّ التيار الإسلامي أصبح خطراً حقيقياً يهدد إسرائيل بل ويهدد دول المنطقة كلها . ومن ثم فلا بدّ من التعاون المشترك للوقوف أمام هذا التيار .

انظروا إلى تغير الأحوال ، فكفاح الشعب الفلسطيني داخل فلسطين وخارجها الذي بقي عشرات السنين رمز البطولة والتضحية والشرعية ، لا يستطيع أي كاتب أو

(١) سورة البقرة، الآيتان: ٢٧٨ ، ٢٧٩ .

(٢) رواه: البخاري (٢٩١٦)، وأحمد (٤٢/٦)، ٢٣٠، (٢٣٧) من حديث عائشة رضي الله عنها .

(٣) رواه: مسلم (١٧٦٧) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه .

صحفي مهما كان توجهه الفكري أن يطعن فيه . . . أقول: انظروا كيف تحول في داخل فلسطين إلى نوع صراع وصدام بين حكومة وأصوليين!!!  
ماذا يقول منظر عملية السلام وزير خارجية اليهود شمعون بيريز عن هذا الموضوع؟

١ - «إن الأصولية تشق طريقها سريعاً وعميقاً في كل بلد عربي في الشرق الأوسط مهددة بذلك السلام الإقليمي . . .» .

٢ - «إن إنشاء منظمة تعاون إقليمية تتحرك على قاعدة فوق قومية هو الرد، بل الرد الوحيد على الأصولية»، وهذا في الجانب الاقتصادي .

٣ - «إن المزيج الفاتك من الأصولية الدينية، والصواريخ غير التقليدية يهدد السلام ويعيدنا إلى فكرتنا الأصلية» .

وأقول: من هم أصحاب الأسلحة غير التقليدية، ومن هم أصحاب التعصب الديني المغرق غير اليهود!!!

٤ - ثم يقول بيريز: «إن حضور الأصولية وهي حركة مناهضة للديمقراطية في الجوهر - حتى حين تستخدم شعارات ديمقراطية - يزيد في صعوبة إدخال العملية الديمقراطية في المنطقة» .

إن معنى ذلك أنه حتى الديمقراطية الغربية - على عوارها وسلبياتها وكفرياتها أحياناً - لا تصلح للمنطقة . وإذن فما الذي يصلح لها!؟

إن الشيء الذي لا يجوز أن نشك فيه ، أن اليهود يحاربون الإسلام الذي جاء به رسول الله ﷺ . وهذا هو الأصولية . فأى دعوة لمنهجه عليه الصلاة والسلام ، فهو أصولية ، يجب أن تحارب حسب موازين بيريز وبقية اليهود .

إن المسألة صريحة لا لبس فيها ، ولا غموض ، بل إنني أقول في هذه المناسبة :

لو وصفنا منهج شيخ الإسلام المجدد محمد بن عبد الوهاب والعقيدة التي دعا إليها وجدد ما اندرس وغاب منها، فماذا سيقول عنه اليهود والإعلام الغربي، بل وكثير من أصحاب الاتجاهات العلمانية في بلاد المسلمين؟

### مرحلة السلام... ماذا تعني؟ (١)

تحدثنا في الأسبوع الماضي عن مرحلة السلام القائمة الآن والساخرة على أشدها . وإن مما يثير في النفس حزناً ، أن يرى القدس : بمسجدها الأقصى وبأراضيها المباركة ، تحولت إلى سلعة زهيدة تباع في سوق النخاسة وعلى من ؟ على يهود!!! .

والثمن بضعة دريهمات - هي في الأصل ديون ربوية لأعدائنا - وبضعة أسلحة ، تعداها الزمن ، وصارت عبئاً على أصحابها ؛ لأنها تحتاج إلى تخزين وصيانة . وبالمقابل ، كان موقف أهل عكا - قبل مئات السنين - حين امتد حصار الصليبيين القادمين من كافة دول أوروبا لمدة ثلاث سنوات ، يعطي مثالاً للصمود وعدم الاستسلام .

فإنه لما أصبحت عكا على وشك السقوط في أيدي الصليبيين ، فاضوا صلاح الدين على رفع الحصار عنها ، وكان الثمن باهظاً ، أن يسلم للصليبيين بيت المقدس . وحين علم أهل عكا بذلك - وهم قاب قوسين أو أدنى من الموت والذبح على أيدي الصليبيين - ، كتبوا إلى صلاح الدين هذه الرسالة :

«يا مولانا لا تخضع لهؤلاء الملاعين الذين قد أبوا عليك الإجابة إلى ما دعوتهم فينا ، فلإنا قد بايعنا الله على الجهاد حتى نُقتل عن آخرنا . والله المستعان والسلام» (٢) .

وسقطت عكا في يد الصليبيين ، وأعملوا فيها قتلاً ونهباً بعد إعطاء الأمان ، ولكن بقيت القدس في يد المسلمين . وبيع أهل عكا ، فقد قضا شهداء إن شاء الله . أما الصليبيون ، فما هي إلا سنوات معدودة وإذا بهم يجرون أذيال الهزيمة - قد رجع من بقي منهم حياً إلى بلاده بعد طردهم عن آخرهم .

إنني أتساءل : هل مرحلة السلام التي يريها النصارى بكل قوة ، تمثل - في نظر

(١) الجمعة ٢١/٢/١٤١٥هـ .

(٢) ابن كثير في البداية والنهاية (١٢/٣٤٢) .

الغرب - إنهاء مشكلة بين المسلمين واليهود؟

ومتى كان الغرب يهشّ لمشاكل الآخرين ، وهو الذي شاهد على مدار شهور طويلة ، مآسي المسلمين الرهيبة في البوسنة ، فلم يحرك ساكناً ، ولولا شجاعة وبطولة المجاهدين هناك بسبب إيمانهم بالله وجهادهم في سبيله ، لبلغ الصرب المسلمين والغرب ينظرون - بل وهم مبتهجون - ؟

إن من المحزن أن كثيراً من المسلمين يتفرج على عملية السلام من خلال الإطار الذي تحدده - وتوحي به - وسائل الإعلام - العربية والعالمية - وخصاله : أن الغرب ضاق من المشكلة وهو يريد الخير لنا وللإهود جميعاً ، ويريد الخير له في النهاية عند حلول السلام والاستقرار .

يجب أن نعلم جميعاً ، أن دولة يهود ، غرست في قلب العالم الإسلامي لتحقيق مصالح صليبية بعد أن تحققت مصالح يهودية .

تعالوا إلى قصة إنشاء دولة إسرائيل ، ومعلوم أن الذي وعد بإنشائها ، ثم وقى بما وعدهم الإنجليز . وإذا كان اليهود - أعداء العالم - هم وراء ذلك لتحقيق أطماعهم ، فإن الصليبيين كانوا أيضاً يريدون تحقيق أهدافهم ، تعالوا إلى الأمثلة والشواهد :

١ - تقول مذكرة صادرة من قبل الأركان العامة في مكتب الحزب الحاكم البريطاني : «إن إقامة دولة يهودية عازلة في فلسطين ، على الرغم من أن هذه الدولة سوف تكون ضعيفة بذاتها [لاحظوا وقارنوا هذا بواقع دولة اليهود اليوم] ، هو أمر مرغوب فيه من الناحية الاستراتيجية بالنسبة لبريطانيا»<sup>(١)</sup> .

٢ - ويقول اليهودي «تيودور هرتزل» في كتابه المشهور «الدولة اليهودية» : وهو يتحدث عن سلطان الدولة العثمانية - التي كانت تحكم فلسطين - : وماذا سيمنح الدولة العثمانية من أموال لو أعطتهم فلسطين ؟ .

يقول هرتزل : «على افتراض أن صاحب الجلالة السلطان سوف يمنحنا فلسطين ، فسوف يكون بوسعنا بالمقابل : القيام بتنظيم تمويل تركيا بالكامل . لذلك

(١) الصهيونية والعنصرية [أبحاث مؤتمر بغداد] (٢/١٤) .

فإننا سنشكل جزءاً من متراس أوروبا في وجه آسيا ، كقاعدة أمامية تعارض البربرية ، وينبغي علينا كدولة محايدة أن نبقي متحالفين مع أوروبا بأكملها ، التي سوف يترتب عليها أن تضمن وجودنا»<sup>(١)</sup>، ولنا على كلام هرتزل تعليقات:

١ - بيع البلاد بالمال ، لولا أن اليهود يجدون من يبيعهم قديماً وحديثاً لما عرضوا مثل هذا العرض ، ولكن أين رجال أمس من رجال اليوم.

سبق قبل قليل ذكر مثال لأهل عكا، الذين باعوا أرواحهم لله في سبيل الله حتى لا تسقط القدس . والآن نذكر جواب سلطان تركيا الذي ذكره هرتزل ووعد بسداد ديون تركيا المثقلة بالكامل في مقابل فلسطين .

لما كلف اليهود المجتمعون في مدينة بال بسويسرا سنة ١٨٩٧م ضمن قرارات عديدة ، أن يقوم هرتزل بمفاوضة السلطان عبد الحميد الثاني . باشر هرتزل مهمته بسرعة ، واتصل بالسلطان عبد الحميد وزاره مرتين:

الأولى عام ١٩٠١م فلقى هرتزل الرفض والصدود من السلطان، ثم إن هرتزل لم ييأس فعاود والتقى به مرة ثانية عام ١٩٠٢م بعد أن قدم الرشوة لأعوان السلطان - فأدخلوه عليه مع أنه قد نبه إلى عدم السماح له بالدخول - فلما رآه طرده شر طردة وقال له : «إن فلسطين ليست ملكاً لي، وإنما هي ملك لشعبي لا يحق لي التصرف فيها، ولا أستطيع أن أتخلى عن شبر واحد من أرض فلسطين التي قاتلت أمتي في سبيلها، وروت تربتها بدماء المسلمين» . مع أن فلسطين كانت داخلة تحت مملكة الدولة العثمانية، والدولة مثقلة بالديون .

٢ - ونقول أيضاً معلقين على كلام هرتزل : ما مدلول قوله : إننا نشكل جزءاً من متراس أوروبا في وجه آسيا ؟ كقاعدة أمامية تعارض البربرية!!!

إن هرتزل لا يقصد سوى الإسلام وحملة الإسلام في بلاد آسيا؛ لأنه هو الذي يمثل خطراً على الغرب في أوروبا . إذاً دولة إسرائيل متراس للغرب - حسب تعبير هرتزل - في وجه الحراب الإسلامية .

٣ - ثم إن هرتزل يؤيد ما سبق ، بأن الدولة اليهودية ستبقى متحالفة مع أوروبا

بأكملها ، وهذا يعني اتحاد المصالح بينهم ضد الإسلام والمسلمين .

٣- واليهود يرون أنفسهم بناء الحضارة ، ومن ثم فمن مصلحة العالم أن تؤسس لليهود محطة حضارية . يقول هرتزل - أمام المؤتمر الصهيوني الأول الذي عقد في مدينة بازل بسويسرا - :

«إنه لمن مصلحة الأمم المتعدنة أكثر فأكثر ، ومن مصلحة المدينة بشكل عام ، أن تؤسس محطة حضارية عبر أقصر طريق لآسيا . إن فلسطين هي تلك المحطة ، ونحن اليهود حملة الحضارة المستعدون لبذل أملاكنا وأرواحنا من أجل تكوينها»<sup>(١)</sup> .

ويلاحظ أن هذا الكلام قاله هرتزل قبل مايقارب مائة عام . وماذا كان عند اليهود من حضارة في ذلك الوقت؟

٤- وليس هذا فكر هرتزل وخططه المستقبلية ، بل خليفته اليهودي حاييم وايزمان قال بعد كلام - هرتزل السابق - بعشرين عاماً ، وذلك في خطاب وجهه إلى آرثر بلفور الوزير البريطاني صاحب الوعد المشهور . يقول له وايزمان :

«مجتمع من أربعة أو خمسة ملايين يهودي يقيمون في فلسطين . . . ومن هذا المجتمع يستطيع اليهود أن ينشروا في الشرق الأدنى إشعاعهم» .

ما هو الإشعاع الذي سينشره اليهود؟

وسيخدم من هذا الإشعاع المشع من أفئدة أحفاد القردة والخنازير؟

ولمن سيوجه هذا الإشعاع؟

إنه إشعاع نووي ضد الخطر الجاثم والقادم : الإسلام .

ولأن الغرب الصليبي اقتنع بالفائدة ، فقد صدر وعد بلفور سنة ١٩١٧ م . ثم أنشئ رسمياً بمباركة الأمم المتحدة ومن ورائها وطن قومي لليهود عند تقسيم فلسطين سنة ١٩٤٧ م .

ويلحظ هنا - بالنسبة لوعد بلفور - أن ويلسون رئيس الولايات المتحدة تلقى من «لويدي جورج» رئيس بريطانيا ، ومن وايزمان ، نص ما أتفق عليه من عبارات وعد

(١) المصدر السابق (٢/١٤) .

بلفور، فوافق على ذلك وباركه قبل أن يصدر الوعد رسمياً في ٢ نوفمبر ١٩١٧م. أما فرنسا وإيطاليا، فإنهما وافقتا عليه بعد إصداره.

٥- وأخيراً . . . هل توقفت أطماع اليهود في التوسع ، وفي مقدسات المسلمين داخل الجزيرة العربية؟

إن الإجابة بلا ، لا يجيبها إلا مغفل أو ساذج .

أ- في صيف سنة ١٩٥٥م حين أقام اليهود احتفالات في إيلات بمناسبة الذكرى السنوية لاحتلال صحراء النقب . ألقى «موشي ديان» قائد الجيش الإسرائيلي خطاباً قال فيه : «إن إيلات هي بوابة إسرائيل إلى البحر الأحمر والمحيط الهندي، ونحن نتطلع نحو الجنوب». أي جنوب يتطلع إليه ديان؟

ب- ويقول الصحفي اليهودي المشهور (بن هنخت) في مقال نشره في صحيفة التايمز البريطانية: «عندما تصبح لنا معشر اليهود السيطرة الكاملة على العقبة وخليجها ، فإننا سوف نستطيع مهاجمة الحجاز وتدمير الأماكن المقدسة والخرافية في مكة والمدينة» .

ج- وجولد ماثير رئيسة وزراء إسرائيل سابقاً، عندما زارت ميناء إيلات في خليج العقبة بعد حرب ١٩٦٧م تطلعت نحو الجنوب، ثم هتفت قائلة: «إنني أشم رائحة أجدادي بالحجاز وهي وطننا الذي علينا أن نستعيده» .

د- وبن غوريون هو صاحب المقالة المشهورة بعد الاحتلال القدس: «لقد استولينا على القدس واستعدناها ونحن اليوم في طريقنا إلى يثرب» .

إن خطة اليهود القادمة - وقد تكون بعد سنين طويلة - ، مشابهة لخطتهم في فلسطين:

أ- سيفتحون القدس للزيارة، ويطالبوا بفتح المقدسات في مكة والمدينة للزيارة .

ب- ثم ينشطون في السياحة والتجارة - واليهود هم من هم في ذلك - .

ج- وخلال ذلك ، ستجد اليهود وقد ملكوا - بطريق مباشر أو غير مباشر - أراضي المسلمين ودورهم ، . . . وهكذا .

الفصل السادس  
الغرب والإسلام

- ١ - الغرب والإسلام .
- ٢ - حصار عكا دروس ودروس .
- ٣ - حول مؤتمر السكان العالمي في مصر .
- ٤ - حول مؤتمر المرأة في بكين .
- ٥ - حرب الإسلام وقضية الحجاب .
- ٦ - واجبنا نحو الشيشان .

## الغرب والإسلام (١)

صرح الرئيس الأمريكي كليتون في البرلمان الأردني (٢)، أنه يحترم الإسلام، لكنه ينبذ ويعادي الإرهاب!!!

في هذه الأيام - ومع حرص الغرب وزعمائه - على الحديث عن الإسلام، كثيراً ما يمرّ بخاطري قصة هرقل مع أبي سفيان قبل إسلامه، وأتساءل:

هل يعيد التاريخ بعض فصوله أو هل يعيد التاريخ نفسه، ولو من بعض الوجوه؟

تعالوا إلى قصة أبي سفيان نسردها باختصار: روى البخاري في صحيحه - وغيره - عن عبد الله بن عباس - رضي الله عنهما - أن أبا سفيان أخبره أن هرقل (ملك الروم) أرسل إليه في ركب من قريش - وكانوا تجاراً بالشام - في المدة التي كان رسول الله ﷺ معاهداً فيها أبا سفيان وكفار قريش - بعد صلح الحديبية وأبو سفيان كان زعيم قريش بلا منازع - فاتوه وهم بإيلياء - أي القدس -، فدعاهم إلى مجلسه، وحوله عظماء الروم، ودعا بترجمانه فقال: أيكم أقرب نسباً بهذا الرجل الذي يزعم أنه نبي؟

فقال أبو سفيان: فقلت أنا أقربهم نسباً. فقال: أدنوه مني. وقربوا أصحابه فاجعلوهم عند ظهره. ثم قال لترجماته: قل لهم: إنني سائل هذا الرجل، فإن كذبتني فكذبوه، فوالله لولا الحياء من أن يأتروا عليّ كذباً لكذبتُ عنه.

ثم كان أول ما سألتني عنه أن قال:

كيف نسبه فيكم؟

قلت: هو فينا ذو نسب.

قال: فهل قال هذا القول منكم أحد قط قبله؟

قلت: لا.

قال: فهل كان من آبائه من ملك؟

قلت: لا.

(١) الجمعة ٢٣/٥/١٤١٥ هـ. (٢) في يوم الأربعاء الموافق ٢١/٥/١٤١٥ هـ.

قال : فأشرف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم؟

فقلت : بل ضعفاؤهم .

قال : أيزيدون أم ينقصون؟

قلت : بل يزدون .

قال : فهل يرتد أحد منهم سخطةً لدينه بعد أن يدخل فيه؟

قلت : لا .

قال : فهل يغدر؟

قلت : لا - ونحن معه في مده - أي هدنة - ، ما ندري ما هو فاعل فيها .

قال : ولم تمكني كلمة أدخل فيها سوى هذه الكلمة .

قال : فهل قاتلتموه؟

قلت : نعم .

قال : فكيف كان قتا لكم إياه؟

قلت : الحرب بيننا وبينه سجال .

قال : وبماذا يأمركم .

قلت : يقول : اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئاً ، واتركوا ما يقول آبائكم ،

ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصلة .

فقال للترجمان : قل له : سألتك عن نسبه ، فذكرت أنه فيكم ذو نسب ، فكذلك

الرسول تبعث في نسب قومها .

وسألتك : هل قال أحد منكم هذا القول؟ فذكرت أن لا ، فقلت : لو كان أحد

قال هذا القول قبله ، لقلت : رجل يأتي بقول قيل قبله . وسألتك : هل كان من آبائه

من ملك؟ فذكرت أن لا ، قلت : فلو كان من آبائه من ملك قلت : رجل يطلب ملك

أبيه . وسألتك : هل كنتم تهتمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ فذكرت أن لا ،

قلت أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله . وسألتك أشرف

اتبعوه أم ضعفاؤهم؟ فذكرت أن ضعفاءهم اتبعوه ، وهم أتباع . وسألتك : أيزيدون

أم ينقصون؟ فذكرت أنهم يزدون ، وكذلك أمر الإيمان حتى يتم . وسألتك : أيرتد

أحد سخطةً لدينه بعد أن يدخل فيه؟ فذكرت أن لا ، وكذلك الإيمان حين تخالط

بشاشته القلوب . وسألتك : هل يغدر؟ فذكرت أن لا ، وكذلك الرسول لا تغدر ،

وسألتك : بما يأمركم؟ فذكرت أنه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبنهاكم عن عبادة الأوثان ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف .

فإن كان ما تقول حقاً فسيملك موضع قدمي هاتين ، وقد كنت أعلم أنه خارج ، لم أكن أظن أنه منكم فلو أنني أعلم أنني أخلص إليه لتجشمت لقاءه ، ولو كنت عنده لغسلت عن قدمه .

ثم دعا بكتاب رسول الله ﷺ الذي بعث به دحية إلى عظيم بصرى فدفعه إلى هرقل . فقرأه فإذا فيه : بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد عبد الله ورسوله ، إلى هرقل عظيم الروم ، سلام على من اتبع الهدى . أما بعد : فإني أدعوك بدعاية الإسلام ، أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين<sup>(١)</sup> .

﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾<sup>(٢)</sup> .

قال أبو سفيان : فلما قال ما قال ، وفرغ من قراءة الكتاب كثر عنده الصخب ، وارتفعت الأصوات أخرجنا .

فقلت لأصحابي حين أخرجنا : لقد أمر أمر ابن أبي كبشة ، إنه يخافه ملك بني الأصفر .

فما زلت موقناً أنه سيظهر حتى أدخل الله علي الإسلام<sup>(٣)</sup> .

وفعلأً : صدق هرقل في استنتاجه ، وصدق أبو سفيان في يقينه أن الله سيظهر دينه :

● فدخل أبو سفيان الإسلام .

● وفتحت مكة قلعة الشرك ودخل الناس في دين الله أفواجاً .

(١) قيل : هم الفلاحون ، وقيل : الأمراء ، والأول أصوب ؛ لأنه في رواية ابن إسحاق : الأكارين أي :

الحرثيين . وكذا وردت الفلاحين عند أبي عبيد . والمقصود : أهل مملكته عموماً عبر عنهم بالفلاحين .

(٢) سورة آل عمران ، الآية : ٦٤ .

(٣) رواه البخاري (٣) وفي غير موضع من صحيحه .

● ولم تمض فترة وجيزة ، إلا وقد بدأت الفتوحات في العراق والشام ليتحقق ما قاله هرقل : « فسيملك موضع قدمي هاتين » . بل تعدت الفتوحات ما هو أبعد من ذلك .

ولنا مع هذه الحادثة من السيرة النبوية عدد من الوقفات المهمة :

١ - جرى هذا الحوار بين هرقل وأبي سفيان بعد عدد من المعارك بين رسول الله ﷺ وقريش . أبرزها معركة بدر وأحد والخندق . ثم وقع صلح الحديبية الذي اعترفت فيه قريش بالمسلمين كدولة في المدينة ، فعقدت معهم الصلح الذي سماه الله فتحاً ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا \* لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا \* وَتَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ... ﴾ (١) .

وقد كانت قريش قبل ذلك لا تنظر إلى الرسول وصحبه ، إلا على أنهم شلة من قطاع الطرق والمفسدين في الأرض ، ولكن الله تعالى ناصر دينه ومعلي كلمته . ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾ (٢) .

٢ - هرقل - عظيم الروم وملكها - بل هو أعظم ملك في زمانه بعد انتصاراته على الفرس ، يسعى وقد جاءه كتاب من محمد ﷺ يدعو فيه إلى الإسلام - يسعى للوصول إلى الحقيقة ناصعة ، لا يريد كذباً ولا دجلاً وإنما يريد أن يصل المعلومة الصحيحة عن هذا الذي يزعم أنه نبي .

ولما أتى له بأبي سفيان ومن معه ، وجعله في مقدمتهم ليسأله ، جعل أصحابه عند رأسه ليكذبوه إن كذب في الحديث . قال العلماء : وإنما وضعهم عند ظهره لثلاثي يستحووا أن يواجهوه بالتكذيب إن كذب .

٣ - لقد كان حرص هرقل على الوصول إلى الحقيقة شديداً ، وقد جاءت الأسئلة الموجهة إلى أبي سفيان واضحة موصلة إلى المراد بشكل قوي وجيد .

فأين هذا من الدجل والتضخيم الإعلام في العالم كله - وخاصة بلاد الغرب - التي تدعي الديمقراطية والحرية وخدمة الحقيقة!!!؟

٤ - ما هي الموازين التي توزن بها الدعوات ، ورجالاتها ؟ إن هرقل - وهو يسأل

(١) سورة الفتح ، الآيات : ١ - ٣ . (٢) سورة الصف ، الآية : ٨ .

عن رسول الله ﷺ ومن معه - لم يسأل عن: جيشه، ولا عن قوته الاقتصادية، ولا عن كثرة أتباعهم ونسبتهم بين الناس - ولا عن غير ذلك من الأمور، إنما سأل عن أمرين كبيرين:

أحدهما: المبادئ التي يدعو إليها.

الثاني: أخلاقه وسلوكه. هل يكذب؟، هل يغدر؟ هل هو صاحب مطامح دنيوية؟

٥ - ثم الاتباع، إنهم الضعفاء أتباع الأنبياء، وهذا في الأغلب، وإلا ففي الصحابة كان أبو بكر، وعمر، وعثمان، وسعد، وابن عوف، وغيرهم.

وفي بدايات الدعوة قال الملأ من مشركي مكة لرسول الله ﷺ: إذا أردت أن نحضر مجلسك لنستمع إليك فاطرد هؤلاء الضعفاء، وإلا بعدنا عن مجلسك، فأنزل الله أمراً صريحاً وقوياً لرسول الله ﷺ: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (١).

وقوله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ (٢).

٦ - ما هي الأسس التي كان يدعو إليها رسول الله ﷺ؟ ولماذا حاربه قريش من أجلها؟

إن أهم الأسس: [شهادة زعيم الكفر في قريش في ذلك الوقت]، هي:

■ أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً.

■ وينهاكم عن عبادة الأوثان.

■ ويأمركم بالصلاة، والصدق، والعفاف.

هذه خلاصة لأبرز المبادئ التي كان يدعو إليها، فلماذا حُورب من أجلها، ورمي

(٢) سورة الكهف، الآية: ٢٨.

(١) سورة الأنعام، الآية: ٥٢.

بشتى التهم التي لا تليق؟!!

٧- وأبو سفيان - زعيم قريش - وفي بلاط زعيم النصرانية ، لم لم يكذب ويشوه سمعة الرسول وصحبه بالاكاذيب ، وجعبته ملاءى بأنواع التهم التي تفتقت عنها أذهان قريش خلال حربهم الطويلة مع المسلمين .

يقول أبو سفيان - بعد أن شدد هرقل على مسألة الكذب : «والله لولا الحياء من أن يأتروا عليّ كذباً لكذبت عنه» .

وانتهوا القوله : (من أن يأتروا عليّ كذباً) : لم يقل أن يكذبوني أمام هرقل ؛ لانه متأكد - وهو زعيم قريش - أنهم لن يكذبوه أمامه . لكن خاف من نقل القصة بعد ذلك ونشرها على مسامع العرب فيؤثر عنه الكذب . فيقال : أبو سفيان يكذب أمام هرقل على بني عمه وأقاربه؟

أي أخلاق هذه وهم بعد لم يدخلوا في الإسلام؟

٨- وقول أبي سفيان : (لقد أمر أمرُ ابنِ أبي كبشثة ، إنه يخافه ملك بني الأصفر) . درس لليناسين من نصر الإسلام .

٩- وأخيراً: فإننا نسمع هذه الأيام من يقول من الكفار : إننا نحترم الإسلام ، ولكن أي إسلام يحترمونه - إن صدقوا؟!!

إنهم يحترمون نوعاً خاصاً من الإسلام ، له مواصفات :

١ - إسلام يدعو إلى الإيمان بالله دون الكفر بالطاغوت .

٢ - إسلام لا يقعد قاعدة الولاء والبراء .

٣ - إسلام معلمن لا علاقة له بالحياه .

٤ - إسلام يرضى بأن يكون للكافرين على المؤمنين سبيل .

٥ - خلاصته إسلام متمسكن خاضع .

أما الإسلام بالنصاعة والوضوح والقوة التي دعا إليها محمد بن عبد الله ﷺ ، إسلام الحنيفية ملة إبراهيم ، فهذا هو الأصولية التي يجب أن تُحارب!!!

### حصار عكا - دروس ودروس - (١)

حادثتان وقعتا ، وحالتان مرت بهما الأمة الإسلامية :  
إحدهما : معاصرة لنا ، بل لانزال كل فترة نشاهد ونرى فصلاً جديداً من  
فصولها .

أما الأخرى : فقد مضى عليها قرابة ٨٣٠ عاماً . أي أنها وقعت بين سنتي ٥٨٥ و  
٥٨٧ هجرية .

أما موقع الحادثتين كليهما فكان فلسطين .

أما المعاصرة : فلا نطيل فيها ؛ لأن أحداثها تنقل أولاً بأول في شتى وسائل  
الإعلام ، بل وتنقل أدق التفاصيل فيها ؛ لأنها حدث تاريخي خطير ومهم . حتى  
عند النصر في أقاصي الدنيا ، ولكن أبرز ما في هذا الحدث المعاصر ما يلي :

١ - عقد صفقات السلام ، الواحدة تلو الأخرى .

٢ - التنازل عن الأراضي الإسلامية في مقابل حكم ذاتي محدود في أراضي  
أخرى مجاورة .

٣ - تطبيع العلاقات مع اليهود .

٤ - وأخطر من ذلك كله : التنازل رسمياً عن مقدسات المسلمين ومدينة  
القدس ، لليهود .

وإذا كان هذا أخطر شيء ، فإن أعجب شيء ، أن تباع البلاد الإسلامية بالمال ،  
أو بالتنازل عن سداد الديون الربوية المتركمة .

ويُبارك هذا السلام عالمياً ودولياً . واليهود يسرون فيه بخطى ثابتة مدروسة .

هذه حال الأمة الإسلامية اليوم ، تنازل يتم عبر اتفاقيات موقعة ، وضمانات  
دولية ، ورؤوس نووية يهودية ، وأخطر ما فيه أنه تنازل عن القدس وعن مقدسات  
المسلمين .

وقلت في نفسي : ألهذا الحدّ هانت القدس على المسلمين؟؟؟

أما الحادثة الأخرى : فسأعرضها لكم باختصار ، لتقارنوا بين واقع وواقع ، وأمة  
وأمة ، ومواقف ومواقف .

احتل الصليبيون حين هجمت جيوشهم الجرارة كثيراً من الممالك الإسلامية في فلسطين وشماليها . وكان مما احتلوه بيت المقدس . ولكن الأمة الإسلامية - وقد صعقت لهذه الأحداث المتوالية الخطيرة - هبّت لجهاد الصليبيين ، وقام قادة كبار - مثل نور الدين محمود زنكي ، وعماد الدين زنكي وصلاح الدين الأيوبي - وغيرهم ، بإحياء روح الجهاد في الأمة الإسلامية ، فسارت جحافل الجهاد تقاتل هؤلاء الصليبيين ، حتى انتصروا عليهم وقضوا على كثير من ممالكهم ، وقد توج ذلك باسترداد بيت المقدس على يد صلاح الدين الأيوبي ، فكان يوماً مشهوداً . ولكن الحملات الصليبية القادمة من ممالك أوروبا - ذات الجيوش الجرارة - استمرت بعد ذلك محاولة استرداد ما سبق أن ملكته من بلاد المسلمين وعلى رأسها بيت المقدس .

فكان أن توجه الصليبيون إلى حصار مدينة عكا المسلمة التي كانت على ساحل البحر الأبيض المتوسط . وهي مدينة حصينة اشتهرت بأبراجها وحصونها العالية ، وكان ذلك سنة ٥٨٥هـ . واستمر الحصار قرابة ثلاث سنين ، ولأن الأحداث كثيرة وطويلة فتعالوا نقف مع هذه القصة المجيدة ووقفات :

١ - تجمعت القوى الصليبية بأساطيلها القادمة من أوروبا حول هذه المدينة الصامدة ، واستماتوا في حصارها ؛ لأنها الطريق إلى بيت القدس الشريف محط أنظارهم وهدفهم الكبير .

٢ - لم يكتفوا بالهجوم البحري ، بل إن جيش الألمان - الذي مات ملكه غرقاً وهو في طريقه لحرب المسلمين - ، كما هلك قرابة ربع مليون من جيشه على يد المسلمين في حمص وحماة وحلب ومدن الساحل ، اتخذت البقية الباقية من هذا الجيش مدينة صور مركزاً لها ، تشن الغارات منها على جيش صلاح الدين لتشغله عن نجدة أهل عكا المحاصرين .

٣ - وأمام هذه الجيوش الجرارة - الحاقدة - بقيت مدينة عكا صامدة ، مدينة واحدة صمدت أمام جيوش قارة كاملة ، كانت كالموج الهائج المتتابع يرتطم بأسوار المدينة المجاهدة دون انقطاع ، جيوش تحمل أحقاد حطين وسقوط القدس في يد المسلمين - جيوش ملأت البر والبحر فضاقت بها سواحل الشام .

٤ - أما صلاح الدين الأيوبي ، فقد استنفر المسلمين وأمراءهم للجهاد في سبيل الله ، ووقف - رحمه الله - بجموع المسلمين يكرون على الأعداء ، والحرب بينه وبين الصليبيين سجال ، كلما دمر لهم كتيبة استبدلوا بها كتائب ، وأوروبا هناك تقف وراء جيوشها تدعمها وتمدها بالمال والسفن والرجال في كل حين ، والحق على المسلمين

يملاً قلبها.

٥ - لما اشتدَّ الحصار على عكا، أصبح هم صلاح الدين الكبير أن يمدَّ المحاصرين بالمال والنفط والرجال؛ لأن إمدادات الصليبيين تصل إليهم بسهولة وإمدادات المسلمين المحاصرين لا تصل إلا بصعوبة شديدة.

فلم تبق حيلة أو خدعة حربية يفكر بها القادة، إلا وقد استخدمها صلاح الدين الأيوبي. حتى أنه في إحدى المرات أرسل سفن الإمدادات للمدينة المحاصرة من بيروت، وجعل من يدير السفن رجالاً موهين كأنهم فرنجة في لباسهم ولغتهم، وحملوا معهم الصليبان والخنازير زيادة في التمويه حتى وصلوا إلى عكا وأمدوهم بما معهم.

ولما كشف الفرنجة هذه الحيلة وجاءت إحدى السفن، فأحاطوا بها من كل جانب، فلما علم المسلمون أنهم لا شك واقعون في قبضة العدو، وفي السفينة المؤن والسلاح، خرخوا السفينة ففرقت بمن فيها وغرقوا معها شهداء - إن شاء الله.

٦ - وكان للاختراع دوره، فقد عمل الفرنج أبرجة من خشب وحديد، عليها جلود مسقاة بالخل؛ لتلا يعمل فيها النفط والنار، وهي مركبة على عجل بحيث يديرون كل برج متى شاءوا وأين شاءوا. وعلى ظهر كل برج منجنيق كبير، فلما رأى المسلمون ذلك أهمهم أمرها، وحاولوا إحراقها فلم يستطيعوا.

فأعمل السلطان صلاح الدين الأيوبي رأيه في ذلك فانتدب لذلك شاب نحاس من دمشق، كان قد تدرّب على ذلك من قبل لمثل هذا اليوم، فأخذ النفط الأبيض وخلطه بأدوية يعرفها وأوقدها في ثلاثة قدور حتى صارت ناراً تتأجج. فرمى كل برج يقدر منها فاحترقت الأبراج واحترق من فيها فصرخ المسلمون صرخة واحدة بالتهليل والتكبير.

٧ - كانت الباطنية عوناً للفرنجة ضد المسلمين، فقد اتخذوا من جبال الشام الوعرة مركزاً لهم، فكانوا يغيرون منها على الجيش الإسلامي، ويغيرون على طرق الإمدادات للمسلمين ويتحينون الفرص لاغتيال قادة جيوش المسلمين.

٨ - وكان للأدباء دور، فهذا القاضي الفاضل - الأديب المشهور - كان في مصر يدبّر الملك فيها ويجهز لصلاح الدين ما يحتاجه من الأموال وعمل الأسطول وغيرها.

ويقدم النصيحة الصادقة: فقد كتب إلى صلاح الدين. ومن هو صلاح الدين زهداً وعبادة وتقوى. كتب إليه يقول: إن سبب هذا التطويل في الحصار كثرة

الذنوب ، وارتكاب المحارم بين الناس ، فإن الله لا ينال ما عنده إلا بطاعته ، ولا يفرج الشدائد إلا بالرجوع إليه وامثال أمره . . .

وكتب أيضاً : إنَّما أتينا من قبل أنفسنا ، ولو صدقنا لعجل الله لنا عواقب صدقنا . . . إلخ .

٩ - وأخيراً اشتد الحصار ، وضعفت مقاومة المسلمين وجاءت امتدادات كثيرة جداً للصليبيين ، ففت ذلك في عضد المسلمين .

ولما قرب سقوط مدينة عكا المحاصرة في تلك الشهور الطويلة - بل السنوات - في الحصار .

وأراد الصليبيون من المسلمين الاستسلام ، ولما كادت تسقط ، أخذ المسلمون يتفاوضون مع النصارى في الشروط ، فكان أن كتب النصارى إلى صلاح الدين في الشروط ، وكان منها شرط عجيب :

حيث طلبوا ، حتى يرفعوا حصارهم عن عكا ، أن يسلم لهم القدس .

فسمع أهل عكا ، فكتبوا هذه الرسالة العاجلة إلى صلاح الدين الأيوبي :

«يا مولانا لا تخضع لهؤلاء الملائع الذين قد أبوا عليك الإجابة إلى ما دعوتهم فينا ، فإننا قد بايعنا الله على الجهاد حتى نُقتل عن آخرنا . والله المستعان والسلام»<sup>(١)</sup> .

لا ترجع لهم القدس من أجل إنقاذ أرواحنا ، فقد بايعنا على الموت ، والموت خير من الذل ، ولنكن ثمناً وفداءً للقدس الشريف .

هذه قصص تاريخنا الإسلامي في أحداث كبار مع الصليبيين ، فأين نحن اليوم مع اليهود والصليبية المعاصرة؟

\* \* \*

(١) ابن كثير في البداية والنهاية (١٢/٣٤٢) .

## حول مؤتمر السكان العالمي

### المعقود في مصر (١)

في هذه الأيام، يُعقد في مصر «مؤتمر عالمي» يسمى : مؤتمر الإسكان . وأنا أسميه مؤتمر : الاعتراض على الواحد الديان . وإليكم البيان :

فلقد اجتمعت ١٥٦ دولة من بين دول العالم بقيادة المنظمة الصليبية «هيئة الأمم المتحدة» ليقولوا: إن الانفجار السكاني سيقع على هذه الأرض بعد سنوات، وإن الأرض لن تستطيع استيعاب النمو البشري لا من ناحية الإسكان والمأوى ولا من ناحية المعيشة والرزق والطعام .

ومن ثم اقترحوا حلولاً متعددة - عمادها حلّ واحد - مركب من عدة حلول :  
أولها : إيقاف النمو السكاني عند حدّ معين .

وثانيها : يتم هذا الإيقاف بكل وسيلة ممكنة ، ولو كانت هذه الوسائل تقوم على حرب الله تعالى وحرب دينه وأوامره .

وثالثها : تستخدم القوة المعنوية والاقتصادية - وربما السياسية - لتنفيذ هذه القرارات . ومن ثم كان المؤتمر عالمياً بقيادة المنظمة الدولية ، ومعلوم من وراء هذه المنظمة .

ووالله ، ثم والله ما كنت أظن أن الجرأة ستصل بهؤلاء في هذا المؤتمر إلى الصياغات والمقترحات ، ولكن ليس بعد الكفر ذنب .

إن هذا المؤتمر يقوم على اعتراض على الله تعالى . وهذا الاعتراض مكوّن من شقين لا ثالث لهما :

الشق الأول: إما أن يقولوا : إن وجود الإنسان وخلقه على هذه الأرض لا يتم بتقدير الله تعالى ، وليس لله فيه سابق علم ولا إرادة ولا خلق . ومن ثم فيمكن أن يحدث تكاثر سكاني هائل ، بعيد عما أودعه الله تعالى في هذه الأرض من وسائل وسبل الحياة وحفظها .

وهذا - بلا شك - باطل كل البطلان، فما من نفس منفوسة إلا وهي مقدره خلفاً ورزقاً وأجلاً، قال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنزِلُهُ إِلَّا بِقَدْرِ مَعْلُومٍ﴾ (١)، وقال تعالى: ﴿إِنَّا كُلُّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدْرِ﴾ (٢).

وقال ﷺ في العزل - وهو من وسائل تحديد النسل - : «فإنه سيأتيها ما قدر لها» (٣). بل إن كل نفس قد كتب الله رزقها وأجلها وعملها وشقية أو سعيدة. كما في حديث ابن مسعود (٤).

الشق الثاني: وإما أن يعترفوا أن وجود الإنسان بتقدير من الله تعالى، لكنهم يقولون: إن الله لم يتكفل بأرزاق العباد، وإن هذه الأرض التي نعيش عليها غير كافية للسكنى ولا لأرزاق العباد.

وهذا بلا شك باطل وقرية كبرى؛ لأن الله تعالى لم يتكفل بأرزاق البشر فقط، وإنما تكفل بأرزاق جميع الحيوانات: مما يعيش في البر أو البحر، حتى الحشرات الصغيرة التي تعيش في شقوق مظلمة أو لا يستطيع أن يراها الإنسان لصغرها. قال تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ (٥).

وفي حديث ابن مسعود السابق: «فيرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح ويؤمر بكتب رزقه وأجله وعمله وشقيه أو سعيد» (٦).

إذن، هذا المؤتمر خلاصته: اعتراض على الله أو عدم إيمان به.

لقد كانت الجاهلية الأولى أحسن حالاً من جاهلية هيئة الأمم المتحدة. كانوا يقتلون أولادهم أحياناً خشية الفقر، وأحياناً يثدون البنات خوف العار. ولكن قبائل العرب لم تجتمع في يوم من الأيام لتتخذ قراراً مثل هذا. أما جاهلية هيئة الأمم، فقد

(٢) سورة القمر، الآية: ٤٩.

(١) سورة الحجر، الآية: ٢١.

(٣) رواه: مسلم (١٤٣٩).

(٤) رواه: البخاري (٣٢٠٨) وفي غير موضع، ومسلم (٢٦٤٣).

(٥) سورة هود، الآية: ٦.

(٦) رواه: البخاري (٣٢٠٨) وفي غير موضع، ومسلم (٢٦٤٣).

صنعت هذا ، حين اجتمعت دول العالم - إلا من عصم الله وقليل ما هم - لتجمع على قتل الأولاد بإباحة الإجهاض الذي هو في الحقيقة قتل للأولاد واعتراض على رب العباد . بل زادت هذه الجاهلية - وهذا مخز ومؤسف - على الجاهلية الأولى حين جعلت العار من وسائل قتل الأولاد . فأباحت هذا الجاهلية الزنا واللواط والشذوذ بكل أنواعه وجعلوا ذلك من وسائل تحديد السكان .

ألا ما أسخفها من جاهلية؟

إن الله تعالى ذكر هذا في كتابه ، فقال : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِمَّنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴾ (١) ، وقال : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ﴾ (٢) .

فنهى عن قتل الأولاد سواء حصل الفقر - حالاً - أو خيف الفقر - مستقبلاً . والله تكفل بالرزق في كلا الحالين .

ولذا ثبت في الصحيحين عن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - قال : قلت يا رسول الله ! : أي الذنب أعظم؟ - بعد الشرك - قال : «أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك...» (٣) . فجعل قتل الولد أعظم ذنب بعد الشرك .

ولكن هل اقتصر المؤتمر على هذه المسألة فقط؟ أم أنه أضاف إليها قضايا أخرى حاربوا فيها الله ورسوله ودينه وشريعته؟  
تعالوا إلى وقفات حول المؤتمر - وإلا فقد بين العلماء - جزاهم الله خيراً - ما يحويه من كفر وظلم ومحادة لله ولرسوله .

أولاً، وثيقة المؤتمر التي هي ورقة العمل؛ يلاحظ عليها ما يلي :

أ - الدولة المقدمة للوثيقة قامت بحملة انتخاب رئيسها الحالي - من ضمن ما قامت عليه - : «قبول اللوطينة - الشاذين - في القوات المسلحة رسمياً» .

فبالله عليكم ، كيف ستكون ورقة عمل تتعلق بالسكان وتحديد النسل ، والمرأة ، والعلاقة بين الرجل والمرأة ، إذا قدمت من دولة بلغ بها أن تقبل بالشواذ جنسياً حتى

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٥١ . (٢) سورة الإسراء، الآية: ٣١ .

(٣) رواه: البخاري (٤٤٧٧) وفي غير موضع، ومسلم (٨٦) .

في صفوف جيشها؟ ولذا جاءت ورقة العمل كما قيل: وكل إناء بالذي فيه ينضح.

ب- تتكون الوثيقة من ١١٣ صفحة، ليس فيها ما يتعلق بالتنمية إلا سبع صفحات. أما الباقي، فتدور حول القضايا التي أثار كثير منها ضجيجاً واسعاً؛ لأنها تمس أخص خصوصيات الإنسان والأمم من أتباع الديانات - وخاصة الإسلام - دين الله الكامل الذي لم يحرف ولم يغير كغيره من الديانات.

ج- وأشد ما يلفت الانتباه أن ورقة العمل المقدمة هي الورقة الوحيدة، ولا أوراق غيرها، وهكذا تتبع قضية هذا المؤتمر الهيمنة السياسية.

ثانياً: تعليق على بعض الكلمات في المؤتمر:

قال الأمين العام للأمم المتحدة - البطرس - في كلمة باللغة الفرنسية بعد كلمتين باللغة العربية والإنجليزية - «إن تنفيذ السياسات الخاصة بقضايا السكان والتنمية، قد يتطلب مواجهة بعض التقاليد، من هنا تؤكد أهمية التسامح واحترام الحضارات والتقاليد، وضرورة احترام الديانات عند مناقشة القضايا الخلافية المطروحة». لكنه أضاف: «إن التسامح لا يعني إضعاف الحلول وطرح مبادرات خاوية، ولا يمكن القبول بفرض وجهة نظر معينة تقف في وجهة تطور الإنسانية». إنه يطرح ما يلي:

١ - ضرورة مواجهة بعض التقاليد! أي تقاليد يقصد؟؟؟.

٢ - مع ذكره لاحترام الديانات، إلا أنه يستدرك ليقول: إن ذلك لا يعني طرح مبادرات خاوية، بل لا بد من حلول عملية تتفق والحلول المطروحة.

٣ - إنه لا يمكن القبول بوجهة نظر معينة نقف في وجه تطور الإنسانية! . إلى من يشير البطرس؟.

ثالثاً: أخطر ما في المؤتمر: حين تقنن الجريمة، وتصبح عملاً مشروعاً:

وهذه أخطر قضية في المؤتمر، وأهمها وأعمقها أثراً في حياة وواقع الشعوب.

إن الجريمة حين ترتكب على أنها جريمة، ويعاقب عليها، تبقى أمراً مرفوضاً مستنكراً من الناس الاسوياء. أما حين تكون أمراً مباحاً ينص على إباحته القانون، فإن الأمر يختلف حيث يتحول هذا الأمر - مع طول الزمن - وعدم الإنكار إلى أمر عادي، ومن ثم تحميه الدولة وتحارب من يستنكره. وهذا يدخل فيه أحياناً ما

اعتادت بعض الشعوب عليه - ولو لم ينص على إباحته القانون -، ومن أمثلة ذلك:

١ - المخاللة عند الغربيين أمر غير مستنكر ، فالزوجة لها عشيق غير زوجها والزوج له عشيقة كذلك ، ولا يضر علم أحدهما بذلك . ما دامت العلاقات تتم خارج عش الزوجية ، وهكذا مسخت الغيرة عند هذه الشعوب .

٢ - تنص بعض قوانين الدول - ومنها دول إسلامية - على أن الزنا بالتراضي ، لا يعاقب عليه القانون ، ومقتضى ذلك ، إلغاء حدّ الزنا المنصوص عليه في الكتاب والسنة .

وانظروا وتأملوا في شعب يرى هذا قانوناً يحميه النظام والقانون وتطبقه المحاكم .

٣ - وهكذا بالنسبة للخمور ، والعريّ وحدوده .

ولذا ، فإننا نقول : إن أخطر ما في هذا المؤتمر - حيث ترعاه هيئة الأمم المتحدة - وسيصبح أحد موثيقها ، هو أن تتحول هذه الأمور إلى قوانين مقررة عالمياً ، وتطالب الدول بتطبيقها .

وبذا يتحول الإجهاض ، والشذوذ ، والإباحية ، ومنع الزواج المبكر ، وتحديد النسل ، إلى قوانين عالمية تحميها دول الكفر والإلحاد والإباحية؟

رابعاً: لماذا مصر؟ إذا كانت ورقة العمل بهذا المستوى من الكفر والإباحية ، فلماذا لم يعقد في السويد أو فرنسا؟ أو غيرها من دول الغرب المعروفة بإباحتها ومجونها؟!

لماذا هذا التحدي لعشرات الملايين المسلمين في مصر ولثلاث الملايين خارج مصر؟ لماذا؟

الآن مصر قوية اقتصادية ، ولديها استعداد لتحمل نفقات المؤتمر الباهضة؟ ومصر - كما هو معروف - مثقلة بالديون!!!

أم لأن مصر سريعة في نموها البشري ، حتى إنها متميزة في ذلك عالمياً . فهي أولى دولة بتطبيق بنود المؤتمر!!!

أم أن مصر بلد إسلامي - وشعبها شعب متمسك بأصول دينه - وخاصة منها ما يتعلق بأسباب إنشاء المؤتمر - وهي أيضاً دولة - تشرف على القارات الثلاث ، وتهدد دولة أحفاد القردة والخنزير ، في يوم من الأيام بالقضاء عليها باسم الإسلام والجهاد في سبيل الله!!!؟

أم أن المؤتمر خطير ، وقرارته خطيرة وتاريخية ، ويحتاج حتى يثمر المؤتمر جهوده أن يعقد في دولة نامية طيعة؟ وتقود غيرها إلى حيث تسير!!! وإليكم هذا الخبر الذي نشرته مجلة المجتمع الكويتية:

«أكدت مصادر مطلعة أن الولايات المتحدة الأمريكية حصلت على تأكيد من الحكومة المصرية أنها لن تقود أي معارضة من الدول الإسلامية ضد مشروع التوصيات في مؤتمر السكان ، وأن أمريكا ربطت المعونات الاقتصادية بالالتزام الكامل بقرارات المؤتمر ، وأيضاً بالتوقيع على وثيقة أخرى للأمم المتحدة تقضي بالتعهد بوقف النمو السكاني وتثبيت عدد السكان»<sup>(١)</sup>.

خامساً:

١ - لماذا هذا الصمت من بعض المفكرين وكتاب الصحف في غالب الصحف العربية!!!؟

إنه صمت مريب من هؤلاء ، القضية ساخنة ، وتمس عدداً من الأمور المهمة والحيوية : الدين ، التقاليد ، المرأة ، التنمية ، العلاقات الأسرية ، الحب ، الزواج . . . إلخ . وتمتزع فيها السياسة بالاقتصاد ، وكل منهما بالاجتماع والتنمية .

فلماذا يسكتون وهم الذي يتكلمون في القضايا الصغيرة - والتافهة أحياناً - وخاصة من يلتزم منهم الكتابات اليومية أو الأسبوعية؟

لديّ جواب ، ولكن أترك الجواب لكم لتفكروا فيه . ولتعرفوا كيف يكون تعامل هؤلاء مع قضايا العلمنة والإباحية والسير في ركاب الغرب ، والخروج على مبادئ الإسلام الحنيف؟ .

\* \* \*

(١) مجلة المجتمع ، العدد (١١١٥) ، ٣٠/٣/١٤١٥هـ .

## حول مؤتمر المرأة العالمي في «بكين» الذي تنظمه هيئة الأمم المتحدة<sup>(١)</sup>

عُقد في الأسبوعين الماضيين مؤتمر عالمي للمرأة في «بكين» ، وقد حضره ما يقارب من خمسين ألف امرأة من شتى أنحاء العالم مختلفات المشارب والديانات ، وطرح آراء وجرت مناقشات .

ولكن وثيقة المؤتمر - التي أعدتها هيئة الأمم المتحدة - بقيت هي الأساس الذي يدور حوله المؤتمر وعلى بنودها يجري التوقيع ، وفي الوثيقة بنود وقضايا كثيرة تتعلق بالمرأة ، ولكن الذي يهم هو ما اشتملت عليه من بنود خاصة تعارض الأديان والأخلاق والفطر والآداب التي أجمع عليها من لم تصب فطرته بانتكاسة ، ومن ذلك:

- ١ - إعطاء المرأة حرية كاملة .
- ٢ - المطالبة بمساواة المرأة للرجل في جميع الأمور .
- ٣ - إباحة العلاقات غير الشرعية قبل الزواج ، وتعليمها للجنسين منذ الصغر .
- ٤ - إباحة الانحلال والشذوذ .
- ٥ - كون الطلاق بيدها لا بيد الرجل .
- ٦ - إباحة الإجهاض ووأد وقتل الأولاد .
- ... وغيرها من البنود .

ونحن هنا لسنا بصدد بيان منزلة المرأة في الإسلام ، وما أعطاها من حقوق ، وحكم الإسلام في هذه القضايا المطروحة . ولا بصدد الحديث عن المرأة في الغرب ، وهل فعلاً نالت ما تطمح إليه وقد أعطيت الحرية والمساواة على مدى عشرات السنين الماضية .

إنما نقف وقفات مع المؤتمر وخلفياته ، فنقول:

أولاً: لماذا التركيز على قضية «المرأة»: أوضاعها، وأحوالها، وحريتها؟ إن المرأة مستهدفة بشكل خاص؛ لأمور:

١- أن غزوها عقدياً وخلقياً له أثره البالغ في المجتمعات؛ لأنها من أقوى الوسائل وأشدّها أثراً في التدمير، وقد عرف هذا دعاة الفساد والانحلال فاستخدموا المرأة في شتى الوسائل: الأفلام، المجلات، الدعاية، الأزياء . . . .

٢- أن الأسرة نواة المجتمع، ودور المرأة في الأسرة - أمّاً وزوجة وأختاً وبتناً - له أثر كبير، ويكفي أن الجانب الأكبر في تنشئة الأجيال تقوم به المرأة. فحين يتحقق الغزو والتدمير للمرأة ينتقل أثرها سريعاً إلى الأجيال القادمة.

٣- أن المرأة بطبيعتها العاطفية وسرعة تأثرها تكون أسهل في الاستجابة لمطالب أهل الانحراف وخاصة حين تخلو من العقيدة أو تضعف عقيدتها وما ينبثق منها من تربية وخلق.

٤- إضافة إلى ما ركبت في المرأة من الجمال، وتعلق الرجال بهذا الجمال.

ثانياً: ومؤتمر المرأة العالمي عقد تحت ظل الأمم المتحدة، وهذه المنظمة - كما عرفنا من خلال أنظمتها ومواقفها وآخرها مواقفها في قضية البوسنة والهرسك - تقف وراءها قوى معروفة هي قوى الغرب الصليبي.

والغرب ينظر من علو إلى بقية أم الأرض، ومن ثم يزعم:

١- أنهم أهل رسالة موجهة إلى العالم. وينبغي للعالم كله أن يستمع ويصغى إليهم.

٢- أنهم هم الأمة التي تفكر، وهم الذين يملكون أدوات التفكير والبحث. ومن عداهم لا شيء ولا يستحق إلا أن يتكرم عليه الغرب بجعله تبعاً له.

٣- إنكار أية ثقافة أخرى والتهوين منها، وبالإخص المنهج الإسلامي عقيدة وشريعة وآداب.

ويرى الغرب الصليبي أنه مسيطر عسكرياً واقتصادياً وإعلامياً وهو يسعى إلى السيطرة والاختراق الثقافي والعقدي لغيرهم من الأمم. وهذه المؤتمرات - إضافة إلى البث المباشر اليومي - هو جزء من هذا البرنامج.

والملاحظ : أن الغرب أخيراً - لم يعد يركز كثيراً على المؤتمرات التنصيرية التي كانت تعقد في السنوات الماضية ويديرها ويقوم عليها مناصرة من السياسة ومن القسس والرهبان - بل أصبح يركز على مؤتمرات الأمم المتحدة في ميادين متعددة ، منها : ميادين السكان والمرأة . . .

إذن ، مؤتمر المرأة هو في جملته حرب عقديّة أخلاقية يشنها الغرب على العالم الثالث - وأبرز من في العالم الثالث المسلمون - وهي محاولة لزرع وسائل الهيمنة على هذه الأمم .

ثالثاً: ما هي أهم أهداف المؤتمر الذي عقد باسم المرأة ؟

ينبغي أن يعلم أن وثيقة المؤتمر أعدت قبل عشرين سنة في مؤتمر للأمم المتحدة عقد في المكسيك سنة ١٩٧٥ م .

فما تحويه طيات المؤتمر بوثيقته ولجانه المتعددة ، وما يدعو إليه - باسم حقوق المرأة - من إباحية وشذوذ ، وفرض حقوق للمرأة في قتل الأولاد ووآدهم وفي الطلاق . . . إلخ . كل ذلك قد أعدّ بعناية وأشرفت عليه قوى الغرب .  
وأهم أهداف المؤتمر:

١ - أن الغرب لم ينجح في معالجة قضايا الإباحية والمخدرات - وما ينتج عنها - ومن ثم فهو يريد تصديرها إلى المجتمعات الأخرى ، ومنها المجتمعات الإسلامية . فالمؤتمر محاولة لفرض الواقع الغربي الإباحي على دول العالم الأخرى سواء كانت محافظة أو غير محافظة .

٢ - إضفاء صفة الشرعية والقانون على الإباحية والرذيلة والانحلال . بحيث يصبح الانحراف هو الأصل في هذه المجتمعات .

وإذا قال قائل : هناك معارضون ، والدول غير ملزمة ، فيقال : العبرة بالأكثرية وهي ستوقع عليها ، ثم إن الغرب بهيمته يعول على :

- الضغط السياسي والاقتصادي على الدول التي لا تنفذ أنظمة الأمم المتحدة .

- عامل الزمن ، فتكرار هذه المؤتمرات قد يحولها إلى حقائق عند بعض الشعوب المغلوبة على أمرها .

٣- الخط من الأديان - وعلى رأسها الإسلام - وإذا علمنا أن التحدي الحقيقي الذي يواجه الغرب اليوم هو الإسلام خاصة - تبين لنا أن مثل هذه المؤتمرات تهدف أول ما تهدف إلى مقارعة الإسلام بتدمير شعوبه أخلاقياً .

قد يقول قائل : إن كلامكم هذا ناشئ من عقدة طالما سمعناها ، ألا وهي : عقدة المؤامرة على الإسلام في كل حادثة أو قضية . ونحن نقول : ليست مؤامرة على الإسلام تحاك في الخفاء ، وإنما هي حرب حقيقية مكشوفة ضد الإسلام - وما أحداث البوسنة والشيشان - التي انكشفت منها الحقائق - لا للمسلمين خاصة ، وإنما للعالم كله - إلا مثال جلي لهذه الحرب والحقد الصليبي <sup>(١)</sup> .

٤- وأخيراً في قضية أهداف المؤتمر : نقول : إن المؤتمر يطرح قضايا تتعلق بالإباحية والشذوذ - لا يقرها العقلاء حتى في بلاد الغرب - ولذا فنقول : من المستفيد من الانحلال والإباحية وانتشارهما في جميع أنحاء العالم ؟  
والجواب : فتش عن اليهود والماسونية العالمية ، واسمعوا ماذا تقول بروتوكولاتهم :

١ - في البروتوكول الأول : «فشعوب الجويم قد أرختها الحمرة وشبابهم قد استولت عليهم البلادة من نتيجة ذلك . . . وقد ازدادوا إغراء بأوضاعهم هذه على يد المهيتين من جهتنا خاصة للدفع بهم في هذا الاتجاه» .

« . . . في الزمن الماضي ، كنا نحن أول من نادى في جماهير الشعب بكلمات : الحرية والعدالة والمساواة ، وهي كلمات لم تزل ترد إلى اليوم ، ويردها من هم بالببغاوات أشبه ، ينقضون على طعم الشرك من كل جو وسماء ، فأفسدوا على العالم رفايته كما أفسدوا على الفرد حرته الحقيقية . . . » .

وفي جميع جنبات الدنيا كان من شأن كلمات : حرية - عدالة - مساواة ، أن

(١) يقول المبشر (المنصر) لورنس براون : «لقد كنا نخاف أو نخوف بشعوب كثيرة ، ولكننا بعد الاختيار لم نجد مبرراً لمثل هذا الخوف . لقد كنا نخوف من قبل بالخطر اليهودي والخطر الأصفر والخطر الشيعي . إلا أن هذا التخويف كله لم يكن له أساس كما تخيلناه ، إننا وجدنا اليهود أصدقاء لنا وعلى هذا يكون كل مضطهد لهم عدونا الألد . ثم رأينا البلاشفة حلفاء لنا . أما الشعوب الصفراء ، فإن هنالك دولاً ديمقراطية كبرى تكفل بمقاومتها ، ولكن الخطر الحقيقي كامن في نظام الإسلام وفي قدرته على التوسع والإخضاع وفي حيويته ، إنه الجدار الوحيد في وجه الاستعمار الأوروبي . . . » . (التبشير والاستعمار ص ١٣١ ، عن جذور البلاء ، ص ٢٠٢ - ٢٠٣) .

اجتذبت إلى صفوفنا على يد دعائنا وعلمائنا المسخرين من لا يحصيهم عدّ من الذين رفعوا آياتنا بالهتاف وكانت هذه الكلمات دائماً هي السوس الذي ينخر في رفاهية الغوييم ويقتلع الأمن والراحة من ربوعهم ويذهب بالهدوء ويسلبهم روح التضامن . . .» .

٢ - ويقول البروتوكول العاشر - فيما يتعلق بالأسرة - :

«وإننا بإشرابنا الجمهور كله نزعاً الاعتداد بالنفس وتلقيحه بهذا اللقاح نكون قد فككنا رابطة الأسرة، وأذبنا ما لها من قيم ثقافية . . .» .

٣ - ويقول البروتوكول السابع عشر:

«وقد سبق لنا فيما مضى من الوقت أن بذلنا جهداً لإسقاط هيبة رجال الدين عند الغوييم، وقصّدتنا بذلك أن نفسد عليهم رسالتهم في الأرض، وهي الرسالة التي يحتمل أنها لا تزال بنفوذها عقبة كؤوداً في طريقنا، ولا نرى هذا النفوذ في الوقت الحاضر إلا في تناقص يوماً بعد يوم . . .» .

أما وسائل اليهود العملية في قضايا الإباحية والانحلال فارجعوا إلى نماذج منها في كتاب «جذور البلاء» لعبد الله التل، فصل: طرق التدمير في المجتمعات غير اليهودية<sup>(١)</sup>.

وما نظريات ماركس وفرويد وداروين وغيرهم من اليهود إلا جزء من المسيرة اليهودية لتدمير الأمم والشعوب من غير اليهود.

(١) الفصل السادس ص ١٧٢ وما بعدها.

### حرب الإسلام وقضية الحجاب (١)

إن الملفت للنظر في هذه الفترة الأخيرة ، أن هناك حرباً ضروساً ضد الإسلام وضد حملته ، وقد تجلّت هذه الحرب في إرهاب فكري مركز على منهج الإسلام وشريعة الإسلام والدعاة إلى الله تعالى ، تشن هذه الحرب جهات عديدة على رأسها وسائل الإعلام المختلفة .

فقد التقت قوى الكفر المختلفة على حرب الإسلام :

●● **فاليهود** : يشنون حرباً قذرة ضد الإسلام ودعائه ، ويريدون من مرحلة السلام أن تشمل مما تشمل الاستسلام الفكري والعقدي من جانب المسلمين .

●● **والنصارى** : كاليهود ، حربهم على الإسلام سافرة ، وما موافقهم في البوسنة إلا أمثلة عملية مشهودة لحرب خفية ومعلنة مدروسة ومركزة ضد الإسلام .

●● **والمشركون والوثنيون والشيوعيون وغيرهم** يكملون الناقص في الإطباق على المسلمين حرباً متنوعة .

●● **والعلمانيون** : على مختلف توجهاتهم الفكرية ، يقدمون أنفسهم على أنهم التقدميون العصريون المتحضرون أمام الرجعية والانحطاط والتطرف المتمثل في الإسلام ودعائه .

●● **والمنافقون** : اشرباً لهم رأس ، وهم يرون كيف اجتمعت هذه القوى جميعاً ضد الإسلام ، فأدلوها بدلوهم تثبيطاً ، وإضراراً ، واستهزاءً أو سخرية بالمؤمنين .

وأمام هذه القوى كلها ، يقف المؤمنون في مشارق الأرض ومغاربها ، لا حول لهم ولا قوة إلا بالله رب العالمين ، ناصرهم ومعينهم ومثبتهم .

وسأضرب مثلاً واحداً على ذلك :

قضية الحجاب - بالنسبة للمرأة المسلمة - لماذا تتناغم هذه القوى على هذه الحرب في جميع البلاد ، حتى غير الإسلامية منها؟! !!!

وإنما قلت غير الإسلامية ؛ لأن أعجب شيء تتبعته أخباره وتطوراتها منذ فترة

هو أن الحجاب بالنسبة للفتيات المسلمات ، مُنع في مدارس بلد الحرية «فرنسا» .  
نعم ، فرنسا ، صاحبة الثورة العالمية المعروفة : التي كان شعارها : الحرية ، الإخاء ، المساواة .

فرنسا ، بلد التيارات الفكرية الإلحادية المعروفة وجوديه ، وماركسية ، وفوضوية ، وحادثة .

فرنسا ، بلد الحرية الجنسية المشهورة بنوادي العرة .

فرنسا ، يصدر وزير داخليتها أمراً بمنع الحجاب الإسلامي في المدارس ، ويسمى الحجاب هناك تطرفاً وأصولية ، وظلامية ورجعية .

وإنني أتساءل : هل هذه حرب ضد الإسلام ، أم ماذا؟

ولكن هل هذه الحرب ضد الحجاب [وما ضربته إلا مثلاً فقط] . اختصت بها الجاهلية المعاصرة؟

أقول : لقد وقفت على آيات من كتاب الله تعالى تدلُّ على أن الأمر ليس كذلك . وتعالوا نبداً القضية من أولها : قال الله تعالى : ﴿ يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُؤَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِّنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ \* يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَمَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ، فهذان نداءان من ربنا تبارك وتعالى :

الأول منهما : يمتن الله فيه على عباده بما جعل لهم من اللباس والرياش . واللباس لستر العورات والسوات ، والرياش والريش هو ما يتجمل به ظاهراً من الأثاث وما ظهر من الشياب . ﴿ يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُؤَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا ﴾ . ثم يقول : ﴿ وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِّنْ آيَاتِ اللَّهِ ﴾ ، قال عبد الرحمن بن أسلم : (يتقي الله فيواري عورته ، فذاك لباس التقوى) .

وفسر السلف لباس التقوى بالإيمان ، أو العمل الصالح ، أو خشية الله ، وكلها معانٍ متقاربة .

والآية دالة على التلازم بين شرع الله لستر العورات والزينة وبين التقوى، كلاهما لباس: هذا يستر عورات القلب ويزينه وذاك يستر عورات الجسم ويزينه، وهما متلازمان. فمن لا يستحيي من الله ولا يتقيه، لا يهمه أن يتعري وأن يدعو إلى العري.

إن الحجاب وستر الجسد ليس مجرد عرف بيئي أو قبلي - كما يزعم دعاة تحرير المرأة السائرين وفق الخطة اليهودية البشعة التي تضمنتها مقررات حكماء صهيون - إنما هي فطرة الله خلقها الله في الإنسان، وجعلها شريعة أنزلها على عباده.

والنداء الثاني: نداء لبني آدم أن لا يقعوا في حبال الشيطان، كما فعل مع أبوبهم حين أخرجهما من الجنة ونزع عنها لباسهما ليظهر سواتهما. فالعري والكشف الذي يزاول في كل جاهلية هو عمل من أعمال الفتنة الشيطانية التي بدأها إبليس مع آدم وحواء.

والجاهلية الأولى كانت تمارس أنواعاً من العري، وكان أشجع ما فيه العري في بيت الله الحرام، وأثناء الطواف، وشرعوا له تشريعاً جاهلياً خاصاً زعمت أنه من شرع الله:

فقرش رفعت نفسها - فوق القانون - كما يقولون، وجعلت لها اسماً خاصاً هو «الحمس». وجعلت لها حقوقاً ليست لسائر العرب، ومن هذه الحقوق: أنهم لا يقفون مع الناس بعرفات، بل يبقوا في المزدلفة؛ لئلا يخرجوا من الحرم وحدوده.

ومن الحقوق - فيما يختص بالطواف - : أنهم وحدهم لهم حق الطواف في ثيابهم.

أما بقية العرب، فالتشريع القرشي الجاهلي يقول: لا يجوز لهم أن يطوفوا في ثياب لبسوها من قبل، حتى لا يطوفوا في ثياب عصوا الله فيها.

وطبقت هذه القوانين الجاهلية بصرامة. القرشي يطوف بثيابه، ولو عصى الله فيها مائة معصية.

وغير القرشي، إن أعاره أحمسي ثوباً، طاف فيه. ومن كان معه ثوب جديد طاف فيه، ثم يلقيه بعد الطواف مباشرة فلا يتملكه أحد.

ومن لم يجد ثوباً جديداً ولا أعاره أحمسي ثوباً، طاف عرباناً - رجلاً كان أو امرأة - .

فكانوا يطوفون بالبيت عراة، بشرية قريش الجاهلية، التي نسبتها كذباً وزوراً إلى الله تعالى، قال تعالى عنهم: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ (١).

إن أخطر شيء يمر به المسلمون أن يؤصل المنكر ويقرّ، ثم ينسب إلى الله وإلى دينه .

نعم . إن التبجح بالعلمنة، حين يقول أحدهم: ما للدين وشؤون الحياة، ما للدين والسياسة، ما للدين والأزياء واللباس . . . وغير ذلك من عبارات الكفر، ثم يزعمون أن لهم حق التشريع للناس بما يرونه أصلح لهم ولحالهم . . . كل ذلك كفر ومحادة لله ولرسوله . وقد جاء هذا الكفر صريحاً لا لبس فيه ولا غموض .

لكن الأخبث من ذلك والأخطر، حين يفترى أناس القرية، ويشرعون الشريعة، ثم يقولون: إن الله أمرنا بها، أو يقولون: هذا هو هدي الإسلام وشريعة الله .

ولقد جاء الجواب من عند الله تعالى على قرية قريش قوياً، فقال: ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ اتَّقُوا اللَّهَ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ .

وفي عصرنا الحاضر: نسمع في كل وقت وأن، كاذباً جاهلاً يقول ما يبلي عليه هواه، ثم يقول: هذا شرع الله، وآخر ينكر أوامر الدين ونواهيه المنصوص عليها ويقول: إن الدين لا يمكن أن يكون كذلك، وإن الدين لا يأمر بهذا أو ينهي عن ذلك . وحجته هي هواه وما اعتاده!!!

﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ \* فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهم مُّهْتَدُونَ﴾ (٢).

ويأتي النداء الثالث لبني آدم بعد هذا مباشرة: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ

(٢) سورة الاعراف، الآيتان: ٢٩، ٣٠ .

(١) سورة الاعراف، الآية: ٢٨ .

وَكَلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ \* قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نَفَصَلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ \* قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١﴾ .

هذا هو دين الله وشرعه .

أمر بالقسط ، وأمر بالصلاة ، وعبادة الله وحده لا شريك له .

ثم أمر بأخذ الزينة عند كل مسجد وصلاة ، ويدخل في ذلك تحريم العري الذي كانت تمارسه الجاهلية في الطواف .

وأمر بالأكل والشرب بدون إسراف ، قال ابن عباس - رضي الله عنهما - في هذه الآية : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ﴾ « كل ما شئت ، والبس ما شئت ما أخطأتك خصلتان سرف ومخيلة » (٢) .

والله تعالى - بعد الأمر بالأكل والشرب دون إسراف - يستنكر على من يحرم زينة الله والطيبات من الرزق ؛ لأن التحريم والتحليل لا يكون إلا بشرع من الله ، فماذا صنعت الجاهلية الأولى أمام هذا التشريع الرباني ؟

تقول بعض الروايات : إن المسلمين لما لبسوا الثياب وطافوا بالبيت وقد ستروا أجسادهم كما أمر الله تعالى . . . ، غيرهم المشركون من قريش بهذا ، فأنزل الله تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ... ﴾ (٣) .

وتلك والله انتكاسة ، من يطوف بالبيت الحرام عارياً قد فسدت فطرته وانحرفت عن وجهتها السليمة ، هو إنسان سوي في منهج وشريعة الجاهلية .

ومن يطوف بالبيت مكسوياً بالثياب في زينة الله التي أنعم بها على البشر لإرادته بهم الكرامة والستر ونمو الفطرة السليمة فيهم . يعبر ويوصم بالألقاب الشنيعة .

وتعود هذه الانتكاسة في عصرنا الحاضر ؛ حيث مسخت التصورات والأذواق

(٢) رواه البخاري .

(١) سورة الاعراف ، الآيات : ٣١ - ٣٣ .

(٣) سورة الاعراف ، الآية : ٣١ .

وتعود هذه الانتكاسة في عصرنا الحاضر؛ حيث مسخت التصورات والأذواق والأخلاق، وجعل العري الحيواني تقدماً ورقياً وتجديداً. وتعاون على ذلك بيوت الأزياء، وأساتذة التجميل، والمجلات والصحف، والأفلام والمسلسلات والصور، والروايات والقصص وكثير من أرباب الفكر الإباحي. كلها تقود هذه الحملة المسعورة لعري المرأة. ووراء كل جهاز من هذه الأجهزة يهود وأذئاب يهود.

وفي مقابل ذلك: وصف الحجاب الشرعي، ووصمت الكاسيات المؤمنات من الحرائر العفيفات. وصمن بالرجعية، والتقليد. ووصف دعاة الحجاب بأنهم يريدون نقل الأمة إلى ظلمات القرون الوسطى!!!

\* \* \*

## واجبنا نحو الشيشان (١)

لقد مرّت بعالمنا الإسلامي نكبات وأحداث كبار، وكان الإسلام والمسلمون مستهدفين خلال ذلك من جانب أعدائهم، ولقد كانت بلاد الإسلام متباعدة، ووسائل الاتصال والسفر ليست متوفرة إلا بطرق بطيئة جداً تحتاج أحياناً إلى شهور. ومع ذلك فقد كانت روح الإسلام يقظة في النفوس، فلا يمر حدث من هذه الأحداث إلا وقد تفاعلت معه نفوس المسلمين، فيهبون لمساعدة إخوانهم بكل ما يملكون، وتتحوّل هذه القضية إلى قضيتهم، والههم الواقع على إخوانهم همّاً يقض مضاجعهم في الليل والنهار.

ولست بصدد ذكر نماذج متعددة - فالأمر واضح لمن اطلع على كتب التاريخ وكتب الأدب، التي رصدت تلك الأحداث وردود الأفعال تجاهها، ولكني سأذكر نموذجاً واحداً لذلك:

استولى الفرنج النصارى على بيت المقدس سنة ٤٩٢ هـ، فهب العالم الإسلامي من أقصاه إلى أقصاه ينظر إلى القضية على أنها قضيته الأولى، وكان من آثار ذلك مقاومة عظيمة لهؤلاء النصارى ولحملاتهم المتتابعة ولدويلاتهم التي أقاموها في بلاد الإسلام، ولم يهدأ للمسلمين بال حتى استعادت القدس، وطردهم الفرنجة من حصون وقلاع المسلمين الواحدة تلو الأخرى.

وعبر الشعراء عن هذا الحدث أصدق تعبير، وحثوا المسلمين على أن يقوموا بواجبهم.

ومن هؤلاء: المظفر الأبيوردي المتوفى سنة (٥٠٧ هـ)، الشاعر الذي قال حين احتلت بيت المقدس:

مزجنا دماءً بالدموع السواجم	فلم يبق منا عرضة للمراحم
وشرّ سلاح المرأ دمغ يفيضه	إذا الحرب شبت نأرها بالصوارم
فأبها بني الإسلام إن وراءكم	وقائع يلحقن الذرا بالمناسم

وعيش كنوار الخمييلة ناعم  
على فهوات أيقظت كل نائم  
ظهور المذاكي أو بطون القشاعم  
تجرون ذيل الخفض فعل المسالم  
توارى حياء حسنًا بالمعاصم

أنهوية في ظل أمن وغبطة  
وكيف تام العين ملء جفونها  
واخوانكم بالشام يضحى مقلهم  
تسومهم الروم الهوان وأنتم  
وكم من دماء قد أبيحت ومن دمي  
ثم يقول :

رماحهم والدين واهي الدعائم  
ولا يحسبون العار ضربة لازم  
ويغضي على ذل كما الأعاجم  
عن الدين ضنوا غيرة بالمحارم<sup>(١)</sup>

أرى أمتي لا يشرعون إلى العدا  
ويجتبون النار خوفاً من الردى  
أترضى صناديد الأعراب بالأذى  
فليتهم إذ لم يذودوا حمية  
وغير هذا الشاعر كثير . . .

واليوم كم يجري على المسلمين من أحداث وأحداث ، كان آخرها ما جرى  
ويجري على المسلمين في الشيشان وما جاورها من بلاد المسلمين .

هجوم شرس من الشيوعيين والنصارى ، وسكوت مطبق - بل وتأييد من  
إخوانهم نصارى الغرب - بزعم أنها قضية داخلية بالنسبة للنصارى الروس .

أما العالم الإسلامي ، فكثيرون تجاهلوا الأمر ، وكأنهم لا يعينهم لا من قريب  
ولا من بعيد .

وإنني أتساءل - وأريدكم أن تبحثوا عن الجواب - : هل تعرفون أين تقع هذه  
البلاد المسلمة؟

- وما هو تاريخها مع القياصرة النصارى ، ثم مع الشيوعيين الروس؟

- وكيف كان جهادهم ضد هؤلاء جميعاً؟

- وهل هي بلاد سنّة؟

- وماذا يعرف عن هؤلاء المسلمين؟ وما هي أوضاعهم الحالية؟

عشرات الأسئلة تحتاج إلى جواب - ينبغ من غيرة على هذا الدين، وأخوة إسلامية تجمعك بإخوانك المسلمين عقيدة الولاء والبراء، لا قومية الطين والتراب.

**مصدر العزة:** آية من كتاب الله تعالى تحدد مسار الأفراد والأمم في هذه الحياة وبعد الممات، أين تكون العزة ومن تطلب؟ اسمعوا إلى هذا التوجيه والتقرير لهذه الحقيقة الكبرى، التي خوطبت بها قريش، وقد كانوا يطلبون العزة بعبادة غير الله استبقاء لمكانتهم بين القبائل، وهم أصحاب المكانة الدينية في مكة، كما خوطب بها الصحابة المستضعفون وهم في مكة يواجهون من كفار قريش ما يواجهون، ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾ (١).

وإنها لآية عظيمة لو تدبرها الناس: يقول ابن كثير - رحمه الله تعالى - فيها: (من كان يحب أن يكون عزيزاً في الدنيا والآخرة، فليلتزم طاعة الله، فإنه يحصل له مقصوده؛ لأن الله مالك الدنيا والآخرة، وله العزة جميعها كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَلِيتْفُونَ عَنْهُمْ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ (٢)، وقال تعالى: ﴿وَلَا يَحْزَنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (٣). وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٤). قال مجاهد: من كان يريد العزة بعبادة الأوثان فإن العزة لله جميعاً. وقال قتادة: من كان يريد العزة فإن العزة لله جميعاً، أي فليتعزز بطاعة الله عز وجل، وقيل: من كان يريد علم العزة لمن هي؟ فإن العزة لله جميعاً. حكاه ابن جرير (١). هـ كلام ابن كثير (٥).

هذه حقيقة كبرى، لها أثرها العميق في القلوب والنفوس، ولها أثرها في موازين العزة في هذه الحياة: إن العزة كلها لله وحده، وهي عنده وحده، وليس شيء منها عند أحد سواه، فمن كان يريد العزة والرفعة، فليطلبها من مصدرها الذي

(١) سورة فاطر، الآية: ١٠. (٢) سورة النساء، الآية: ١٣٩.

(٣) سورة يونس، الآية: ٦٥. (٤) سورة المنافقون، الآية: ٨.

(٥) انظر: تفسير ابن كثير (٣/٥٤٩) وابن جرير (٢٢/٧٩، ٨٠).

ليس لها مصدر سواء . نعم . ليطلبها من الله ، ولن يجدها عند أحد سواه :

لن تجدها قريش في تلك القبائل الوثنية ، وهي تخشى اتباع الهدى ، والعجيب أن قريشاً تعترف لرسول الله ﷺ أن ما جاء به هدى ، خشية أن تصاب مكانتها بأذى ﴿ وَقَالُوا إِنْ تَتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نَتَّخِطُ مِنْ أَرْضِنَا ﴾ (١) . ومتى كانت القبائل مصدراً للعزة الحقيقية وهم لا يملكون أن يعطوها أو يمنعوها من أحد؟ ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدِ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا ﴾ (٢) ، فما كان عند الآخرين من عزة أو قوة فمصدرها هو الله ، وواهبها هو الله . فمصدر العزة الأول هو الله ، فكيف يتعزز مخلوق بمخلوق ضعيف مثله وهو محتاج إلى طلب العزة من مالکها وهو الله؟

نعم : لم تجد قريش العزة إلا لما استجابت لله ، ولن تجدها أية أمة من الأمم إلا بطاعة الله تعالى ، لن تجدها في مشرق ولا مغرب ، لن تجدها بنسب ولا بسبب دنيوي مهما ظن الظَّانُونَ أنه قوي لا يُغلب . . .

نعم : إن العزة لله جميعاً ، ولكن ما وسيلة هذه العزة؟ ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ﴾ (٣) .

خلاصته : قول طيب ، يؤديه عمل صالح ، فتصدق الأقوال الأعمال ، والكلم الطيب كما قال غير واحد من السلف : الذكر ، والتلاوة ، والدعاء . ويدخل في ذلك أيضاً : كل قول طيب أمر الله به وحث عليه . عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال : « الكلم الطيب ذكر الله ، يصعد به إلى الله عز وجل والعمل الصالح أداء فرائضه ، ومن ذكر الله ولم يؤد فرائضه رد كلامه على عمله فكان أولى به » . وقال مجاهد : العمل الصالح يرفع الكلام الطيب ، وكذا قال عدد من أئمة السلف . وقال الحسن : لا يقبل قول إلا بعمل . وقال إياس بن معاوية : لولا العمل الصالح لم يرفع الكلام .

إذن ، العزة لا تطلب بمجرد الكلام - ولو كان طيباً - ، ما لم يكن هناك عمل صالح يعقب هذا الكلام الطيب ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ \* كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ

(٢) سورة فاطر ، الآية : ١٠ .

(١) سورة القصص ، الآية : ٥٧ .

(٣) سورة فاطر ، الآية : ١٠ .

اللَّهُ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿١﴾. فهذا موطن العزة وسببها وأصلها. فهي من الله وحده لا من البشر، ووسيلة طلبها: كلم طيب صادق من قائله يصدقه عمل صالح. ولكن ماذا بعد ذلك؟

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يُورَثُ﴾ (٢). يقول شيخ التفسير والتحقيق ابن كثير - رحمه الله تعالى - في هذه الآية: « ﴿وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ قال مجاهد وسعيد بن جبير وشهر بن حوشب: هم المرءون بأعمالهم، يعني: يمكرون بالناس يوهمون أنهم في طاعة الله، وهم بغضاء إلى الله عز وجل، يراءون بأعمالهم ولا يذكرون الله إلا قليلاً، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: هم المشركون.

والصحيح: أنها عامة، والمشركون داخلون بطريق الأولى. ولهذا قال: ﴿وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يُورَثُ﴾، أي: يفسد ويبطل ويظهر زيفهم عن قريب لأولي البصائر والنهي، فإنه ما أسر عبد سريرة إلا أبداها الله على صفحات وجهه وفتلات لسانه، وما أسر أحد سريرة إلا كساه الله رداءها، إن خيراً فخير وإن شراً فشر، فالمرائي لا يروج أمره ويستمر إلا على غبي. أما المؤمنون فلا يروج ذلك عليهم، بل يكشف لهم عن قريب، وعالم الغيب لا تخفى عليه خافية» (٣) ١. هـ كلام ابن كثير.

\* \* \*

(١) سورة الصف، الآيتان: ٢، ٣. (٢) سورة فاطر، الآية: ١٠.

(٣) انظر: تفسير ابن كثير (٣/٥٤٩) ط دار المعرفة.



## الفصل السابع

### طلب العلم والتربية والتعليم

- ١ - لذة تحصيل العلم الشرعي .
- ٢ - قوة العلم وقوة العمل .
- ٣ - ما هو العلم النافع؟
- ٤ - خصائص المنهج الإسلامي في التربية والتعليم .
- ٥ - التعليم والتربية .
- ٦ - الامتحان والمذاكرة .
- ٧ - الشباب : خصائصهم وحاجاتهم وواجبنا نحوهم .
- ٨ - من واجبنا تجاه شبابنا .

## لذة تحصيل العلم الشرعي (١)

قال تعالى عن يعقوب بعد أن جرى ما جرى: ﴿ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُر بِنِّي وَحَزَنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (٢).

ثم قال - بعد ارتداده بصيرا - : ﴿ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (٣).

فالعالم بالله يواجه المحن والفتن بنور من الله تعالى، وهذا من ثمرات العلم وأعظم لذاته.

وقال تعالى: ﴿ فَاعْلَمُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرُ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلِّبِكُمْ وَمُتَوَاضِعَكُمْ ﴾ (٤).

وهذا أصل العلوم وأساسها، بل أساس الحياة كلها.

قال تعالى: ﴿ أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولَٰئِكَ الْأَلْبَابِ (١٦) الَّذِينَ يُؤْفِقُونَ بَعْدَ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ (٢٠) وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ (٢١) وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ (٢٢) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ (٢٣) سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ (٢٤) ﴾ (٥).

قال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيهِ فَیَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكُمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٦) لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ (٥٧) وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٥٨) ﴾ (٦).

وقال تعالى: ﴿ وَعَدَّ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٦) يَعْلَمُونَ

(١) الجمعة ٢٣/١٠/١٤١٥هـ. (٢) سورة يوسف، الآية: ٨٦.

(٣) سورة يوسف، الآية: ٩٦. (٤) سورة محمد، الآية: ١٩.

(٥) سورة الرعد، الآيات: ١٩-٢٤. (٦) سورة الحج، الآيات: ٥٢-٥٤.

ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴿٧﴾ ﴿١﴾.

أ- نفى علماً وأثبت لهم علماً آخر ، نفى عنهم العلم الحقيقي النافع ، وأثبت لهم بظواهر الحياة الدنيا المادية .

ب- ثم بين أن الغفلة عن الآخرة أعظم أسباب فساد العلوم وفساد أثرها على الأمم .

لذة تحصيل العلم الشرعي:

أولاً: هذه اللذة لا تقتصر على العلم الشرعي ، بل يجدها الباحث في الأمور المادية من اكتشافات ومخترعات ونحوها :

أ- فكثيراً ما نسمع عن بعض منهم يعكفون الشهور وربما السنوات في البحث وإجراء التجارب - دون كل أو ملل - للوصول إلى حقائق يبحثون عنها .

ويجد هؤلاء لذة عظيمة وسعادة غامرة ، حين يصلون إلى نتائج مهمة في بحثوهم .

ب- واللذة التي يجدها هؤلاء - في الغالب - إنما تحصل لهم لما يجدون لها من آثار دنيوية :

- شهرة عالمية أو محلية .

- شهادة يحصلون عليها .

- مكاسب مادية عاجلة .

ج- والقليل منها ، يوصل أصحابها إلى الله والإيمان به فيجدون لذة لذلك .

ثانياً : هناك أنواع من العلوم - وإن تعب فيها الكثير - إلا أن تعلمها لا يوصل إلى لذة لا مادية ولا دنيوية .

وأبرز مثال لها : علوم الفلسفة ، فإنها كثيراً ما توصل أصحابها - بعد سنين طويلة - إلى أنواع من القلق والهموم والضياع .

ويدخل في ذلك : جميع العلوم الباطلة النظرية ، كعلوم المذاهب الفكرية المنحرفة

وغيرها، فإنها ليست علوماً مادية يحس بها وبآثارها، وليست علوماً شرعية تنفع أصحابها.

ثالثاً: أما العلوم الشرعية وروافدها، فهذه لها شأن آخر لا يماثلها أي علم آخر مهما كان.

●● وأكبر دليل على حصول اللذة وتحصيلها في طلب العلم الشرعي، ما تراه من تحمل المشاق في طلب العلم:

١ - فهذا نبي الله موسى - عليه السلام - مشى في رحلة طويلة ليلقى الخضر، ويتعلم منه.

٢ - وهذا جابر بن عبد الله، وغيره من الصحابة، رحل مسافات طويلة على الجمال ليحصل حديثاً واحداً<sup>(١)</sup>.

فلذة حصوله على حديث واحد يسمعه من راويه يهون عليه تلك المصاعب والمشاق التي وجدها في سفره.

٣ - وكذا أئمة الإسلام من أهل الحديث والفقهاء كم رحلوا وتركوا بلادهم وأهلهم - وواجهوا أنواعاً من المشاق - ليحصلوا لذة العلم التي لا تعدلها لذة.

٤ - وكذا سهر طلاب العلم وانقطاعهم عن كثير من المتع والملذات الدنيوية، كل ذلك؛ لأنهم يجدون في العلم ما هو أغلى وأعلى وأطيب.

●● لذة تحصيل العلم الشرعي هي بحسب مقاصده:

أ - فطالب العلم قد يفرح بالعلم؛ لأنه يزيل الجهل عن نفسه وهذا مطلب واضح.

ب - وقد يجد اللذة لأنه سيزيل عن كاهل أمته معضلة أو معضلات حلت بها فهو بعلمه وما وصل إليه يساهم في حلها.

ج - وقد يجد اللذة لما يحصله من أسباب أخرى مثل: مجاراة العلماء، أو الشهرة، أو المنصب في قضاء أو إفتاء أو تعليم. أو المكسب المادي.

(١) انظر: فتح الباري (١/٢٠٥)، كتاب العلم، باب (١٩).

د - وقد يجد اللذة ؛ لأنه بعلمه يعرفُ ربَّه بأسمائه وصفاته ويفتح له من كنوز معاني كلامه تعالى ، والوحي الثاني وهو السنة ، ومعرفة أحكام الله في شريعته العظيمة الشاملة الكاملة . . .

●● وعلى ضوء الفقرة السابقة : فإن لذة تحصيل العلم لها حالتان :

الحالة الأولى : يجدها كل طالب علم في الغالب ، وهي اللذة التي يحصلها طالب العلم ، لما يتحقق له على إثر ذلك من منافع عاجلة : شهرة ، ومنصب ، وجاه . . . إلخ .

الحالة الثانية : يجدها طالب العلم الذي قصد بطلبه للعلم رضوان الله ونفع الأمة - دون أن يكون من مقصده ما يحصل في أثناء ذلك من شهرة أو ذكر عند الناس - بل هذه وجدت أو لم توجد لا يعبأ بها ، وإنما هدفه ابتغاء رضوان الله تعالى مخلصاً بذلك ، وهذا إنما يحصل بشرطين : قبلي وبعدي .

الشرط الأول : قبلي وهو تقوى الله في طلب العلم ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ (١) . وهذا في الباعث على طلب العلم .

الشرط الثاني : بعدي : وهو العمل بهذا العلم من جميع الوجوه على وفق ما أمر الله به .

قال تعالى في حق من مكن لهم في الأرض : ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ (٢) . فكيف بمن مكن له في العلم؟!

وهذه بعض الشروط التي لا بد منها حتى يكون العلم نافعا وينال صاحبه لذة طلب العلم :

١ - ألا يكون ممن يقول ولا يعمل ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ \* كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ (٣) . وهذا عام ، وهو في العالم أشد .

(٢) سورة الحج ، الآية : ٤١ .

(١) سورة البقرة ، الآية : ٢٨٢ .

(٣) سورة الصف ، الآيتان : ٢ ، ٣ .

٢ - ألا يكتم العلم ، بل يبلغه ويقول الحق : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ ﴾ \* إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنَّا فَاُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١﴾ .

٣ - أن يكون ممن يزيده العلم تقي وطاعة وعبادة لله تعالى ، وكلما ازداد علماً ازداد تقي وعملاً .

قال تعالى : ﴿ أَمْ مَنْ هُوَ قَائِمٌ أَنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولَٰئِكَ الْأَبْلَابُ ﴾ (٢) .

وهذا هو الموطن الحقيقي للذة طلب العلم ، وبه يفضل العالم العابد درجات ودرجات .

●● إن كثيراً من طلاب العلم يطلبون العلم في هذه الأيام ، ويقولون : ما لنا لا نجد اللذة في طلب العلم؟

والجواب : أنهم لا يجدون ذلك ؛ لأسباب ، منها :

١ - التعلق بالدنيا ؛ لأن الواحد قد يتعلم العلم :

- ليماري به الآخرين .

- أو يجاري به العلماء .

- أو يصرف وجوه الناس إليه .

- أو يبتغي به منصباً أو وظيفة أو مالاً .

٢ - أنه لا يزيده طلبه للعلم تقي وعبادة لله تعالى .

٣ - والأدهى من ذلك أن علمه يزيده ترفعاً وتكبراً على الخلق .

٤ - عدم العمل بالعلم .

فكيف من هذا شأنه يجد لذة طلب العلم الشرعي وتحصيله؟!!!

\* \* \*

(٢) سورة الزمر، الآية : ٩ .

(١) سورة البقرة، الآية : ١٥٩ - ١٦٠ .

### قوة العلم وقوة العمل<sup>(١)</sup>

روى ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله عن أبي الدرداء - رضي الله عنه - أنه قال : (تعلموا قبل أن يُرفع العلم ، فإن العالم والمتعلم في الأجر سواء)<sup>(٢)</sup> .

وروي عنه أيضاً أنه قال : (كن عالماً أو متعلماً أو محبباً أو متبعاً ، ولا تكن الخامس فهلك . قال : قلت للحسن : وما الخامس ؟ قال : المتدع . قال ابن عبد البر معلقاً : الخامسة التي فيها الهلاك معاداة العلماء وبغضهم ، ومن لم يحبهم فقد أبغضهم أو قارب ذلك وفيه الهلاك)<sup>(٣)</sup> .

قال عمر بن عبد العزيز - رحمه الله تعالى - كان يُقال : (إن استطعت فكن عالماً ، فإن لم تستطع فكن متعلماً ، وإن لم تستطع فأحبهم ، وإن لم تستطع فلا تبغضهم . فقال عمر بن عبد العزيز معلقاً : لقد جعل الله عز وجل مخرجاً)<sup>(٤)</sup> .

ولقد شدّد الأئمة على العمل بالعلم . فعن علي - رضي الله عنه - أنه قال : «يا حملة العلم اعملوا به ، فإنما العالم من علم ثم عمل ، ووافق علمه عمله ، وسيكون أقوام يحملون العلم لا يجاوز تراقيهم ، تخالف سريرتهم علانيتهم ، ويخالف عملهم علمهم ، يقعدون حلقاً فيباهي بعضهم بعضاً . . . » .

وأخرج البيهقي عن أبي الدرداء - رضي الله عنه - أنه كان يقول : «إنما أحسن من ربي يوم القيامة أن يدعوني على رؤوس الخلائق فيقول لي : يا عويمر ! فأقول : ليك يا رب . فيقول : ما عملت فيما علمت» .

وأخرج عبد الرزاق عن علي - رضي الله عنه - أنه ذكر فتناً تكون في آخر الزمان ، فقال له عمر - رضي الله عنه - متى ذلك يا علي ؟ قال : إذا تُفقه لغير الدين ، وتُعلم العلم لغير العمل ، والتمست الدنيا بعمل الآخرة<sup>(٥)</sup> .

(١) الجمعة ٥/٥/١٤١٦هـ .

(٢) انظر : جامع بيان العلم وفضله ، لابن عبد البر (٢٨/١) .

(٣) انظر : جامع بيان العلم وفضله ، لابن عبد البر (٢٨/١ - ٢٩) .

(٤) انظر : جامع بيان العلم وفضله ، لابن عبد البر (٣٠/١) .

(٥) انظر : صحيح الترغيب والترهيب (٨٢/١) .

ما علاقة العلم بالعمل؟ وأيها أشدّ احتياجاً إلى الآخرة؟

لما كان العباد قد خلّقوا للعبادة، وكلهم سائر إلى ربه تعالى فملاقيه للحساب والجزاء. فإن السائر إلى الله والدار الآخرة، لا يصل إلى مقصوده إلا بقوتين<sup>(١)</sup>:

إحدهما: قوة علمية. والثانية: قوة عملية.

فبالقوة الأولى العلمية: ينار له الطريق، ويبصر منازل، فهو يسير ومعه هذا النور القوي - نور العلم - فيفيده في ناحيتين لا بدّ منهما لكل سائر:

الناحية الأولى: معرفة الطريق الصحيح والأقرب، فهو بهذا النور يعرف طريقه ولا يتيه يميناً ولا شمالاً، وإنّما هو السير على الجادة الموصلة إلى الله تعالى. وهو إن طال الطريق، إلا أنه يصبر؛ لأنه واثق من مسيره، ليس عنده تردد، وإنّما هو الجزم والعزم والتوكّل على الله تعالى.

أما من لم يوفق إلى العلم الصحيح المؤصل المبني على أدلة الكتاب والسنة، فتجده في سيره متخطباً، كلما أبصر طريقاً في سيره سلكه، فهو تائه بين هذه الطرق. وأنّى له الوصول؟.

الناحية الثانية: تجنب أسباب الهلاك ومواضع العطب، فهو بهذا النور مبصر لطريقه، عارف بما فيه من الأحجار والشوك والحفر ونحو ذلك. فيتجنبها ويحذرهما. فهو حذر من البدع والمعاصي، ومواقع فتن القلوب التي تعرض لها، ووساوس شياطين الجنّ والإنس التي يحاول أصحابها صرف السائر إلى الله تعالى عن طريقه.

فبالقوة العلمية، وبنور العلم الصحيح، يعرف الإنسان ويدرك أعلام الطريق الموصل إلى الله. ومواضع العطب المهلكة.

أما القوة العملية: فهي حقيقة السير إلى الله تعالى في العمل والعبادة والطاعة والجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وكل خير يقرب إلى الله تعالى.

والإنسان إذا عرف الطريق والسفر ومنتهاه وذلك من خلال نور العلم والمعرفة،

(١) انظر: طريق الهجرتين (٢٣١).

فقد حصل له شطر السعادة والفلاح وبقي عليه الشطر الآخر وهو أن يشمر عن ساعد الجدّ مسافراً في الطريق إلى الله تعالى، قاطعاً له منزلة بعد منزلة، «فكلما قطع مرحلة استعدّ لقطع المرحلة الأخرى، واستشعر القرب من المنزل، فهان عليه مشقة السفر، وكلما سكنت نفسه من كلال السير ومواصلة الشدّ والرحيل وعدها قرب التلاقي وبرد العيش عند الوصول، فيحدث لها ذلك نشاطاً وفرحاً وهمّة فهو يقول: يا نفس أبشري فقد قرب المنزل ودنا التلاقي فلا تنقضي في الطريق دون الوصول، فيحال بينك وبين منازل الأحبة، فإن صبرت وواصلت المسرى وصلت حميدة مسرورة جذلة، وتلقّتك الأحبة بأنواع التحف والكرامات، وليس بينك وبين ذلك إلا صبر ساعة، فإن الدنيا كلها كساعة من ساعات الآخرة، وعمرك درجة من درج تلك الساعة، فالله لا تنقضي في المفازة فهو والله الهلاك والعطب لو كنت تعلمين، فإن استصعب عليه فليذكرها ما أمامها من أحبابها وما لديهم من الإكرام والإنعام. وما خلفها من أعدائها وما لديهم من الإهانة والعذاب وألوان البلاء... وليجعل حديث الأحبة حاديها وسائقها ونور معرفتهم وإرشادهم هاديها ودليلها، وصدق ودادهم وحبهم غذاءها وشرابها ودواءها، ولا يوحشه انفراده في طريق سفره ولا يغتر بكثرة المنقصين... وليعلم أن هذه الوحشة لا تدوم، بل هي من عوارض الطريق، فسوف تبدو له الخيام، وسوف يخرج له المتلقون يهتنونه بالسلامة والوصول إليهم، فيا قرّة عينه إذ ذاك، ويا فرحته إذ يقول: ﴿قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾﴾<sup>(١)</sup>. ولا يستوحش مما يجده من كثافة الطبع وذوب النفس وبطء سيرها. وكلما أدمن على السير وواظب عليه غدواً ورواحاً وسحراً قرب من الدار وتلطفت تلك الكثافة وذابت تلك الخبائث والأدران، فظهرت عليه همّة المسافرين وسيماهم، فتبدلت وحشته أنساً وكثافته لطافة، ودرنه طهارة»<sup>(٢)</sup>.

هكذا يصوّر ابن القيم - رحمه الله - الطريق. وهذه القوة العملية هي التي عبّر عنها السلف بالعمل بالعلم، وهي الغاية التي من أجلها يتعلم الإنسان العلم.

فهو علم وعمل حتى يلقي العبد ربه تعالى، والدنيا دار عمل لا راحة فيها،

(١) سورة يس، الآيتان: ٢٦، ٢٧.

(٢) طريق الهجرتين (٢٣٢-٢٣٣)، ط. منيرية.

وإنما الراحة الحقيقية راحة الآخرة. قيل للإمام أحمد - رحمه الله - : (متى يجد العبد طعم الراحة؟ قال : عند أول قدم يضعها في الجنة)<sup>(١)</sup>.

والناس تجاه هاتين القوتين - القوة العلمية والقوة العملية - أصناف :

**فمنهم :** من تكون له القوة العلمية الكاشفة عن الطريق ومنازلها وأعلامها وعوارضها، ويكون ضعيفاً في القوة العملية. فهو يبصر الحقائق ولا يعمل بموجبها ويرى المعاطب والمتالف من المنكرات والمعاصي ولا يتوقاها. فهو فقيه ما لم يحضر العمل، فإذا حضر العمل شارك الجهال في التخلف وفارقهم في العلم.

**ومنهم :** من تكون له القوة العملية الإرادية، وتقتضي هذه السير والسلوك والزهد في الدنيا والرغبة والتشمير في العمل، ويكون - لضعف القوة العلمية عنده - أعمى البصر عند ورود الشبهات في العقائد والانحرافات البدعية في الأعمال والأقوال. ويغلب هذا في أهل البدع من المتصوفة وغيرهم.

**ومنهم :** من كانت له هاتان القوتان جميعاً، فهذا هو المستقيم في سيره إلى ربه تعالى، وهو الذي يرجئ له الاستقامة ورد القواطع والموانع التي تمنع العبد وتعوقه في سيره إلى الله.

وهؤلاء هم الموفقون السائرون على منهاج السلف علماً وعملاً. جعلنا الله منهم ووفقنا لسلوك طريقهم بمنه وكرمه.

**ومنهم :** وهو صنف رابع : ضعيف في هاتين القوتين، فهو ضعيف العلم وضعيف في العمل. فهذا لكثرة القواطع وشدتها هالك إن لم يتداركه الله تعالى برحمة منه. والله المستعان<sup>(٢)</sup>.

وينبغي للعبد المرید للاستقامة في أحواله وأعماله أن يتنبه إلى أمرين :

**الأمر الأول :** أن السفر إلى الله تعالى مقطوع به، ومدة سفر الإنسان هو عمره الذي كتب له، والأيام والليالي مراحل لسفره، فكل يوم وليلة مرحلة من المراحل فلا يزال يطويها حتى ينتهي السفر.

(١) طبقات الحنابلة (١/٢٩٣).

(٢) طريق الهجرتين (٢٣٣ - ٢٣٤)، ط. منيرية.

والكيس الفطن هو الذي يجعل كل مرحلة نصب عينيه فيهتم بقطعها سالماً غائماً، فإذا قطعها جعل الأخرى نصب عينيه، ولا يطول عليه الأمد فيقسو قلبه، ويمتد أمله، وينشغل بالتسويف والتأخير.

وهذا معنى ما كان عليه السلف من حرصهم على العمل في كل يوم وليلة وكأنها آخر أيامهم من الدنيا . . . وهكذا.

الأمر الثاني: حراسة الخواطر وحفظها والحذر من الاسترسال معها. فإن هذه الخواطر الشيطانية أصل الفساد كله ومن ميلها يجيء؛ لأنها بذر الشيطان والنفس الأمارة. فإذا تمكّن من بذرها تعاهدها الشيطان بسقيه مرة بعد أخرى حتى تصير إرادات، ثم يسقيها حتى تكون غرائم ثم لا يزال بها حتى تثمر الأعمال.

فلا بدّ للعبد من دفع هذه الخواطر، وأن لا يتساهل فيها، فهي كمن يتهاون بشرارة من نار ربما تحرقه وتحرق منزله ومن حوله.

والطريق لحفظ النفس من هذه الخواطر أمور:

- ١ - العلم الجازم باطلاع الله تعالى ونظره إلى قلبك وعلمه بخواطرك.
- ٢ - حياؤك من الله.
- ٣ - إجلالك له أن يرى مثل تلك الخواطر في بيته الذي خلق لمعرفة ومحبته.
- ٤ - خوفك منه أن تسقط من عينه بتلك الخواطر.
- ٥ - خشيتك أن يتولد من تلك الخواطر ما يهلك القلب والعمل.
- ٦ - أن هذه الخواطر بحر من بحور الخيال لا ساحل له، فإذا دخل القلب فيه غرق وتاه.
- ٧ - أن هذه الخواطر وادي الحمقى وأمانى الغافلين.

## ما هو العلم النافع؟<sup>(١)</sup>

نستقبل هذه الأيام موسم الحصاد العلمي لأبنائنا وبناتنا وإخواننا طلاب العلم، أسأل الله تعالى أن يجعل ما يتعلمونه عوناً لهم على طاعة الله، وبصيرة لهم في دينهم، ورفعة وعزة لأمتهم الإسلامية. كما أسأله تعالى أن يرزق الجميع التوفيق والنجاح في الدنيا والآخرة.

إن طرائق الدراسة والامتحانات - مما أطبقت عليه في الجملة الامم كلها مؤمنها وكافرها - .

فما الذي يميز أمة الإسلام في هذا العلم على مختلف فروعه وتخصصاته؟  
إن العلم في منهج الإسلام قسمان:

**القسم الأول:** علم شرعي : عماده الكتاب والسنة والإجماع، وهذا العلم تميزت أمة الإسلام بكونه علم عقيدة وشريعة، نابع من مصادر صحيحة ثابتة، لم يدخلها تحريف ولا تأويل جاء بها نبي الله محمد ﷺ. وهذا بخلاف علوم وكتب أهل الكتاب المحرّفة، فضلاً عن الامم الأخرى الوثنية.

**القسم الثاني:** علم غير شرعي : بمعنى أنه علم مادي - تتساوى فيه أم الأرض متى ما أخذت بأسبابه، فهذا لا بدّ فيه في منهج الإسلام من أمرين:

أحدهما: أن يكون مفيداً غير ضار. وبهذا تخرج العلوم الضارة، أو العلوم التي لا فائدة منها على الإطلاق؛ لأن الانشغال بها مضيعة للوقت إن لم تكن مضرّة.

الثاني: القصد والنية الحسنة بالنسبة لطالب هذا العلم، وهذه النية ترتبط بحاجة الأمة الإسلامية وضرورتها، وما يؤدي إلى استغنائها عن غيرها من الامم، وهذا ما طبقتة أمة الإسلام.

فهذا رسول الله ﷺ لما احتاج إلى معرفة لغة اليهود، أمر أحد أصحابه بتعلمها، واستفاد - كذلك - من خبرة الفرس العسكرية في غزوة الخندق وغيرها.

ولكن ما مقياس العلم الذي ينفع والذي لا ينفع في منهاج القرآن الكريم؟  
ومن أيها العلم الحديث - الذي يوجد أكثره عند الكفار اليوم - ؟  
ومتى يكون هذا العلم المادي نافعا وصحيحا؟  
وقفات ثلاث مع ثلاث آيات في كتاب الله تعالى :

**الوقفة الأولى:** قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيْضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴾ (٢٧) وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَأَلْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ (١)

ففي هاتين الآيتين بيان لقدرة الله تعالى وكماله فيها حيث يخلق الأشياء المتنوعة المختلفة من الشيء الواحد وهو الماء الذي ينزله من السماء ، فيخرج به ثمرات مختلفو ألوانها ، كما خلق تعالى الجبال مختلفة الألوان ، بل الناس والدواب والأنعام مختلفة الألوان . . . هذا خلق الله لا مدخل للبشر فيه ، فتبارك الله أحسن الخالقين .

ثم قال تعالى في نهاية الآية الثانية: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ . قال ابن عباس - رضي الله عنهما - : (هم الذين يعلمون أن الله على كل شيء قدير) (٢) .

أي : أن علمهم بما في الكون والآنفس وربطهم ذلك بالله تعالى الخالق القادر هو الذي يولد الخشية لله تعالى المقتضية لعبادته وحده لا شريك له . قال ابن عباس - رضي الله عنهما - : العلم بالرحمن : من لم يشرك به شيئا ، وأحل حلاله ، وحرّم حرامه ، وحفظ وصيته ، وأيقن أنه ملاقيه ومحاسبٌ بعمله .

وعلي هذا فأي علم لا يوصل إلى الإيمان بالله وخشيته وعبادته فليس بعلم في الحقيقة . قال ابن كثير - رحمه الله - في هذه الآية : (أي : إنما يخشاه حق خشيته العلماء العارفون به ؛ لأنه كلما كانت المعرفة للعظيم القدير العليم الموصوف بصفات الكمال ، المنعوت بالأسماء الحسنی ، كلما كانت المعرفة به أتم والعلم به أكمل ،

(١) سورة فاطر ، الآيتان : ٢٧ ، ٢٨ . (٢) انظر : ابن جرير في التفسير (٢١/٨٧) .

كانت الخشية له أعظم وأكثر» (١) .

وبهذا الميزان يمكن أن توزن علوم الحضارة المعاصرة - أعني العلوم المادية -، هل تقود إلى الإيمان بالخالق أم أنها تقود إلى عبادة الإنسان والإلحاد والكفر بالخالق؟

**الوقفة الثانية:** قال تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَاتٍ أَنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولَئِكَ الْأَلْبَابِ ﴿٩﴾﴾ (٢) .

المعنى: هل يستوي القانت المطيع لله ورسوله ومن أشرك بالله وجعل له أنداداً؟! .

**والجواب:** إنهم لا يستوون أبداً، وقد وصف هذا المطيع بأنه ﴿أَنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾، فهو بين الخوف والرجاء مع كثرة عمله وصلاحه . ثم قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ . قال الإمام الطبري - رحمه الله تعالى - : (يقول تعالى ذكره : قل يا محمد لقومك! هل يستوي الذين يعلمون ما لهم في طاعتهم لربهم من الثواب، وما عليهم في معصيتهم إياه من التبعات، والذين لا يعلمون ذلك فهم يخبطون في عشواء، لا يرجون بحسن أعمالهم خيراً، ولا يخافون بسيتها شراً، يقول: ما هذان بمساوين) (٣) .

ونقل القرطبي عن بعض العلماء أنه قال: (الذين يعلمون هم الذين ينتفعون بعلمهم ويعملون به، فأما من لم ينتفع بعلمه ولم يعمل به فهو بمنزلة من لم يعلم) (٣) .

وهذه الآية تدل على أمور:

- ١ - أن العلم الذي لا يوصل إلى الله تعالى، فليس بعلم حقيقي مهما كان .
- ٢ - أن العلم الصحيح هو ما نقل صاحبه إلى العمل على وفق شرع الله تعالى .
- ٣ - أن غاية الحياة - ومنها طلب العلم - عبادة الله تعالى .

(١) انظر: تفسير ابن كثير - رحمه الله - (٣/٥٥٣) . (٢) سورة الزمر، الآية: ٩ .

(٣) انظر: ابن جرير في التفسير (٢٣/١٢٩) .

(٤) انظر: الجامع لاحكام القرآن، للقرطبي (١٥/١٥٦) .

**الوقفه الثالثة:** مع قوله تعالى في أول سورة الروم : ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَىٰ آلَ فِرْعَوْنَ فَأَكْبَدُوا عَلَيْهِمْ يَجِئُونَ اللَّهَ بِقُلُوبٍ غَائِبَةٍ ۖ وَنُفُوسٍ غَائِبَةٍ ۖ وَجَبَلٍ مَّرْمُومٍ ۚ﴾ (١) غَلِبَتِ الرُّومُ (٢) فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَلَيْهِمْ سَيِّئَاتُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٣) فِي بَضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (٤) بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٥) وَعَدَّ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنْ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٦) يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ (٧) ﴿(١) . وإخبار الله بنصرهم على الفرس الوثنيين الذين انتصروا عليهم أولاً وفرح بذلك إخوانهم من مشركي مكة، فلما انتصر الروم فرح المؤمنون بذلك، قال القرطبي - رحمه الله - :

(وقد ذكر الناس أن سبب سرور المسلمين بغلبة الروم وهمهم أن تغلب إنمأ هو أن الروم أهل كتاب كالمسلمين، وفارس من أهل الأوثان . . . قال النحاس : وقول آخر وهو أولي : أن فرحهم إنمأ كان لإنجاز وعد الله تعالى ؛ إذ كان فيه دليل على النبوة ؛ لأنه أخبر تبارك وتعالى بما يكون في بضع سنين فكان فيه . قال ابن عطية : ويشبه أن يعلل ذلك بما يقتضيه النظر من محبة أن يغلب العدو الأصغر ؛ لأنه أيسر مؤونة، ومتى غلب الأكبر كثر الخوف منه، فتأمل هذا المعنى مع ما كان رسول الله ﷺ ترجاه من ظهور دينه وشرع الله الذي بعثه به وغلبته على الأمم، وإرادة كفار مكة أن يرميه الله بملك يستأصله ويريحهم منه . وقيل : سرورهم إنمأ كان بنصر رسول الله ﷺ على المشركين ؛ لأن جبريل أخبر بذلك النبي عليه السلام يوم بدر ، حكاة القشيري . قلت - والقائل القرطبي - : ويحتمل أن يكون سرورهم بالمجموع من ذلك ، فسروا بظهورهم على عدوهم ، وبظهور الروم أيضاً، وبإنجاز وعد الله(٢) .

قال تعالى بعد ذلك : ﴿وَعَدَّ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنْ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٥) يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ (٧)﴾ (٣) .

إن أكثر الناس لا يعلمون ، ولو بدا في الظاهر - لدى عامة الناس - أنهم علماء ، وأنهم يعرفون الكثير من العلوم المتعلقة بالإنسان أو الأرض أو الأفلاك أو غير ذلك من العلوم ، والسبب أنهم : ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ ، وظاهر الحياة الدنيا

(١) سورة الروم، الآيات : ١ - ٧ .

(٢) انظر : الجامع لاحكام القرآن، للقرطبي (١٤ / ٥ - ٦) .

(٣) سورة الروم، الآيتان : ٦ ، ٧ .

محدود جداً، لا يستطيع البشر استقصاءه في حياتهم المحدودة ، فنسبة علمهم كنسبة هذه الأرض إلى غيرها من الكواكب والمجرات التي تُعد بالملايين . وهذه الأرض والحياة فيها ما هي إلا طرف صغير من هذا الوجود الهائل ، ومن ناحية الزمان والمكان .

والكفار وصفوا بأنهم لا يعملون ، إلا ظاهراً من الحياة الدنيا ، وذلك :

١ - أن علومهم مادية سطحية ، تتعلق بظواهر الحياة دون سننها الثابتة ، التي أرادها الله تعالى وجعلها في هذه الحياة . فعلمهم مقطوعة عن خالقهم واهب هذه العلوم وخالقها ومقدرها ، فلا يعرفون منها إلا قوانينها المادية البحتة ، أما كيف جاءت؟ ولماذا جاءت؟ ومن الذي وضعها؟ . . . فهذا كله هم عنه غافلون .

٢ - أنهم في خضمّ انشغالهم بعلمهم ومعارفهم المادية ومتابعتهم لتطورها في كل يوم ، نسوا قضية بديهية لا بدّ أن يفكر فيها كل عاقل ، ألا وهي : معرفة الغاية من خلق الوجود الإنساني؟

فتأملوا - حضارة عالمية كبرى بلغت من التطور العلمي مبلغاً عجبياً - ومع هذا لا يعرف الفرد فيها الجواب الصحيح عن هذه الأسئلة البديهية : من الذي خلقني؟ ولماذا خلقت؟ وصدق الله ؛ إذ يقول عن الكفار : ﴿أَوَلَيْكَ كَالآنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أَوْلَيْكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ (١) . وهذا الوصف ينطبق على كل كافر - ولو كان من أكبر وأشهر الناس في أي فنّ من الفنون العلمية - ما دام لا يؤمن بالله على الوجه الحق .

٣ - غفلتهم عن الآخرة والوقوف بين يدي الله تعالى للجزاء والحساب ، قال تعالى في ختام آية سورة الروم : ﴿وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ (٢) . وإنكار الآخرة والبعث بعد الموت والغفلة عن ذلك ، يؤدي إلى اختلال عظيم في موازين الحياة الدنيا . وأي إنسان لا ينظر إلا إلى الحياة الدنيا فقط ، فلا بدّ أن يكون علمه سطحياً ناقصاً ، ولا يمكن أن يتصور الحياة - بكل ما فيها من أحداث وكل ما ينبثق منها من أمور - تصوراً صحيحاً .

أما المؤمن بالله واليوم الآخر ، فيختلف تماماً في ميزانه للأمر ، وتعامله مع

(١) سورة الاعراف، الآية : ١٧٩ . (٢) سورة الروم، الآية : ٧ .

الحياة، ومقاييسه لها، حتى وهو يبني ويعمر ويتقدم في علومه المادية، فهو يتعامل معها من خلال موازين وسنن ثابتة، تربط الحياة الدنيا القصيرة الفانية بالحياة الأخرى الأبدية الباقية، وهذا هو الفرق بين ما تنتجه الأمة الإسلامية من حضارة، وما تنتجه الحضارة الكافرة.

وحين نقارن بين الأمتين - في هذا المجال - يتبين أنه لا يمكن أن تلتقيان!

«إنسان يؤمن بالآخرة ويحسب حسابها، مع آخر يعيش لهذه الدنيا وحدها ولا ينتظر ما وراءها، لا يلتقي هذا وذاك في تقدير أمر واحد من أمور هذه الحياة، ولا قيمة واحدة من قيمها الكثيرة، ولا يتفقدان في حكم واحد على حادث أو حالة أو شأن من الشؤون، فلكل منهما ميزان، ولكل منهما زاوية للنظر، ولكل منهما ضوء يرى عليه الأشياء والأحداث والقيم والأحوال، هذا يرى ظاهراً من الحياة الدنيا، وذلك يدرك ما وراء الظاهر من روابط وسنن شاملة للظاهر والباطن، والغيب والشهادة، والدنيا والآخرة، والموت والحياة، والماضي والحاضر والمستقبل، وعالم الناس والعالم الأكبر الذي يشمل الأحياء وغير الأحياء... وهذا هو الأفق البعيد الواسع الشامل الذي ينقل الإسلام البشرية إليه ويرفعها فيه إلى المكان الكريم اللائق بالإنسان»<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

(١) في ظلال القرآن (٦/٤٤١)، ط. دار الكتاب العربي.

### خصائص المنهج الإسلامي في التربية والتعليم<sup>(١)</sup>

للمنهج الإسلامي فيما يتعلق بالقضية العظيمة عند كل أمة، ألا وهي قضية التعليم والتربية خصائص يتميز بها، يمكن إجمالها فيما يلي:

أولاً: أن مصادرها ليست من نتاج البشر، وهذه ميزة لا توجد في أي منهج تربوي أو تعليمي آخر إلا عند المسلمين.

فهي ليست نتاج عقول وفلسفات البشر، وليست نظريات اخترعها مفكرون أو غيرهم، وليست نتائج لتجارب بشرية خاضها فرد أو أمة، كما أنها لم تنبع من حاجات معينة يدفع إليها حب في تطور أو خروج من وضع سيء...

مصدرية المنهج التربوي والتعليمي الإسلامي ليست شيئاً من ذلك كله، إنما هي وحي من الله تعالى: في الكتاب والسنة. ولقد وصلنا هذا عن طريق النبي المصطفى الكريم ﷺ.

ولا خيار للمسلمين في هذه المصدرية للعقيدة وللشريعة وللآداب والأخلاق وللتربية والتعليم.

ولقد امتنَّ الله على رسوله وعلى الأمة كلها بذلك؛ لأن خصوصية هذه الأمة بهذا - ويدخل في هذا كل من دخل في الإسلام في أي مكان أو زمان - مما يعتبر أعظم منة وأكبر ميزة. يقول تعالى للرسول ﷺ: ﴿قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُمْ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَأَكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (٢).

ويقول تعالى أيضاً لرسوله ﷺ: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْتَدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (٣).

ويقول تعالى عن هذا النبي المبلغ ﷺ: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (٢) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ

(٢) سورة يونس، الآية: ١٦.

(١) الجمعة ٢٧/٤/١٤١٦هـ.

(٣) سورة الشورى، الآية: ٥٢.

يُوحَى ﴿٤﴾ (١).

والرسول نفسه لا يستطيع أن يغير أو يبدل إلا بوحي من الله تعالى: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تَلَقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ يَوْمَ عَظِيمٍ﴾ (٢).

إن هذا من أعظم خصائص المنهج التربوي الإسلامي، وبه يتميز عن كافة المناهج والاتجاهات التي هي نتاج البشر، والتي هي أيضاً نتاج البيئة والظروف والأحوال والأوضاع الاجتماعية والسياسية وغيرها.

ولذا يجب أن تكون هذه المصادر الربانية بالنسبة لامة الإسلام المصدر الأساس لكل منهج تربوي أو تعليمي يقوم به البيت والأسرة، أو المدرسة والجامعة، أو المساجد وأماكن العبادات، أو وسائل الإعلام، أو غيرها.

ولقد نتج عن هذا - وهو كون مصدريتها من عند الله تعالى - لا خيار للبشر فيها - خصائص أخرى، أهمها:

- ١ - تكاملها وشمولها.
- ٢ - صلاحيتها وثباتها حتى مع تغير الزمان والمكان.
- ٣ - واقعيتها ومراعاتها لطبائع الناس وأحوالهم.

ثانياً، اليسر والسهولة والسماحة:

قال تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ (٣).

وقال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ (٤).

وقال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ (٥).

وتأملوا من الناحية العملية سهولة التطبيق العملي للتربية الإسلامية:

١ - فالقرآن يَسِّرُهُ اللهُ تعالى لجميع الناس: فيقرأه الكبير والصغير والمتعلم

(١) سورة النجم، الآيتان: ٣، ٤. (٢) سورة يونس، الآية: ١٥.

(٣) سورة البقرة، الآية: ١٨٥. (٤) سورة الحج، الآية: ٨٧.

(٥) سورة البقرة، الآية: ٢٨٦.

والعامي ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدْكِرٍ﴾<sup>(١)</sup>. وتطبيق ما في القرآن لا يحتاج إلى فلسفات ولا إلى مناهج فكرية وتربوية. وكم من أم أو أب متوسط التعليم لكن رزقه الله إيماناً واعتصاماً بالله وبكتابه وسنة رسوله ﷺ هو مرب لا ولاده تربية ناجحة وقوية، وهذا لأن القرآن والعمل به سهل ويسير لمن أقبل عليه.

٢- والسنة وصلت إلينا وقد جمعت وحققت وميز فيها الصحيح من غيره، وهي أيضاً ميسرة سهلة في أسلوبها ليس بها غريب يصعب معرفته إلا القليل. وقرأ مثلاً في رياض الصالحين: وانظر في أبوابه وأحاديثه كيف تتكامل التربية والمنهج التعليمي للمسلم بكل وضوح... وهكذا.

٣- والمادة العلمية من الكتاب والسنة فيها وضوح كبير وليس فيها غموض أو تعقيدات. وانظر إلى الفارق بين تعلم العقيدة مثلاً من الكتاب والسنة الصحيحة، وبين تعلمها من كتب وتعقيدات أهل الكلام المذموم.

ثالثاً: ربط العلم بالعمل، وتحويل النظرية إلى تطبيق واقعي:

والمنهج التعليمي والتربوي الإسلامي يشدد على هذا، بل يجعل الغاية من العلم والتعلم العمل والتطبيق.

فليس التعلم ترفاً فكرياً، وليس صاحبه مخيراً بين أن يطبق أو لا يطبق، كما أنه ليس مجرد نظريات يقدمها المفكرون ثم يدرس مدى جدواها، وهل يؤخذ بها أم لا؟... في المنهج الإسلامي للتعليم، لا بد من التطبيق العملي الفوري، سواء كان هذا في العبادة، أو في الأخلاق والآداب، أو في المعاملات على مختلف صورها وأنواعها، أو في أي مجال من مجالات الحياة:

أ- فالإيمان قول وعمل، كما يقول أهل السنة والجماعة.

ب- وجعل الله المقت والبغض لمن يقول ولا يفعل.

ج- والمعلم قدوة لتلاميذه، والأب قدوة في الأسرة... وهكذا.

د- ثم هو يقدم في كل زمن نماذج للعلماء العاملين الذي يربون الناس على

(١) سورة القمر، الآية: ١٧.

المنهاج الحق، ويبيّنونه لهم ، أخذاً من النبع الصافي من الكتاب والسنة . وانظر إلى تاريخ الإسلام ، وكيف أنه لم يخل أي عصر من هؤلاء العلماء العاملين ، وانظر إلى آثارهم العلمية والعملية ، وهذا يعطينا إشارة مهمة إلى:

(١) أهمية القدوة وقيمتها في الإسلام ، ومن سن في الإسلام سنة حسنة كان له أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة ، كما ثبت ذلك في الحديث الصحيح عن رسول الله ﷺ (١) .

(٢) دور العلماء في التعليم والتربية ، وأهميته الكبرى ، ودورهم هذا ليس لأنهم رجال دين - كما قد يقوله من تأثر بواقع الغرب ودينهم المنحرف - ، وإنما لأنهم ينطلقون من الكتاب والسنة ، وهما حاكمان على جميع الناس .

(٣) الارتباط بين العلم والعلماء ، فإن ضياع العلم يكون بذهاب العلماء ، كما وردت بذلك الأحاديث النبوية الشريفة (٢) .

رابعا: أنها غنية لا يحتاج فيها إلى ما سواها ، لأنها من عند الله تعالى ، محفوظة بوعده ، جامعة لا تقبل الدخيل في مجالها وميدانها ؛ لأنها حق كله وصواب كله . وما عداها من أفكار ونتاج البشر ، فلا يخلو : إما من الخطأ والضلال كما هو الحال في كثير من النظريات التربوية والنفسية الضالة ، وإما من القصور في حالة كونه صواباً ، فما نجده فيها من حق ففي منهج الإسلام ما هو أحسن وأفضل وأقوى .

خامساً: تكامل المنهج من جميع الوجوه : فهو لا يركز على جانب دون جانب ، والمؤمن مطالب بأن يتربى على منهاج الإسلام جملة في جميع ميادين تعامله . وأن يطبق ما يؤمن به ، وألا يقتصر على الدعاوى الفارغة .

قال تعالى : ﴿ لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وُجُوهَكُمْ قَبْلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ

(١) رواه مسلم (١٠١٧) ، والنسائي (٧٥ / ٥) ، وأحمد (٤٥٧ / ٣) ، (٤٥٩) .

(٢) من ذلك ما رواه البخاري (١٠٠) ، ومسلم (٢٦٧٣) ، والترمذي (٢٦٥٢) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : « إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من الناس ، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء ، فإذا لم يبق عالماً اتخذ الناس رؤساء جهالاً ، فيسألون فأفترافهم بغير علم فضلوا واضلوا » .

وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ  
وَأْبْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا  
وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿١﴾

سادساً، وختاماً، فإنه منهج ليس له غايات دنيوية بحتة، سواء كانت فردية أو  
جماعية، وإنما غايته تحقيق العبودية لله تعالى. فجميع المسلمين - في حياتهم كلها،  
ومنها الجانب التربوي والتعليمي - يسعون لغاية يراقبون فيها ربهم ليلاً ونهاراً،  
يعبدونه ويتقربون إليه ويرجون رحمته، ويخافون عذابه.

فهو مهج تربوي يربط العبد بالآخرة، وينقله من دنياه، ليعطي كلاً من الدارين  
قيمتها الحقيقية.

ولا تختلف هذه الغاية أبداً على اختلاف أنواع التعليم، من ديني شرعي، إلى  
مادي بحث. فالكل غايته واحدة عند المسلمين.

وفي الختام هناك قضيتان تتعلقان بالتعليم، أحبت الإشارة إليهما ونحن نتكلم  
عن هذا الموضوع المهم:

**القضية الأولى:** ما هو الهدف من التعليم - خاصة ونحن نعيش جميعاً هذا  
الاهتمام الكبير والاستعداد الذي لا نظير له زمن الاختبارات والامتحانات - وهو  
أمر جيد ومحمود ويدلُّ على وعي جيد - ؟

أقول: ما هو الهدف من التعليم؟

إن الملاحظ - علينا في الغالب الأعم - :

١ - أننا نعلق الآمال في هذه الحياة بالدراسة ونيل الشهادة - حتى الطفل الصغير -  
نغرس أحياناً في نفسه هذه الغاية، ونوحي إليه عملياً ونظرياً، بأن غاية الحياة هي  
نيل الشهادة الدراسية. وهذا نقوله له نظرياً، وعملياً من خلال اهتمام كبير بالدراسة  
وإهمال أكبر لما يتعلق بعقيدته وعبادته - كالصلاة مثلاً - . فالربي والمتلقي يشاهد بأم  
عينه يوماً أن الدراسة أهم بكثير من الصلاة والأخلاق . . . إلخ.

٢- ثم تحوله إلى مادة وهدف للتكسب وفقط . ونحن لا ننكر - كما عانى أسلافنا من قبل - من تداخل النيات في هذا المجال . ولكن الملاحظ الآن تمحض هذا الهدف المادي في الغالب . مما جعل التعليم - وخاصة التعليم الشرعي - ضعيف الأثر في النفوس من الناحية التربوية والسلوكية .

القضية الثانية: هل التربية الدينية قسم خاص من أقسام المناهج، بحيث يكون معلم المقررات المتخصصة بالدراسات الشرعية هو المسؤول عن هذا الجانب؟

إن الملاحظ وجود هذا المفهوم الخاطئ الذي يفصل بين مواد التعليم ومقرراته، فهذه دينية، وكأن الأخرى لا دينية. ويفصل بين مهمات المدرسين . فكأن هذا مهمته دينية تربوية، والآخر غير مسؤول عن هذا إطلاقاً.

نحن أمة: يهيمن الدين والعقيدة على جميع شؤون الحياة، ومن ثم لا انفصال بين العلوم.

ومن ثم فهذا الواجب ينبغي أن يقوم به جميع الاساتذة على مختلف تخصصاتهم وتنوع المقررات التي يدرسونها.

\* \* \*

## التعليم والتربية (١)

غداً تنطلق عشرات الألوف من طلابنا وطالباتنا إلى صروح العلم في مختلف مراحلها، من الحضانة والروضة إلى الدراسات العليا في الجامعات. ونلاحظ أن البيوت تستنفر طاقاتها واستعداداتها لبدء العام الدراسي الجديد.

ولا شك أن الجميع يتحملون مسؤولية هؤلاء النشء، تعليماً وتربية وبناء، وإذا كانت الجامعة أو المدرسة تتحمل مسؤولية واضحة، فإن الأسرة - في الحقيقة - تتحمل مسؤولية أكبر تجاه أولادها.

وسنعرض اليوم لقضية مهمة جداً تتعلق بمنهج التربية والتعليم قد يقع فيها الخطأ والخلط.

فمن الأمور الشائعة لدى كثير من تأثروا بالمدرسة التربوية الغربية، اتهام المسلمين في منهجهم التعليمي والتربوي، بأنه منهج ناقص، بعيد عن التكامل الإيجابي.

وسأعرض لأهم قضيتين يطرحها هؤلاء، مع قليل من المناقشة.

القضية الأولى: الزعم بأن المنهج التعليمي الإسلامي هو منهج تلقيني يعتمد الحفظ فقط بدون فهم، أو تقديم الحفظ على الفهم على أقل تقدير. وهذا يؤدي إلى تخريج حفظة أشبه بالبيغاوات يرددون ما تعلموه بدون فهم، ويقول هؤلاء: إن هذا منهج خاطئ؛ لأسباب:

● منها: أنه يؤدي إلى الجمود والتحجر الفكري والذهني.

● ومنها: أنه مخالف لمنهج الفهم والاستيعاب الذي يؤدي إلى الإنتاج. وأن الغرب لما استخدموا هذا المنهج تطوروا وتأخروا.

القضية الثانية: أن التربية القديمة عند المسلمين، تعتمد الانحصر في التعليم والتلقين فقط. دون الجوانب التربوية الأخرى.

أما التربية الحديثة، فهي التي تبني في الفرد المتعلم جوانبه المتعددة العقلية،

والروحية، والسلوكية، والجسمية... إلخ.

وعليه، فالتعليم رافد واحد من روافد التربية، وليس هو كل التربية كما هو الحال في التربية القديمة.

والنتيجة التي انتهى إليها هؤلاء المتأثرون بالمنهج الغربي، أن المنهج التعليمي والتربوي الإسلامي منهج ناقص:

أ - فهو منهج تلقيني جامد، يعتمد الحفظ.

ب - وهو منهج محدود مقتصر على الجانب التعليمي دون جوانب التربية الأخرى.

ونقول: إن هذا الذي استنتجته هؤلاء، وأرادوا من خلاله تطوير التعليم ليكون أقرب إلى المنهج الغربي البعيد عن روح الإسلام وعقيدته، إنما هو استنتاج خاطئ نشأ من عدة أسباب:

١ - الفهم الناقص للإسلام، وشموله للحياة كلها. وهؤلاء ظنوا أن الإسلام منحصر في الصلاة والصيام ونحوهما من جوانب العبادة الخاصة. وغفلوا - أو تغافلوا - عن تلك الحقيقة الكبرى وهي شمولية الإسلام لكل مناحي الحياة، فما من جانب من جوانب الحياة - للفرد والأمة - إلا وللإسلام فيه أحكام شرعية مفصلة.

٢ - الفهم الخاطئ لمنهج التربية الإسلامية - خصوصاً -، حيث ظنوا أن التربية تساوي التعليم، وهذا خطأ.

٣ - الإعجاب بالغرب والانبهار بحضارته وتقدمه المادي. وهذا بلا شك تقويم ناقص أو مغرض للحضارة الغربية؛ لأنها بمقدار ما فيها من تقدم مادي ففيها انحطاط وتأخر في باب الدين والأخلاق والسلوك. وهذا لا يجادل فيه منصف.

ونحن نقول في مناقشة تينك القضيتين ما يلي:

١ - أن المنهج الإسلامي في التعليم يعتمد الحفظ والفهم معاً، وأكبر دليل على ذلك واقع الحضارة الإسلامية - منذ القرن الأول الهجري وإلى ما قبل القرون المتأخرة. كانت حضارة متكاملة يوم كانت أوروبا تعيش ظلمات القرون الوسطى وجهلها الدامس. وما نشأت حضارة الغرب المادية وتقدمهم فيها - إلا بعد أن أخذت

من المسلمين مناهجهم وعلومهم . وهذا بشهادة عشرات من الغربيين ومفكريهم الذين اعترفوا بهذه الحقيقة ، وليس هذا موضع الكلام عنها .

٢- أن الحفظ منهج أساس في التعليم ، والقول بأن اعتماده يؤدي إلى الجمود غير صحيح ؛ لما يلي :

- أ- أن الإسلام تميز بميزة لا توجد في غيره ، ألا وهي النصوص [من القرآن الكريم ، والسنة النبوية الصحيحة] التي هي مصدر لكل شيء يتعلق بالامة :
- فهي مصدر لأصول الدين والعقائد والبناء الفكري .
- وهي مصدر للأحكام الشرعية . [والشريعة شاملة] .
- وهي مصدر لتهديب الأخلاق والسلوك .
- وهي مصدر لبناء الفرد إيمانياً وتربوياً وجسدياً .
- وهي مصدر لاستخراج المنهج التربوي الصحيح للطفل وللإنسان في جميع مراحلهم .

لذا فإننا نقول : إن الحفظ ضروري للبناء التعليمي والتربوي .

ب- إيتوني بأي عالم مسلم - منذ عهد الصحابة وإلى اليوم ، وانظروا في ترجمته وتاريخ حياته . لن تجدوا واحداً من هؤلاء إلا وأول ما تفتق عنه لسانه وقلبه : حفظ القرآن الكريم ، ثم مدارس السنة النبوية وحفظها .

ج- أن إلغاء الحفظ من المناهج - خاصة القرآن الكريم والمناهج الشرعية واللغوية الأخرى - يؤدي إلى هلهلة فكرية ولغوية .

وحتى لا نسبح في الخيال : قارنوا بين المتقدمين من طلابنا الذين كانوا يعتمدون الحفظ . وبين المتأخرين منهم الذين وقعوا في تجارب التربية الحديثة في محاولاتها لإلغاء الحفظ .

وأظن أن النتيجة واضحة أن المتقدمين أفضل وأقوى مع أنه لم تيسر لهم الوسائل الحديثة المتعددة المعينة في باب التعليم .

٣- أن الزعم بأن التربية الحديثة هي - فقط - التربية المتكاملة ، بخلاف التربية

القديمة، زعم غير صحيح، يردده واقع منهج المسلمين التربوي والتعليمي:

أ- وتعالوا إلى معلم البشرية ﷺ، هل كان معلماً فقط؟ أم كان معلماً ومربياً؟

ما أظن أن أحداً يجادل في تكامل المنهج النبوي. فإذا ما علمنا أن هذا الرسول يجب أن يتبع في جميع الأمور، تبين أن تكامل المنهج التربوي الإسلامي عقيدة وشريعة ونظام حياة تربي عليه الأمة كلها، من دخل سلك التعليم ومن لم يدخل، إن كان هناك أحد لا يدخل.

ب- وقد كان الشيوخ - فيما سبق - معلمين ومربين، وكان طالب العلم يتعلم منهم سمت العلماء وأدب الإسلام، والأخلاق الفاضلة، فكنت ترى في هؤلاء الطلبة تكامل التربية في جميع جوانبها، فأين الزعم بأن التربية الحديثة والتربية الإسلامية تربية ناقصة.

وبهذه المناسبة، فإننا نذكر إخواننا المدرسين والمربين بشغل المسؤولية على عواتقهم، وأن عليهم أن يكونوا:

\* قدوة لطلابهم، فلا يرون منهم إلا الخلق والأدب الفاضل.

\* أن يربوهم على منهج الإسلام، ولا يتقصروا على التلقين فقط.

\* أن تتعاون الأجهزة كلها: إدارة المدرسة، والمشرفون على الأنشطة العامة، والمدرسون، والأسرة، تتعاون كلها على البناء التربوي المتكامل، وفق الله الجميع لما يحبه ويرضاه.

هناك قضية قد يقع أحياناً الخطأ في فهمها والتعامل معها، ألا وهي: (العلوم العصرية) المادية، ويلاحظ:

١ - كيف أنها تكون وبالاً على أصحابها - إذا لم ترتبط بمنهج الله تعالى. مثل: الذرة، وسائل نشر الفساد.

٢ - وكيف تكون خيراً للأمة، وتكون واجبة أحياناً حين يحتاج إليها المسلمون؛ بربطها بالنية الصالحة، وبحاجة الأمة الإسلامية.

٤ - ارتباط التربية والتعليم بأصولهما [وهي العقيدة].

وأي تربية لا ترجع إلى أصول وجذور الأمة الإسلامية فهي تربية سطحية فاشلة.

ولهذا يجب ربط الأمة - وخاصة الوسائل المباشرة في التربية - وعلى رأسها:

أ - قطاعات التعليم .

ب - وسائل الإعلام .

ج - الأسرة .

بالعقيدة، والمقصود بالعقيدة:

أ - ربط الأمة بربها لتحقيق معنى: لا إله إلا الله محمد رسول الله ﷺ، علماً وعملاً ومنهاج حياة .

ب - وربط الأمة بمصادر دينها الثابتة والتي هي وحي من الله تعالى: الكتاب

والسنة .

٥ - تنشئ التربية الإسلامية الفرد الصالح؟ بدل المواطن الصالح الذي تنتجه التربية

الإنجليزية أو الأمريكية . . . أو غيرها ؟!؟!

الفرق بين الاصطلاحين:

١ - نماذج : قصة حبيب بن عدي لما كان في أسر قريش ينتظر القتل وكيف لم

يقتل الصبي الذي جاءه بالموسى حين طلبها ليتنظف ويتهياً للقاء ربه .

٢ - اليهود وازدواجية المعايير في معاملاتهم ففي التلمود المقدس عند اليهود:

«مسموح غش الأمي وأخذ ماله بواسطة الربا الفاحش، لكن إذا بعت أو اشترت من

أخيك اليهودي فلا تخدعه ولا تغشه». إذن الربا جائز مع غير اليهود دون اليهود،

وكذا إباحة الزنا بغير اليهوديات .

٣ - التربية الإنجليزية والأمريكية وكيف أنها تنشئ المواطن الذي يحترم الإنسان

في بلده ولكن بالنسبة للبلاد الأخرى فله تعامل آخر، وانظر إلى الكيل بمكيالين في

عالم الغرب هذه الأيام . وهذا كله نتاج تربية وحضارة الغرب .

٣ - العلوم الحديثة: هل هي علوم غير إسلامية؟

أ - خطأ هذا المفهوم الشائع؛ فهي في الأصل علوم إسلامية .

ب - لا شك نحن نفرق بين العلم الشرعي، غيره من العلوم .

ج - والفرق بينهما:

(١) أن العلم الشرعي الصحيح لا يكون إلا خيراً للمسلم .

(٢) أما العلم الدنيوي:

●● فقد يكون وبالاً على صاحبه، مثل ما جرت العلوم الذرية وغيرها من

- أخطار . ومثله : إذا صدَّ الإنسان عن الله ، وأصابه الغرور وقاده إلى الكفر والإلحاد .
- وقد يكون علماً بحتاً يفيد أصحابه في الدنيا فقط كما هو الحال في كثير من بلاد الكفار . فهم ﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴾ (١) .
- وقد يكون علماً خيراً يؤجر عليه صاحبه ، إذا نوى به صاحبه رفعة الأمة الإسلامية . . . . . إلخ .

\* \* \*

### الامتحان، والمذاكرة، (١)

١ - كثيراً ما يقرن العلماء والموجهون - وغيرهم - بين امتحان الدنيا والآخرة، وهذه - بلا شك - مقارنة وربط صحيح . خاصة عند المؤمن الموقن بالحياة بعد الموت وبالحساب والجزاء - كما وصف الله في كتابه ووصف رسوله ﷺ .  
ولا شك أن بين الامتحانين بوناً شاسعاً، بل لا مقارنة .

٢ - والدعاة والمربون حينما يركزون على هذه المقارنة فواضح أن هذا ليس من باب التهوين من شأن هذه الامتحانات المدرسية ، وطلب عدم الاستعداد لها . لأنهم مثل غيرهم يهتمون بها وخاصة بالنسبة لأولادهم وأقاربهم ، وإنما جاءت المقارنة لأمور :

أ - الاهتمام الذي لا حد له في الامتحانات الدنيوية، يقابله عند البعض، إهمال لا حد له فيما يتعلق بالاستعداد لامتحان الآخرة .

ب - أن من مظاهر الاهتمام في الامتحانات الدنيوية : حبس الأولاد عن التمتع باللهو واللعب ، ومتابعة ما يهونونه من الكرة والمسلسلات . . . وبالمقابل قصرهم على ما يكرهون وهي المذاكرة - وكفى بها مشقة .

وفي مقابل هذا - فيما يتعلق في امتحان الآخرة - نجد العكس تماماً تركهم يلهون ويعبثون حتى ولو أدى ذلك إلى ضياع دينهم وأخلاقهم .

وإذا جاءت المشقة للعبادة من صلاة ونحوها رحمتهم بسبب البرد، أو رحمتهم لأنهم ناموا متأخرين . وهذه مفارقات عجيبة .

بل أننا نغارس هذا طول العام الدراسي : ففي صلاة الفجر لانوقظهم لكونهم ناموا متأخرين أو من أجل البرد . ولكن بعد ذلك بنصف ساعة أو تزيد قليلاً نوقظهم للمدارس ولو كان البرد شديداً .

ج - وفي الامتحان نفسه يمارس المربون ما هو واجب عليهم في نظام الامتحانات . ألا وهو مسئولية كل طالب عن نفسه . فالغش ممنوع، ولا أحد يعين أحداً ولو أراد ذلك .

وبالمقابل في الاستعداد لامتحان الآخرة: نترك أولادنا ولا نراقب أحوالهم مهما خالفوا الأوامر أو وقعوا في المحرمات .

وبسبب هذا التناقض العجيب كم من شاب تحول إلى تارك للصلاة، زنديق لا يؤمن بيوم الحساب، مستهزئ بدين الله تعالى وشريعته . وهو من أسر فاضلة معروفة بالصلاح والاستقامة .

د- وفي النتائج - نفرح بنجاح أولادنا [ ذكوراً وإناثاً ] - وحق لنا أن نفرح - ونكافئهم بالجوائز الثمينة، وبالمقابل لانفرح الفرحة ذاته إذا استقاموا وصاروا من رواد المساجد، أو المقبلين على حفظ كتاب الله - أو طلب العلم الشرعي .

والخلاصة : أننا صرنا - فيما يتعلق بهذين الامتحانين : امتحان الدنيا وامتحان الآخرة نكيل بمكيالين : أي أن عندنا ازدواجية في المعايير - كما يقولون - : ففي امتحان الدنيا - أو الدنيوي - نصدر القرارات وننفذها ونتابع تنفيذها . بل ونعاقب كل من يعترض أو يتساهل في تنفيذها . وفي سبيل ذلك نحشد كافة القوى الممكنة .

- أما في الاستعداد لامتحان الآخرة [ على خطره وأهميته ] :

- فأحياناً لاتصدر القرارات . - وإذا أصدرناها لاننفذها .

- وإذا تابع بعضنا تنفيذها . فكل من يعرقل ذلك يلقي منا صمماً مطبقاً أو عتاباً كلامياً لا يقدم ولا يؤخر .

إننا بهذه الطريقة نغرس في نفوس أولادنا أن الدنيا هي الحياة وأن الآخرة لا قيمة لها . فكأننا نربي فيهم نوعاً من العلمنة . ونحن لانشعر .

وصايا سريعة لأبنائنا وبناتنا ولأولياء أمورهم فيما يتعلق بالامتحانات:

١ - اجعل نصب عينيك قوله تعالى: ﴿ وَأَتَقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ ﴾<sup>(١)</sup> . واعلم أن أهم ما في هذا أن يتحول علمك - سواء كان علماً شرعياً أو معيناً على ذلك مما يسمى بالعلوم المادية ؛ حيث لا انفصال بينهما في منهج الإسلام المتكامل - إلى علم نافع لك ولامتك .

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٨٢ .

والخوف هنا حاصل: فكم من علم شرعي تعلمه صاحبه فصار حجة عليه، ولم يعمل به فصار وبالأعلى عليه، قال الله تعالى: ﴿وَآتَلَ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ \* وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثُ أَوْ تَتْرَكْهُ يَلْهَثُ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ \* سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسُهُمْ كَانُوا يَظْلَمُونَ﴾ (١).

وسواء نزلت هذه الآيات في أحد علماء بني إسرائيل - كما ورد عن ابن عباس - رضي الله عنهما - من طرق. أو في أمية بن أبي الصلت الذي يُقال إنه قد وصل إليه علم كثير من علم الشرائع المتقدمة وكلنه لم ينتفع بعلمه - كما ورد عن عبد الله بن عمرو - رضي الله عنهما - .

فآيات فيها التحذير الشديد من هذا النموذج الذي تحدثت عنه:

فهذا إنسان يؤتبه الله آياته، ويخلق عليه من فضله، ويكسوه من علمه، هو ينسلخ من آيات الله ويتجرد من الغطاء الواقى والدرع الحامي وينحرف عن الهدى ليتبع الهوى. فيصبح غرضاً للشيطان فيتبعه ويلزمه ويتسحود عليه. فإذا بهذا المخلوق، قد تحول لاصقاً بالأرض ملوثاً بالطين، ثم إذا هو مسخ في هيئة كلب، يلهث إن طُورِدَ ويلهث إن لم يطارِد. ﴿ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ (٢).

وكم من علم دنيوي: تحول إلى وبال على أصحابه. وها هي حضارة الكفر في غربها وشرقها أصابها الغرور فألحقت وأفسدت وحاربت دين الله الإسلام. . .

٢ - لا بد - عند المذاكرة - من تفرغ النفس وإبعاد ما يهملها عنها - وهذا ما يسمى بالتهيئة النفسية للمذاكرة - . فالطالب الذي يعايش مشكلات معينة، أو يقع تحت إرهاب أبوي يستخدم معه العصا لاجل المذاكرة، لا يكون مهياً ذهنياً لتقبل المعلومات .

لا مانع من التأديب، لكن بشرط أن لا يتحول إلى تأديب مستمر .

٣ - الاعتماد على الفهم فيما سبيله الفهم، والحفظ فيما سبيله الحفظ . والحذر من تلك النظرية التي تقول الفهم الفهم، وتلغي الحفظ من مناهج التربية ووسائلها .

(١) سورة الاعراف، الآيات: ١٧٥ - ١٧٧ . (٢) سورة الاعراف، الآية: ١٧٦ .

٤ - استخدم في المذاكرة - كل ما يعينك عليها - وسواء كان من حركة الجسم ، ورفع الصوت - مثلاً - .

لأن المهم أن تكون بكليتك متجهاً إلى ما تذاكره . حتى تهضمه أولاً ، وحتى تستفيد من وقتك الثمين ثانياً .

٥ - ما الحل إذا ضاق الوقت وبقي في المنهج بقية : الأولى أن تستكمل فقرات المنهج الأساسية وتكمله ، بدل أن تسير ببطء وأنت تتابع جزئياته .

وهذه مسألة مهمة في المذاكرة: فمن الأولى : تصور أصول المنهج وقضاياه الكبار أولاً ، ثم يأخذ الطالب بالتفاصيل .

٦ - استخدم الملخصات المساعدة - سواء كتبتها في ورقة مستقلة أو على حواشي الكتاب - أو استعمل الخطوط حول أبرز القضايا ، فإن هذه تجمع - في ذهنك - أبرز القضايا المهمة والتي يبني عليها غيرها .

٧ - يجب أن يكون مكان المذاكرة هادئاً . بعيداً عن الصخب أو حتى الحديث العادي - واحذر كل الحذر - أن تصدق من يقول إن المذاكرة أمام التلفاز غير الناطق ، أو الموسيقى الهادئة من المسجل أو غيره ، مفيدة .

وهذه وصايا أخيرة - أثناء الامتحان :-

١ - لا تتأخر في الوصول إلى قاعة الامتحان . بل ائت إليها قبل الامتحان بوقت كافٍ حتى تستريح أعصابك . والمذاكرة السريعة المشوشة في الدقائق الأخيرة قد يكون ضررها أكثر من نفعها .

٢ - ابتدئ خروجك من البيت ، ودخولك القاعة بالأوراد والأذكار الواردة . فهي خير معين لك - إن شاء الله تعالى - .

٣ - اقرأ الأسئلة جيداً ، فمعرفة السؤال طريق إلى معرفة نصف الجواب .

٤ - لا يكن همك الخروج من قاعة الامتحان . ولا تستح من الأساتذة المراقبين وهم ينتظرون الباقيين . فما دمت في الوقت المخصص للامتحان ، فهو حق لك . ويجب أن تستفيد منه في سبيل ضبط ومراجعة إجاباتك .

٥ - إذا لم تستحضر الجواب عن سؤال، فانتقل منه إلى غيره . فإنك ستجد الجواب إذا هدأت أعصابك، وقطعت شوطاً في الإجابة . على أن لا تنسى السؤال الذي أخرته .

٦ - استخدم المسودة في آخر ورقة الإجابة، فهي تعينك على استكمال فقرات الإجابة وترتيبها .

٧ - استوضح من المراقب عن السؤال الذي لم تفهمه .

٨ - احذر - كل الحذر - أن تدخل صالة الامتحان - وفي نفسك أنك ستستفيد من غيرك . بل توكل على الله وحده ، واعتمد على نفسك .

٩ - إذا استعصى عليك سؤال فاسأل الله أن يفتح على قلبك وقل : اللهم يا معلم إبراهيم علمني ويا مفهم سليمان فهمني . . . .

١٠ - احذر السهر - خاصة ليالي الامتحان - ، فإنه العدو اللدود للامتحان .

وينبغي أن تعلم أن مجيئك إلى الامتحان بجسم وعقل مرتاح - بعد أخذ القسط الكافي من النوم - ضروري جداً .

وكم ما طالب - جيد - ملم بالمادة - ، حوّل السهر إجاباته - إن استطاع أن يجيب - إلى أنواع من الخلط و الأخطاء الفادحة .

١١ - احذر - في المذاكرة - التجمعات التي تجمع الطلاب وهم يذاكرون - إذا كان فيهم العايب المستهتر ، أو لم يكن هناك من يضبط الأمور ويمنع العبث .

ثم هل تكون في المذاكرة لوحدك ، أو مع غيرك . هذه مسألة ترجع إلى طبيعتك وارتياحك . والطلاب يتفاوتون في هذا .

## الشباب

### خصائصهم وحاجاتهم وواجبنا نحوهم<sup>(١)</sup>

مسؤوليتنا تجاه أولادنا وشبابنا كبيرة، وهي مسؤولية دائمة، ولكنها تزداد في مثل مناسبة - الإجازة الصيفية - .

وهذه المسؤولية - بالنسبة للآباء والمربين - تتحدد من خلال أمرين :

أحدهما : معرفة طبيعة الشباب ، وخصائصهم في هذه المرحلة من النواحي الجسمية ، والنفسية ، والاجتماعية .

الثاني : كيف يكون توجيههم وتربيتهم؟ وهل في منهج الرسول الله ﷺ ما ينير للآباء والمربين هذا الشأن؟

**أولاً: طبيعة الشباب وخصائصهم:** من المهم أن يطالع آباء على طبيعة هذه التقلية التي يتحول بها الأولاد من الطفولة إلى مرحلة الشباب، وأثر ذلك عليهم سلوكياً واجتماعياً وعقلياً .

وبهذه المناسبة ، فإنني أشير إشارات سريعة لأهم هذه الخصائص - وأترك للآباء الرجوع إلى تفصيلها في مظانها - ، فمن أهم الخصائص - غير الجسمية :

١ - شعور الشباب بذواتهم واستقلالها: فمع نمو جسمه - وزناً وطولاً - يشعر الولد بأنه تعدى مرحلة الطفولة ، فهو يعتمد على قدراته الخاصة وثقته بنفسه . ومن ثم يسعى إلى تنفيذ استقلاله الذاتي في المجتمع - وخاصة عن أبويه - .

ومما يواكب ذلك شعوره بأنه مكلف شرعاً ، وأن أعماله - خيرها وشرها - هو محاسب عليها .

ومن أبرز مظاهر هذه الاستقلال : التذمر من سلطات الآخرين ، ومنهم الوالدان أو المعلمون لهم . وقد يتعدى هذا إلى أنواع من التمرد إذا لم يكن ذا تربية إسلامية جيدة .

ومن مظاهره : الاهتمام بالمظهر الشخصي ، وعدم القبول لكل ما يعرض عليه ، بل يحرص على الاستقلال وإبداء الرأي .

٢ - الصداقة الاجتماعية: فمع شعوره بالاستقلال ، ينتقل إلى جو آخر بديل ، وهو جو الأصدقاء والزملاء ممن هم في مستواه دراسياً وسناً في الغالب . وتتم هذه اللقاءات خارج المنزل .

وهنا يأتي دور الأصدقاء والقرناء في الخير أو الشر؛ لأن الشاب - في الغالب الأعم - يشعر بانتماء قوي إلى هذا التجمع ، إلى حد أن أثر ذلك عليه قد يفوق أثر البيت أو المدرسة .

وهذه الخنوصة من أهم ما يجب أن يراعيها الآباء تجاه أولادهم الشباب . ولا شك أن مرحلة الطفولة - ومستوى التربية فيها - لها أثر كبير في هذه النقطة .

ومن أهم مظاهر هذه الصداقات : الميل إلى مساعدة الآخرين والعمل في سبيل الغير ، والتضحية في سبيل ذلك .

ومن مظاهرها : سرعة تغيير الأصدقاء بحسب ما يشبعه من حاجاته الشخصية والاجتماعية .

ومن من مظاهر ذلك : التنافس بين الشباب ، وسعي الشاب إلى أن يفوق زملاءه في نواح كثيرة ، حتى يحصل على احترام وتقدير أكبر من الآخرين وخاصة من زملائه .

٣ - الانفعالات النفسية: ولسرعة نمو الشاب ، تتفجر طاقاته الجسدية والاجتماعية والنفسية ، وذلك بانتقاله من الطفولة إلى الشباب ، وأهم هذه الخصائص النفسية للشباب:

١ - قوة الانفعال: فهو يحاول أن يسلك ما يسلكه الكبار من أنواع الانفعالات في الحب والبغض ، والرضى والغضب ، والشجاعة وغيرها من الصفات . مع ملاحظة ما سبق ذكره من تغيره السريع في ذلك .

ومما يلاحظ في ذلك : عدم الانضباط في ذلك ، فهو إذا أحب أسرف ، وإذا أبغض أسرف .

٢ - حلمه وخياله : حيث يحلم بمستقبل عظيم ، وبتحقيق آمنيات كبيرة ، وبنجاح دراسي متفوق . . .

٣ - مع انتقاله إلى مرحلة الشباب وخصائصها ينشأ عند الشاب - أحياناً - أنواع من الصراع النفسي ، والتقلب الانفعالي . وهذا وقد يكون خطيراً وقوياً - حين تكون صلته بالله ضعيفة أو منقطعة . أما الشاب الذي تربى تربية إسلامية ، فإن هذه الصراعات - إن وجدت - تكون خفيفة ، ثم تضبط وتوجه التوجيه الشرعي الصحيح .

٤ - ومن أهم الخصائص في هذه المرحلة : التدين لدى الشباب ، وهذا ناتج من أن تلك الصراعات ، وذلك الفراغ الذي أحدثه انتقاله من البيت لا يملأه بشكل صحيح إلا الدين .

ويمتاز الشباب بحماسهم في سبيل دينهم ، وتضحيتهم له ، ولذا تجد المجاهدين في سبيل الله - في معارك الإسلام الفاصلة - جلهم من الشباب .  
كما يمتازون بفهمهم للدين ومحاولة معرفة الأدلة ، والحكمة الشرعية ، وعدم التقليد في ذلك ما أمكنهم .

ثانياً: أهم حاجات الشباب الأساسية:

١ - الحاجة إلى النشاط ، وتفريغ تلك الطاقات ، ولقد كان سلفنا وعلماءنا السابقون يفرغون طاقاتهم بالأسفار والرحلات في طلب العلم ، والحج والجهاد في سبيل الله ، إضافة إلى أعمالهم الخيرية المتواصلة التي تتطلب مجهوداً متواصلاً .

فلم يكونوا بحاجة إلى ما نذكره اليوم من الرياضة أو الترويح البرئ . . .

٢ - أهمية الإقناع : بالحوار والحجة والبرهان . فالوالد - مثلاً - ينبغي أن يوجه ولده الشاب بطريقة تراعي أحواله وظروفه وطبيعة المرحلة التي هو فيها .

وقد قالوا قديماً عن مرحلة الشباب بالنسبة للوالد : صاحب ابنك في شبابه .  
والصحة من الوالد تقتضي أسلوباً محدداً في التعامل .

٣ - اكتشاف المواهب والقدرات وتوجيهها الوجهة الصحيحة . ولقد كان رسول الله ﷺ يوجه الشباب حسب ما يعرفه من قدراتهم .

فهل فكرت أيها المرءي بذلك ، وعملت على توجيه ابنك أو من تحت يدك توجيهاً ينمي ويراعى هذه القدرات؟

٤ - الاحترام والتقدير ، وإعطائه المكانة الاجتماعية ومراعاة حرصه على الاستقلال وتحمل المسؤوليات .

والملاحظ أن بعض الآباء يتحمل هو مسؤولية البيت كلها ، ولا يكاد يدع لأولاده أية مسؤولية يدر بهم من خلالها ، ويغطي حاجاتهم ويفرغ طاقتهم .

والأب بذلك يحقق عدداً من الصالح ، من أبرزها : إشغال هذه الطاقات الشبابية القوية ، ثم إنه ينال التقدير والثقة منهم . فيصبح لتوجيهه أثر بالغ ؛ لأن من الواجب أن يكون الأب مثلاً لأولاده ، يرونه قدوة لهم .

٥ - الحاجة إلى الزواج - وخاصة الزواج المبكر للشباب ، وهذا يحتاج إلى معالجة مفصلة .

وأخيراً : الحاجة إلى التربية الإسلامية المتكاملة .

\* \* \*

## من واجبنا تجاه شبابنا

إن الملاحظ على كثير منا أننا فيما يتعلق بأولادنا - ذكوراً وإناثاً - نركز على جانب واحد ونهمل جانباً آخر له أهمية كبرى .

والجانب الذي نركز عليه ونعول عليه ، هو : الجانب العلمي أو المعرفي فقط : وأهم مظاهر هذا التركيز ما يلي :

١ - التركيز والتأكيد - باستمرار - على الشهادة ومستوى الطلاب فيها . فأهم شيء هو التفوق علمياً .

٢ - كون هذا الجانب هو المعول عليه في تقويم الطلاب لدى أهلهم وأسرههم ولدى بقية المجتمع .

٣ - حصر مهمة التعليم - في جميع مراحلها تقريباً - بهذا الجانب ، وذلك بنسبة كبيرة ، أدت إلى إهمال الجوانب الأخرى أو إضعافها .

٤ - وانتهى الأمر إلى أن أهم شيء لدى الشباب والشباب ولدى أهلهم ومعارفهم هو النجاح في الامتحان ونيل الشهادة . . . وهكذا فكمن من شاب يعتبر ناجحاً في الحياة لأنه متفوق دراسياً ، وإن كان يحمل أفكاراً فاسدة أو صاحب خلق ردي . . .

وقد أدت هذا إلى إهمال الجانب الآخر في حياة أولادنا ألا وهو : الجانب التربوي ، ونعني بشكل أخص : التربية على العقيدة والمنهج والخلق الإسلامي .

إن أهم ما يواجهه أبناؤنا تربوياً في هذه الأيام - ويشتد الأمر وقت الإجازات ما يلي :

١ - البث المباشر - الذي غزا كثيراً من البيوت ، وهو نوعان :

أ - تلفزيوني : وقد تنوعت المحطات العالمية الموجهة إلينا ، وهي محطات مختلفة التخصصات ، منها : الفنية ، ومنها الرياضية ، بل ومنها : الإباحية ، ومنها : التنصيرية ، والمحطات الجادة - إن وجدت - لا تخلو من فواصل دعائية تحمل في طياتها ما عند الغرب من إباحية وأخلاق فاسدة .

وهذا البث المباشر له أثر غائر وعميق على بيوتنا وأسرتنا جميعاً . وكم من فتى أو

فتاة انقلب منهجُ حياتهِ الخلقِي بسبب سهر ليلة واحدة من هذه السهرات .

ب - إذاعي : هناك محطات تنصيرية خالصة موجهة إلينا بشكل واضح وقوي ، ومحطات أخرى تجلب كل ما أنتجه العالم العربي - من أقصاه إلى أقصاه - من أغان ماجنات ، ومقابلات ومسلسلات مغرية .

٢ - المجلات والصحف : وهذه لا جديد فيها سوى ما يظهر كل يوم من الجديد المتفنن في الإغراء وطرح القضايا الحساسة والعلاقات بين الرجل والمرأة . . . إلخ .

٣ - الأصحاب والزملاء : وهؤلاء لهم الأثر الذي يعرفه الجميع .

٤ - السياحة : وخاصة السياحة الخارجية في فترة الصيف ، ويتولى البث المباشر والمجلات والصحف الدعاية المغرية لها .

أمام هذه المؤثرات التربوية على أبنائنا . ما هو الحل؟

هل نستسلم للأمر الواقع ، أم نحن مأمورون شرعاً باتخاذ الأسباب :

(١) إن شبابنا - والحمد لله - لا يزال يحتفظ بقدر كبير من الفطرة السليمة ، واليقظة الإيمانية .

(٢) أن وسائل التربية الذاتية حينما تستوي على سوقها تؤدي - بمعونة الله - إلى أنواع من الحصانة التي تجعل الشباب المسلم يتعالى بإيمانه ودينه وخلقه الإسلامي عن هذه الدنئات .

(٣) وسأضرب مثلاً: كم من شاب ذهب للدراسة في بلاد الغرب وما دفعه إلى ذلك ، إلا حب الحرية والاستمتاع هناك بكل أنواع اللهو والفساد .

وفعلاً يذهب الشاب إلى هناك - حيث لا رقيب ولا حسيب من أهل أو نظام يمنع من ذلك ، بل النظام يحميه - .

ولكن هذا الشاب سرعان ما يستيقظ عنده إيمانه وعقيدته ، فيعود أصلب وأقوى إيماناً ، وأكثر تماسكاً بدينه .

وكذلك نقول : بالنسبة لما نشكوه من مشكلات البث المباشر ونحوه ، حين نربي أولادنا على المنهج الصحيح فسيتعامل معها كما تعامل بعض الشباب الذين عاشوا

في بلاد الحرية .

وهناك أمور أخرى مهمة ذات أثر تربوي، منها:

١ - التوجيه والتربية المبكرة لأولادنا حتى ينشأوا على الإيمان والخلق، ويجب أن يكون هذا الاهتمام منذ الصغر، وأن يستمر إلى ما بعد ذلك . وهذه المسؤولية يتحملها البيت بشكل كبير .

٢ - الدروس العلمية المتنوعة، وهذه لها أثرها وأهميتها التي لا تخفى . وكون هذه الدروس ليست إلزامية - إضافة إلى أنه لا حوافز لها مادية يجعل حضور الإخلاص وطلب العلم لوجه الله أقوى .

٣ - الاشتراك في الأنشطة المتنوعة، ومنها:

أ - حلق تحفيظ القرآن .

ب - المراكز الصيفية .

ج - الجولات الدعوية .

د - الأنشطة الأسرية التي يربتها الأب مع أولاده من خلال أسفار العمرة أو غيرها . والمهم ترتيبها والاستفادة منها .

٤ - الزواج المبكر لأولادنا - ذكوراً وإناثاً - وهذه وسيلة شرعية عظيمة تجنب أولادنا - بإذن الله - مزالق عديدة .

ولقد نادى رسول الله ﷺ الشباب قائلاً: «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج»<sup>(١)</sup>، والزواج المبكر له آثار تربوية خاصة، لعل من أهمها:

أ - إكمال نصف الدين: وأرجو أن تفكروا في هذا ومدلوله في حياة الفتى والفتاة خلقاً وسلوكاً .

ب - التعود على تحمل المسؤولية، وهذا يؤدي إلى التخلي عن كثير من الأمور التي كان يفكر فيها ويسبح فيها خياله . أما مع الزواج، فإنه ينتقل إلى واقع عملي،

(١) رواه البخاري (١٩٠٥)، ومسلم (١٤٠٠)، وأبو داود (٢٠٤٦).

يواجه فيه عدداً من المسؤوليات اليومية الكثيرة . ومع مجيء الأولاد - بإذن الله - تكون المسؤولية والإحساس الأبوي قد جعلت هذا الأب الجديد يتحول إلى معلم وموجه ومربي - مهما حاول التخلي عن ذلك - .

ج- نقل الشباب والفتيات من محاضن وأصدقاء إلى أجواء جديدة - وحين يكون الاختيار في الزواج على أساس الشرط الشرعي «فاظفر بذات الدين تربت يداك»<sup>(١)</sup> . و «إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه، إلا تفعلوه...»<sup>(٢)</sup> . تتحول هذه المحاضن إلى محاضن تربوية عظيمة .

ولكن المهم : هو تسهيل أمر الزواج ، حتى لا يتحول - كما هو الحال - إلى عقبة كبرى لا يجتازها إلا القلائل . وهذا مما ينبغي أن يتنبه له الجميع وأن يطبقوه عملياً .

ونقول للشباب : أقبلوا على الزواج ، ولا تعوقنكم الأمور المادية ، فسيغنيكم الله من فضله . ﴿ وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾<sup>(٣)</sup> ، وثلاثة حق على الله عونهم وذكر منهم : الناكح يريد العفاف - كما ورد بذلك الحديث .

\* \* \*

(١) أخرجه البخاري (٥٠٩٠) ، ومسلم (١٤٦٦) .

(٢) وحسنه الألباني في الإرواء (١٨٦٨) ، والصحيح (١٠٢٢) ، ورواه الترمذي (١٠٨٤) ، وابن ماجه

(١٩٦٧) ، والحاكم (١٦٤ / ٢ - ١٦٥) ، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٣) سورة النور، الآية : ٣٢ .

## الفصل الثامن رمضان والحج

- ١ - الحساب والشهور .
- ٢ - استقبال رمضان وكمال الشريعة الإسلامية .
- ٣ - استقبال رمضان وفضل النفقة فيه .
- ٤ - وكان أجود ما يكون في رمضان .
- ٥ - من دروس رمضان - التعلق بالمساجد .
- ٦ - فضل العشر الأواخر من رمضان .
- ٧ - في وداع رمضان .
- ٨ - الحج . دروس .
- ٩ - دروس من الحج .
- ١٠ - الوحدة الإسلامية - دروس من الحج .
- ١١ - علماء وأمرء في أيام الحج .

## الحساب والشهور (١)

١ - قال الله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ فَلَمْ يَكُنْ مِنْهَا نَجْوَ لِلنَّاسِ وَالْحَجَّ﴾ (٢).

٢ - ويقول الله تعالى أيضاً: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ (٣)، فما الذي دلَّت عليه هاتان الآيتان؟ وهل تميزت هذه الأمة في باب حساب الشهور والأعوام؟

الجواب على ذلك يمكن أن يتضح بما يلي:

أولاً: انقسمت أم أهل الأرض وطوائفهم في عاداتهم في الشهر والسنة إلى أربعة أقسام:

القسم الأول: قسم يعدون الشهر والسنة. فيجعلون الشهر ثلاثين يوماً، والسنة اثني عشر شهراً بانتظام دائم.

والقسم الثاني: يجعلونهما طبيعيين. فالشهر عندهم قمري والسنة شمسية، ويلحقون في آخر الشهور الأيام المتفاوتة بين السنة القمرية والسنة الشمسية، وهو أحد عشر يوماً إلا قليلاً، وهذا حال كثير من الأمم من أهل الكتاب وغيرهم.

والقسم الثالث: يجعلون السنة طبيعية - أي السنة الشمسية - والشهر عددياً فيعدون شهر كانون ونحوه من الشهور عدداً.

وهذا حساب الروم، والقبط، والسريانيين، وبعض الصابئين، والمشركون.

والقسم الرابع: يجعلون الشهر طبيعياً - بالهلال - والسنة عددية، فيقولون: هي اثنا عشر شهراً هلالياً، وهذه سنة المسلمين ومن وافقهم.

ثانياً: وهذا الذي جاءت به شريعتنا الإسلامية هو أكمل الأمور: وهو الذي يمكن أن تضبط به الأمور؛ لما يلي:

أ - لأنه وَقَّتَ الشَّهْرَ بِأَمْرٍ طَبِيعِيٍّ مُشَاهِدٍ، ظَاهِرٍ يُدْرِكُ بِالْأَبْصَارِ، فَلَا يَضِلُّ أَحَدٌ عَنْ دِينِهِ وَلَا يَشْغَلُهُ مَرَاعَاتُهُ عَنْ شَيْءٍ مِنْ مَصَالِحِهِ.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٨٩.

(١) الجمعة ١٤١٤/٨/٢٤هـ.

(٣) سورة التوبة، الآية: ٣٦.

ومهما حدث من خطأ في معرفة دخول شهر ما ، فإن هذا الخطأ لا يستمر ، بل سرعان ما يأتي الشهر الذي يليه فيصحح الخطأ . . . وهكذا .

ب- أما الحول ، فلم يكن له حد ظاهر في السماء يُعرف به ، فكان لا بد من الحساب والعدد . فكان عدُّ الشهور الهلالية أظهرَ وأعمَّ من أن يحسب بسير الشمس . فكان عدد الشهور مطابقاً لعدد البروج ، فجعلت السنة اثني عشر شهراً بعدد البروج التي تكمل بدور الشمس فيها سنة شمسية . فإذا دار القمر فيها كامل دورته السنوية . وهذا معنى قوله تعالى : ﴿ وَالْقَمَرَ قَدْرَتَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴾ (١) .

وعليه ، فقد بني حساب الشهر على أمر ثابت ظاهر ، ثم بني حساب السنين على تقدير منازل القمر .

فصارت الآجال المؤقتة - من صيام ، أو حج ، أو طلاق ، أو دين ، أو نذر ، أو نحو ذلك . . . مبنية على الهلال وليس شيء يقوم مقام الهلال البتة لظهوره وظهور العدد المبني عليه وتيسر ذلك لعموم الناس .

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - بعد تقريره لما سبق - : (ومن عرف ما دخل على أهل الكتابين والصابئين والمجوس وغيرهم في أعيادهم وعباداتهم وتواريخهم وغير ذلك من أمورهم من الاضطراب والخرج وغير ذلك من المفسد ، ازداد شكره على نعمة الإسلام) (٢) .

ولقد خاف شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - في زمنه - في أوائل القرن الثامن الهجري - من التغيير في هذا الباب مما قد يؤدي إلى ضياع أحكام الدين المرتبطة بهذا الباب .

فكيف لو اطلع شيخ الإسلام على أحوال أمتنا حيث محيت سنة الإسلام في بلاد الإسلام إلا القليل . وهذا القليل بدأ يدب عليه داء الأم ، فبدأ يلحق بركب النصارى وغيرهم في حساباته السنوية : فكثير من الشركات والمصارف ونحوها ، لا ترتب ميزانياتها الشهرية والسنوية وتواريخ المواليذ والوفيات والحوادث التاريخية

وغير ذلك ، إلا حسب تقويم النصارى .

جـ- كانت العرب في الجاهلية قد غيّرت ملة إبراهيم بالنسي في الشهور الذي ابتدعته ، فزادت في السنة شهراً جعلته كبياً لأغراض لهم ، وقد غيروا به ميقات الحج والأشهر الحرم حتى كانوا يحجون تارة في المحرم وتارة في صفر حتى يعود الحج إلى ذي الحجة .

واستمر أهل الجاهلية على هذا حتى بعث الله محمداً ﷺ ، فحج بالناس حجة الوداع ، وقد استدار الزمان كما كان ، ووقعت حجته في مكانها الصحيح ذي الحجة ، فقال في خطبته المشهور المتواترة : «إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض: السنة اثنا عشر شهراً، منها أربعة حرم، وثلاثة متواليات: ذو القعدة وذو الحجة والمحرم، ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان»<sup>(١)</sup> .

وكان الحج قبل ذلك لا يقع في ذي الحجة . حتى حجه أبي بكر كانت في سنة تسع في ذي القعدة ، ولعل هذا من أسباب تأخير النبي ﷺ الحج إلى العام الذي يليه . وأنزل الله تعالى : ﴿ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقِيمُ ﴾<sup>(٢)</sup> .

فالدين القيم هو دين الله ، وما سواه من أمر النسي أو عادات الأمم الأخرى ، فليس سنه لما يدخله من الانحراف والاضطراب .

ثالثاً: صوم رمضان، بين الرؤية والحساب:

١- ثبت عن النبي ﷺ أنه قال : «صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته فإن غم عليكم فاقدروا له»<sup>(٣)</sup> . وفي رواية أخرى مفسرة : «فإن غم عليكم فأكملوا عدة شعبان ثلاثين يوماً»<sup>(٤)</sup> . فعلق الصوم بالرؤية .

٢- وقد ورد في صحيح البخاري أن النبي ﷺ قال : «إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب، الشهر هكذا وهكذا - وأشار بيديه - (أي تسعة وعشرين أو ثلاثين)»<sup>(٥)</sup> .

(١) رواه البخاري (٣١٩٧)، ومسلم (١٦٧٩) . (٢) سورة التوبة، الآية : ٣٦ .

(٣) رواه البخاري (١٩٠٦)، ومسلم (١٠٨٠) .

(٤) رواه البخاري (١٩٠٧) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما .

(٥) رواه البخاري (١٩١٣)، ومسلم (١٠٨٠) .

وهذا النبي الكريم الذي قال هذا هو الذي نزل عليه أول ما نزل: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ (١).

فكان الحكم الشرعي مرتبطاً بالرؤية البصرية، وهذا من كمال وثبات هذه الشريعة، وهو دالّ على سهولتها ويسرها.

وقد وُجد في هذه الأمة من يعدل عن هذه الأحكام الشرعية الصريحة إلى مقولات المنجمين والحسابيين، وغيرهم. وهذا من اتباع أهل الكتاب وتبع سنتهم حذو القذة بالقذة:

أ — فوجد - مثلاً - من يصغى إلى ما يقوله بعض جهال أهل الحساب من أن الهلال يُرى أو لا يرى، ويبنى على ذلك حكماً. حتى وجد من القضاة - في بعض بلاد الإسلام - من يرد شهادة العدد العدول لقول الحاسب الجاهل الكاذب إنه يرى أو لا يرى. فيكون ممن كذب الحق لما جاءه، وربما أجاز شهادة غير المرضي لقوله. فيكون هذا الحاكم من السماعين للكذب. فإن حكام السوء جاء وصفهم بمثل قوله تعالى: ﴿سَمَاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ﴾ (٢). وحكام السوء يقبلون الكذب ممن لا يجوز قبول قوله من مخبر أو شاهد، ويأكلون السحت من الرُشأ وغيرها، وما أكثر ما يقرن هذان (٣).

ب — ومن المسلمين من لا يقبل قول هؤلاء - لا في الباطن ولا في الظاهر - ، لكن في قلبه حسيكة من ذلك وشبهة قوية لثقتة به ومن جهة أن الشريعة لم تلتفت إلى ذلك. خاصة إذا كان قد عرف شيئاً من حساب النيرين الشمس والقمر، ومفارقة أحدهما الآخر بدرجات، وسبب الإهلال والإبدار والكسوف والخسوف. فأجرى حكم الحساب الكاذب الجاهل مجرى الرؤية.

ولقد جاءت الشريعة بأن الاعتبار، إنّما هو بالرؤية فقط، ومن ثم فإن العمل بالحساب لا يجوز؛ وذلك لأمور عدة:

- (١) لوجود النصوص الواردة في أن الاعتبار بالرؤية في صوم رمضان وفي الحج وفي عدة المطلقة وفي غير ذلك من الأحكام.
- (٢) إجماع المسلمين على ذلك. وعلى أنه لا عبرة بالحساب.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٤٢.

(١) سورة العلق، الآية: ١.

(٣) مجموع الفتاوى (١٣١/٥).

(٣) أن العمل بالحساب لا ينضبط ، فقد يصيب وقد يخطئ .

(٤) وبعض متأخري الفقهاء ، زعم أنه في وقت الغيم يجوز للحاسب أن يعمل في نفسه بالحساب ، فإن دلَّ الحساب على الرؤية صام ، وإلا فلا . وهذا القول : أولاً : هو مقيد في حالة الإغمام فقط . ثم إنه خاص بصاحب الحساب نفسه ، أي : لا يفرضه على غيره .

وثانياً : هو شاذ مخالف للإجماع المنعقد على خلافه فلا اعتبار به .

- والاعتبار بالحساب معمول به في كثير من بلاد الإسلام .

- ويشبهه ما يصنعه بعض الطوائف من الاعتبار بالعدد<sup>(١)</sup> فقط ، مثل : طائفة الإسماعيلية . حيث يروون عن جعفر الصادق - رحمه الله تعالى - جدولاً يعمل عليه . وهذا كذب وافتراء على جعفر الصادق . وضعه الوضاعون من الرافضة الغلاة .

والكلام حول الوضع هناك يطول ، وقد استوقفني هذا الأسبوع خبران :

أحدهما : أن روسيا الشيوعية سابقاً الصليبية حاضراً ، أعلنت أنها تعارض ضرب الصرب ، وأن أي اعتداء عليهم هو اعتداء على روسيا ذاتها . وقبل شهور أعلن التلفزيون الروسي دعاية لمن يرد الجهاد المقدس ضد المسلمين هناك . وفعالاً شارك عدد منهم .

فقلت في نفسي : أين ترحبنا السابق بالروس وما وراء الترحيب؟

ثانيهما : زيارة امرأتين هما : رئيستا وزراء في دولتين إسلاميتين لمدينة سراييفو للتضامن مع شعب البوسنة .

فقلت في نفسي : هل تفلح أمة تقودها امرأة؟!!!!

صدق ﷺ حيث قال : «لن يفلح قوم ولّوا أمرهم امرأة»<sup>(٢)</sup> .

فأين الفحول؟!!!!

\* \* \*

(١) المقصود : أنهم يجعلون الشهر دائماً ثلاثين يوماً ، والسنة اثني عشر شهراً . (انظر : مجموع الفتاوى

(٢) رواه البخاري (٤٤٢٥) .

(١٣٧/٥) .

استقبال رمضان وكمال الشريعة الإسلامية<sup>(١)</sup>

تستقبل الأمة الإسلامية [فيما بين الخافقين] - بعد أيام قليلة - ضيفاً عزيزاً، وشهراً كريماً ولقد تميز هذا الاستقبال بعدة ميزات:

**منها:** أنه ضيف يحمل معه من الخير والبر والرحمة ما لا يقع تحت حدّ أو حساب بشر.

ضيف هو خير كله، وهو بشر وفرح كله: ولو لم يكن فيه إلا واحدة من هداياه الكبار التي منها:

أ- قوله تعالى في الحديث القدسي: «كل عمل ابن آدم له إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به»<sup>(٢)</sup>.

ب- فيه ليلة ﴿خير من ألف شهر﴾ لمن قامها إيماناً واحتساباً<sup>(٣)</sup>.

ج- وفيه: «من قام رمضان إيماناً واحتساباً غُفر له ما تقدم من ذنبه»<sup>(٤)</sup>.

فلو لم يكن فيه إلا واحدة من هذه الهدايا، لكان كافياً لكل مؤمن ومؤمنة أن يحضر قلبه ويشمر عن ساعد الجهد في هذا الشهر الكريم فلا تفوته منه ساعة إلا بطاعة.

فكيف وفيه كل هذه الهدايا الكبار وغيرها كثير!؟

ويكفي فيه أنه ضيف لا يختص باستقباله كبار المستقبلين من أمير أو وزير أو ثري.

وإنما هو ضيف كريم سمح متواضع يستقبله الجميع، بل لو قلنا: إن الفقراء يستقبلونه ويفرحون به قبل الأغنياء لما أبعدنا النجعة.

فهو ضيف يستقبله الغني في قصره، والمملك في ملكه، والعجوز المسكينة في

(١) الجمعة ١٤١٤/٩/١هـ.

(٢) رواه البخاري (١٨٤٩)، وأبو داود (٢٢٦٣)، وأحمد (٢/٢٦٥).

(٣) رواه البخاري (٣٥)، ومسلم (٧٦٠)، وأبو داود (١٣٧٢).

(٤) رواه البخاري (٣٨)، ومسلم (٧٦٠).

كوخها المتواضع في أقصى الدنيا .

أولاً: جود الله على عباده في رمضان؛ ثبت في الحديث الصحيح عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (قال الله عز وجل: كل عمل ابن آدم له إلا الصيام هو لي وأنا أجزي به. فوالذي نفس محمد بيده خلفه فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك) (١).

وفي لفظ آخر: قال رسول الله ﷺ: «كل عمل ابن آدم يضاعف، الحسنه بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، قال الله عز وجل: إلا الصوم، فإنه لي وأنا أجزي به، يدع شهوته وطعامه من أجلي...» .

وقد اختلف العلماء في المقصود بقوله في الحديث: «إلا الصيام هو لي وأنا أجزي به»؛ على أقوال:

الأول: أن الصوم لا يقع فيه الرياء، كما يقع في غيره. قال أبو عبيد في غريبه: (قد علمنا أن أعمال البر كلها لله وهو الذي يجزي بها، فنرى والله أعلم أنه إنما خص الصيام؛ لأنه ليس يظهر من ابن آدم بفعله، وإنما هو شيء في القلب. والفرق: أن الصيام إمساك. أما بقية الأعمال فتظهر بفعلها.

الثاني: أن المراد بقوله «وأنا أجزي به» أنني أتفرد بعلم مقدار ثوابه وتضعيف حسناته؛ لأن الأعمال قد كشف مقادير ثوابها للناس وأنها تضاعف من عشر إلى سبعمائة ضعف إلى ما شاء الله. بخلاف الصيام، فإن الله يثيب عليه بغير تقدير. ويؤيد هذا رواية: «كل عمل ابن آدم يضاعف، الحسنه بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، قال الله عز وجل: إلا الصوم، فإنه لي وأنا أجزي به، يدع شهوته وطعامه من أجلي...» .

ويدل عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤْتِي السَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (٢)، والصابرون: الصائمون في أكثر الأقوال.

(٢) سورة الزمر، الآية: ١٠.

(١) رواه مسلم (١١٥١).

ولا يعارض ما ورد في صيام النفل من أن صوم اليوم بعشرة أيام؛ لأن المقصود أن صيام اليوم الواحد يكتب بعشرة أيام، وأما مقدار ثواب ذلك، فلا يعلمه إلا الله تعالى.

الثالث: أن المعنى «الصوم لي»، أي خالص لله تعالى وليس للعبد فيه حظ من ثناء الناس عليه ونحوه مما قد يوجب لمن فعل بعض العبادات الظاهرة غير الصيام.

الرابع: أن سبب الإضافة إلى الله، أن الصيام لم يعبد به غير الله، بخلاف الصلاة والصدقة والطواف ونحو ذلك، فإن هذه قد يقصد بها غير الله من المعبودات الباطلة.

الخامس: أن معنى قوله: «إلا الصيام فإنه لي وأنا أجزي به»: أن جميع العبادات تُوفى منها مظالم العباد إلا الصيام.

وقد ورد في رواية - عند البخاري في التوحيد - : «عن ربكم قال: لكل عمل كفارة والصوم لي وأنا أجزي به».

والصوم - كما ورد في الأحاديث الصحيحة - كغيره من العبادات؛ كالصلاة، والزكاة، يكفر الذنوب. إلا أن الصيام يتميز بأنه كفارة وزيادة ثواب على الكفارة<sup>(١)</sup>.

وهذه الأقوال كلها ترجع إلى أمر واحد وهو تميز الصيام بكثرة الثواب، وهذا من جود الله تعالى وهو صاحب الكرم والجود. فثواب الصيام لا يقدر قدره ولا يحصيه إلا الله تعالى، ولذلك يتولى الله جزاءه بنفسه ولا يكله إلى غيره.

قال بعض العلماء: والسبب في اختصاص الصيام بذلك؛ أمران:

أ- أن سائر العبادات مما يطلع العباد عليه. والصوم سرٌّ بين العبد وبين ربه، ويفعله العبد خالصاً ويعامله به طالباً لرضاه. وهذا ما أشار إليه بقوله تعالى: «فإنه لي».

ب- أن سائر الحسنات راجعة إلى صرف المال أو استعمال البدن، والصوم

(١) فتح الباري لابن حجر (١٨٩٥).

يتضمن كسر النفس وتعريض البدن للنقصان ، وفيه الصبر على مضض الجوع والعطش وترك الشهوات . وإليه أشار بقوله تعالى : « يدع شهوته من أجلّي » .

ثانياً: نماذج من زهد وخوف من رزق العلم والجاه:

١ - روي أن معاذ بن جبل - رضي الله عنه - لما حضرته الوفاة قال : « انظروا هل أصبحنا؟ فقيل له : لقد أصبحنا . فقال : أعوذ بالله من ليلة صباحها إلى النار . ثم قال : اللهم إنك تعلم أنني لم أكن أحب الدنيا وطول البقاء فيها لكرئى الأنهار ، ولا لغرس الأشجار ، ولكن لطول ظمأ الهواجر ، وقيام الليل ، ومكابدة الساعات ، ومزاحمة العلماء بالركب عند حلق الذكر » .

وهذا أبو الدرداء - رضي الله عنه - كان يقول : « إن أشد ما أخاف على نفسي يوم القيامة أن يقال لي : يا أبا الدرداء قد علمت فكيف عملت فيما علمت؟ » .

وهذا إمام اجتمع له العلم والجاه والدنيا . بل جاءه من الجاه والدنيا ما لا لم يأت أحداً من رجال عصره : جاءته الدنيا كلها راغمة فزهد فيها : إنه العالم الزاهد الإمام عمر بن عبد العزيز .

تقول زوجته فاطمة بنت عبد الملك : ما رأيت أحداً أكثر صلاة وصياماً منه ، ولا أحد أشد فرقاً من ربه منه ، كان يصلي العشاء ثم يجلس يبكي حتى تغلبه عيناه ، ثم ينتبه فلا يزال يبكي حتى تغلبه عيناه . قالت : ولقد كان يكون معي في الفراش فيذكر الشيء من أمر الآخرة فينتفض كما ينتفض العصفور في الماء ، ويجلس يبكي ، فأطرح عليه اللحف رحمة له .

وأنا أقول - القائل : زوجة عمر بن عبد العزيز - : (يا ليت كان بيننا وبين الخلافة بُعد المشرقين؟)

\* \* \*

استقبال رمضان وفضل النفقة فيه<sup>(١)</sup>

تستقبل الأمة الإسلامية - بعد أيام قليلة - ضيفاً عزيزاً يحل عليها، وتفرح فرحاً عظيماً بقدومه ودخوله .

وهذا الضيف على جلاله قدره وتعلق الناس به، تميّز بعدة ميزات عن غيره من الضيوف :

■ منها: أنه ضيف متواضع يدخل جميع البلاد الإسلامية لا يفرق بينها كما أنه يدخل بيوت الفقراء والأغنياء على حد سواء، بل إن الفقراء يجدون منه من العناية والتذكير أكثر مما يجده غيرهم .

■ ومنها: أنه ضيف يربط الأمة بربها، ويذكرها بحقيقة دينها وعبادتها لله تعالى .

■ ومنها: أنه ضيف يعلم الأمة التكافل الاجتماعي، فيحنّ الغني على الفقير، ويتحول المجتمع المسلم في هذا الشهر إلى مجتمع نموذجي يذكرنا أحياناً بمجتمعات السلف التي كان ملؤها التناصح والتأخي والتكافل .

■ ومنها: أنه مدرسة كبرى للأمة الإسلامية، يعلمها: العقيدة، والخلق، ويذكرها بالتاريخ، ويعلمها كيف تلتزم بشريعة ربها من خلال مثال الصوم إمساكاً وفطراً وغير ذلك من الأحكام . ويعلمها واقعاً ملموساً يتمثل في وحدة هذه الأمة الإسلامية في مشارق الأرض ومغاربها ، وأن كيد أعدائها لتمزيقها والقضاء عليها لا يكون وهذه الأمة تلتزم بعقيدتها وشريعة ربها .

ولا نريد الاستطراد في تعداد ميزات هذا الضيف الكريم - شهر رمضان المبارك - فهي كثيرة جداً ، وكمالات هذه الشريعة بأحكامها وآدابها مما لا يحيط به مخلوق ؛ لكونها شريعة من عند العليم الخبير ﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾ (٢) .

ولكن أحب التذكير بواحدة مما يتعلق بهذا الشهر الكريم ، فإنها مفيدة لامتنا في

(١) الجمعة ٢٦/٨/١٤١٥هـ . في جدة، والجمعة ٤/٩/١٤١٥هـ في مدينة الرياض .

(٢) رواه: البخاري (١٨٤٩) .

هذه الأفام ، ألا وهف : أن هذا الشهر كان فف فافرفنا الإسلامف شهر جهء وفتوحاء ، فهو فذكرنا بفءر - فوم الفرقان - ، فذكرنا بفءح مكة . . . فذكرنا بففرها وففرها من المءارك الفاصلة فف فافرفنا الطوفل .

إن هذا الضفف فحمل معه عءءاً من الهءافا من ربكم إلفكم ، فهل فقبلفها . إنفا هءافا ولففست كهءافا الملوك والأفنفاء مهماف عظم ءمنفا . وسأذكر لكم بعضفا ، فاسمعوا وءمعنوا واعملوا :

١ - الهءفة الأولى : أن هذا الشهر مءمفز فف باب الأجر والشواب عن ففره من الأعمال الصالحة ، فهو لله والله هو الذي فجزف به .

فنن أبو هرفرة - رضف الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « قال الله عز وجل : كل عمل ابن آءم له إلا الصوم فإنه لف وأنا أجزف به »<sup>(١)</sup> . ومعنى هذا : أن ففر الصوم من الأعمال أفره عظم لكنه مءءء مءسوب ، أما الصوم فأفره بفءون ءساب ، وففن هذا روافة مسلم : « كل عمل ابن آءم فضا عف ، الءسنة بعشر أمءالفا إلى سبعمائة ضعف ، قال الله فعالف : إلا الصوم فإنه لف وأنا أجزف به » .

ءأمّلوا - رءمنف الله وإفكم - قوله : « إلا الصوم فإنه لف وأنا أجزف به » ما أءملفا وأعظمفا من عبارة ! ، وما أعظم أثرفا على القلوب والله فقول : « فإنه لف » ، فقول : « وأنا أجزف به » . وإنفا لهءفة . ففالف الصاءمفن لا فففلون عنها .

٢ - الهءفة الثانية : أن من صام رمضان إفماناً وءءساباً ، فُفر له ما فءءم من ذنبه ، كما ورد فف الءءف المءفق علفه عن أبو هرفرة - رضف الله عنه - .

ومن منا لا فءشوق إلى هذه الهءفة وكل منا مءقل بالذنوب والأوزار . ومعنى قوله ﷺ هنا : « إفماناً وءءساباً » أف : ففة وعزفمة ، بأن فصوم رمضان على التصءفق والرغبة فف ءوابه طفبة بها نفسه ، ففر كاره له ، ولا مءءءقل لففامه ولا مءءطفل لافامه . بل ففءنمفا لعظم الشواب وطلباً لوجه الله فعالف .

٣ - الهءفة الثالثة : أن ففه لفلة هف ءفر من ألف شهر ، من قامفا إفماناً

واحتساباً عُفِّر له ما تقدم من ذنبه . كما ثبت عند البخاري ومسلم وغيرهما (١) .

٤ - الهدية الرابعة: أن لله عتقاء من النار في كل يوم وليلة من رمضان كما ثبت في حديث أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله ﷺ : « إن لله تبارك وتعالى عتقاء في كل يوم وليلة - يعني في رمضان - وأن لكل مسلم في كل يوم ليلة دعوة مستجابة » (٢) .

٥ - الهدية الخامسة: أن للصائمين باباً يوم القيامة يدخلون منه إلى الجنة ، ومن دخله لم يظمأ أبداً . فعن سهل بن سعد - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال : « إن في الجنة باباً يُقال له: الريان ، يدخل منه الصائمون يوم القيامة ، لا يدخل أحد غيرهم ، فإذا دخلوا أغلق فلم يدخل منه أحد » (٣) . وزاد الترمذي : « ومن دخله لم يظمأ أبداً » .

٦ - الهدية السادسة: أن من قام رمضان إيماناً واحتساباً عُفِّر له ما تقدم من ذنبه . هذه بعض هدايا ربكم في هذا الشهر الكريم ، فهل نتقي الله تعالى فيه ونراقبه ، فنحوه إلى شهر عبادة وتوبة صادقة ، توبة عن الذنوب وعن التقصير ، توبة لا نخص بها رمضان ، ثم نعود بعده كما كنا . بل توبة نصوح لعل الله أن يوفقنا إلى إحدى هذه النفحات أو كلها فنكون من السعداء .

وإذا كان مما يتميز به هذا الشهر الكريم ، مضاعفة الحسنات فيه ، ولذا تكثر فيه الأعمال الصالحات من تلاوة القرآن ، وعبادة الله وقيام الليل ، والإحسان إلى الفقراء والمساكين ، فإنني أحب أن أذكر إخواني ممن رزقهم الله مالاً من الموسرين ، بأمرين :

\* الأمر الأول : أن يذكروا إخوانهم الفقراء المحتاجين ، وألا يأخذهم الشح أو الخوف من التغيرات الاقتصادية إلى ألا ينفقوا ، وأن يبذلوا في هذا الشهر الكريم وفي غيره ، وليعلموا أن الله هو الرزاق ، وليذكروا فضل الصدقة ، والآيات الواردة فيها كثيرة ، وكذا الأحاديث . ولكن سأذكركم الآن بحديث وحادثة :

أما الحديث : فعن عقبة بن عامر - رضي الله عنه - قال : سمعت رسول الله ﷺ

(١) رواه : البخاري (٣٥) ، ومسلم (٧٦٠) .

(٢) رواه البزار بإسناد صحيح ، صحيح الترغيب رقم (٩٨٨) .

(٣) رواه : البخاري (١٨٩٦) ، ومسلم (١١٥٢) .

يقول: «كل امرئ في ظل صدقته حتى يقضي بين الناس». قال يزيد: فكان أبو مرثد لا يخطئه يوم إلا تصدق فيه بشيء ولو كعكة أو بصلة»<sup>(١)</sup>.

أما الحادثة أو القصة، فاسمعوها واعجبوا!!!

فقد وقعت لأحد الصحابة مع زوجته: فهذه سعدى - امرأة طلحة بن عبيد الله - رضي الله عنه - دخل عليها زوجها يوماً من الأيام، فرأت منه ثقلاً - أي عدم نشاط كحال المهموم -، فقالت: مالك، لعله رابك مناشيء فنعتبك - أي نطلب رضاك عن الإساءة - . قال: لا، ولنعم حليلة المرء المسلم أنت، ولكن اجتمع عندي مال، ولا أدري كيف أصنع به؟ قالت: وما يغمك منه؟ ادع قومك فاقسمه بينهم. فقال: يا غلام، علي بقومي - فسألت الخازن: كم قسم؟ قال: أربعمئة ألف<sup>(٢)</sup>.

فانظروا وتأملوا في هذه القصة:

١ - تاجر أهمه اجتماع المال عنده، يبحث له عن مخرج يرضي ربه تعالى، ليكون له ذخراً عند الله تعالى.

٢ - وزوجه - يالها من زوجة - لم تقل لزوجها: نحن أحوج إلى المال، وأين مستقبلنا ومستقبل الأولاد . بل أعانت زوجها على الخير والنفقة في سبيل الله .

٣ - ثم هي أيضاً امرأة كريمة تحب صلة رحم زوجها، فقالت: ادع قومك، فليست بحسودة ولا ممن يحصر فضل زوجها على أقاربها هي . فتأملوا هذه الأحاديث، والحوادث لسلفنا الصالح .

أما الأمر الثاني: فهو أمر طالما شغل بالي منذ سنين طويلة، وخلاصته: أن كثيراً من الناس - والأغنياء منهم خاصة - لا ينفق إلا قليلاً في أثناء حياته، ثم إذا دنا أجله وقربت وفاته كتب وصيته - التي لا تنفذ إلا بعد موته - وكتب فيها أنه يوصي بربع أو ثلث ماله في سبيل الله تعالى . والذي يحدث في الغالب:

١ - أن الأولاد - وبقية الورثة - لا يهتمهم إلا إرثهم، أما الوصية، فإنهم يحرصون على التخلص منها بأية وسيلة، بل ويضيقون بها ذرعاً . وينتج عن ذلك أن

(١) حديث صحيح، رواه: أحمد، وابن خزيمة، والحاكم، وابن أبي حاتم بإسناد صحيح، الأثر.

(٢) رواه الطبراني بإسناد حسن . انظر: صحيح الترغيب (٩١٢).

كثيراً من الأوقاف والأموال الموصى بها تضيع لهذه الأسباب .

٢ - أن هذه الأموال الموصى بها من أوقاف وغيرها ، لا تؤدي دورها الذي رجاه صاحب المال وجمعه وتعب عليه طول حياته ؛ لأنه غاب عنها ووكّلها إلى غيره .

ودعوني أضرب مثلاً: أرجو أن يعيه إخواني التجار:

ما رأيك لو كان لك عدد من الأولاد الصغار وأنت كبير السن قد دنا أجلك .  
ماذا تحب لهم؟

\* هل يرضيك أن تتركهم أيتاماً بعد موتك ، حتى لو تركت لهم مالاً؟

\* أم تحب أن يدّ الله في عمرك وتعيش معهم عدداً من السنوات حتى تربيهم ويرتفعوا فلا يحتاجون بعدك إلى أحد؟

إن الوقف والوصية : شبيه بأولادك ، إن تركته بعد وفاتك صار يتيماً وضاع .  
لكن إن حددته في حياتك وأنت قوي قادر ، ثم أشرفت عليه وربت أموره المالية والإدارية نفع وعظم خيره بإذن الله تعالى ؛ لأنك سترعاه وتحافظ عليه كما نرعى أولادك الصغار ، ولتعلم أن هذا هو الذي كان يفعله كثير من السلف :

- فهذا أبو طلحة الأنصاري لما نزل قوله تعالى : ﴿ لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ... ﴾ (١) . قال : يارسول الله ! إن الله تعالى قال : ﴿ لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ وإن أحب أموالي إليّ «بيرحا» - بستان جميل في المدينة - ولاني جعلتها في سبيل الله . وهكذا أوقفها في حياته وقصته في الصحيحين وغيرهما (٢) .

- وهذا عمر - رضي الله عنه - لما جاءته سهامه من خيبر جعلها في سبيل الله تعالى فحبسها في الأقارب والفقراء والمساكين (٣) .

وقد فعل ذلك عمر في عهد النبي ﷺ ، ومعلوم أنه عاش بعد ذلك سنين .

وينبغي أن تعلم أخي التاجر - المحسن - أن هذه الطريقة التي بها تحدد أوقافك

(١) سورة آل عمران ، الآية : ٩٢ .

(٢) رواه : البخاري (٢٧٥٨) ، ومسلم (٩٩٨) .

(٣) رواه : البخاري (٢٧٣٧) ، ومسلم (١٦٣٢) .

ووصاياك في حياتك فيها فوائد جمّة ، منها:

١ - إشرافك المباشر عليها في حياتك حتى يعظم نفعها .

٢ - أنه يمكن ترتيب الإدارة الجيدة التي تجعل مشروعك الخيري يمتد لسنين وربما لقرون طويلة ، ولك أجرها .

٣ - تعويد أولادك جوانب الخير وفضل هذه الأوقاف ؛ لأن كثيراً من أبناء التجار لا يعرف شيئاً عن أهمية الوقف وفضله ، إلا بعد وفاة والده . وقد يحدث له ضيق بذلك ؛ لعظم المسؤوليات التي سيتحملها . فقد يهمل أوقاف والده .

\* \* \*

## وكان أجود ما يكون في رمضان (١)

روى البخاري في صحيحه عن عبد الله بن عباس - رضي الله عنهما - قال :  
« كان رسول الله ﷺ أجود الناس ، وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل ، وكان يلقاه في كل ليلة من رمضان فيُدارسه القرآن ، فلرسول الله ﷺ أجودُ بالخير من الريح المرسلّة » (٢) .

هذا الحديث له دلالاته الكثيرة ، وأحب قبل الانتقال إلى هذا الموضوع أن أقف  
وقفات :

إحداها : أن ابن عباس قدم لهذا الحديث بقوله : « كان رسول الله ﷺ أجود الناس » ، وهذا على سبيل الاحتراس من مفهوم ما بعدها . مما قد يظن أن جوده خاص في رمضان ونحو ذلك . وقد ثبت في الصحيح عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - : « كان النبي ﷺ أشجع الناس وأجود الناس » (٣) .

الثانية : الجود هو الكرم ، وهو في الشرع أعم من الصدقة ، ولذا عرفه بعضهم بأنه : ( إعطاء ما ينبغي لمن ينبغي ) . لكن من أعظم مظاهره : بذل المال . وإلا فالشهيد يجود بنفسه في سبيل الله تعالى . وفاعل الخير يجود بنفسه في خدمة إخوانه ، والعالم يجود بوقته وعلمه في سبيل نشر العلم . . . وهكذا .

الثالثة : تشبيه جود الرسول ﷺ بالريح المرسلّة ، بل هو أجود بالخير منها ، فيه دلالة على أمرين عظيمين :

- أ - السرعة ؛ كالريح . فهو سريع في بذل جوده ببذل بدون تلكؤ أو توان .
  - ب - وصف الريح بالمرسلّة إشارة إلى أنها ريح خير تهبّ بالرحمة . وإشارة أيضاً إلى عموم النفع بجوده كما تعم الريح المرسلّة جميع من تهبّ عليه من البلاد .
- والآن : نتقل إلى الحديث عن الموضوع فنقول : إن جود الرسول ﷺ في هذا الشهر الكريم . واقتداءنا به عليه الصلاة والسلام في ذلك ، إنّما جاء ضمن دلالات خاصة

(١) الجمعة ١٤١٤/٩/٨ هـ . (٢) واه البخاري (٦) وفي غير موضع .

(٣) رواه البخاري (١٠٣٣) ، ومسلم (٢٣٠٧) .

يختص به هذا الشهر المبارك ، أهمها:

- ١ - جود الله وعظيم فضله على عباده في رمضان .
  - ٢ - مدارس القرآن وأثرها على النفس وغناها .
  - ٣ - مجالسة الصالحين وأثرها في استقامة السلوك وعلو الهمة . ومن ذلك : أن يبذل الإنسان ماله فيما ينفعه .
  - ٤ - فضل الصدقة عموماً ، فكيف إذا كانت في رمضان .
  - ٥ - ما هي أهم مظاهر الجود؟
- أولاً: جود الله وعظيم فضله على عباده في رمضان:

في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ يقول الله عز وجل : «كل عمل ابن آدم له إلا الصيام فإنه لي وأنا أجزي به» (١) .

فإذا كان جود الله تعالى على عباده تميز هذا التميز بالنسبة للصائمين - ولا شك أن رمضان أفضل الصيام؛ لأنه فريضة ، وأحب الأعمال إلى الله ما افترضه على عباده - ، فكيف لا يجود العباد على إخوانهم في هذا الشهر الكريم من هذا المال الذي هو - أولاً - هبة وعطية من الله تعالى ، لا كما قال الكافر قارون : ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾ (٢) . ثم إنه - ثانياً - لا شك زائل؛ لأنه إما أن يزول عنك ، أو تزول عنه بالموت حين يتبعك مالك مع أهلك وعملك فيرجع اثنان المال والأهل ، وتبقى حبيس عمك فقط .

فرسول الله ﷺ كان أجود ما يكون في رمضان؛ لما يرى من جود الله تبارك وتعالى .

ثانياً: مدارس القرآن وأثرها: في هذا الحديث : «وكان يلقاه - أي جبريل - في كل ليلة من رمضان، فيدارسه القرآن» .

هذه المدارس تجدد له العهد بمزيد غنى النفس ، وهي ليست للحفظ فقط ، فقد

(١) رواه البخاري (٦) وفي غير موضع ، والنسائي (٤/١٢٥) .

(٢) سورة القصص ، الآية : ٧٨ .

كان ﷺ يحفظ القرآن، فالمدارسه لأمر كثره منها:

١- أن رمضان شهر القرآن.

٢- أهمية المدارسه بخشوع وتدبر وأثر ذلك في عظم العلم والفهم لكتاب الله تعالى.

٣- أثر القرآن على النفس وغناها، ومن ثم جودها.

ومظاهر أثر القرآن في النفس كثره جداً - لا يمكن إحصاؤها - والله يقول: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ \* قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ (١).

وأحب أن أقف وقفات - قصيرة - متعلقة بالاقتصاد والمال وتقويم الأشياء في القرآن الكريم:

\* الوقفة الأولى: علمنا الله في كتابه الحلال والحرام وأثرهما في الحياة، فقال جل شأنه: ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ﴾ (٢)، وهذا يدل على أمرين:

أ- أن جمع المال بطريق الربا والحرام - مهما كثر - هو عند الله محقوق البركة. وحين يحق وتمحق بركته يتحول إلى وبال على صاحبه.

ب- أن الصدقات يربها وينميها تعالى لعباده حتى تضاعف أضعافاً كثيرة. ف«اللقمة يربها تعالى يده حتى تصير مثل جبل أحد» (٣)، وهكذا:

١- فالربا في المنهج الاقتصادي الإسلامي يساوي: لا شيء.

٢- والصدقة في المنهج الاقتصادي الإسلامي تساوي: مضاعفة إلا ما لا نهاية.

\* الوقفة الثانية: حين تقوم الموجودات التي يملكها الإنسان في الدنيا، يأتي في المنهج القرآن بيان أن هناك شيئاً واحداً، إذا ملكه الإنسان يتحول إلى أغنى غني في العالم. وليس أحد أغنى منه إلا من ملك مثل ما ملك.

وهذا الشيء لا يقدر بثمن: قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي

(١) سورة يونس، الآيتان: ٥٧، ٥٨.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٦٧.

(٣) رواه البخاري (١٤١٠) وفي غير موضع، ومسلم (١٠١٤).

الأرض جميعاً ومثله معه ليفتدوا به من عذاب يوم القيامة ما تقبل منهم ولهم عذاب أليم ﴿١﴾، وقال تعالى: ﴿إن الذين كفروا وما توا وهم كفار فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهباً ولو اقتدى به﴾.

فهذا الشيء هو: الإيمان الصادق.

فمن كان معه الإيمان، فهو كمن ملك أكثر من ملء الأرض ذهباً، كما يدل عليه مفهوم هذه الآيات.

ثالثاً: مجالسة الصالحين: كان ﷺ يجالس جبريل - عليه السلام -، وهو يدل على عظم وأهمية الجليس - خاصة بالنسبة للأغنياء -.

أ - فالغني الذي يجالس أهل الدنيا، لا يجد إلا المفاخرة بكثرة الأموال، فيتأثر بذلك ويزداد طمعاً ويصبح همه مجاراة من فوقه من الأغنياء.

ب - ومن يجالس أهل الخير، يذكره بالله والدار الآخرة ويدلوه إلى الطريق الصحيح والنهج السديد في هذه الأموال، ويقربوه إلى ربه وما أعده من النعيم لعباده المحسنين.

رابعاً: فضل الصدقة، وكيف إذا كانت في رمضان؟

الآيات في القرآن كثيرة جداً بينت فضل الإحسان والصدقات عموماً. وأما من السنة:

١ - فعن عائشة - رضي الله تعالى عنها - قالت: قال رسول الله ﷺ: «يا عائشة استري من النار ولو بشق تمرة، فإنها تسد من الجائع مسدها من الشبعان» (٢).  
وحديث: «اتقوا النار ولو بشق تمرة» (٣).

وفي رواية لمسلم: «من استطاع منكم أن يستر من النار ولو بشق تمرة فليفعل».

٢ - وعن عقبه بن عامر - رضي الله عنه - قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

(١) سورة المائدة، الآية: ٣٦.

(٢) انظر: صحيح الترغيب (٥٥٩). والحديث رواه أحمد بإسناد حسن.

(٣) رواه البخاري (١٤١٣)، ومسلم (١٠١٦).

«كل امرئ في ظل صدقته حتى يقضى بين الناس» قال يزيد: «فكان أبو مرثد لا يخطئه يوم إلا تصدق فيه بشيء ولو كعكة أو بصلة»<sup>(١)</sup>.

٣- وعن أبي أمامة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «صنائع المعروف تقي مصارع السوء، وصدقة السر تطفئ غضب الرب، وصلة الرحم تزيد في العمر»<sup>(٢)</sup>.

٤- هذه (سعدى) زوجة طلحة بن عبيد الله - رضي الله عنهما - دخل عليها زوجها طلحة فرأت منه ثقلاً فقالت له: مالك؟ لعلك رابك مناشيء فنعتبك - أي نطلب رضاك - . قال: لا ، ولنعم حليمة المرء المسلم أنت، ولكن اجتمع عندي مال، ولا أدري كيف أصنع به؟ قالت: وما يغمك منه، ادع قومك فاقسمه بينهم، فقال: يا غلام! عليّ بقومي . فسألت الخازن كم قسم؟ قال: أربعمئة ألف<sup>(٣)</sup>.

٥- حديث: «سبق درهم مائة ألف درهم»<sup>(٤)</sup>.

خامساً: ما هي أعظم مظاهر الجود:

كثير من الناس حصر جوده في رمضان فيما يسمى بعشئ الوالدين وجعله في يوم الخميس فقط . وهذا مع أنه أراد الخير ، إلا أنه قصر من عدة أمور:

١ - أنه حرم نفسه وتصدق عن والديه . وفضل الله واسع فهذا مثل من يضحي عن أمواته ويترك نفسه .

٢ - أنه خصَّ ذلك في يوم معين ، فتحول إلى عادة مستمرة لسنوات ، ويخشى أن يتحول إلى بدعة .

٣ - أنه قصر القضية في صناعة طعام . قد يؤكل وقد لا يؤكل . خاصة أن بعض الناس يصنع الطعام ، ثم يبحث عمن يأكله . ولما كان الخير يعم في هذا الشهر ، فقد يضطر إلى رميه والتخلص منه .

لهذا ، فأحب أن أذكر نفسي وإخواني بأن مظاهر الجود عديدة:

أ- فهناك المحتاجون من الفقراء في الداخل . وهناك فقراء كثيرون في

(١) انظر: صحيح الترغيب (٨٦٦) . والحديث رواه أحمد وابن خزيمة وابن حبان والحاكم، وقال: صحيح على شرط مسلم .

(٢) انظر: صحيح الترغيب (٨٨٠) ، والحديث رواه الطبراني في الكبير بإسناد حسن .

(٣) انظر: صحيح الترغيب (٩١٦) .

(٤) حديث صحيح حسنه الألباني في صحيح الجامع (٣٦٠٦) .

ءءرء . ولاءك أن الأقرفف والقرففف أولف . ولكن فف الأءرء من هو أشء ءرءة .  
ب- وءنك مشارف الإفرار- أفضاً فف الءاءل والأءرء- ، وءف والأءم للء  
كثفة .

ء- وءنك ءمففاء ومءارس إسلامفة مءءشرة : وءف ءشكو بءل إءوانهم  
المسلمف ، فف مءابل نشاط ءنصفرف مءءوم .

ء- والمءرءون فف سبفل اللء فف البوسنة وفف كشمفر وءفرهما من بلاد الإسلام  
بءرءة إلى ءعم وءأفء .

ه- وءنك مراكز ءءففظ القرآن ءفرفة . وءف كثفة ءءاً .

ولعل من ءلك : الاستكءار من الطءام وقت الإفرار بءفء فمءلئ العوف من  
ءلك ، فلا فسءفء من صفامه فف قهر ءءو اللء الشفطان وكسر الشهوة .

لأن الصائم ءءارك ءنء فطره ما فاته ضءوة نهاره ، وربما زاء ءلئ ءلك فف ألوان  
الطءام ءءئ اسءمرء العاءاء بأن ءءءر ءمفء الأطءمة لرمضان ، ففؤكل منها ففء ما  
لا فؤكل فف ءءة أشهر .

ومعلوم أن مقصوء الصوم- كما فقول العزالف- العواء وكسر الهوءف لءقوءف  
النفس ءلئ القوءف ، فإءا ءفعء المءءة ومنءء من أول النهار إلى آءره ءءئ هاءء  
شهوءءها وقوف رءبءءها ثم أطعمء من اللءاء وأشبعء ، زاءء لذءءها وءضاعفء  
قوءءها ، وانبعءء من الشهوءاء ما ءساءها كائن راءءة لو ءرءء ءلئ ءاءءها .

فروح الصوم وسرءه ءضعف القوءف ءءف هف وسائل الشفطان فف العوء إلى  
الشورور ولن فءصل ءلك إلا بالءقلل . وهو أن فاكل أكلءه ءءف كان فاكلها كل لفة  
لو لم فصم .

فأما إذا ءمع ما كان فاكل ضءوة إلى ما كان فاكل لفلأ لم فءبء بصومه .

ومن ءلك : أن لا فكثر النوم بالنهار ءءئ فءسّ بالءوع والعطش وفسشعر ضعف  
القوءف ، ففصفوا ءنء ءلك قلبه ، والناس فف هءه الأيام ءالفوا فف هءفن :

أ- نوم طوفل بالنهار ، فلا فءسّون بصوم .

ب- وأكل كءفر من ألوان الطءام فف اللفل فلا فسءشءرون الصفام فءهفء  
شهوءاءهم وشفاطفئهم .

## درس رمضان

## التعلق بالمساجد (١)

لقد عشنا وعاشت الأمة الإسلامية في شهر رمضان تجربة خاصة مع صرح من أعظم صروح الإسلام وأكثرها وأعماقها أثراً في حياة هذه الأمة .

هذا الصرح هو المسجد ، الذي يؤدي دوره طوال العام ، ويعظم هذا في رمضان لأمور يلاحظها الإنسان ويستبشر بها خيراً :

فمنها : كثرة المصلين ، حتى إنه ليدخل المسجد أناس ربما لم يدخلوه طيلة العام إلا في أيام الجمع .

ومنها : عمرانه بقيام الليل ، سنة رسول الله ﷺ وصحبه الكرام - رضي الله عنهم - .

ومنها : قراءة القرآن ومدارسته وحفظه في المساجد .

ومنها : هذا التكافل والتآخي بين المسلمين من خلال موائد الإفطار التي نشاهدها في جميع المساجد تقريباً .

ومنها : الحرص على الإنفاق في سبيل الله تعالى ، حتى أصبح رمضان ومساجده موسماً عظيماً لهذا الباب الذي تجدد الجميع يشارك فيه - أغنياء وغير أغنياء - .

ومنها : هذه العلاقة بالمسجد يجدها الإنسان ، ولو تأمل الوقت الذي يقضيه من وفقه الله تعالى لوجده أحياناً أطول مما يقضيه في بيته : تبكير للصلاة ، ثم مكث في المسجد بعدها ، وقراءة قرآن ، وصلاة ليل . . . إلخ .

وهكذا تحول المسجد إلى أن يكون جزءاً من حياة هذه الأمة ، ولا شك أننا في هذا الزمن بحاجة ماسة إلى أن يقوم المسجد بدوره المطلوب .

في عهد السلف - رحمهم الله - كانت بيوتهم وأسواقهم عامرة بذكر الله وما

ينفع ، ومع هذا كانت مساجدهم مراكز تربية وتعليم وجهاد ، ومنطلق خير وفتوحات ، ومع جهادهم وعمرانهم للأرض بيعاً وشراءً وصناعة وترحالاً في الآفاق ، إلا أن المساجد كان لها دور عمليّ في حياتهم من جميع الوجوه .

وإذا كان هذا في عهود السلف - رحمهم الله - ففي زمننا هذا - الذي كثرت في الفتن - وتحولت البيوت في كثير من أحوالها إلى أن تغروها وسائل الإغراء والفتنة من وسائل الإعلام المختلفة وغيرها ، وكذا الحال في أسواقنا ومنتدياتنا ، نحن أحوج ما نكون إلى أن يقوم المسجد بدوره التربوي المطلوب .

إن من المؤسف حقاً أن المسجد تحول في حياتنا إلى هامش ، حتى صار الطيب من الناس يلهث إلى المسجد دقائق معدودة يؤدي فيها الفريضة ، ثم يعود إلى حياته ولهوه ومشاغله كما كان .

إن تجربة المسجد في رمضان يمكن أن تفتح آفاقنا إلى أن نستفيد منه عملياً في بقية العام ؛ ليقوم بدوره المطلوب .

إن المسجد - بالنسبة للمؤمن - مركزُ عبادة للواحد القهار ، يوحد فيه ربه ، ويتلو فيه كلامه ، ويأنس بذكره ، ويزيل عن نفسه أنواع الوحشة وضيق الصدر الواردة إليه من مشاغل ومشاكل الحياة . ورحلة المؤمن إلى المسجد مرات عديدة كل يوم ، في هدأة الليل وفي نصف النهار ، وفيما بين ذلك ، ليست رحلة عناءٍ ولكنها رحلة صفاء ، فهم :

يمشون نحو بيوت الله إذ سمعوا	(الله أكبر) في شوقٍ وفي جدل
أرواحهم خشعت لله في أدب	قلوبهم من جلال الله في وجل
نجواهم: ربنا جتناك طائفة	نفوسنا ، وصعينا خادعُ الأمل
إذا سجي الليل قاموه وأعينهم	من خشية الله مثلُ الجائد الهطل
هم الرجال فلا يلهيهم لعب	عن الصلاة ولا أكذوبة الكسل

أي ، والله لا تلهيهم عن الصلاة أكذوبة الكسل ، وكيف تلهيهم وهي من

صفات المنافقين: ﴿وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كَسَالَى﴾ (١).

إنهم قوم عمرووا المساجد وعمروا الدنيا بمنهاج ربهم، فهم أهل جهاد وفتوحات، وبناء حضارة تنبثق من أصول الإسلام، وهم أيضاً أهل عبادة وطاعة يعمرّون بها كل مكان تطوّره أقدامهم، تسبق مساجدهم بيوتهم عند إعمارها وبنائها.

وتأمّل قوله تعالى في وصفهم: ﴿فِي بُيُوتِ الَّذِينَ تُرْفَعُ وَيُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ \* رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ \* لِيَجْزِيََهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (٢).

وقفوا عند قوله تعالى: ﴿لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾، فهم مع شغلهم بالتجارة والبيع لا يغفلون عن ذكر الله والصلاة، وليس المعنى أنهم لا يشتغلون بتجارة ولا بيع أبداً لأنهم متفرغون للعبادة كما يزعم أرباب الدروشة والتصوف، وهذه كانت حال سلفنا الصالح:

هذا إبراهيم بن ميمون الروزي، أحد الشقاة المحدثين، كان من الأمايين المعروف، وكان يشتغل بالصياغة وطرق الذهب والفضة، قال عنه ابن معين: (كان إذا رفع المطرقة فسمع النداء لم يردّها) (٣).

وهذا الأحنف بن قيس الموصوف بالحلم وكانت فيه أناة شديدة يقول عن نفسه: (قد عرفتُ من نفسي عجلة شديدة في صلاتي إذا حضرتُ حتى أصلها).

وهذا المحدث الثقة بشر بن الحسن، «كان يلقب بالصقي؛ لأنه كان يلزم الصف الأول في مسجد البصرة خمسين سنة» (٤).

وهذا قاضي قضاة الشام في زمنه سليمان بن حمزة المقدسي، قال عن نفسه - كما في ذيل طبقات الحنابلة -: «لم أصل الفريضة قط منفرداً إلا مرتين، وكأني لم

(٢) سورة النور، الآيات: ٣٦-٣٨.

(١) سورة النساء، الآية: ١٤٢.

(٣) تهذيب التهذيب (١/١٧٣، ٤٤٧، ٤٢٤/٨).

(٤) المصدر السابق.

أصلهما قط»<sup>(١)</sup> مع أنه قارب التسعين حين قال هذا الكلام .

ولقد شدَّ الله ملك نبي الله داود بذكره لله وتسيحه ، قال تعالى : ﴿ اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ (١٧) إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعِشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ (١٨) وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ (١٩) وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَأَتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَّلَ الْخِطَابِ (٢٠) ﴿ (٢) ، عبد أتاه الله النبوة والملك . فهل غفل عن ربه؟

لقد أتاه الله قلباً ذاكراً وصوتاً رخيماً ، فإذا خلا إلى ربه يذكره ويمجده ويسبحه ويعظمه ، إذا بالجبال الصم الصلاب تتجاوب معه تسبح وبها بالعشي والإشراق . والطيور تتجمع حوله تسمع وترجع معه ذاكرة لله مسبحة . هذه نماذج من سير أنبياء الله وأتباعهم:

بتيون ليلهم بطاعة ربهم	بتلاوة وتضرع وسؤال
وعيونهم تجري بفيض دموعهم	مثل انهمال الواابل الهطال
في الليل رهبان وعند جهادهم	لعدوهم من أشجع الأبطال
بوجوههم أتر السجود لربهم	وبها أشعة نوره المتألئء

وهذا هو المسجد عندهم ، ليس المسجد مجرد بناء ، ولا مكاناً كغيره من الأمكنة ، بل هو مدرسة تصحح مسيرة الحياة وما يعرض لها من أسباب الزيغ والباطل والمنافسة والعداوة والكيد ونحوها وهذه كلها يحورها المسجد ؛ إذ يجمع الناس مراراً في كل يوم ليلة على سلامة الصدر ، وطهارة القلب ، وسمو النفس ، فلا تدخله النفس إلا بعد تطهرها كما لا يدخله البدن إلا بعد الوضوء . ومن اغتسل في كل يوم خمس مرات من نهر جار هل يبقى من درنه شيء؟ كذا الصلوات الخمس كل يوم .

يوم كان المسجد يقوم بدوره العظيم ، كنا أمة مهابة عزيزة الجانب ، يرهنا ويخاف منا الأعداء .

١ - هذه هند بنت عتبة تقول لزوجها صبيحة فتح مكة ، وقد رأت تهجد

(١) انظر : ذيل طبقات الحنابلة (٢/ ٣٦٥) .

(٢) سورة ص ، الآيات : ١٧ - ٢٠ .

الصحابة : يا أبا سفيان ! إني أريد أن أبايع محمداً ﷺ ، فقال لها أبو سفيان : قد رأيتك تفكرين . قالت : إي والله ! ما رأيت الله تعالى عبد حق عبادته في هذا المسجد قبل الليلة ، والله إن باتوا إلا مصلين قياماً وركوعاً وسجوداً . فأسلمت رضي الله عنها (١) .

٢- ولما هُزمت جنود هرقل ، قال لهم : فما بالكم تنهزمون؟ قال شيخ من عظمائهم : (من أجل أنهم يقومون الليل ويصومون النهار) .

٣- وها هم أعداء الله - في جميع معارك الجهاد - قديماً وحديثاً ، يولون هارين حين يسمعون (الله أكبر) . و (الله أكبر) مفتتح الأذان يجلبجلب بها المؤمنون من مساجدهم كل يوم خمس مرات .

هذه رسالة إلى مسلمي اليوم - وهم يواجهون هذه الهجمة الشرسة من أعداء الله في مشارق الأرض ومغاربها - نقول لهم :

(إن أول ما تواجهون به هؤلاء الأعداء ، هو العودة إلى الله تعالى وعبادته وحده لا شريك له ، ونعني بذلك : العودة إلى الحقيقة العملية التي تظهر آثارها في حياة المسلم ، وأبرز سماتها : صدق التعلق بالله ، ومحبة ، واللجوء إليه ، والانس به - خاصة في قيام الليل - فإنه عنوان الإخلاص - وموطن إرسال سهام الليل التي لا تخطئ - بإذن الله تعالى - : الدعاء .

\* \* \*

(١) ذكره ابن حجر - رحمه الله تعالى - في الإصابة (٨/ ٢٠٥ - ٢٠٦) .

## فضل العشر الأواخر من رمضان (١)

أزف لكم البشري ، وأي بشري؟!!

ولماذا لا تكون بشري وتحت أطباق الثرى ألوف مؤلفة من إخوان لنا وأصحاب وأقرباء وجيران يتمنون لو رجعوا ليعيشوا هذه الليالي المباركات ويعملوا فيها صالحاً.

المخلصون - المحبون - تطول عليهم الليالي فيعدونها عدداً لانتظار ليالي العشر في كل عام ، فإذا ظفروا بها نالوا مطلوبهم وخدموا محبوبهم .

قد مَزَقَ الحُبُ قَمِيصَ الصبر      وقد غدوتُ حائراً في أمري  
آه على تلك الليالي الفُرُ      ما كنُ إلا كليا لي القدر  
إن عدن لي من بعد هذا الهجر      وقيتُ لله بكــــل نذر

وقام بالحمدِ خطيبُ شكري

وهناك في الأسحار تعلقت القلوب بربها توبة وإنابة ورجاء لما عند الله من جزيل الثواب . وبينما أسحار بقية الناس تحمل معها اللهو والعبث والحرب لله ولرسوله ﷺ .

إذا بأسحار هؤلاء تحمل أنين المذنبين ، وأنفاس المحبين ، وقصص التائبين :

أعلمتم أن النسيم إذا ســــرى

حمل الحديث إلى الحبيب كما جرى

جَهَلِ العذولُ بأنني في جهنم

سهرُ الدجى عندي الذن من الكرى

وعندما يعلنون - في الأسحار - اعترافهم بالذنوب ، ويرفعون قصص الاعتذار إلى ربهم : ﴿ يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَّا الضُّرَّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا

الْكَيْلُ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ﴿١﴾. ليأتي الجواب: ﴿لَا تَقْرِبْ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ (٢).

وشتان بين الخالق والمخلوق، وبين عفو الخالق وعفو المخلوق.

عن عائشة - رضي الله عنها - أنها قالت للنبي ﷺ: أرأيت إن وافقت ليلة القدر ما أقول فيها؟ قال ﷺ: «قولي: اللهم إنك عفو تحب العفو فاعف عني» (١).

وينبغي أن يقف عند هذا الحديث المتضمن لهذا الدعاء في هذه الليلة المباركة. فالعفو: من أسمائه تعالى الحسنى، ومعناه المتجاوز عن سيئات عباده الماحي لآثارها، وأصله من المحو والطمس، ولذا كان معناه التجاوز عن الذنب وترك العقاب عليه.

والسؤال الوارد: كيف يرد سؤال العفو بعد الاجتهاد في الأعمال في ليلة القدر وفي ليالي العشر؟

والجواب: أن المؤمنين الصادقين مهما اجتهدوا في الأعمال الصالحة، فإنهم يرون أنفسهم دائماً في موضع التقصير في حق الله تعالى، ولذا يستغفر المؤمن ثلاثاً بعد انتهائه من الصلاة. فكذلك في هذه الليالي يجتهد في العبادة والطاعة ويسأل الله مع ذلك العفو عن ذنوبه وتقصيره. ومن ثم فلا يغتر بكثرة صلاة أو صوم. وهذه وقفات مع بعض أحكام هذه العشر الأواخر:

أولاً: عن عائشة - رضي الله عنها - قالت: «كان رسول الله ﷺ إذا دخل العشر شدّ منزره وأحيا ليله وأيقظ أهله» (٣).

وهذا لفظ البخاري. ولفظ مسلم: «أحيا الليل وأيقظ أهله وجدّ وشدّ المنزر». وفي رواية: «كان رسول الله ﷺ يجتهد في العشر الأواخر ما لا يجتهد في غيره» (٤).

(١) رواه الترمذي (٣٥١٣)، والنسائي في الكبرى (١٠٧٠٨)، وابن ماجه (٣٨٥٠)، وأحمد

(١٧١/٦، ١٨٢، ١٨٣)، وفي مواضع أخرى كلهم من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) رواه البخاري (٢٠٢٤)، ومسلم (١١٧٤).

(٣) رواه مسلم (١١٧٥). (٤) رواه مسلم (٧٤٦).

وهذا دالٌّ على أمور:

أ - منها: إحياء الليل قياماً وذكراً وتسييحاً. ولا يقتضي هذا أن يقوم الليل كله. قالت عائشة - رضي الله عنها - : «ما أعلمه قام ليلة حتى الصباح»<sup>(٢)</sup>، ويكفي في ذلك أن يقوم مع الإمام حتى ينتهي من صلاته.

قال جمهور العلماء: وصلاة الإنسان مع الإمام في ليالي رمضان أفضل من صلاته في بيته إلا من عذر.

ب - ومنها: أنه كان يُوقظ أهله للصلاة في ليالي العشر دون غيرها من الليالي، خرَّج الطبراني وأبو يعلى وغيرهما عن عليّ - رضي الله عنه - «أن النبي ﷺ كان يوقظ أهله في العشر الأواخر من رمضان وكلُّ صغير وكبير يطبق الصلاة»<sup>(١)</sup>. وروى الترمذي نحوه وقال: حديث حسن صحيح.

وقد صحَّ أن النبي ﷺ كان يطرق فاطمة وعلياً ليلاً فيقول لهما: «ألا تصليان؟»<sup>(٢)</sup>.

قال سفيان الثوري - الإمام العابد الزاهد - : (أحب إليَّ إذا دخل العشر الأواخر أن يتهجّد بالليل ويجتهد فيه، ويُنهض أهله وولده إلى الصلاة إن أطاقوا ذلك).

ج - ومنها: أنه كان يشدُّ المنزر. ومعناه على الصحيح: اعتزال النساء، وقد ورد مصرحاً بذلك في بعض الأحاديث.

ومن المعلوم أن النبي ﷺ «كان يعتكف العشر الأواخر من رمضان»<sup>(٣)</sup>، والمعتكف ممنوع من قربان النساء بالنص والإجماع.

د - ومنها: وصاله وتأخيرهِ الفطور إلى السحور. وقصة وصاله بأصحابه تنكيلاً بهم حتى رأوا الهلال تدلُّ على ذلك.

ثانياً: الاعتكاف: فعن عائشة - رضي الله عنها - : «أن النبي ﷺ كان يعتكف العشر الأواخر من رمضان حتى توفاه الله تعالى»<sup>(٤)</sup>.

(١) رواه الترمذي (٧٩٥)، وأبو يعلى (٢٨٢)، وأحمد (٩٨/١، ١٢٨، ١٣٣، ١٣٧). وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (١٧٤/٣) وعزاه للطبراني.

(٢) رواه البخاري (١١٢٧) وفي غير موضع، ومسلم (٧٧٥).

(٣، ٤) رواه البخاري (٢٠٢٦)، ومسلم (١١٧٢) من حديث عائشة رضي الله عنها.

«وكان ﷺ يحتجر حصيراً يتخلى فيه عن الناس»<sup>(١)</sup>، ليتفرغ لمناجاة ربه تعالى وذكره ودعائه . ولهذا ذهب الإمام أحمد إلى أن المعتكف لا يستحب له مخالطة الناس ، حتى ولا لتعليم علم وإقراء قرآن ، بل الأفضل له الانفراد بنفسه والتخلي بمناجاة ربه .

وهذا الاعتكاف هو الخلوة الشرعية ، لا خلوة الصوفية البدعية . ولهذا كان من أعظم ميزات هذه الخلوة الشرعية ، أنها لا تقطع العبد عن الجمع والجماعات ، ومن ثم كانت مشروعة في المساجد .

وخلوة المؤمن بربه وعكوف القلب والقلب على الرب ومرضاته وما يقرب منه ويرضيه ، من أهم ما يحتاجه المؤمن في سيره إلى الله .

ثالثاً: في هذه الشعر ليلة القدر: وهي بنص القرآن ﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾<sup>(٢)</sup>:

وقد وقع في تحديد وقتها خلاف عريض يصل إلى قرابة خمسين قولاً ، ذكر منها ابن حجر فوق الأربعين ، ومن تتبع الأدلة الصحيحة الواردة فيها ، يجد أنها دلّت على ما يلي :

١ - أنها تتنقل . فمرة أريها رسول الله ﷺ ليلة الحادي والعشرون ، ومرة أمر بالتماسها ليلة السابع والعشرين . . . . الخ .

٢ - أنها في العشر الأواخر من رمضان خلافاً لمن قال إنها قبل ذلك من رمضان أو أنها في بعض أيام العام .

٣ - أن أرجاها الوتر من هذه العشر .

٤ - وعلى ذلك فلم يدل دليل جزمياً على أنها في ليلة معينة لا تتعدها كما شاع عند الناس أنها مثلاً ليلة السابع والعشرون .

وعلى ذلك ، فالصحيح : أن الله تعالى أخفاها عنا ، لكن رحمة بنا جعلها في

(١) رواه البخاري (٧٣٠) ، ورواه أيضاً (٧٣١) .

(٢) سورة القدر ، الآية : ٣ .

هذه الأيام المحدودة المعدودة ، ومن ثم فعلى العبد أن يقوم هذه العشرة ، وأن لا يتساهل في شيء منها وهو قمن إن شاء الله أن يوفق لقيام ليلة القدر .

وليلة القدر شبيهة بساعة الإجابة في يوم الجمعة . وقد بلغت الأقوال فيها إلى قرابة أربعين قولاً . والصحيح أن الله أخفاها حتى نجتهد في هذا اليوم كله لعل الله تعالى أن يوفقنا لموافاتها فندعو ربنا فيها .

ومن المؤسف أن كثيراً من الناس بالنسبة لليلة القدر شغل في تحديد ليلتها عن التفرغ لقيامها وما يقول فيها . وقد سبق حديث عائشة في ذلك .

والسؤال هنا هو : لماذا توجه الطعنة لكل مسلم في جميع أنحاء العالم بهذه الطريقة . يدخل المسجد رجل أو رجال مدججون بالسلاح والرصاص ويقتلون المسلمين وهم ساجدون .

ثم في نفس اللحظة يقال : يجب أن تستمر عملية السلام . لقد هان علينا ديننا فهتأ على أعدائنا .

وثاني الأخبصار : أن إحدى دور الأزياء في فرنسا طرزت الآيات القرآنية على ملابس النساء .

فأي إهانة للقرآن العظيم كهذه الإهانة؟

والله لو كان لهذا الدين رجال يدافعون عنه ، لما تجرأ هؤلاء الأقزام على محاربة المسلمين ومشاعرهم بهذه الطرق الوقحة .

لقد هان علينا ديننا فهتأ على أعدائنا .

أما ثالثها : فهو مختص بشهر الخير والفضل والصوم ، وذلك أن إحدى دور الأزياء كانت تنشر دعاية تلفزيونية لأزيائها . على أنعام الموسيقى . . . لا . . . إنه على صوت الأذان .

ألهذا الحد بلغت الوقاحة النساء العاريات الفاتنات والأزياء الماجنة تعرض علينا وتبث على أبناء الإسلام على صوت الأذان .

لقد هان علينا ديننا فهتأ على أعدائنا .

أيها الإخوة: أين الغيرة على دين الله؟! .

يا أصحاب الدشوش . يا من تنقلون إلى المسلمين السم الزعاف على بيوت المسلمين ونسائهم وأسرههم .

وإني أتساءل:

لماذا منعت بعض دول أوروبا - وهي دول كافرة - إباحة أن تبث عليها بعض القنوات؟

ولماذا لا تمنع هذه الدشوش التي صارت تعلن الحرب على الله؟

\* \* \*

## في وداع رمضان (١)

قد ورد في فضائل رمضان :

١ - «من صام رمضان إيماناً واحتساباً غُفر له ما تقدم من ذنبه» (٢) .

٢ - «ومن قام رمضان إيماناً واحتساباً غُفر له ما تقدم من ذنبه» (٣) .

٣ - «ومن قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غُفر له ما تقدم من ذنبه» (٤) .

أما غفران الذنوب لمن قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً، فيكون لمن قامها شعر بها أو لم يشعر . ولا يتأخر تكفير الذنوب بها إلى انقضاء الشهر .

وأما غفران الذنوب لمن صام رمضان إيماناً واحتساباً . ولمن قام رمضان إيماناً واحتساباً : فيحتاج إلى تمام الشهر مع العمل . وقد ورد في حديث رواه الإمام أحمد - رحمه الله - عن أبي هريرة - رضي الله عنه - في فضائل رمضان ، وفيه : «ويُغفر لهم في آخر ليلة فيه . فقيل له : يا رسول الله ! أهى ليلة القدر؟ قال : «لا، ولكن العامل إنمّا يوفى أجره إذا قضى عمله» (٥) .

فمن وُفّي ما عليه من العمل كاملاً وُفّي له الأجر كاملاً ، ومن سلّم ما عليه موفراً تسلم ماله نقداً لا مؤجلاً .

ما بعثكم مهجتي إلا بوصلكمُمُ      ولا أسلمها إلا يداً ييد

فإن وفيتم بما قلتُم وفيتُ لكم      وإن أبيتُم يكون الرهن تحت يدي

أما من نقص في العمل ، فإنه ينقص له من الأجر بقدر نقصه .

بالأمس القريب استقبلناه ، واليوم نودع شهر القرآن والعشق من النيران .

بأي شيء نودّعك يا شهر الصيام؟

دهاك الفراقُ فما تصنعُ      أتصبرُ للبين أم تجزعُ

(١) الجمعة ٢٩/٩/١٤١٤ هـ .

(٢) رواه البخاري (٣٨) ، ومسلم (٧٦٠) .

(٣) رواه البخاري (٣٨) ، ومسلم (٧٦٠) .

(٤) رواه البخاري (٣٥) ، ومسلم (٧٦٠) .

(٥) رواه الإمام أحمد ٢/٢٩٢ .

إذا كنت تبكسي وهم حيرةً فكيف تكون إذا ودَّعوا

ولكننا نودعك بأزكى تحية وسلام:

سلام من الرحمن كل أوان على خير شهر قد مضى وزمان

سلام على شهر الصيام فإنه أمان من الرحمن أي أمان

لئن فئت أيامك الغرُّ بغتةً فما الحزن من قلبي عليك بفان

أما من لم يستيقظ قلبه إلا على حرّ الوداع، وقد كان قبل ذلك في سعة من طول الوصال، وقد فرط، فنقول له:

اترك من تحب وأنت جار وتطلبهم إذا بعد المزار

وتبكي بعد نأيهم اشتياقاً وتسال في المنازل أين ساروا

تركت سؤالهم وهم حضورٍ وترجو أن تخبرك الديار

ففسك لم ولا تلم المطايا ومت كمدأ فليس لك اعتذار

ولكننا نقول: مت كمدأ. وإنما نقول: تدارك أيامك، فأنت تتعامل من رب رحيم، عفو، غفور، يحب توبة التائبين ويجزل الأجر للعاملين، «وان أتاني يمشيأتيه هرولة»<sup>(١)</sup>، ويا من عزم على التوبة في هذا الشهر الكريم:

اعلم أنك في ابتلاء وامتحان. وإن من شيم الرجال أنهم إذا عاهدوا وواعدوا وفوا بعدهم، وهذا مع بعض الناس لبعض. فكيف إذا كان عهدك مع مولاك وخالقك ورازقك؟

فيا من أعتقه مولاة من النار، إياك أن تعود بعد أن صرت حراً إلى رِق الأوزار. أيعدك مولاك من النار وأنت تتقرب منها، وينقذك منها وأنت توقع نفسك فيها، ولا تحيد عنها؟

وإن امرأةً ينجو من النار بعد ما تزود من أعمالها لسعد

ويامن ترجو العتق من النيران، وقد سألت ربك في شهر رمضان! اعلم أنه لا

(١) رواه البخاري (٧٤٠٥) وفي مواضع من الصحيح. ومسلم (٢٦٧٥).

بدَّ أن تأتي بأسباب توجب العتق . فخذ بهذه الأسباب . وهي الحمد لله ميسرة سهلة ، ومن أعظمها : دوام الطاعة والاستمرار عليها .

فحذار حذار ، من النكوص . فتلك والله من خصال المنافقين ؛ لأن قلوبهم - بسبب ما ران عليها - أضعف من أن تحمل وطأة المداومة وشدة مجاهدة النفس ، وهي أيضاً أبعد من أن تتلذذ بحلاوة الإيمان والطاعة والانتصار على هوى النفس وشيطانها ، وأنصحك بأمرين :

الأمر الأول : أن تكون لك عزيمة صادقة قويّة - من عزائم الرجال - على الطاعة والمداومة عليها ، مهما كانت الظروف والأحوال .

الأمر الثاني : القصد في الأعمال ، وعدم الإثقال الشديد على النفس ، فإن ذلك أدعى إلى المداومة . قال رسول الله ﷺ : «أحبُّ الأعمال إلى الله أدومها وإن قلَّ»<sup>(١)</sup> .

وتأمّل قوله : «أحبُّ الأعمال إلى الله» ، ويأتي بعد ذلك التدرج بالأعمال .

اهتمام السلف بقبول العمل : وينشأ هذا من أمرين :

أحدهما : الإخلاص لله في العمل ، قبل فعله وأثناء فعله .

الثاني : بُعد النفس عن العجب بعملها ، ولو كان كثيراً .

والسلف - رحمهم الله - كانوا يهتمون بإتمام العمل وكماله ، ثم يهتمون بقبوله ويخافون رده :

١ - عن عائشة - رضي الله عنها - في قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ ﴾<sup>(٢)</sup> .

قالت : هم الذين يشربون الخمر ويسرقون ؟ ، قال ﷺ : « لا ابنة الصديق ، ولكنهم الذين يصومون ويصلون ويتصدقون ، ويخافون أن لا يقبل منهم ، أولئك الذين يسارعون في الخيرات »<sup>(٣)</sup> .

(١) رواه البخاري (٤٣ ، ٦٤٦٢ ، ٦٤٦٥) ، ومسلم (٧٨٢) ، وأبو داود (١٣٦٨) . وأحمد (٦ / ٤٠) ،

٦١ ، ١٢٥ ، ١٦٥) كلهم من حديث عائشة رضي الله عنها . (٢) سورة المؤمنون ، الآية : ٦٠ .

(٣) رواه الترمذي (٣١٧٥) ، وابن ماجه (٤١٩٨) من حديث عبد الرحمن بن سعيد ابن وهب الهمداني عن عائشة رضي الله عنها ولم يدرك عبد الرحمن عائشة رضي الله عنها كما في التهذيب (١٦٩ / ٦) .

٢ - وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴾<sup>(١)</sup>. قال علي - رضي الله عنه :- «كونوا لقبول العمل أشدَّ اهتماماً منكم بالعمل ، ألم تسمعوا الله عز وجل يقول : ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴾<sup>(١)</sup> .»

قال فضالة بن عبيد الأوسي الأنصاري - من أهل بيعة الرضوان - : (لأن أكون أعلم أن الله تقبل مني مثقال حبة من خردل أحبُّ إليَّ من الدنيا وما فيها ، لأن الله يقول : ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴾) .

٣ - وقال مالك بن دينار : (الخوف على العمل أن لا يتقبل أشدُّ من العمل) .

٤ - وقال عبد العزيز بن أبي رواد : (أدركتهم يجتهدون في العمل الصالح ، فإذا فعلوه وقع عليهم الهمُّ أيقبل منهم أم لا؟) .

٥ - وكان بعض السلف يظهر عليه الحزن يوم عيد الفطر ، فيقال له : إنه يوم فرح وسرور . فيقول : صدقتم ، ولكنني عبد أمرني مولاي أن أعمل له عملاً ، فلا أدري أيقبله مني أم لا ؟)

لعلك غضبسان وقلبي غافلُ سلام على الدارين إن كنت راضيا

٦ - وكان علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - ينادي في آخر ليلة من رمضان : (يا ليت شعري من هذا المقبول فنهنيه ، ومن هذا المحروم فنعزيه) ، وكان يقول ذلك ابن مسعود - رضي الله عنه - .

تنبيهات سريعة في ختام هذا الشهر الكريم:

١ - زكاة الفطر ، وهي واجبة على الجميع . وأحكامها معروفة . لكن أنبه إلى مسألة ، ألا وهي : أن جمهور أهل العلم على أن إخراج قيمة زكاة الفطر لا يجزئ ، بل لا بدَّ من إخراج الطعام من غالب قوت البلد .

٢ - سنة التكبير المهجورة في ليلة العيد وصباحه إلى صلاة العيد .

٣ - صيام ستة أيام من شوال . فقد ثبت عن النبي ﷺ في ذلك الحديث : «من صام رمضان وأتبعه ستاً من شوال فكأنما صام الدهر»<sup>(٢)</sup> .

(١) سورة المائدة ، الآية : ٢٧ .

(٢) رواه : مسلم (١١٦٤) ، وأبو داود (٢٤٣٣) ، والترمذي (٧٥٩) ، وابن ماجه (١٧١٦) من حديث ثوبان رضي الله عنه .

## الحج (١)

نستقبل هذه الأيام، وتستقبل الأمة الإسلامية جمعاً، موسماً عظيماً من المواسم المشهورة، تهفو فيه القلوب المؤمنة إلى تلك المشاهد والمناسك، ويكاد القلب - أن يطير - لو استطاع - ليشارك إخوانه المسلمين تلك المواقف، ولينال من التعب، والشعث، والأجر والثواب، مثل ما نالوه .

وتلك - والله - من أعظم الدلائل على عظمة هذا الدين، حيث إن الإنسان قد يحج في عام من الأعوام ويصيبه من التعب والمرض ويواجه ما يواجهه من الزحام الشديد والإرهاق، ولربما عزم في نفسه أثناء ذلك أن لا يعود إلى الحج مرة أخرى، ولكنه إذا مضى ورجع بعد حجه فرحاً مسروراً، كالمجاهد الذي رجع من الجهاد، لا يأتيه الموسم القادم إلا وقد حنَّ إلى الحج مرة أخرى .

إن كون القلوب تهفو إلى البلد العتيق، آية من آيات الله، وقد قال تعالى - أمراً رسوله إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - : ﴿ وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴾ (٢) .

وهي منافع لا تعدُّ ولا تحصى على مستوى الفرد، وعلى مستوى الأمة الإسلامية كلها .

وينبغي أن نقف طويلاً عند دعاء إبراهيم الخليل - عليه السلام -، قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴾ (٣) .

لأن المؤمن - لا يستتب له الأمن - إلا بعبادة الله وحده، واجتناب عبادة الأصنام، ويقضي ذلك أموراً كباراً :

(١) عبادة الله وحده لا شريك له .

(٢) اجتناب الطاغوت بكل أشكاله وصوره .

(٢) سورة الحج، الآية: ٢٧ .

(١) الجمعة ١٤١٤/١٢/٢ هـ .

(٣) سورة إبراهيم، الآية: ٣٥ .

(٣) طاعة الله تعالى، وطاعة رسوله ﷺ، وهو يقتضي اتباع شرعه وتطبيقه.

(٤) وثمرة ذلك، الولاء والبراء، والحب والبغض في الله، وهذا هو الذي

يجمع الأمة الإسلامية في قبلة واحدة، وحج واحد.

تعالوا إلى الواقع المعاصر، وإلى التاريخ الإسلامي السابق، متى يختل الأمن

في البلد الحرام؟

إن الأمن يختل عن طريق المشركين - من القرامطة قديماً - ، ومن الرافضة

حديثاً؛ لأنهم أهل شرك وكفر، يصرحون به ليلاً ونهاراً. وهذا في الرافضة جميعاً

عجمهم وعربهم.

ولقد سمعت شريطاً مسجلاً في إحدى الحسينيات في إحدى دول الخليج ينوح

كفرأ وتألهاً لعلي بن أبي طالب - رضي الله عنه - .

ووقعت إلي قصيدة لواحد منهم اسمه: أحمد العوض، يقول فيها عن أمير

المؤمنين علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - :

أبا حسن أنت زوج البتول      وجنب الإله ونفس الرسول

إليك تصير جميع الأمور      وأنت العليم بذات الصدور

وأنت المبعثر ما في القبور      وحكم القيامة بالنص لك

وأنت السميع وأنت البصير      وأنت على كل شيء قدير

ولولاك ما كان نجم يسير      ولا دار لولاك نجم الفلك

ثم يقول - بعد أبيات مشابهة :

أبا حسن يا مدبر الوجود      وكهف الطريد ومأوي الوفود

ومسقي محيك يوم الورد      ومنكر في البعث من أنكرك

. . . إلخ تعالى الله عما يقوله هؤلاء المشركون علواً كبيراً .

فالاصل في الحج - أيها الإخوة المؤمنون - : إخلاص العبودية لله تعالى . ولذا

حرص ﷺ على ذلك ؛ اتباعاً لأبيه إبراهيم الذي قال الله عنه : ﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ

مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكَ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿١﴾ .

فحرص على ربط الحج بالعقيدة والعبودية لله تعالى ، ومخالفة أهل الجاهلية في الحج ؛ ومن ذلك :

١ - مخالفته للجاهلية في وقت الإحرام بالحج والعمرة . فأحرم بهما في أشهر الحج خلافاً لأهل الجاهلية الذين كانوا يمنعون من ذلك .

٢ - في التلبية - لبي بالتوحيد - (لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك والملك ، لا شريك لك) . خلافاً لأهل الجاهلية الذين كانوا يلبون بالشرك فيقولون : (لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك) .

٣ - وفي ركعتي الطواف ، قرأ بسورتي الإخلاص والكافرون .

٤ - وفي الوقوف بعرفة ، وقف مع الناس . وقريش كانت لا تتعدى المزدلفة ؛ لأنها تقول لا نخرج عن الحرم .

٥ - وفي عرفة انتظر حتى تغيب الشمس ، خلافاً لأهل الجاهلية الذين يدفعون قبل الغروب .

إن من واجبنا - أيها الإخوة المؤمنون - أن نعود بالحج إلى معانيه ونرجعه إلى أصوله الكبار :

صفاء العقيدة ، والبعد عن الشرك . تعيد إلينا الموازين الصحيحة في حياتنا . ﴿ ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظِمِ حُرْمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَأَحَلَّتْ لَكُمْ الْأَنْعَامَ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ \* حُنْفَاءَ اللَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخَطَفَهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوَى بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٢﴾ .

(٢) سورة الحج ، الآيتان : ٣٠ ، ٣١ .

(١) سورة الحج ، الآية : ٢٦ .

## دروس من الحج (١)

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (١) يَوْمَ تَرَوُنَّهَا تُدْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَارَىٰ وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ (٢) وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ (٣) كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَإِنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ (٤) يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تَرَابٍ ثُمَّ مِّن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِّن عَلَقَةٍ ثُمَّ مِّن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُّخَلَّقَةٍ لِّنَبِّئَنَّ لَكُمْ وَنَقَرُ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يَتَّقَىٰ وَمِنكُم مَّن يردُّ إِلَىٰ أَرْدَلٍ الْعُمَرُ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٥) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٦) وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ (٧) وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّبِينٍ (٨) ﴾ (٢).

هذه الآيات مفتتح سورة الحج، والحج رحلة إلى الله تعالى، يرحلها العباد مستجيبين لنداء العبودية للواحد القهار، ﴿ وَأَتَمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ ﴾ (٣). وإذا كانت الصلاة والزكاة والصيام عبادة، فإن الحج يتميز عنها بأنه عبادة يغادر من أجلها العبد البلاد، والأولاد والأحباب، والضيعات والأموال، ويقطع المسافات الشاسعة التي قد تمتد آلاف الأميال، ﴿ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بِالْغَيْهِ إِلَّا لِيُقَاتِلَ فِيكُمْ لِرَأْفٍ رَّحِيمٍ ﴾ (٤).

إن الحج رحلة وهجرة إلى الله تعالى، وتجرد الحاج من المخيط، ووقوف الألوف في عرفات محرمين بأرديتهم البيض من أعظم من يذكر العباد بيوم القيامة، والخروج من هذه الدنيا، ثم الوقوف بين يدين الله تعالى للحساب والجزاء.

وهذا هو المعنى الذي يربط بين افتتاح سورة الحج بالأمر بتقوى الله تعالى، وتذكر زلزلة الساعة العظيمة، وبين معنى من معاني الحج الكبار، كان يدركه سلفنا

(١) الجمعة ٢٨/١١/١٤١٥ هـ.

(٢) سورة الحج، الآيات: ١-٨.

(٤) سورة النحل، الآية: ٧.

(٣) سورة البقرة، الآية: ١٩٦.

الصالح ، أما نحن اليوم فقد صار حج كثير منا نزهةً قصيرةً نطاردها من خلالها الزمن لنعود إلى ما كنا عليه من لهو وغفلة - ولا حول ولا قوة إلا بالله - .

حج بالناس عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - سنة ثلاث وعشرين ، قبيل استشهاده بأيام ، وكان شغلهُ الشاغلُ في حجه البحث عن رجل من رعيته من التابعين يريد مقابلته .

وصعد عمر جبل أبا قبيس وأطل على الحجيج ، ونادى بأعلى صوته : يا أهل الحجيج من أهل اليمن ، أفيكم أويسٌ من مراد؟

فقام شيخ طويل اللحية من قرن ، فقال : يا أمير المؤمنين ، إنك قد أكثرت السؤال عن أويس هذا ، وما فينا أحد اسمه أويس إلا ابن أخ لي يقال له : أويس ، فأنا عمه ، وهو حقير بين أظهرنا ، حامل الذكر ، وأقل مالاً ، وأوهنُ امرأً من أن يُرفع إليك ذكره .

فسكت عمر - كأنه لا يريد - ثم قال : يا شيخ وأين ابن أخيك هذا الذي تزعم؟ أهو معنا بالحرم؟ قال الشيخ : نعم يا أمير المؤمنين ، هو معنا في الحرم ، غير أنه في أراك عرفة يرعى إبلاً لنا .

فركب عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب - رضي الله عنهما - على حمارين لهما ، وخرجا من مكة ، وأسرعوا إلى أراك عرفة ، ثم جعلا يتخللان الشجر ويطلبانه ، فإذا هما به في طمرين من صوف أبيض ، قد صف قدميه يصلي إلى الشجرة وقد رمى ببصره إلى موضع سجوده ، وألقى يديه على صدره والإبل حوله ترعى - قال عمر لعلي - رضي الله عنهما - : يا أبا الحسن إن كان في الدنيا أويس القرني فهذا هو ، وهذه صفته . ثم نزلا عن حماريهما وشدا بهما إلى أراكه ثم أقبلا يريدانه .

فلما سمع أويس حسهما أوجز في صلاته ، ثم تشهد وسلم وتقدما إليه فقالا له : السلام عليك ورحمة الله وبركاته . فقال أويس : وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته . فقال عمر - رضي الله عنه - : من الرجل؟ قال : راعي إبل وأجير للقوم ، فقال عمر : ليس عن الرعاية أسألك ولا عن الإجارة ، إنما أسألك عن اسمك ، فمن أنت يرحمك الله؟ فقال : أنا عبد الله وابن أمته ، فقالا : قد علمنا أن كل من في

السموات والأرض عبيد الله، وإنا لنقسم عليك إلا أخبرتنا باسمك الذي سمتك به أمك، قال: يا هذان ما تريدان إليّ؟ أنا أويس بن عبد الله. فقال عمر - رضي الله عنه - : الله أكبر، يجب أن توضح عن شقك الأيسر، قال: وما حاجتكما إلى ذلك؟ فقال له علي - رضي الله عنه - : إن رسول الله ﷺ وصفك لنا، وقد وجدنا الصفة كما خبرنا، غير أنه أعلمنا أن بشقك الأيسر لمعة بيضاء كمقدار الدينار أو الدرهم، ونحن نحب أن ننظر إلى ذلك، فأوضح لهما ذلك عن شقه الأيسر.

فلما نظر علي وعمر - رضي الله عنهما - إلى اللعة البيضاء ابتدروا أيهما يقبل قبل صاحبه، وقالوا: يا أويس إن رسول الله ﷺ أمرنا أن نفرثك منه السلام، وأمرنا أن نسألك أن تستغفر لنا، فإن رأيت أن تستغفر لنا - يرحمك الله - فقد خُبرنا بأنك سيد التابعين، وأنت تشفع يوم القيامة في عدد ربيعة ومضر. فبكى أويس بكاءً شديداً، ثم قال: عسى أن يكون ذلك غيري، فقال علي - رضي الله عنه - : إنا قد تيقنا أنك هو، لا شك في ذلك، فادع الله لنا يرحمك الله بدعوة وأنت محسن.

فقال أويس: ما أخصُ باستغفار نفسي، ولا أحد من ولد آدم، ولكنه في البر والبحر للمؤمنين والمؤمنات والمسلمين والمسلمات في ظلم الليل وضياء النهار، ولكن من أنتما يرحمكما الله؟ فإني قد خبرتكما وشهرتُ لكما أمرى، ولم أحب أن يعلم بمكاني أحد من الناس، فقال علي - رضي الله عنه - : أما هذا فأمير المؤمنين عمر بن الخطاب - رضي الله عنه -، وأما أنا فعلي بن أبي طالب، فوثب أويس فرحاً مستبشراً فعانقهما وسلم عليهما ورحب بهما، وقال:

جزاكم الله عن هذه الأمة خيراً. قالوا: وأنت جزاك الله عن نفسك خيراً. ثم قال أويس: ومثلي يستغفر لأمثالكما؟ فقالوا: نعم، إنا قد احتجنا إلى ذلك منك، فخصنا - رحمك الله - منك بدعوة حتى نؤمن على دعائك، فرفع أويس رأسه، وقال:

اللهم إن هذين يذكران أنهما يحباني فيك، وقد رأوني فاغفر لهما وأدخلهما في شفاعة نبيهما محمد ﷺ.

فقال عمر - رضي الله عنه - مكانك - رحمك الله - حتى أدخل مكة فأتيك بنفقة من عطائي، وفضل كسوة من ثيابي، فإني أراك رث الحال، هذا المكان الميعاد بيني

وبينك غداً. فقال: يا أمير المؤمنين، لا ميعاد بيني وبينك، ولا أعرفك بعد اليوم ولا تعرفني. ما أصنع بالنفقة؟ وما أصنع بالكسوة؟ أما ترى عليّ إزاراً من صوف ورداء من صوف؟ متى أراني أخلفهما؟ أما ترى فعليّ مخصوصتين، متى تُراني أبلهما؟ ومعى أربعة دراهم أخذت من رعايتي متى تُراني أكلها؟

يا أمير المؤمنين: إن بين يديّ عقبة لا يقطعها إلا كلُّ مُخَفٍّ مهزول، فأخف - يرحمك الله - يا أبا حفص، إن الدنيا غرارة غدارة، زائلة فانية، فمن أمسى وهمته فيها اليوم مدّ عنقه إلى غدٍ، ومن مدّ عنقه إلى غدٍ أعلق قلبه بالجمعة، ومن أعلق قلبه بالجمعة لم ييأس من الشهر، ويوشك أن يطلب السنة، وأجله أقرب إليه من أمله، ومن رفض هذه الدنيا أدرك ما يريد غداً من مجاورة الجبار، وجرت من تحت منازلته الشمار.

فلما سمع عمر - رضي الله عنه - كلامه ضرب بدرته الأرض، ثم نادى بأعلى صوته: ألا ليت عمر لم تلده أمه، ليتها عاقر أ لم تعالج حملها. ألا من يأخذها بما فيها ولها؟

فقال أويس: يا أمير المؤمنين! خذ أنت ها هنا حتى آخذ أنا ها هنا. ومضى أويس يسوق الإبل بين يديه، وعمر وعلي - رضي الله عنهما - ينظران إليه حتى غاب فلم يروه، وولى عمر وعلي - رضي الله عنهما - نحو مكة<sup>(١)</sup>.

وحديث فضل أويس القرني، وأنه لو أقسم على الله لأبره، وقوله ﷺ لعمر - رضي الله عنه - : «إن استطعت أن يستغفر لك فافعل»<sup>(٢)</sup>. ثابت في صحيح مسلم وغيره.

إن رحلة الحج بما فيه من إحرام وتجمع تختصر رحلة عمر الإنسان في هذه الحياة.

فهل يعي هذا الدرس أولئك الذين أسرفوا على أنفسهم في معصية الله؟ هل يعيه أولئك الذين يظلمون الناس في أبدانهم وأموالهم وأعراضهم؟

(١) إتحاف الوريّ لابن فهد (٢/١٣ - ١٦)، وحلية الأولياء (٢/٨٢).

(٢) رواه مسلم (٢٥٤٢) فضائل الصحابة.

وبعد آيات الحج ومناسكه وفضله وتعظيم شعائر الله، يقول تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ (٣٨) أَذِنَ لِلَّذِينَ يَقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (٣٩) الَّذِينَ أَخْرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَهَدَمَتِ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَبْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ (١).

حيث لتقي الحج بالجهاد في سبيل الله تعالى، إذ هو مدرسة من مدارس الجهاد، والجهاد ذروة سنام الإسلام، «وما ترك قوم الجهاد في سبيل الله إلا ذُلًّا» (٢)، والحج يذكر الأمة ويعلمها الجهاد من خلال عدة أمور:

١ - مشقة السفر إلى مكة، فهو شبيه بسفر المجاهدين في سبيل الله تعالى، وإن الرجل ليودع أهله وهو لا يدري هل يرجع إليهم أم لا. خاصة القادم من البلاد النائية.

٢ - السكن في المشاعر إذا نظرت إليه وجدته شبيهاً بمعسكرات الجهاد.

٣ - وتنقل وتحرك الحجاج إلى منى، ثم من منى إلى عرفات، ثم الإفاضة من عرفات إلى المزدلفة، ثم إلى منى، في أوقات محددة منضبطة، وكأنها تنقلات جيوش مجاهدة في سبيل الله.

٤ - وفي زمن النبي ﷺ لما نهى عن سفر المرأة بدون محرم، قام رجل فقال: إن امرأتي خرجت حاجة، وإنني اكتتبت في غزوة كذا. فقال ﷺ: «أذهب وحج مع امرأتك» (٣). فنقله من جهاد إلى جهاد.

٥ - وسمى رسول الله ﷺ الحج والعمرة جهاداً بالنسبة للنساء، فقال: «عليهن جهاد لا قتال فيه: الحج والعمرة» (٤).

٦ - والرجل الذي وقصته دابته فمات محرماً، نهى رسول الله ﷺ عن تغطية رأسه عند تكفينه ودفنه، وقال: «إنه يبعثه يوم القيامة ملياً» (٥).

(١) سورة الحج، الآيات: ٣٨ - ٤٠. . (٢) رواه البخاري ومسلم.

(٣) رواه البخاري (٣٠٠٦)، ومسلم (١٣٤١) م. (٤) رواه ابن ماجه (٢٩٠١)، وأحمد (١٦٥/٦).

(٥) رواه البخاري (١٢٦٥، ١٢٦٦)، وفي غير موضع. ومسلم (١٢٠٦).

إن الحج مدرسة جهادية تعلم المؤمن وتعلم الأمة، كيف تنقل نفسها من عاداتها المألوفة، ومن ترفها، إلى أن تنخلع من ذلك كله وتلحق بركب المجاهدين.

والحج فوق ذلك كله يعلم المؤمنين صفاء العقيدة وسلامتها وخلوصها من الشرك:

(١) في إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - الذي بنى البيت دعا إلى الملة الخنيفية القائمة على إخلاص التوحيد لله، والبراءة من الشرك وأهله. ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ (١).

فالحج مدرسة ترجع كل مسلم إلى الأصل العقدي الواجب الذي لا يجوز أن يفرط فيه، وهو التوحيد والبراءة من الشرك.

(٢) وينبثق من هذا التوحيد، الطاعة لله تعالى فيما أحب الإنسان أو كرهه، وسواء رضي عنه الآخرون أو لم يرضوا:

أ- هذا إبراهيم يترك ولده الرضيع إسماعيل وأمه هاجر، وقد أنزلهم في مكة قبل عمارتها وقبل بناء البيت، يتركهم بلا ماء، ولا زاد، ويذهب لأمر الله تعالى. وتلحق به هاجر وتقول له: كيف تركناها هنا؟ وهو لا يلتفت إليها. ولكنها المرأة المؤمنة عرفت السر. فقالت: آله أمرك بهذا؟ فأشار إليها أن نعم. قالت: إذن لا يضيعنا الله.

ولم يضيعهم الله، بل تفجرت مياه زمزم تحت أقدام الرضيع (٢)، بعد سعيها بين جبلي الصفا والمروة لتكون سنة وشريعة.

ب- ولما بلغ إسماعيل السعي مع أبيه وصار بحيث تتعلق نفس الوالد به أشد التعلق، أمره الله بأمر عظيم: أن يذبح ولده، فاستجاب الوالد دون تردد، واستجاب الولد وقال: ﴿... يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ (٣).

وأسلما لربهما وتله للجبين، ووقع الامتثال الكامل، ولكن رحمة الله كانت

(١) سورة الحج، الآية: ٢٦.

(٢) حديث صحيح رواه البخاري (٣٣٦٤).

(٣) سورة الصافات، الآية: ١٠٢.

واسعة، حيث فداه الله بذبح عظيم، فصارت الأضحية سنة .

ج- والحج انسلاخ من عادات الجاهلية، وما أحدثوه في الحج خاصة، وقد كان رسول الله ﷺ يحب مخالفة المشركين، مع أنهم أهله وقومه وعشيرته، ولكنه لم يكن متلوثاً بما تلوث به بعضنا في هذه الأيام من قوميات جاهلية:

١- فأحرم ﷺ في أشهر الحج، مخالفة للمشركين .

٢- ووقف مع الناس في عرفات، مخالفة لقريش الذين كانوا يقفون بالمزدلفة يزعمون أنهم أهل الحرم فلا يخرجون منه إلى الحل في عرفات .

٣- وأفاض من عرفات بعد الغروب، خلافاً للمشركين .

(٣) الأصل في هذا الدين، التوحيد والبعد عن الشرك، ثم يأتي بعد ذلك ما هو من أعمال الخير؛ كعمارة المسجد الحرام، ولقد عكس المشركون الأمر: فاهتموا بعمارة المسجد الحرام والسقاية، مع الشرك بالله تعالى .

قال تعالى: ﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ (١).

\* \* \*

## الوحدة الإسلامية (١)

### من دروس الحج

أولاً، أعظم مدرسة في (الحج) ، دلالته على وحدة الأمة الإسلامية . وقد تجلّت هذه الحقيقة في الحج من خلال عدة أمور :

أحدها : قبله واحدة يتجهون إليها في صلاتهم من مشارق الأرض ومغاربها . وهذه القبلة هي التي يجتمعون عندها ليؤدوا شعائر مناسك الحج . ﴿ وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴾ (٢) .

الثاني : عقيدة واحدة : فالجميع يلبون تلبية التوحيد لله لا شريك له . فهي عبودية لله وحده ، وليست لفئة ولا لقوم ولا لمصالح مادية مشتركة ، بل ولا للغة أو قبيلة أو تراب .

الثالث : في إحرامها : فالجميع يلبسون في الإحرام لباساً واحداً ، وتزول الفوارق بين الناس التي قد تصنعها أحياناً بعض أنواع اللباس ليقال : هذا أمير أو وزير أو غني أو شيخ كبير . . . إلخ .

الرابع : وفي الاجتماع في صعيد عرفات - مكاناً وزماناً - تتوحد الأمة الإسلامية كلها ، حجاجاً وغير حجاج .

وليس الحج إلا مظهراً واحداً من مظاهر وحدة الأمة الإسلامية ، وهناك مظاهر أخرى كثيرة ؛ من أبرزها : وحدة كتابها القرآن الكريم ، وسنة الرسول ﷺ . ومن فرّق بين هذين المصدرين فليس من الأمة الإسلامية في شيء .

ثانياً : بين كل أونة وأخرى يتباكى بعض المثقفين العرب على وحدة الأمة العربية ، ونحن في العصر الحديث سمعنا بدعوات عديدة إلى وحدة الأمة الإسلامية ، والجامعة الإسلامية ، ولكن ما سمعنا بدعوة تفرد العرب وحدهم

(٢) سورة الحج ، الآية : ٢٧ .

(١) الجمعة ٢٤/١٢/١٤١٤ هـ .

بوحدة عامة ، إلا من القوميين العرب - ملحدين ، ونصارى ، ومنتسبين إلى الإسلام :-

١ - فجاءت جامعة الدول العربية ، وكان وراء إنشائها الإنجليز ، ولست بصدد تفصيل الأدلة على ذلك ، ولكن أشير إلى الآتي :

أ- أن الإنجليز وهم يهيئون لجامعة عربية قومية تكون بديلاً عن الخلافة أو الجامعة الإسلامية ، وذلك في أوائل هذا القرن الميلادي . وقد وعدوا بعض الزعماء العرب بذلك . كانوا قد اتفقوا مع اليهود على تحقيق أهدافهم بإنشاء وطن قومي لهم في فلسطين .

ب- يقول (لورانس) - الإنجليزي - ولا أظن أحداً يجهره - ، يقول وهو يهيم لقومية عربية بديلة عن الجامعة الإسلامية : (وأخذت طول الطريق أفكر في سوريا . . . وفي الحج ، وأتساءل : هل تتغلب القومية ذات يوم على النزعة الدينية ؟ وهل يغلب الاعتقاد الوطني الاعتقاد الديني ؟ وبمعنى أوضح : هل تحل المثل العليا السياسية مكان الوحي والإلهام ، وتستبدل سوريا مثلها الأعلى الديني بمثلها الأعلى الوطني ؟ . . . هذا ما كان يجول بخاطري طول الطريق)<sup>(١)</sup> .

٢ - قامت الجامعة العربية - ولكن وحدة الأمة العربية - لم تتحقق ، وإنما جاءت محاولات للوحدة ، من أبرزها :

أ- ما قامت به الناصرية من وحدة بين مصر وسوريا وكانت وحدة قصيرة الأجل حيث فشلت في أقل من عامين .  
ب- وطبقها حزب البعث بالقوة - أخيراً - ، فشلت . وكان من آثار ذلك أزمة وحرب الخليج .

**ثالثاً:** وإذا كان الحج من معالم وحدة الأمة الإسلامية ، فإننا نقول : في الكلام على الوحدة ، لا بدّ من إرجاع الأمور إلى أصولها الشرعية ، ومن خلال المنهج الإسلامي ، تبرز قضيتان كبيرتان :

(١) انظر : الثورة العربية (١٤) . (٢) انظر : الاتجاهات الوطنية (٢/١٠١) .

إحداهما: أن العقيدة هي التي تجمع بين الشعوب والأمم ، وهي التي تقضي على عوامل التفرق ، مهما كانت عميقة الجذور ، وأمثلة وأدلة ذلك ، لا تحتاج إلى بيان :

●● فالقبائل العربية المتناحرة في الجزيرة العربية قبل الإسلام ، لم يوحد بينها ويزيل ضغائنها وأحقادها المريرة إلا الإسلام .

●● والبلاد التي فتحها المسلمون - وقد اختلفت لغاتها وعاداتها ودياناتها وبلادها - لم يوحد بينها إلا عقيدة الإسلام .

●● وما هُزم اليهود - وكانوا في قلب جزيرة العرب - ولا النصارى ، ولا الملاحدة الوثنيون ، إلا لما واجههم المسلمون من خلال راية العقيدة ، لا راية العروبة أو الوطنية أو غيرها .

●● وفي الحروب الصليبية ردَّ النصارى حملة الصليب على أعقابهم بالجهاد الإسلامي ، الذي كان من أبرز قواده الكرذ والأترك .

ولقد توحدت - من خلال عقيدة الإسلام الصافية - ، الأمة ، في أمة إسلامية واحدة منذ عهد الرسول ﷺ وإلى عصرنا الحاضر ، على تفاوت في قوة تلك الوحدة وتماسكها ، ولكن الشيء الذي لا شك فيه ، هو أنها امتدت قرناً متطاولة .

قد يقول قائل: ولكن الوحدة لم تدم طويلاً ، فسرعان ما نشأت دول مستقلة في المشرق وفي المغرب . بل وفي مصر والشام بإزاء الخلافة العباسية في بغداد . وكذا الشأن أيام الدولة العثمانية .

وأنا لا أجيب جواباً تقليدياً ، لأقول : ولكنها تجربة امتدت لقرون من الزمن ، وما حدث من تفرق كانت له عوامل داخلية وخارجية . . . .

ولكن أقول: أيام التنقل على الإبل ، وعدم وجود وسائل الاتصال التي نشاهد نماذج عجيبة لها في هذه الأيام .

كيف كان عمر بن الخطاب أو عثمان بن عفان - رضي الله عنهما - يدير الأمور في مشارق الأرض ومغربها من قلب جزيرة العرب في المدينة النبوية؟!

أم كيف كان معاوية - رضي الله عنه - ، أو عمر بن عبد العزيز - رحمه الله - يدير مشارق الأرض ومغربها من قلب الشام ودمشق؟!

وكيف استطاع هؤلاء أن يحكموا سيطرتهم على تلك البلاد البعيدة الشاسعة المتعددة في أعراقها ولغاتها؟!

إنها العقيدة التي حملها الرجال الأمناء ، من أمراء وقواد الأقاليم ، فصار كل واحد منهم نموذجاً للخليفة العادل في دار الخلافة ، ثم إنها المحاسبة القوية - ذات الميزان الشرعي - التي يحاسب بها هؤلاء . ولو تحققت هذه الوسائل الحديثة لعمر ابن عبد العزيز أو لهارون الرشيد - رحمهما الله تعالى - كيف ستكون النتائج بعد استخدامها؟

إن الشيء الذي أردت أن أقوله هنا: إنها وحدة قامت على عقيدة صافية انبثقت منها شريعة كاملة طبقها رجال أمناء يريدون بأعمالهم وجه الله والدار الآخرة . وأي وحدة تبنى على غير هذا ، فلن تكون إلا وحدة مصالح سرعان ما يقضى عليها إذا تبدلت المصالح .

الثانية: من القضايا الكبار: أن العقيدة تجمع ولا تفرق .

فتأصيل العقيدة وجعلها أساساً في الدعوة إلى الله تعالى وذلك على منهج السلف الصالح ، كما أنه واجب دلت على وجوبه النصوص ، وهو منهج الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - فإنه أيضاً من أعظم وسائل جمع الكلمة .

والمدعوون - إذا ما وحدت بينهم عقيدة صحيحة صافية - ، فلن تجد أسباب التفرق إليهم من سبيل ؛ لأن تلك الأسباب ستكسر أمام صخرة العقيدة الصلبة .

ولكم يحزنني حين أسمع - أحياناً - مقولة مثل : لا تركزوا على العقيدة أولاً؛ لأنها تسبب الفرقة ، بل اقتصروا على الدعوة العامة إلى الإسلام . ومما يزيد في حزن الإنسان ، أنه قد يسمع مثل هذا الكلام من أناس فضلاء ومن دعاة إلى الله .

ونحن نقول : على أي أساس ستقوم الدعوة ، إذا لم تقم على العقيدة؟!

ولأي شيء يدعو الداعية إلى الله؟ إن هناك عدداً من الحقائق:

أولها: أن اجتماع المسلمين في عهد رسول الله ﷺ وبعده ، لم يكن إلا على عقيدة ، قال تعالى : ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ﴾ (١) .

وقال تعالى: ﴿وَأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ﴾ (١).

فما هو جبل الله، وعلى أي شيء ألف بين تلك القلوب؟ إنه العقيدة القائمة على إخلاص التوحيد ونبذ الشرك.

ثانيها: إننا إذا أردنا الوحدة الحقيقية الباقية فلنؤصل دعوتنا على العقيدة - وأعني العقيدة السلفية الصافية المبرأة من بدع المتدعين وانحرافات المنحرفين.

ثالثها: أن القبول بالانحراف في البداية . هو بمثابة دق مسمار في نعش الوحدة المطلوبة .

### علماء وأمرء في مكة أيام الحج (١)

ها قد قربت أيام الحج فعن ماذا أحدثكم؟ هل أحدثكم عن فضل الحج وأبرز أحكامه؟ أم أحدثكم عن حكمة مشروعيته وأظهر آثاره ودروسه؟ أم أذكركم بمسؤولية مئآت الألوفا من الحجيج وقد جاءوا من كل فج عميق من يتحمل مهمة التوجيه والتعليم وبيان العقيدة الصحيحة لهم؟.

لن أحدثكم في هذا اليوم عن شيء من هذا بشكل مباشر؛ ولكنها رحلة سأرحلها في أعماق تاريخنا، فهل تقبلون الصحبة؟ صحبة علماء وأمرء، فماذا جرى بين العلماء والأمرء في أيام الحج وفي تلك البقاع المشرفة؟

١- واستفتح بمن جمع إلى الخلافة علماً جماً، فأقول: ذهب أبو بكر الصديق- رضي الله عنه- إلى مكة أيام خلافته فدخل مكة ضحوة، فأتى منزله وأبوه أبو قحافة جالس على باب داره، فقيل: هذا ابنك، فنهض قائماً وعجل أبو بكر قبل أن ينيخ راحلته، فنزل عنها وهي قائمة، فجعل يقول: يا أبت لا تقم، ثم لاقاه فالتزمه، وقبل بين عيني أبي قحافة، وجعل الشيخ يبكي فرحاً بقدمه. وجاء والي مكة عتاب بن أسيد وسهيل بن عمرو وعكرمة بن أبي جهل والحارث بن هشام، فسلموا عليه وعلى أبيه، وجعل أبو بكر يبكي حين يذكرون رسول الله ﷺ.

فقال أبو قحافة: يا عتيق هؤلاء الملاء فأحسن صحبتهم. فقال أبو بكر- رضي الله عنه-: يا أبت، لا حول ولا قوة إلا بالله، طوقت عظيماً من الأمر لا قوة لي به ولا يدان إلا بالله، ثم دخل فاغتسل وخرج وطاف بالبيت، ثم انصرف إلى منزله، فلما كان الظهر خرج فطاف في البيت، ثم جلس قريباً من دار الندوة فقال: «هل من أحد يشتكي من ظلامه أو يطلب حقاً؟»، فما أتاه أحد، وأثنى الناس على ولايته خيراً.

٢- أما الفاروق- رضي الله عنه- فقد روى سعيد بن المسيب أن عمر لما أتى مكة أناخ بالأبطح، فكوم كومة من بطحاء، فطرح عليها طرف ثوبه، ثم استلقى عليها ورفع يديه إلى السماء، وقال:

«اللهم كبرت سني، وضعفت قوتي، وانتشرت رعيتي، فاقبضني إليك غير

مضيع ولا مفرط». رحمك الله يا عمر .

عليك سلام من إمام وباركتُ  
يد الله في ذلك الأديم المـزق  
فمن يسعُ أو يركبُ جناحي نعامه  
ليدرك ما قدمت بالأمس يُسبِق  
قضيتَ أموراً ثم غادرتَ بعدها  
بوائق في أكمامها لم تُفْتَق

ورجع عمر من حجته هذه ، فطعن ومات - رضي الله عنه - .

٣- قد يقول قائل : هؤلاء أصحاب رسول الله ﷺ وخلفاؤه من بعده ، فأنى لنا أن نبلغ شأوهم أو نلحق بهم؟

ولن أقول لكم لقد كانوا بشرأ وما كانوا ملائكة ، ولكنه الإيمان حين يعمر القلوب .

وسأطوي السنين ، وأنقلكم إلى الدولة العباسية ، وإلى أحد خلفائها ممن شوه المنصرون ، وأهل الخلاعة والمجون والروايات تاريخه . فكيف كان؟ وكيف كان علماء زمنه - في مكة المكرمة وقد قدم إليها حاجاً؟

روى أبو عمر الجرمي النحوي قال : حدثنا الفضل بن الربيع قال : حج أمير المؤمنين هارون الرشيد فأتاني ، فخرجت مسرعاً فقلت : يا أمير المؤمنين! لو أرسلت إليّ لأيتك . فقال : ويحك! قد حكّ في نفسي شيء فانظر لي رجلاً أسأله .

فقلت : ها هنا سفيان بن عيينة ، فقال : امض بنا إليه ، فأتيناه ، فقرعت الباب - أمير المؤمنين ووزيره يقرعان باب سفيان - .

فقال : من هذا؟

فقلت : أجب أمير المؤمنين .

فخرج مسرعاً فقال : يا أمير المؤمنين ، لو أرسلت إليّ لأيتك .

فقال له : خذ لما جئناك له رحمك الله ، فحدثه ساعة ، ثم قال له : عليك دين؟ قال : نعم ، فقال : اقض دينه . فلما خرجنا قال : ما أغنى عني صاحبك شيئاً .

انظر لي رجلاً أسأله . فقلت : ها هنا عبد الرزاق . [فذكر مثل ما جرى له مع ابن عيينة] .

فقلت : ها هنا الفضيل بن عياض .

قال : امض بنا إليه .

فأتيناه فإذا هو قائم يصلي ، يتلو آية من القرآن يرددها .

قال : اقرع الباب .

فقال : من هذا؟

فقلت : أجب أمير المؤمنين .

فقال : مالي ولأمير المؤمنين؟

فقلت : أما عليك طاعة؟

قال : فنزل ، ففتح الباب ، ثم ارتقى إلى الغرفة فأطفأ السراج ثم التجأ إلى زاوية من زوايا البيت . فدخلنا ، فجعلنا نحول عليه بأيدينا . فسبقت كف هارون الرشيد قبلي إليه .

فقال الفضيل : يا لها من كف ما أليتها إن نجت غداً من عذاب الله عز وجل .

قال الفضل بن الربيع : فقلت في نفسي : ليكلمته الليلة بكلام من قلب نقي .

فقال له هارون الرشيد : خذ لما جئناك له رحمك الله .

فقال له الفضيل بن عياض : إن عمر بن عبد العزيز لما ولي الخلافة دعا سالم بن عبد الله ، ومحمد بن كعب القرظي ، ورجاء بن حيوة ، فقال لهم : إني قد ابتليت بهذا البلاء فأشيروا عليّ ، فعد الخلافة بلاءً ، وقد عددتها أنت وأصحابك نعمة . ثم ذكر ما أجابوا به عمر .

قال له سالم بن عبد الله : إن أردت النجاة من عذاب الله فصم عن الدنيا ،

وليكن إفطارك منها الموت .

وقال له محمد بن كعب : إن أردت النجاة من عذاب الله فليكن كبير المسلمين عندك أبا ، وأوسطهم عندك أخاً ، وأصغرهم عندك ولداً ، فوقر أباك ، وأكرم أخاك ، وتحنن على ولدك .

وقال له رجاء بن حيوة : إن أردت النجاة غداً من عذاب الله ، فأحب للمسلمين

ما تحب لنفسك ، واكره لهم ما تكره لنفسك ، ثم مت إذا شئت .

قال الفضيل : وإني أقول لك يا هرون : إني أخاف عليك أشد الخوف يوماً تزل فيه الأقدام ، فهل معك رحمك الله من يشير عليك بمثل هذا؟  
فبكى هارون الروشد بكاءً شديداً ، فقلت له : ارفق بأمر المؤمنين . فقال : تقتله أنت وأصحابك وأرفق به أنا .

ثم قال له هارون : زدني رحمك الله .

فقال : يا أمير المؤمنين ، بلغني أن عاملاً لعمر بن عبد العزيز شكى إليه ، فكتب إليه عمر : يا أخي أذكرك طول سهر أهل النار في النار مع خلود للأبد ، وإياك أن ينصرف بك من عند الله فيكون آخر العهد وانقطاع الرجاء . فلما قرأ العامل كتاب عمر ، طوى البلاد حتى قدم على عمر . فقال : ما أقدمك ؟ قال : خلعت قلبي بكتابك ، لا أعود إلى ولاية حتى ألقى الله .

قال : فبكى هارون بكاءً شديداً . ثم قال : زدني رحمك الله .

فقال : يا أمير المؤمنين ، إن العباس عم المصطفى ﷺ جاء إلى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله ! أمرني علي إمامة؟ فقال له : «إن الإمارة حسرة وندامة يوم القيامة فإن استطعت ألا تكون أميراً فافعل»<sup>(١)</sup> . فبكى هارون بكاءً شديداً .

فقال : زدني رحمك الله .

فقال له : يا حسن الوجه ، أنت الذي يسألك الله عز وجل عن هذا الخلق يوم القيامة ، فإن استطعت أن تقي هذا الوجه من النار فافعل ، وإياك أن تصبح وتمسي وفي قلبك غش لأحد من رعيتك ، فإن النبي ﷺ قال : «من أصبح لهم غاشاً لم يرح راحة الجنة»<sup>(٢)</sup> .

(١) هذا الحديث ذكره أبو نعيم في الحلية (١٠٧/٨) ضمن سياق هذا الموقف لكن بغير إسناد وقد ثبت التحذير من الإمارة في غير ما حديث ، من ذلك : ما رواه البخاري (٧١٤٨) ، والنسائي (١٦٢/٧) و (٨/٢٢٥-٢٢٦) ، وأحمد (٤٧٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، ولفظه : «أنكم ستحرضون علي الإمارة، وستكون ندامة يوم القيامة، فعم الرضعة وبست الفاطمة» .

(٢) رواه البخاري (٧١٥٠-٧١٥١) ، ومسلم (١٤٣) ، وأحمد (٢٥/٥) ، كلهم من حديث معقل ابن يسار رضي الله عنه .

فبكى هارون الرشيد . وقال له : عليك دين؟

قال : نعم ، دين لربي لم يحسابني عليه بعدُ . فالويل لي إن سألني ، والويل لي إن ناقشني ، والويل لي إن لم ألهم حجتي .

قال : إنَّما أعني من دين العباد؟

قال : إن ربي لم يأمرني بهذا ، قال الله عز وجل : ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴾ (١) .

فقال له : هذه ألف دينار خذها ، فأنفقها على عيالك وتقوَّ بها على عبادتك .

فقال : سبحان الله ! أنا أدلك على طريق النجاة ، وأنت تكافئني بمثل هذا؟ سلمك الله ووقفك ، ثم صمت فلم يكلمنا ، فخرجنا من عنده .

قال الفضل بن الربيع: فلما صرنا إلى الباب . قال هارون الرشيد : إذا دللتني على رجل فدلتني على مثل هذا ، هذا سيّد المسلمين .

فدخلت عليه امرأة من نسائه فقالت : يا هذا ! قد ترى ما نحن فيه من ضيق الحال ، فلو قبلت هذا المال ، فتفرجنا به . فقال لها : مثلي ومثلكم كمثّل قوم كان لهم بغير يأكلون من كسبه ، فلما كبر نحروه فأكلوا لحمه .

فلما سمع هارون هذا الكلام ، قال : ندخل فعسى أن يقبل المال ، فلما علم الفضيل ، خرج فجلس في السطح على باب الغرفة ، فجاء هارون فجلس إلى جنبه ، فجعل يكلمه ولا يجيبه . فبينما نحن كذلك ، إذ خرجت جارية سوداء فقالت : يا هذا قد أذيت الشيخ منذ الليلة ، فانصرف رحمك الله . فانصرفنا (٢) .

هارون الرشيد الذي يبكي ، هو الذي كان يحج ويغزو عاماً ، وهو كتب إلى ملك الروم (نقفور) في أحد أجوبته على ظهر خطابه احتقاراً له :

«من أمير المؤمنين هارون الرشيد إلى نقفور كلب الروم الجواب ما تراه لا ما تسمعه» . وسير إليه جيشاً عظيماً في الحال .

(١) سورة الذاريات ، الآية : ٥٨ .

(٢) مشير العزم الساكن إلى اشرف الاماكن ، لابن الجوزي (٢/ ١٥٣ - ١٥٧) .

وهكذا كانوا كما وصفهم الله : ﴿ أَذَلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ (١).

٤ - ولما حجَّ عبد الملك بن مروان ، جلس حوله الناس ، فأبصر عطاء بن أبي رباح فقام إليه عبد الملك ، وأجلسه معه على السرير وقعد بين يديه ، وقال له : يا أبا محمد حاجتك؟ قال يا أمير المؤمنين ! اتق الله في حرم الله ورسوله فتعاهده بالعمارة ، واتق الله في أولاد المهاجرين والأنصار ، فإنك بهم جلست هذا المجلس ، واتق الله في أهل الثغور فإنهم حصن المسلمين ، وتفقّد أمور المسلمين فإنك وحدك المسؤول عنهم ، واتق الله فيمن على بابك ولا تغفل عنهم ولا تغلق عنهم بابك .

فقال له : أفعل ، ثم نهض عطاء فقبض عليه عبد الملك فقال له : يا أبا محمد إنما سألتنا حوائج غيرك وقد قضيناها فما حاجتك؟

فقال : مالي إلى مخلوق حاجة . ثم خرج فقال عبد الملك : هذا وأبيك الشرف ، هذا وأبيك السؤدد .

٥ - ولما قدم أبو جعفر المنصور المدينة كان قاضيها محمد بن عمران الطلحي ، وكان كاتب القاضي ، عمر بن أبي بكر المدني ، يقول كاتبه هذا:

«فاستعدئ الحمالون على أمير المؤمنين في شيء ذكروه ، فأمرني القاضي أن أكتب كتاباً إلى المنصور بالحضور معهم وإنصافهم فقلت : تعفيني من هذا فإنه يعرف خطي ، فقال : اكتب فكتبت ثم ختمته ، وقال : والله لا يمضي به غيرك ، فمضيت إلى الربيع وجعلت أعتذر إليه ، فقال : لا عليك ، فدخل بالكتاب على الخليفة أبي جعفر . ثم خرج الربيع فقال للناس - وقد حضر وجوه أهل المدينة والأشراف وغيرهم - : إن أمير المؤمنين يقرأ عليكم السلام ، ويقول لكم : إني قد دعيت إلى مجلس الحكم ، فلا أعلمن أحداً قام إليّ إذا خرجت أو بدأتي بالسلام .

قال : وخرج والربيع وأنا خلفه وهو في إزار ورداء ، فسلم على الناس ، فما قام أحد ، ثم مضى حتى بدأ بالقبر فسلم على رسول الله ﷺ وعلي وأبي بكر وعمر ، ثم التفت إلى الربيع فقال : ويحك يا ربيع أخشى أن يراني ابن عمران فيدخل قلبه هيبة فيتحول عن مجلسه ، وبالله إن فعل ذلك لا ولي لي ولاية أبداً .

قال: فلما رآه ابن عمران - وكان متكئاً، أطلق رءاءه عن عاتقه، ثم اختبأ به وءعا بالءصوم وبالءمالفن ثم ءعى بأمفر المؤمنفن؁ ثم اءعى علىه القوم فقضى لهم علىه . فلما ءءرء المنصور وءءل الءار؁ قال للربفع : اءهب فإءا قام وءءرء من عنءه الءصوم فاءعه . فقال : فإ أمفر المؤمنفن ! والله ما ءعى بك إلا بعء أن فرء من أمور الناس ءمفعاً . فءعاه؁ فلما ءءل سلّم فرء السلام؁ وقال : ءزأك الله عن ءفنك وعن نبفك وعن ءلففك أءسن الءزاء . وأمر له بعشرة آلاف ءنار!!!

\* \* \*



## الفصل التاسع

### دروس وعبر

- ١ - دروس من معركة بدر .
- ٢- وقفات مع معركة بدر .
- ٣ - استقبال العام الجديد .
- ٤ - الإجازة الصيفية .
- ٥ - الكسوف .
- ٦ - رسالة عاجلة إلى التجار والمحسنين حول الأوقاف .
- ٧ - عبد الملك بن عمر بن عبدالعزيز - مواقف ودروس -

دروس من معركة (بدر)<sup>(١)</sup>

هو يوم من أيام الله الخالدة، يوم الفرقان الأعظم بين الإسلام والكفر، والحق والباطل.

يومٌ احتفل به الملائكة الأعلى من الملائكة، واعتبروا من شارك فيه هم أفضل الملائكة.

وفي الأرض كان يوماً مشهوداً تميز فيه من شارك من الصحابة حتى قال فيهم رسول الله ﷺ: «وما يدريك! لعل الله أطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم»<sup>(٢)</sup>.

إنها لحظات من تاريخنا العظيم، اعتاضت عنه أمتنا في العصر الحاضر - وبالأسف - ببطولات مزيفة، على رأسها بطولة المسلسلات العفنة، وبطولة انتصارات الكرة وما شابهها من البطولات.

ولقد كان السلف الصالح يربون أولادهم على مدارسة السيرة والمغازي:

فعن إسماعيل بن محمد بن سعد بن أبي وقاص قال: (كان أبي يعلمنا المغازي والسرياء ويقول: يا بني إنها شرف آبائكم فلا تضيعوا ذكرها).

وقال زين العابدين بن الحسين بن علي - رضي الله عنهم -: (كنا نُعلمُ مغازي رسول الله ﷺ كما نعلم السور من القرآن).

وقفاتنا اليوم مع غزوة بدر: ولن نحيط بذكر أحداثها في هذه العجالة، ولكنها وقفات مع بعض المشاهد والدروس.

أولاً: موازنة بين حالتين نفسيتين لجنود الفريقين: هناك فرق كبير بين من يقاتل عن عقيدة، يرجو الله واليوم الآخر، ويحرص على الظفر بالشهادة في سبيل الله حيث تحولت عنده إلى أمنية - وبين من يقاتل بطراً ورتاء الناس.

ففي جيش المسلمين في بدر يقول أحد الجنود مخاطباً القائد: (والذي بعثك بالحق

(٢) رواه البخاري (٣٥٨٣)، ومسلم (٢٤٩٤).

(١) الجمعة ١٥/٩/١٤١٤هـ.

، لو سرت بنا إلى برك العماد لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه) .

وهذا آخر يقول : (فو الذي بعثك بالحق ، لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً)<sup>(١)</sup> .

وفي المقابل : لما نجت القافلة أرسل أبو سفيان إلى قريش : إنكم إنما خرجتم لتمنعوا غيركم ورجالكم وأموالكم فقد نجاها الله فارجعوا ، فقال القائد أبو جهل : (والله لا نرجع حتى نرد بدرأ - وكان موسماً من مواسم العرب - فنقيم ثلاثاً فنحمر الجزر ونطعم الطعام ونسقي الخمر ، وتعزف علينا القيان ، وتسمع العرب بمسيرنا وجمعنا ، فلا يزالون يهابوننا بعدها) ، ولقد دب الخلاف بينهم حتى رجع بعضهم .

وقال عمير بن وهب الجمحي لما نظر إلى المسلمين في جولة استكشافية : « رأيت يا معشر قريش البلايا تحمل المنايا ، نواضح يثرب تحمل الموت الناقع ، قوم ليس معهم ملجأ ولا منعة إلا سيوفهم ، والله ما أرى أن يُقتل رجل منهم حتى يقتل رجلاً منكم ، فإذا أصابوا منكم أعدادهم فما خير العيش بعد ذلك . فروا ربكم)<sup>(٢)</sup> .

شتان . . . شتان ، بين الفريقين : والمعنويتين والأهداف والمنطلقات بين الجانبيين :

قبيل هزيمة ١٩٦٧م كانت القومية العربية تعلن الانتصارات قبل المعركة ، وكان الجنود في الجبهات يتربون على أغاني أم كلثوم وهي تصدح لرفع معنوياتهم ، وكان كبار الضباط في الليالي الحمراء ، ألا ما أشبه هؤلاء بأبي جهل وقومه قبيل غزوة بدر .

ثانياً : وانعكست الصورة في زماننا؛ في غزوة بدر - قبل بدئها - لما استشار رسول الله ﷺ أصحابه قائلاً : « أشيروا علي أيها الناس » .

تكلم أبو بكر فأحسن ، وتكلم عمر فأحسن ، ثم قام المقداد بن الأسود فقال : « لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى ﴿ فَادْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلْ إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴾<sup>(٣)</sup> ولكن : امض ونحن معك نقاتل عن يمينك وعن شمالك وبين يديك

(١) رواه مسلم (١٧٧٩) ، وأحمد (٣/٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٥٨) .

(٢) انظر : السيرة النبوية لابن هشام (٦٢٢ وما بعدها) . (٣) سورة المائدة ، الآية : ٢٣ .

وخلفك»، قال: فرأيت النبي ﷺ أشرق وجهه وسرّ.

هذا موقف أسلافنا: جهاد وصبر وعدم استسلام، ولم يكونوا كبنِي إسرائيل حين قالوا قولتهم: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ (١).

وتأملوا كيف انعكست الصورة في هذه الأيام. أحفاد القردة والخنازير من اليهود يستأسدون، ويقفون شامخي الأنوف. ويفرضون شروط الاستسلام.

وفي المقابل: أحفاد المقداد، وسعد، وسعيد: يجبنون عن لقاء عدوهم، ويمدون يد الاستسلام للعدو اليهودي الماكر. ويسلمون له قيادهم كالأغنام. ولسان حال هذا المستسلم يقول - مبرراً مواقفه - : ﴿إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جِبَارِينَ وَإِنَّا لَن نُدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا﴾ (٢).

ثالثاً: مخات سريعة:

(١) أبو لهب: لم يحضر المعركة، وأتاب عنه رجلاً بثلاثة آلاف دينار، لكن كانت نتيجة المعركة قاسية عليه. فقد أصابته الحمى لما سمع بنتيجتها فمات كمدأ.

وفي مقابل ذلك: سعد بن خيثمة بن الحارث: وأبوه خيثمة، اختلفا أيهما يخرج مع الرسول ﷺ وأيهما يبقى مع النساء. إذا لا بد لأحدهما أن يقيم. فقال الأب - الشيخ الكبير - لابنه مستخدماً حق الأبوة: (أثرتني بالخروج وأقم أنت مع النساء. فأبى الولد سعد، وقال: لو كان غير الجنة أثرتك به. وإني لأرجو الشهادة في وجهي هذا. واشتد الخلاف بينهما كل يريد الخروج، فلم يجدا حلاً إلا أن يستهما. فخرج سهم سعد - الابن - فخرج فاستشهد يوم بدر) (٣).

(٢) الطاغوت أمية بن خلف: كان صديقاً في الجاهلية لسعد بن معاذ وقد أخبره أن الرسول ﷺ ذكر أنه مقتول. فعزم على ألا يخرج من مكة. ولما علم بذلك أبو جهل عند الاستعداد لغزوة بدر أتاه بمجمرة وقال له تبخر. قال: لم؟ قال: لأنك من النساء (٤)، فخرج معهم لكنه أخذ معه ناقة بختية نشيطة حتى يفرّ بها من المعركة

(١) سورة المائدة، الآية: ٢٣. (٢) سورة المائدة، الآية: ٢٢.

(٣) انظر: الإصابة لابن حجر (٤/١٤٠)، وسير أعلام النبلاء (١/٢٦٦).

(٤) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٢/٦١٠).

في أول وقعة، ولم تنجها ناقته النجيبة وإنما قُتل في معركة بدر، قتله رجل من الأنصار من بني مازن.

وفي مقابل ذلك: عمير بن أبي وقاص، أخو سعد بن أبي وقاص، كان صغيراً فرده رسول الله ﷺ. فأخذ يبكي حتى رحمه رسول الله ﷺ فأجازه. وكان يتوارى حتى لا يراه الرسول ﷺ، يقول سعد: فقلت له مالك يا أخي؟ قال: إني أخاف أن يراني رسول الله ﷺ فيستصغرنني ويردني وأنا أحب الخروج لعل الله أن يرزقني الشهادة.

رابعاً: ومن أعجب ما في هذه الغزوة: أن أبا جهل وبعض قادة قريش، لما أرادوا السير لقتال المسلمين في بدر ذهبوا إلى الكعبة، وتعلقوا بأستارها وقالوا: اللهم من كان أقطعنا للرحم، وأتانا بما لا يعرف فأحنه الغداة»، والإحنة: الحقد والعداوة<sup>(١)</sup>.

فأبو جهل وطواغيت قريش يزعمون أنهم أهل خير وفضل، وصلة للأرحام. أما محمد ﷺ وصحبه فهم قاطعوا الأرحام. أتوا بما لا يعرف؟ وقد نزل في أبي جهل وأصحابه قوله تعالى: ﴿إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ﴾<sup>(٢)</sup>.

وهذا منطلق فرعون، حين قال عن موسى - عليه السلام - مخاطباً قومه: ﴿إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفُسَادَ﴾<sup>(٣)</sup>.

وهذا منطلق طواغيت هذا الزمن حين يقولون عن الإسلام والتمسك به والدعوة إليه بأن ذلك إرهاب وتطرف وإثارة للفتن!!!

خامساً: القائد القدوة: كان رسول الله ﷺ وعلي وأبو لبابة يعتقبون على بعير، فقالوا له: نحن نمشي عنك. فقال: «ما أتما بأقوى مني ولا أنا بأغنى عن الأجر منكما»<sup>(٤)</sup>.

\* وفي ليلة المعركة، نام المسلمون، ولكن القائد بقي قائماً تحت شجرة يصلي

(١) رواه الحاكم والطبري. (٢) سورة الأنفال، الآية: ١٩.

(٣) سورة غافر، الآية: ٢٦.

(٤) إسناده حسن رواه الإمام أحمد (١/٤١١، ٤٢٢) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

ويكي حتى أصبح ، كما حدث بذلك علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - (١) .  
سادساً: من أعظم آثار غزوة بدر: توجيه ضربة كبرى إلى قوى الكفر الثلاث  
آنذاك :

١ - فالنسبة لقريش وجهت هذه المعركة الفاصلة ضربة كبرى إلى سمعتها ،  
حيث كانت قبل ذلك مهابة عند العرب جميعاً ولا يجرؤ أحد على التعرض لها ولا  
لقوافلها . خاصة بعد حادث الفيل . ولهذا لم يصدق من كان في مكة من المشركين  
خبر المعركة في أول وهلة . ولما تيقنوا ذلك أصابهم حزن شديد وأقاموا المناحات  
وأخذ النساء يقطن شعورهن . . .

٢ - إرهاب اليهود داخل المدينة ، فقد كانوا ساكنين داخلها وكانت قلوبهم تقطر  
حقداً على محمد وصحبه .

٣ - إرهاب المنافقين داخل الصف الإسلامي . حتى أن رأس النفاق عبد الله بن  
أبي بن سلول ، لما رأى نصر الله لعباده في بدر قال كلمته المشهور : هذا أمر قد توجه  
وأبطن نفاقه .

\* \* \*

(١) ثبت ذلك من حديث ابن عباس رضي الله عنهما . رواه مسلم (١٧٦٣) ، وأحمد (١/٣٠ ، ٣٢) .

## وقفات مع معركة بدر (١)

معركة بدر الكبرى معركة مشهورة، وقعت في رمضان في السنة الثانية من هجرة النبي ﷺ إلى المدينة، وفيها خرج رسول الله ﷺ طالباً لغير قريش التي كانت مع أبي سفيان حرب، وكان المسلمون ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً. أما المشركون الذين خرجوا لإنقاذ غيرهم فكانوا قرابة الألف، معهم كامل العدة. وخرج الرسول ﷺ قاصداً العير، لكن العير فلتت من أيدي المسلمين. حيث سلك أبو سفيان طريقاً غير معهودة، وعلم المشركون أن العير نجت من أيدي المسلمين، وكان عليهم أن يرجعوا؛ لأن المهمة التي من أجلها خرجوا قد تحققت. ولكن أبا جهل ومن معه أصروا على الاستمرار في المسير إلى بدر حتى يلاقوا محمداً وصحبه، أو يقيموا بيدر فتسمع بهم العرب وتهابهم.

وتقابل الفريقان على غير موعد ولا ترتيب من المسلمين، وكانت نتيجة المعركة نصراً حاسماً للمسلمين، حيث قتلوا سبعين من المشركين وأسروا سبعين جاءوا بهم إلى المدينة.

هذه خلاصة المعركة، وفيها تفاصيل طويلة وأحداث جليلة فصلتها كتب السيرة والحديث (٢).

ونحن ليس في وسعنا إلا أن نقف مع بعض الدروس والعبر عدة وقفات:

الوقفة الأولى: كان رمضان الذي وقعت فيه هذه الغزوة أول رمضان بعد فرض صيامه، حيث فرض قبل غزوة بدر بشهرين، ومعلوم أن رسول الله ﷺ لما قدم المدينة، رأى اليهود يصومون يوم عاشوراء فقال: «نحن أولى بموسى» فصامه وأمر بصيامه (٣) وأمر بصيام يوم قبله أو بعده لمخالفة اليهود (٤).

(١) الجمعة ١٨/٩/١٤١٥ هـ.

(٢) انظر: السيرة النبوية، لابن هشام (٢/٦٠٦)، والبدية والنهاية لابن كثير (٣/٢٥٥).

(٣) أما حديث أمره ﷺ بصيام يوم عاشوراء، فقد رواه البخاري رقم (٢٠٠٤) و (٣٣٩٧) وفي غير موضع. ومسلم (١١٣٠)، وأبو داود (٢٤٤٤)، وابن ماجه (١٧٣٤) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٤) أما أمره ﷺ بصوم يوم قبله أو يوم بعده، فقد رواه الإمام أحمد في مسنده (١/٢٤١) من حديث =

وفي السنة الثانية، فرض صيام شهر رمضان ليتم التمييز الكامل بين المسلمين واليهود . بحيث أصبح شهر رمضان شهر الصيام عند المسلمين خاصة . وفي هذا دلالة على أن الله أراد لهذه الأمة أن تكون أمة متميزة مستقلة عن بقية الأمم .

وقد حدث قبل غزوة بدر - أيضاً - حادث آخر في هذا الاتجاه ، ألا وهو : تحويل القبلة من بيت المقدس إلى البيت الحرام بمكة ، واعترض اليهود على هذا التحويل ، قال تعالى : ﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبَلَتِهِمْ أَلْبَنِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلِ اللَّهُ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ (١) .

وهذا من هاج رسول الله ﷺ الذي أمر به ، وهو أنه كان يحب مخالفة أهل الكتاب والمشركين وأمر بذلك أمراً صريحاً (٢) .

فلماذا - في هذه الأيام - تسير أمتنا في ركاب أهل الكتاب وقد أكرمها الله بالإسلام وميَّزها به . والله نهى عن الركون إلى الكفار - على مختلف دياناتهم - (٣) ، وحذَّر منه تحذيراً شديداً .

إن أمتنا لا عزة لها ولا قوة ولا منعة ، ولا مهابة إلا بعودتها إلى دينها واعتزازها

= ابن عباس رضي الله عنهما وإسناده ضعيف . فيه محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى وهو سيء الحفظ . وداود بن علي بن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما وهو ضعيف . ولكن ثبت عن النبي ﷺ أنه قال : «لئن عشت إلى قابل لأصومن التاسع» . رواه مسلم (١١٣٤) . قال ابن حجر - رحمه الله تعالى - في الفتح (٤/٢٨٩) : «... وعلى هذا فصيام عاشوراء على ثلاث مراتب : أذناها أن يصام وحده ، وفوقه أن يصام التاسع معه ، وفوقه أن يصام التاسع والحادي عشر والله أعلم» .

(١) سورة البقرة، الآية : ١٤٢ .

(٢) ورد في الأمر بمخالفة المشركين وأهل الكتاب في غير ما حديث صحيح . من ذلك : ما رواه البخاري (٥٨٩٢) ، ومسلم (٢٥٩) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : «خالفوا المشركين، أحفوا الشوارب وأوفروا اللحى» .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «خالفوا الجوس» . رواه مسلم (٢٦٠) ، وأحمد (٣٦٦/٢) .

وعن شداد بن أوس رضي الله عنه قال : «خالفوا اليهود فإنهم لا يصلون ي نعالهم ولا خفافهم» . رواه أبو داود (٦٥٢) ، وإسناده صحيح .

(٣) وذلك في آيات من القرآن الكريم . من ذلك : قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾ [هود : ١١٣] .

به . فهل نعي هذه الحقيقة العظمى؟

الوقفه الثانية؛ لقد كانت معركة بدر فرقاناً ، وقد سماها الله تعالى في كتابه يوم الفرقان فقال تعالى : ﴿... إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّقَى الْجَمْعَانِ ...﴾<sup>(١)</sup> ، فما مدلول كونها فرقاناً؟ لقد كانت فرقاناً ، من عدة وجوه:

١ - كانت فرقاناً بين الحق والباطل ، الحق المتمثل بما جاء به رسول الله ﷺ والباطل الذي كان يعم وجه الأرض كلها في ذلك الوقت .

٢ - كانت فرقاناً بين التوحيد الخالص لله تعالى ، وبين الشرك والكفر وعبادة غير الله من طواغيت وأصنام وبشر يعبدون من دون الله تعالى . وفعلاً كانت معركة بدر فرقاناً عملياً بين المؤمنين والكفار .

٣ - وكانت أيضاً فرقاناً بين عهد الضعف ، والأمر بالصبر والانتظار ، وعهد القوة والجهاد في سبيل الله تعالى ، هذا العهد الذي استمر حتى بعد انتقال رسول الله ﷺ إلى الرفيق الأعلى .

٤ - وكانت فرقاناً في موازين عوامل النصر والهزيمة . فقد خرجت قريش بقوتها وعددها وخيلها وخيلائها وتكبرها وإلحادها وصددها عن سبيل الله ، وخرج المسلمون بقوتهم المحدودة ولكن بإيمانهم القوي بالله وثقتهم به وبنصره وإيمانهم بعقيدتهم وبوجههم للجهاد والاستشهاد في سبيل إعلاء كلمة الله . وكانت النتيجة مفاجئة للجميع . مفاجئة لمشركي مكة في مكة ، ولليهود في المدينة ، وللمنافقين داخل الصف الإسلامي ؛ إذ انتصر المسلمون نصراً مؤزراً .

وهذا درس للذين يزنون معارك الإسلام اليوم بالموازين المادية . . . إلخ .

٥ - وكانت فرقاناً في باب الولاء والبراء ، والموالاته والمعاداته . فقد كانت معركة عقيدة فعلاً ، قاتل فيها الرجل أباه والأب ابنه والأخ أخاه ؛ لاختلاف الراية . فلم تكن معركة قومية جاهلية .

الوقفه الثالثة؛ يقول تعالى : ﴿وَإِذْ يَبْعُدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنْ غَيْرَ ذَاتِ الشُّوْكَةِ تَكُونَ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ﴾<sup>(٢)</sup> .

(٢) سورة الأنفال، الآية : ٧ .

(١) سورة الأنفال، الآية : ٤١ .

لقد رغب المسلمون في العير التي لا شوكة فيها ولا قتال ، ولكن الله أراد أن تكون ملحمة حامية لا غنيمة باردة ، وأن تكون موقعة فاصلة بين الحق والباطل ، وأن يقطع الله بها دابر الكافرين بالهزيمة والقتل والأسر والذل الذي لحقهم .

الوقف الرابع: لمحات عن الأسرى :

\* كان من بين الأسرى أبو العاص بن الربيع بن عبد شمس ، أمه هالة بنت خويلد - أخت خديجة - رضي الله عنها - وهو زوج زينب بنت رسول الله ﷺ ، تزوجها قبل البعثة ، فلما وقعت معركة بدر وأسر أبو العاص وطلب الفداء من الأسرى بعثت زينب بنت النبي ﷺ قلادة عندها أهدتها لها أمه خديجة عند زواجها ، فلما رأى القلادة رسول الله ﷺ رق لها رقة شديدة ، فقال للمسلمين : إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها ، وتردوا عليها الذي لها فافعلوا . فأطلقوا سراح زوجها وردوا إليها قلادتها<sup>(١)</sup> . وأخذ الرسول ﷺ على أبي العاص أن يبعث بزینب إلى المدينة ففعل ، وعندما أسلم أبو العاص فيما بعد ، رد الرسول ﷺ عليه زوجته - رضي الله عنهما - .

لي تأمل هذا العرض النبوي على أصحابه - رضي الله عنهم - فما هو بالذي يستأثر عن أصحابه ، ولكنه عرض عليهم ورجاهم .

\* كان من بين الأسرى أحد أشرف مكة وخطيب قريش المشهور - الذي كان لخطبه أثر كبير في محاربة المسلمين - وهو سهيل بن عمرو بن عبد شمس - صاحب عقد صلح الحديبية فيما بعد -<sup>(٢)</sup> .

ولما تقرر إطلاق سراحه من الأسر - بعد دفع الفداء عنه ، طلب عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - من الرسول ﷺ أمراً يتعلق به ، فقال : يا رسول الله ! انزع ثنيتي سهيل يدلع لسانه فلا يقوم عليك خطيباً في موضع أبداً .

فأبى رسول الله ﷺ وقال لعمر : «دعه فعسى أن يقوم مقاماً تحمده»<sup>(٣)</sup> . ولقد

(١) حديث إسناده حسن رواه : ابن إسحاق في السيرة (٦٥٣ / ٢) عند الكلام على أسارى بدر . و ذكره ابن كثير في البداية والنهاية (٣ / ٣١٢) .

(٢) حديث صلح الحديبية رواه : البخاري في صحيحه (٢٧٣١) و (٢٧٣٢) .

(٣) انظر : البداية والنهاية لابن كثير (٣ / ٣١١) .

صدق رسول الله ﷺ ، فبعد إسلام سهيل بن عمرو ثم موت النبي ﷺ وارتداد من ارتدَّ في الجزيرة العربية وظهور تلك الفتنة العظيمة ، حتى همَّ بعض أهل مكة بالردة ، فلما بلغ ذلك سهيل بن عمرو ذلك - وكان سيداً مطاعاً - وقف خطيباً وقال : «يا أهل مكة ، لا تكونوا آخر الناس إسلاماً ، وأولهم ارتداداً ، والله من رابنا من أمره شيء ضربنا عنقه كائناً من كان»<sup>(١)</sup> ، وكان لموقفه الحازم هذا أثره في ثبات مكة وأهلها وقت الردة .

وقد كان سهيل - رضي الله عنه - صريحاً في قول الحق ، فقد حضر الناس باب عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - زمن خلافته ، وفيهم سهيل بن عمرو وأبو سفيان بن حرب وشيوخ قريش ، فخرج أذنه يأذن لأهل بدر ، لصهيب الرومي وبلال الحبشي وأهل بدر وكان عمر يحبهم ويقربهم - وقد أوصى بهم . فقال أبو سفيان : ما رأيت كاليوم قط ، إنه ليأذن لهؤلاء ونحن جلوس لا يلتفت إلينا . فقال سهيل بن عمرو : أيها القوم إني والله قد أري الذي في وجوهكم ، فإن كنتم غضاباً فاغضبوا على أنفسكم ، دُعي القوم ودُعيتم - أي إلى الإسلام - فأسرعوا وأبطأتم ، أما والله لما سبقوكم به من الفضل أشدُّ عليكم فوتاً من بابكم هذا الذي تتنافسون فيه ، ثم قال : أيها القوم ! إن هؤلاء قد سبقوكم بما ترون ، ولا سبيل لكم إلى ما سبقوكم إليه ، فانظروا هذا الجهاد فالزموه ، عسى الله عز وجل أن يرزقكم الشهادة . ثم نفص ثوبه ولحق بالشام ، وخرج بجماعة أهله إلى الشام مجاهداً حتى ماتوا كلهم هنالك<sup>(٢)</sup> .

هذا سهيل بن عمرو رأس من رؤوس الكفر - قبل إسلامه - ، وقائد كبير من قواد قريش ، ها هو يعلن الحقيقة ناصعة ، واضحة ، ومن خلالها يرى أن واجبه أن يعرض ما فاتته من الخير بالجهاد في سبيل الله تعالى .

فأين هو من القوميين والعلمانيين والحدائين في زماننا الذين عاشوا مع زبالة الأفكار والتيارات الإلحادية وما شابهها ، ثم إذا عاد الواحد منهم إلى ربه عاد يحمل معه لوثاته الفكرية . أين الصفاء والنقاء وروح الإيمان الصافي؟ .

\* \* \*

(١) قال ابن حجر في الإصابة (٤/١٤٦) : الذهبي في السير (٢/١٩٤) قام في أهل مكة وخطبهم بنحو ما خطب الصديق أهل المدينة . (٢) ذكر نحو هذا ابن حجر في الإصابة (٤/١٤٦) .

## استقبال العام الجديد (١)

أيها الإخوة المؤمنون: ها نحن نستقبل العام الهجري الجديد، فماذا أقول لكم؟ بل ماذا أقول لنفسي؟

ما أظنني وإياكم إلا كأرطاة بن سهية المري - الذي عمّر وعاش مئة وثلاثين سنة - فدخل على الخليفة الأموي المشهور، أبي الوليد عبد الملك بن مروان، فقال له عبد الملك:

ما بقي من شعرك؟ قال: والله ما أشرب ولا أطرب ولا أغضب، ولا يجيء الشعر إلا على مثل هذه الحال، إن أقول:

رأيت المـسـرء تـأكـله اللـيـالي	كأكل الأرض ساقطة الحديد
وما تبقي النية حين تأتي	على نفس ابن آدم من مزيد
وأعلم أنها ستكـرر حتى	توفى نذرهما بأبي الوليد

فلما أنشدها ارتاع عبد الملك بن مروان؛ لأنه كان يكتنئ بأبي الوليد. وكان أرطاة أيضاً أبا الوليد. فقال: يا أمير المؤمنين، إنني لم أعنك، إنما عنيت نفسي، فقال عبد الملك بن مروان: وأنا أيضاً ستكرّر عليّ النية.

وعبد الملك بن مروان هذا، هو الذي وقف على قبر معاوية - رضي الله عنه - فقال: الحمد لله عشتَ عشرين سنة أميراً، وعشرين سنة خليفة، ثم صرت إلى هذا، هل الدهر والأيام إلا كما أرى. رزية مال، أو فراق حبيب، وقال: لله در عمر بن الخطاب، ما كان أعلمه بالدنيا.

وعمر بن الخطاب أتته الدنيا وهي راغمة - فتوحات، وغنائم، وجاه عريض - فما تغير - رضي الله عنه - ولا غيرته الدنيا.

لقد طوينا صحائف عام كامل لن يعود أبداً، فماذا سطرنا في هذه الصحائف؟ سؤال صريح يوجهه كل واحد منكم إلى نفسه، ليحاسبها حساباً دقيقاً؛ لأنها - والله - قد سطرت وكتبت أعمالكم فيها تسطيراً دقيقاً في كتاب لا يغادر صغيرة ولا

كبيرة إلا أحصاها .

هل أحسنت فتزويد في الإحسان؟ أم أسأت فتقلع عن الإساءة وتمحوها بالحسنات؟

أم أنك مخلط ، فتراجع حساب الحسنات والسيئات ؛ لتعيد الأمور إلى نصابها الصحيح في تعاملك مع ربك تعالى ، تعالوا إلى عدد من الحقائق والوصايا:

١ - إن المؤمن - والمؤمن فقط - هو الذي لا تزيده الأعوام والسنون إلا عزاً بطاعة الله تعالى :

أ - فإذا نشأ - في شبابه - في طاعة الله تعالى ، وسلك الطريق المستقيم ، فهو موعود بظل العرش يوم القيامة ، يوم تقرب الشمس من رؤوس العباد في المحشر حتى تكون قدر ميل ، فيعرقون ، وهي حرارة ليست كحرارة أيامكم هذه التي تقاسون لهيبتها . فمن السبعة الذين يظلمهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله : «شاب نشأ في عبادة ربه»<sup>(١)</sup> .

أيها الشباب : ما أعظم منة الله عليك ، الآن وأنت في حال الشباب ، وقد يأخذك الموت على غرة . فإن استقمتم ، فلك هذا الوعد الصادق ، فتكون ممن عمل قليلاً وربح كثيراً .

ب - وإذا عاش الإنسان ومدَّ الله في عمره حتى علاه المشيب ، فتعالوا إلى وعد الرسول ﷺ لمن شاب شبيبة وهو على الهدى والإيمان . روى البيهقي بإسناد حسن عن رسول الله ﷺ ، قال : «الشيب نور المؤمن ، لا يشيب رجل شيبة في الإسلام إلا كانت له بكل شيبة حسنة ، ورُفِعَ بها درجة»<sup>(٢)</sup> .

٢ - والمؤمن منهى عن تمنى الموت : فقد ورد في الصحيحين عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال : «لا يتمنئ أحدكم الموت لضر نزل به ، فإن كان لا بد فاعلاً فليقل : اللهم أحيني ما كانت الحياة خيراً لي ، وتوفني إذا كانت الوفاة خيراً لي»<sup>(٣)</sup> .

(١) رواه : البخاري (٦٦٠) . والنسائي (٢٢٢/٨) من حديث أبي هريرة .

(٢) انظر : السلسلة الصحيحة للألباني (١٢٤٣) .

(٣) رواه البخاري (٥٦٧١) ، و (٦٣٥١) .

وإنَّما نهى عن تمنى الموت في هذه الحال - أي حال الضر من فقر أو مرض أصابه ؛ لأنه اعتراض على قدر الله . ولعل ما أصابه خير له ، ولأنه تمنى الموت تعجلاً للاستراحة ، وهو إلى ما يصير بعد الموت ، فلعله يصير إلى ضر أشد من الضر الذي نزل به ، وهناك أحوال يشرع أو يجوز تمنى الموت فيها، منها:

(١) تمنى الموت عند حضور أسباب الشهادة في سبيل الله في حال الجهاد، اغتناماً لحصولها، وسؤال الصحابة للشهادة وتعرضهم لها في حال الجهاد كثير ومعروف .

(٢) تمنى الموت خوف الفتنة في الدين ، ويدل له حديث : «وإذا أردت بعبادك فتنة فاقبضني إليك غير مفتون»<sup>(١)</sup> .

(٣) من غلبه الشوق إلى لقاء الله تعالى ، لعمله الصالحات . قال أبو الدرداء - رضي الله عنه - : «أحب الموت اشتياقاً إلى ربي» .

وقد يستدل لذلك بمفهوم قوله تعالى لليهود : ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ الدَّارَ الْآخِرَةَ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾<sup>(٢)</sup> .

وفي الآية الأخرى : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾<sup>(٣)</sup> .

فدلَّ هذا على أن أولياء الله لا يكرهون الموت ، بل يتمنونه . ولهذا قال عن اليهود هنا : ﴿ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾<sup>(٤)</sup> . فدلَّ على أنه إنما يكره الموت من له ذنوب يخاف القدوم عليها . ولهذا ورد في حديث عمار بن ياسر أن النبي ﷺ قال في دعائه : «وأسألك لذة النظر إلى وجهك والشوق إلى لقائك في غير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة»<sup>(٥)</sup> .

ولما أوصى أبو بكر الصديق الخليفة من بعده عمر بن الخطاب - رضي الله عنهما

(١) حديث صحيح رواه : الترمذي (٣٢٣٣)، وأحمد (٣٦٨/١) من حديث ابن عباس رضي الله

عنهما . (٢) سورة البقرة، الآية : ٩٤ .

(٣) سورة الجمعة، الآية : ٦ . (٤) سورة الجمعة، الآية : ٧ .

(٥) رواه النسائي (٥٤/٣)، وأحمد (٢٦٤/٤)، والحاكم (٥٢٤/١)، وإسناده جيد .

- بوصية - وأكرم بالموصي والموصى له - ، قال بعد أن أوصاه بأشياء حول الرعية وحفظ الإسلام: «... إن حفظت وصيتي لم يكن غائب أحب إليك من الموت ، ولا بد لك منه ، وإن ضيعتها ، لم يكن غائب أكره إليك من الموت ، ولن تعجزه» .

٣- وأقول لنفسي ولكم جميعاً: قفوا عند آيات من كتاب الله تعالى :  
يا من تعلقتم بالدنيا .

ويا من تعلقتم بالمناصب والجاه .

ويا من تعلقتم قلوبكم بكأس العالم تتابعون أخباره في كل وقت ، وكأن الواحد منكم عمر بن الخطاب يتقرب أخبار معركة القادسية مع الفرس ، أو بقية الفتوحات الإسلامية .

أو كأنه صلاح الدين الأيوبي يستعد لفتح بيت المقدس ويتابع أخبار أهل الصليب من النصارى .

أيتها النفوس - التي استسلمت لغزو الأعداء - فتحولت إلى عبيد للكرة ولباريات كأس العالم . حتى قدمتها على طلب العلم ودراسته .

أقول لهؤلاء جميعاً ، ولغيرهم : قفوا عند قوله تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَمْتَعُونَ ﴿٢٠٧﴾ ﴾ (١) .

لما بنى الرشيد قصره واستدعى ندماءه - فقال الرشيد لأبي العتاهية . ما تقول فيما نحن فيه ، فأنشده :

عش ما بسدا لك سالماً	في ظل شاهقة القصور
يسعى عليك بما اشتهيت	لدى الرواح وفي البكور
فإذا النفوس تقعقت	في ضيق حشرجة الصدور
فهناك تعلم موقناً	ما كنت إلا في غرور

حول صوم يوم عاشوراء: ثبت في الصحيح عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال : قدم النبي ﷺ المدينة واليهود تصوم يوم عاشوراء ، فقال : «ما هذا اليوم الذي

تصومونه؟». قالوا: هذا يوم عظيم أنجى الله فيه موسى وأغرق فروعون فيه ، فصامه موسى شكراً. فقال رسول الله ﷺ: «فنحن أحق بموسى منكم، فصامه ﷺ وأمر بصيامه»<sup>(١)</sup>.

وقال ﷺ: «صوم عاشوراء كفارة سنة ، وصوم عرفة كفارة ستين»<sup>(٢)</sup>.

وقفه مع قوله: نحن أحق بموسى منكم. وورد عن ابن عباس - رضي الله عنهما - :  
 «ولقد قال ﷺ: «إذا كان العام المقبل صمنا يوم التاسع إن شاء الله تعالى». قال: فلم يأت العام المقبل حتى توفي رسول الله ﷺ»<sup>(٣)</sup>.

\* \* \*

(١) رواه البخاري (٢٠٠٤) وفي غير موضع، ومسلم (١١٣٠)

(٢) رواه مسلم (١١٦٢) من حديث أبي قتادة رضي الله عنه.

(٣) رواه البخاري (١١٣٠)، وأحمد (٢٣٦/١).

الإجازة الصيفية<sup>(١)</sup>

يتهيأ كثير من الناس - في هذه الأيام - إلى أنواع من الأسفار التي تنقلهم من مكان إلى مكان، ومن بلد إلى بلد. ويتأمل الإنسان وهو يشاهد أحوال الناس في ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنزِلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾<sup>(٢)</sup>.

والشاهد قوله تعالى: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾<sup>(٢)</sup>. كم رأينا من إنسان ساقته المقادير إلى أماكن - ما جاءها - طول عمره، فكانت منيته فيها.

وقد ورد في المسند وسنن الترمذي أن النبي ﷺ قال: «إذا أراد الله قبض روح عبد بأرض جعل له فيها - أو قال: بها - حاجة»<sup>(٣)</sup>.

وقال أعشى همدان:

إلى منيته سيارُ في عَنَقِ	لا تأسِنْ على شيء فكل فتى
معللٌ بأعالي من الحَمَقِ	وكلُّ من ظنُّ أن الموت يخطئه
إن لا يُسِيرُ إليها طانعا يُسَقِ	بأيما بلدة تُقدر منيته

وباب الموت سيلجه الجميع، من سافر ومن لم يسافر: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكَكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشِيدَةٍ﴾<sup>(٥)</sup>. فهو أمر قد استوى فيه الجميع.

لكن هناك أمر افترق فيه الناس وتفارقوا: ألا وهو التأهب والاستعداد لذلك الرحيل، ولتلك السفارة النهائية في هذه الدنيا، لبدأ رحلة أخرى أبدية يوم البعث والنشور، والوقوف بين يدي الله للحساب والجزاء.

(١) الجمعة ١٤١٥/١/٢٢ هـ. (٢) سورة لقمان، الآية: ٣٤.

(٣) حديث صحيح رواه: الترمذي (٢١٤٨)، وأحمد (٤٢٩/٣) من حديث أبي عزة رضي الله عنه، وهو رجل من الصحابة. وله شاهد من حديث مطر بن عكاس رواه: الترمذي (٢١٤٧)، والحاكم (٣٦٧/١-٣٦٨) وله شواهد أخرى. رواه: الحاكم (٣٦٧/١).

(٥) سورة النساء، الآية: ٧٨.

فيا مَنْ تتهيأ للأسفار ، هل تذكرت ذلك السفر الطويل ؟ وهل تأهبت له أهبه تناسبه؟

إن المؤمن الحق هو الذي استقصر الطويل من الآمال الدنيوية ، وتخيل في كل وقت أن المنية تعاصفه وتفاجئه ، فاشتدَّ حذره من هجومها ، مخافة أن تحل به عقوبة الله ، ويُحال بينه وبين الاستعتاب والتأهب للقاء فيلقى ربه قبل الطهر التام والتوبة النصوح ، فلا يؤذن له بالدخول بغير طهارة ، كما أنه لم يؤذن في دار التكليف بالدخول عليه للصلاة والقيام والعبادة لله تعالى بغير طهارة .

إن أوقات الصلاة نظير وقت الموافاة ، ومثله الدخول إلى بيت الله الحرام - حاجاً أو معتمراً - لا بدَّ له من استقبال بيته المحرم ، ومن طهارة بدنه وثيابه ، وإخلاص نيته لله تعالى ، وكذا القدوم على الله .

فإذا تأهب العبد قبل الوقت : جاءه الوقت وهو متأهب ، وإذا فرط في التأهب ، خيف عليه من خروج الوقت قبل التأهب ؛ إذ هجوم الموافاة مضيق لا يقبل التوسعة ، فلا يُمكن العبد من التطهر والتأهب والتوبة عند هجوم الوقت ، بل يقال له : هيهات ، هيهات ، فات ما فات ، وقد بعدت بينك وبين التطهر المسافات .

\* \* \*

تأملوا أحوالنا وأحوال الناس وأهدافهم في هذه الإجازة ، والأسباب التي تدفعهم إلى هذه الأسفار :

● من الناس من صار هدفه المتعة الحرام ، يبحث عنها في أي مكان . في المشرق أو المغرب . وهناك تتفنن أوكار الفساد والانحلال في جذب هؤلاء السائحين . ولا تسئل عما يجري هناك . فتلك قصة طويلة - نسأل الله العافية - .

● ودون هؤلاء أناس ليس لهم هدف إلا السياحة والتجول في بلاد الكفر والعهر ، فيذهب - وأحياناً بأسرته - ليقضي الأوقات وينتقل من مكان إلى مكان ، وكم يواجه من أنواع من المنكرات يمر بها أو يواقعها . ويرجع وترجع الأسرة معه وقد تلتقت دروساً عملية في الانحلال وذهاب الغيرة ، والتجرؤ على المحارم ، والوقوع فيما يغضب الكبير المتعال .

● وهناك أناس - محافظون - ولديهم غيرة على دينهم وأعراضهم ، فبحثوا عن أنواع من السياحة لا يترتب عليها فساد، فسافروا وأزجوا أوقاتهم . وهؤلاء مشكورون على غيرتهم وحفاظهم على أنفسهم وأسرهم . ولكن كنا نتمنى أن يحددوا هدفاً لهم مع هدف السياحة يكون في ميزان أعمالهم يوم يلقوا ربهم تبارك وتعالى .

● وهناك - قلة - عرفوا قيمة الوقت ، وعظم المسؤولية، وحقارة الدنيا، وعظمة ما يؤمل عند الله تعالى . وقارنوا بين الدنيا والآخرة، تأملوا قوله ﷺ: «ما لي وللدنيا، إنما أنا كراكب قال في ظل شجرة ثم راح وتركها»<sup>(١)</sup> .

وقوله ﷺ: «ما الدنيا في الآخرة إلا كما يدخل أحدكم أصبعه في اليمّ فلينظر بم يرجع؟»<sup>(٢)</sup> .

وقول الإمام الزاهد والخليفة الراشد عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - : «لو أن الدنيا من أولها إلى آخرها ، أوتيتها رجل ، ثم جاءه الموت ، لكان بمنزلة من رأى في منامه ما يسره ، ثم استيقظ فإذا ليس في يده شيء» .

نظر الواحد منهم بعين البصيرة ، فخطب نفسه خطاب صدق وصراحه ، وقال : كيف يليق بصحيح العقل والمعرفة أن يقطعه أمل حقير من آمال الدنيا عن نعيم لا يزول ولا يضمحل؟! فضلاً عن أن يقطعه عن طلب من نسبة هذا النعيم الدائم إلى نعيم معرفته ومحبته والانس به والفرح بقربه كنسبة نعيم الدنيا إلى نعيم الجنة .

قال الله تعالى : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٍ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾<sup>(٣)</sup> .

فيسير رضوان الله - ولا يقال له يسير - أكبر من الجنات وما فيها . وفي حديث

(١) حديث صحيح رواه : الترمذي (٢٣٧٨) ، وابن ماجه (٤١٠٩) ، وأحمد (٤٤١/١) ، والحاكم (٣١٠/١) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه . وله شاهد من حديث ابن عباس رضي الله عنهما رواه : أحمد (٣٠١/١) ، وشاهد آخر من حديث عمر رضي الله عنه رواه : الحاكم (٣٠١-٣٠٠/١) .

(٢) رواه مسلم (٢٨٥٨) ، والترمذي (٢٣٢٣) ، وأحمد (٢٢٩/٤) ، (٢٣٠) .

(٣) سورة التوبة ، الآية : ٧٢ .

الرؤية: «فو الله ما أعطاهم الله شيئاً أحب إليهم من النظر إلى وجهه الكريم» (٢).

فلما تأمل هؤلاء هذه الحقائق، اختلفت أهدافهم وموازنهم عن غيرهم، فشمروا عن ساعد الجد. وعزموا على أن تكون أوقاتهم كلها - ومنها هذه الإجازات - في رضوان الله تعالى، وما حُرّموا أثناء ذلك من متعة سفر، وصلة رحم، ورفقة أنس، وترويح عن الأولاد... إلخ، هذه أحوال الناس. فمن أيهم نكون؟

لا بد أن نعتبر، وأن نقارن بين الدنيا والآخرة، فنعمل لكل بما يستحقه.  
منطلقات عملية حول الإجازة:

١ - الحفاظ على الأسرة؛ لأن مجال الفراغ والتفلة فيها كبير جداً.

٢ - ترتيب الأولويات:

أ - فهناك صلة الأرحام. (وخاصة الوالدين).

ب - والدعوة إلى الله تعالى.

ج - وطلب العلم.

د - والاستفادة من الإجازة استفادات أخرى، من مهارات، أو تجارة، أو غيرهما.

٣ - التخطيط للمدروس لوقت الإجازة؛ لأن الإنسان إذا هجمت عليه الإجازة ربما انقضت أوقات كثيرة منها قبل أن يحدد هدفه - فضلاً عن أن يبدأ بالتنفيذ - .

وأحب أن أذكر بأنواع من المجالات التي يمكن الاستفادة من الإجازة لتحقيقها، أو لتحقيق بعضها:

أولاً: برنامج لحفظ سور أو أجزاء من القرآن الكريم. ويكون هذا من خلال:

أ - حلقات المساجد أو المراكز لتحفيظ القرآن الكريم.

ب - دروس بيتية أسرية، يشترك فيها جميع أفراد العائلة، ووضع جوائز تشجيعية لذلك.

(١) رواه مسلم (١٨١) من حديث صهيب رضي الله عنه.

ج- جهود فردية - يعزم الإنسان - من خلالها على حفظ كذا أو كذا من القرآن الكريم .

ثانياً : طلب العلم : وهذا لا يتعارض مع الإجازة - التي تعتبر فسحة بعد نهاية العام الدراسي ؛ لأن طلب العلم الذي نقصده هنا أمر اختياري ، لا يلزم به الإنسان ، ومن ثم فسيجد فيه متعة . ولقد كانت سياحة علماء السلف - رحمهم الله تعالى - طلب العلم .

وأحب لطالب العلم ، أن يحدد ماذا يريد في هذه الإجازة؟ فيحدد : الموضوع ، والمنهج ، والطريقة .

وأقترح : أن تحدد كتب - ولو مختصرة - ليأخذها طالب العلم من أولها إلى آخرها . ولا يتشتت ذهنه في تنقله من موضوع إلى موضوع ومن كتاب إلى كتاب دون ترتيب جيد .

ثالثاً : أن يكون للإنسان جهد يبذله في الدعوة إلى الله تعالى ، وسواء قضى الإجازة كلها أو بعضها في ذلك . فليعلم أن هذا باب واسع :

أ- فالغني المشغول بتجارته ، يقوم بهذا الواجب - واجب الدعوة إلى الله - بما ينفقه من مال في سبيل الدعوة إلى الله تعالى ، سواء للداخل أو للمسلمين في الخارج .

وكم رأينا من رجال وشباب يحبون أن يبذلوا أنفسهم في أي مكان للدعوة إلى الله تعالى ، لكن ضاقت عليهم النفقة خاصة في مجالات الدعوة المختلفة :

- فهناك الكتاب الإسلامي . - والشريط الإسلامي .

- وبناء المساجد والمدارس . - والحلقات العلمية والتربوية .

... وغيرها وغيرها . يمكن أن يقوم بدعمه الغني - بل وكل متبرع - ولو بالقليل من المال في سبيل الله تعالى .

ومما يؤسف له ، أن أهل البدع ينشطون في ذلك أعظم نشاط ، فالرافضة والصوفية وغيرهم ترى جهودهم وصلت إلى كل مكان . أما أهل السنة ، فلا تزال جهودهم دون المستوى المطلوب بكثير !!!

ب- والعالم وطالب العلم ، يقومان بدورهما في الدعوة إلى الله تعالى ، سواء في إقامة الدروس وحلق العلم ، أو في التجول في البلاد ، يدعون إلى الله تعالى ويوجهون الناس .

ج- والشاب الطيب أيضاً ، يقوم بدوره مع زملائه أو نشاطه في مركزه أو حيّه . وهو باب للحفاظ على شبابنا من الضياع ، فيه جهاد ودعوة يحتاج فيها إلى مؤازرة .

د- والفتاة المسلمة والأسرة المسلمة تقوم بدورها من خلال دروس تحفيظ القرآن للنساء ، ومن خلال الزيارات الأسرية الجادة .

هـ- وكل فرد يمكن أن يقوم بدور ما في الدعوة إلى الله تعالى ، والمجالات - والحمد لله - عديدة . . . والموفق من وفقه الله للخير وألوان من الجهاد في سبيل الله من عمرة ، ودعوة . . . إلخ .

رابعاً : وهناك مجالات أخرى - لانهون - من شأنها ، وكنت أتمنى أن يتوجه إليها بعض شبابنا ممن صارت الكرة روحه وعقله ولبّه . وربما دينه .

وهذه المجالات متنوعة : منها التجارية ، لتعويد الأولاد وتدريبهم على أن يكونوا رجالاً . ومنها تنمية المهارات المختلفة في علوم الكمبيوتر وغيرها كثير .

\* \* \*

## الكسوف (١)

خطب النبي ﷺ عقب إحدى الصلوات خطبة خاصة أخبر فيها بما رأى، ووعده وأنذر. فما الذي قاله في خطبته وهو الصادق المصدوق؟ .

قال: «رأيت في مقامي هذا كل شيء وعدتم به، حتى رأيته أريد أن آخذ قطعاً من الجنة حين رأيتموني جعلت أتقدم». وفي رواية: «إني رأيت الجنة فتأولت منها عنقوداً، ولو أخذته لأكلتم منه ما بقيت الدنيا». قال: «ولقد رأيت جهنم يحطم بعضها بعضاً حين رأيتموني تأخرت، ورأيت فيها عمرو بن لحي يجرفُصْبَه، وهو أول من سب السوائب، وحتى رأيت منها صاحب الخجن يجرفُصْبَه في النار، كان يسرق الحاج بمحجنه فلن فطن له قال: إنما تعلق بمحجني، وإن عُقل عنه ذهب به. ورأيت فيها امرأة من بني إسرائيل تُعذَّب في هرّة لها ربطتها، فلم تطعمها، ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض حتى ماتت جوعاً».

قال: «وأوحى إليّ أنكم تفتنون في قبوركم مثل فتنة المسيح الدجال، يقال: ما علمك بهذا الرجل؟ فأما المؤمن - أو الموقن - فيقول: هو محمد وهو رسول الله ﷺ جاءنا بالبينات والهدى، فأجبنا واتبعنا، هو محمد - ثلاثاً - فيقال: ثم صالحاً، قد علمنا إن كنت لموقناً به. وأما المنافق - أو المرتاب - فيقول: لا أدري سمعت الناس يقولون شيئاً فقلته».

وقال: ورأيت أكثر أهلها - أي النار - النساء. قالوا: يم يا رسول الله؟ قال: بكفرهن. قيل: أيكفرن بالله؟ قال: يكفرن العشير ويكفرن الإحسان، لو أحسنت إلى إحداهن الدهر كله، ثم رأت منك شيئاً. قال: ما رأيت منك خيراً قط». ثم قال: «يا أمة محمد، والله ما من أحد أغبر من الله أن يزني عبده، أو تزني أمته. يا أمة محمد: والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً» (٢).

فما هذه المناسبة التي صلى فيها رسول الله ﷺ صلواته وأتبعها بهذه الخطبة العظيمة وعيداً ونذارة وتخويفاً:

(١) الجمعة ١٩/٥/١٤١٦هـ.

(٢) جمعت من روايات البخاري ومسلم. انظر: مختصر البخاري للألباني (١/٢٥٢-٢٥٥)، وجامع الاصول (٦/١٥٦)، وما بعدها. وزاد المعاد (١/٤٥٠).

- حذر فيها من تغيير العقيدة والدين . حيث رأى في نار جهنم عمرو بن لحيّ الخزاعي يجر أمعاءه فيها ، لأنه جلب الأصنام إلى جزيرة العرب فغيّر دين إبراهيم دين الخنفيّة . ولأنه سيّب السوائب ، فجعل هذا يجوز ركوبه من الإبل ، وذلك لايجوز ، فشرّع من دون الله تعالى ما لم يأذن به الله .

- وحذر فيها من أكل أموال الناس بالباطل ، بالحيلة أو بغيرها كقصة صاحب المحجن الذي يسرق الحاج بمحجنه محتالاً حتى لا يكشف أمره وقد رآه رسول الله ﷺ في نار جهنم .

- وحذر من الظلم حتى للبهائم والحيوانات ، فرأى في النار المرأة التي حبست هرة حتى ماتت .

- وحذر من الزنى ، وذكر أنه لا أحد أغير من الله تعالى . وقال : « يا أمة محمد ! والله ما من أحد أغير من الله أن يزني عبده أو تزني أمته » .

- وذكر بفتنة القبور والسؤال فيها ، فمن كان من أهل التقوى والإيمان أجاب صواباً . ومن كان على الضد من ذلك قال : لا أدري .

- وهو ﷺ قبل ذلك رأى الجنة ونعيمها حتى كاد أن يتناول منها عنقود عنب .

- وختم خطبته بهذه العبارات : يا أمة محمد ، والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً .

مناسبة هذه الخطبة يوم من الأيام في زمن رسول الله ﷺ وقعت فيه حادثتان :

إحدهما : موت إبراهيم ولد النبي ﷺ ، فقد روى البخاري وغيره عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال : دخلنا مع رسول الله ﷺ على أبي سيف القين وكان ظئراً لإبراهيم ، فأخذ رسل الله ﷺ إبراهيم فقبله وشمّه ، ثم دخلنا عليه بعد ذلك وإبراهيم يجود بنفسه ، فجعلت عينا رسول الله ﷺ تذرّفان . فقال له عبد الرحمن بن عوف - رضي الله عنه - وأنت يا رسول الله ؟ فقال : يا ابن عوف ! إنها رحمة . ثم أتبعها بأخرى فقال ﷺ : « إن العين تدمع ، والقلب يحزن ولا نقول إلا ما يرضي ربنا ، وإنا بفراقك يا إبراهيم نحزونون »<sup>(١)</sup> .

(١) رواه البخاري (١٣٠٣) ، ومسلم (٢٣١٥) .

أما الأخرى: فهي كسوف الشمس، فعن أبي بكره - رضي الله عنه - قال: كنا عند رسول الله ﷺ فانكسفت الشمس فقام النبي ﷺ يجر رداءه حتى دخل المسجد، فبعث منادياً: الصلاة جامعة. وثاب الناس إليه، فدخلنا وصلينا بنا ركعتين حتى انجلت الشمس. ثم أقبل علينا. فقال النبي ﷺ: «إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله، وإنهما لا ينكسفان لموت أحد - وفي رواية: ولا لحياته - ولكن الله تعالى يخوف بها عباده، فإذا رأيتوهما فصلوا وادعوا حتى ينكشف ما بكم»<sup>(١)</sup>. وذلك أن ابناً للنبي ﷺ مات يقال له إبراهيم، فقال الناس في ذلك، وقد بين النبي ﷺ فيما يتعلق بالكسوف أمرين:

\* أحدهما: أنهما لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته.

\* والثاني: أنهما من آيات الله تعالى يخوف الله بهما عباده، ومن ثم أمر بالفرع إلى الصلاة والدعاء حتى ينكشف ما بنا.

قال العلماء: وفي قوله ﷺ «لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته» قولان:

القول الأول: أن موت الميت وحياته لا يكون سبباً في انكسافهما كما كان يقوله كثير من جهال العرب وغيرهم عند الانكساف: إن ذلك لموت عظيم أو لولادة عظيم، فأبطل النبي ﷺ ذلك، وأخبر أن موت الميت وحياته لا يؤثران في كسوفهما البتة.

والقول الثاني: أنه لا يحصل من انكسافهما موت ولا حياة، فلا يكون انكسافهما سبباً لموت ميت ولا حياة حي، وإنما ذلك تخويف من الله لعباده<sup>(٢)</sup>.

إن المناسبة التي دعت إلى الحديث عن هذا الموضوع ما أعلن في الصحف في هذا الشهر - جمادى الأولى من عام ١٤١٦ هـ - من أن خسوفاً للقمر سيكون ليلة خمس عشرة وكسوفاً للشمس في اليوم التاسع والعشرين منه - .

فما الفرق بين استقبالنا لهذا الحدث واستقبال رسول الله ﷺ وأصحابه له؟

(١) رواه البخاري (١٦٠٢).

(٢) انظر: مفتاح دار السعادة (٢/ ٦٣٢ - ٦٣٣)، ط. دار نجد للنشر والتوزيع. وانظر: مجموع

الفتاوى (٣٥/ ١٦٨ - ١٦٩).

روى البخاري عن أسماء بنت أبي بكر - رضي الله عنهما - قال : أتيت عائشة زوج النبي ﷺ حين خسفت الشمس ، فإذا الناس قيام يصلون ، وإذا هي قائمة تصلي ، فقلت : ما للناس؟ فأشارت بيدها - وفي رواية : برأسها - نحو السماء ، وقالت : سبحان الله . فقلت : آية؟ . فأشارت برأسها أن نعم . ففقت ، فأطال رسول الله ﷺ الصلاة جداً حتى تجلأني الغشي - وهو ضرب من الإغماء - وإلى جنبى قربة فيها ماء ففتحتها فجعلت أصب فوق رأسي ماءً ، فقام النبي ﷺ فأطال القيام ثم ركع فأطال الركوع ثم قام فأطال القيام ثم ركع فأطال الركوع ، ثم سجد...<sup>(١)</sup> . إلخ الحديث . ثم ذكرت خطبته في هذه المناسبة .

فهل العلم بالكسوف عن طريق الحساب يتعارض مع ما أخبر عنه ﷺ من كون الشمس والقمر آيتين من آيات الله ، وأن كسوفهما أمر يخوف الله به عباده ، ومن ثم أمر بأن نفرغ إلى الصلاة - وهي صلاة طويلة مخصوصة متميزة عن غيرها من الصلوات؟؟؟

إن الملاحظ في واقع الناس - خاصة مع انتشار وسائل الإعلام المتعددة التي تبث خبر احتمال الكسوف قبل زمن - استقبالهم له بشيء من البرود واللامبالاة ، وكان الأمر لما علم مسبقاً أمر عادي . ومن هبّ منهم إلى الصلاة فإنه يؤديها كنافلة من النوافل . وأين هذا من حال رسول الله ﷺ وشدة فزعه لما رأى الكسوف .

ولبيان هذه المسألة - التي غلط في فهمها البعض - أحب أن أشير إلى الأمور التالية :

أولاً : أن العلم بالكسوف ليس من أمور الغيب التي لا يعلمها إلا الله ، ولم يرد في ذلك دليل . بل قد يعلم بالحساب وهذا أمر معلوم مشهور .

ثانياً : وإذا كان الكسوف قد يعلم بالحساب فينبغي أن لا يختلط ذلك بدعاوى المنجمين الباطلة التي يدعون فيها علم الغيب . وعلم النجوم - كما قال العلماء - نوعان :

(حساب) : وذلك بمعرفة أقدار الأفلاك والكواكب وصفاتها ومقادير حركاتها وما يتبع ذلك ، فهذا في الأصل علم صحيح لا ريب فيه .

(١) رواه البخاري (١٠٥٣) .

(وأحكام) : وهو اعتقاد أن للنجوم والكواكب تأثيراً في الأرض وحياة الناس وأرزاقهم . فهذا من جنس السحر وهو باطل وحرام<sup>(١)</sup> .

ولا ينبغي أن يخلط بين هذين الأمرين ، كما يحدث لبعض العامة الذين يظنون أن المنجم إذا أصاب في خبره عن الكسوف المستقبل ، فهو دليل على صدقه في أخباره عن الحوادث المستقبلية التي ستقع - والتي هي من الغيب الذي لا يعلمه إلا الله - ؛ لأن الخبر عن الكسوف هو بمنزلة إخباره بأن الهلال يطلع إما ليلة الثلاثين أو ليلة إحدى وثلاثين ، فإن هذا أمر أجرى الله به العادة ، لا يخرم أبداً ، وبمنزلة خبره أن الشمس تغرب آخر النهار ، أو إخباره بتتابع الفصول الأربعة في السنة ، وأمثال ذلك . فمن عرف منزلة الشمس والقمر ومجاريهما علم بالكسوف وليس لذلك علاقة بالتنجيم المحرم<sup>(٢)</sup> .

وقد شرح ابن القيم في مفتاح دار السعادة ، وابن تيمية في الفتاوى ، كيف يكون الكسوف .

ثالثاً : أن الشمس والقمر وكسوفهما آية من آيات الله كغيرها من الآيات .

قال تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ﴾<sup>(٣)</sup> ، وقال تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾<sup>(٤)</sup> ، وقال تعالى : ﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴾<sup>(٥)</sup> .

وقال تعالى : ﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾<sup>(٦)</sup> وَالْقَمَرَ قَدَرْنَا مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ<sup>(٧)</sup> لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون<sup>(٨)</sup> ﴾<sup>(٦)</sup> .

(١) مجموع الفتاوى (٣٥/ ١٨١) .

(٢) انظر : مجموع الفتاوى (٣٥/ ١٧٥) ، ومفتاح دار السعادة (٢/ ٦٣٦) ، وفي مجموع الفتاوى (٢٤/ ٢٥٦) : « لكن العلم بالعادة في الهلاك علم عام يشترك فيه جميع الناس ، وأما العلم بالعادة في الكسوف والخسوف ، فإنما يعرفه من يعرف حساب جريانهما . « ليس خبر الحاسب بذلك من باب علم الغيب ولا من باب ما يخبر به من الأحكام التي يكون كذبه فيها أعظم من صدقه ، فإن ذلك قول بلا علم ثابت وبناء على غير أصل صحيح .

(٣) سورة فصلت ، الآية : ٣٧ . (٤) سورة الأنبياء ، الآية : ٣٣ .

(٥) سورة الرحمن ، الآية : ٥ . (٦) سورة يس ، الآيات : ٣٧ - ٤٠ .

آيات الله في السموات والأرض كثيرة مبثوثة: ومن ذلك النبات والمطر والبر والبحر والجبال والشجر والدواب والإنسان، واليقظة والنوم، والزواج والأولاد... إلخ الآيات. وكذلك آيات الله في الشمس والقمر وكسوفهما. حيث أجرى الله العادة أن الشمس لا تكسف إلا وقت الاستسرار في آخر الشهر. والقمر لا يخسف إلا وقت الإبدار. فالذي خلق الشمس والقمر هو الذي قدر الكسوف. ولا تملك قوة أخرى - مهما عظمت - أن تحدث كسوفاً جديداً، أو أن تلغي كسوفاً حاصلًا؟!!!

رابعاً: هل يصدق المخبر بالكسوف وينبني علي خبره حكم وعلم؟

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «والعلم بوقت الكسوف والخسوف وإن كان ممكناً، قد يكون ثقة في خبره، وقد لا يكون، وخبر المجهول الذي لا يؤثق بعلمه وصدقه، ولا يُعرف كذبه موقوف... ولكن إذا تواطأ خبر أهل الحساب على ذلك فلا يكادون يخطئون، ومع هذا فلا يترتب على خبرهم علم شرعي، فإن صلاة الكسوف والخسوف لا تصلى إلا إذا شاهدنا ذلك، وإذا جوز الإنسان صدق المخبر بذلك، أو غلب على ظنه فنوى أن يصلي الكسوف والخسوف عند ذلك، واستعد ذلك الوقت لرؤية ذلك كان هذا حثاً من باب المسارعة إلى طاعة الله تعالى وعبادته، فإن الصلاة عند الكسوف متفق عليها بين المسلمين»<sup>(١)</sup>.

خامساً: وهناك يظهر الفرق بين منهج الإسلام وغيره في هذا الباب وغيره، فالإسلام منهج عملي يواجه الحقائق شرعاً ولا يشغل الإنسان بالأمور الظاهرة فقط.

ولذا فعند الكسوف أو الخسوف لا ينبغي الاشتغال بعلم الهيئة وكيفية الكسوف وأسبابه عن الأمر الآخر الأهم والأنفع والأجدى في الدنيا والآخرة، ألا وهو ما أمر به النبي ﷺ من الصلاة والدعاء والصدقة<sup>(٢)</sup>.

سادساً: وإذا تبين ما سبق وأن الشمس والقمر آيتان من آيات الله وأن الله هو الخالق لها المدبر لكسوفها وأنه لا مدخل للخلق في ذلك، تبين الأمر المهم بالنسبة للكسوف، ألا وهو أنه يخوف الله به عباده وأنه سبب لنزول عذاب الناس، فإن الله

(٢) انظر: مفتاح دار السعادة (٢/٦٤١).

(١) مجموع الفتاوى (٢٤/٢٥٧).

إنما يخوف عباده بما يخافونه إذا عصوه وعصوا رسله ، إذن فإمكان الضرر والعذاب عند الكسوف قد يحصل . قال تعالى : ﴿ وَأَتَيْنَا مُؤَدَّ النَّاقَةِ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴾ (١) . فتخويف الله لعباده يكون بالكسوف كما يكون تخويفهم بسائر الآيات كالرياح الشديدة والزلازل والأمطار والفيضانات ، والجذب والقحط ونحو ذلك من الأسباب ، كما عذب الله من سبق بالرياح والصيحة والطوفان : ﴿ فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا ... ﴾ (٢) (٣) .

فإخباره ﷺ عن الكسوف أنه يخوف الله به عباده يبين أنه قد يكون سبباً لعذاب ينزل كالرياح العاصفة الشديدة ، ومعرفة الكسوف من قبل لا يغير من واقع التخويف شيئاً ، فهو كالأمطار الموسمية ، وكالعاصفة السنوية التي تهب سنوياً على أمريكا أو غيرها ، فأية الكسوف باقية والتخويف بها باق مهما تطور العلم ، وهذا ما يعرفه المؤمنون ، حيث يهبون إلى الصلاة والدعاء والصادقين خائفين من ربهم تعالى وهذا كافٍ في بيان الحكمة والله أعلم .

\* \* \*

(١) سورة الإسراء ، الآية : ٥٩ .

(٢) انظر : مجموع الفتاوى (٢٤/٢٥٩) ، (٣٥/١٦٩) .

(٣) سورة العنكبوت ، الآية : ٤٠ .

## رسالة عاجلة إلى التجار والمحسنين

حول الأوقاف في الوصايا<sup>(١)</sup>

فبمناسبة هذا الشهر الكريم، شهر الخير والجلود والكرم، أحب أن أعرض لقضية طالما شغلت بالي منذ سنين، وفكرت فيها وفي واقعها. خاصة وأنها تميزت بعدد من الأمور، أهمها:

١- قدمها، فهي موجودة منذ عهد رسول الله ﷺ وإلى أيامنا هذه وإلى ما شاء الله.

٢- شمولها لجميع بلدان العالم الإسلامي، فلا يكاد بلد - بل لا تكاد مدينة أو قرية من قرى المسلمين - إلا وتجدها فيها.

٣- أثرها الكبير في الأمة - خاصة إذا أحسن التصرف فيها ونفذت كما ينبغي. هذه القضية هي قضية الأوقاف والوصايا الخيرية التي يوصي بها المسلمون - وخاصة أهل الخير منهم من أهل الغنى ومن دونهم - وهي تشمل أمرين:

الأول: الأوقاف المسبلة المحددة، قبل الوفاة أو بعد الوفاة.

الثاني: الوصايا الخيرية العامة من الثلث ونحوه، مما قد يتحول إلى أوقاف، أو يُنفق في وجوه البر المختلفة.

والملاحظ تجاه هذين الأمرين، ظهور عدد من السليات منها:

- (١) عدم الاستفادة منها كما ينبغي، أو كما أراد أصحابها الذين بذلوا.
- (٢) تعطيل بعضها تعطيلاً تاماً، أو تعطيلاً يمتد سنوات.
- (٣) أن كثيراً منها قد لا يصرف في وجهه الشرعي، لأي سبب من الأسباب، ويدخل في ذلك عدم صرفها على الجهة التي حددها الواقف أو الموصي.

والدخول في تفاصيل هذا الموضوع يطول؛ لأنه يتعلق بأمرين:

الأمر الأول: ما مضى وانتهى من أوقاف المسلمين ووصاياهم على مدى قرون

طويلة . فهي موجودة ، وكثير منها قائم ، وتحتاج إلى جهود كبيرة لإحصائها والنظر في واقعها وقضاياها ومصارفها . . . إلخ . وهذا ما لا أعرض له الآن .

أما الأمر الثاني : فهو ما يستقبل من أوقاف ووصايا أهل الخير في هذه الأمة الإسلامية ، وهي مما يتجدد في كل شهر بل في كل يوم - فهذا الذي أردت الحديث من باب التذكير والذكرى تنفع المؤمنين . فأقول :

١ - إن كثيراً من الناس - والأغنياء منهم خاصة - قد لا يتفق من ماله في أثناء حياته إلا قليلاً ، ثم إذا دنا أجله وقربت وفاته كتب وصيته ، إما محددة بأوقاف أو نفقات خيرية ، أو أوصى بربع ماله أو ثلثه أو ما دون ذلك في سبيل الله تعالى ، والذي يحدث أحياناً :

\* أن الأولاد وبقية الورثة يضيقون ذرعاً بهذه الوصية ، ويصبح همهم وشغلهم الشاغل تخليص الإرث من الوصية . أما وصية والدهم أو مورثهم فيتخلصون منها بأية وسيلة حسب حالهم من الصلاح والاهتمام بمثل هذا الأمر .

\* وينتج عن ذلك أن كثيراً من الأوقاف والأموال الموصى بها ، تضيع ولا تؤدي دورها الذي رجاه صاحب المال الذي جمع ماله وتعب عليه طوال حياته .

وسبب ذلك أن الموصي والموقف غاب عن ماله ووكله إلى غيره ، من ولد أو أخ أو غيره ، وكل واحد من هؤلاء مشغول بنفسه وماله عن إدارة ومتابعة تلك الأوقاف والوصايا ، وإذا ما وجد المحتسب من هؤلاء الحريص على فعل الخير والبر بمورثه فهو قليل ، والغالب هم الصنف الأول .

٢ - وإذا كانت الحال كما وصف ، فما هو الحل ؟ - خاصة وأن الغالبية العظمى يوصون وصايا تنفذ بعد وفاتهم - وهي وصية شرعية دلت عليها الأدلة الصحيحة ، ومنها : حديث سعد - رضي الله عنه - وفيه يقول الرسول ﷺ له : « الثلث والثلث كثير » (١) .

وأقول : إن هذه المسألة تحتاج إلى تأمل ، فتعالوا أولاً نستعرض النصوص الواردة في ذلك : قال البخاري في صحيحه : باب من أحب تعجيل الصدقة من

(١) رواه البخاري (١٢٩٥) ، ومسلم (١٦٢٨) .

يومها، ثم ساق بسنده حديث عقبة بن الحارث - رضي الله عنه - قال: صلى بنا النبي ﷺ العصر فأسرع، ثم دخل البيت، فلم يلبث أن خرج، فقلت - أوقيل - له. فقال: «كنت خلقت في البيت تبرأ من الصدقة فكرهت أن أيتها فقسمته»<sup>(١)</sup>. قال ابن بطال: (فيه أن الخير ينبغي أن يبادر به، فإن الآفات تعرض، والموانع تمنع، والموت لا يؤمن، والتسوية غير محمود).

وروى البخاري وغيره عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله! أي الصدقة أفضل؟ - وفي رواية للبخاري -: «أي الصدقة أعظم أجراً؟» قال: «أن تصدق وأنت صحيح صحيح» . وفي لفظ: «وأنت صحيح حريص تأمل الغنى وتخشى الفقر، ولا تمهل حتى إذا بلغت الحلقوم قلت: لفلان كذا ولفلان كذا، وقد كان لفلان»<sup>(٢)</sup>.

وقد بوب البخاري لهذا الحديث في كتاب الزكاة بقوله: باب فضل صدقة الشحيح الصحيح، لقوله: ﴿وَأَنْفِقُوا مِنْ مَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِي أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ...﴾<sup>(٣)</sup>.

ونقل ابن حجر عن ابن المنير قوله: مناسبة الآية للترجمة أن معنى الآية: «التحذير من التسوية استبعاداً لحلول الأجل، واشتغالاً بطول الأمل، والترغيب في المبادرة بالصدقة قبل هجوم المنيّة وفوات الأمانة». وقال ابن بطال وغيره: (لما كان الشح غالباً في الصحة، فالسماح فيه بالصدقة أصدق في النيّة وأعظم للأجر، بخلاف من ينس من الحياة ورأى مصير المال لغيره).

وهذا الذي يفعله الصحابة - رضي الله عنهم - فهذا أبو طلحة تصدق بأفضل ما عنده من مال وأحبه إليه. روى البخاري عن أنس بن مالك - رضي الله عنهما - قال: لما نزلت ﴿لَنْ تَأْلَوْا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾<sup>(٤)</sup>. جاء أبو طلحة إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله! يقول الله تبارك وتعالى في كتابه ﴿لَنْ تَأْلَوْا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾، وإن أحب

(١) رواه البخاري (١٤٣٠)، الفتح ٣/ ٢٩٩ سلفية أولى. وكلام ابن بطال عن الفتح.

(٢) البخاري (١٤١٩)، (٢٧٤٨)، الفتح ٣/ ٢٨٩، ٥/ ٣٧٣.

(٣) سورة المنافقون، الآية: ١٠. (٤) سورة آل عمران، الآية: ٩٢.

أموالي إليَّ بئير حاء - قال: «وكانت حديقة كان رسول الله ﷺ يدخلها ويستظل بها ويشرب من مائها - فهي إلى الله عز وجل وإلى رسوله ﷺ أرجو برّه وذخره ، فضعها أي رسول الله ﷺ حيث أراك الله . فقال رسول الله «بخ ، يا أبا طلحة ، ذلك مال رابع، قبلناه منك ، ورددناه عليك فاجعله في الأقربين، فتصدق بها أبو طلحة على ذوي رحمه» . وفي لفظ للبخاري أيضاً: فقال رسول الله ﷺ: «بخ، ذلك مال رابع، ذلك مال رابع، وقد سمعتُ ما قلتَ ، وإني أرى أن تجعلها في الأقربين» . فقال أبو طلحة: «أفعل يا رسول الله ، فقسمها أبو طلحة في أقاربه وبني عمه»<sup>(١)</sup> .

فهذا أبو طلحة ينجز هذه الصدقة ، ويرتب أمورها ويقسمها هو في أقاربه ، وسواء كانت صدقة ، أو وقفاً - على خلاف بين العلماء حيث بوب لهذا الحديث بعض أئمة الحديث بما يشعر أنها وقف ، بينما في بعض الروايات أن بعض من قسم له منها باع نصيبه مما يدل على أنها لم تكن وقفاً - أقول: سواء كان هذا أو هذا ، فالدليل واضح في التعجيل بالصدقات قبل الممات .

وهذا عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - يوقف بعض ماله في حياته . فقد روى البخاري عن عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما -: « أن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - أصاب أرضاً بخبير ، فأتى النبي ﷺ يستأمره فيها ، فقال : يا رسول الله ! إنني أصبت أرضاً بخبير لم أصب مالا قط أنفس عندي منه ، فما تأمر به؟ قال : «إن شئت حبست أصلها وتصدقت بها» ، قال : فتصدق بها عمر أنه لا يباع ولا يوهب ولا يورث ، وتصدق بها في الفقراء وفي القربى وفي الرقاب وفي سبيل الله وابن السبيل والضيف ، ولا جناح على من وليها أن يأكل منها بالمعروف ويطعم غير متمول»<sup>(٢)</sup> .

وهذا الحديث أصل في الوقف وشروطه عند الأئمة ، وقد أوقف عمر - رضي الله عنه - ماله هذا في حياة النبي ﷺ وقد عاش - رضي الله عنه - بعد ذلك سنين طويلة .

وهذا عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - راوي الحديث المشهور في الوصية - قال : قال رسول الله : «ما حق امرئ مسلم له شيء يوصي فيه يبيت ليلتين إلا ووصيته مكتوبة عنده»<sup>(٣)</sup> . رواه البخاري ومسلم ، وزاد مسلم عنه قال : «لم أبت ليلة إلا ووصيتي مكتوبة عندي» . ابن عمر هذا روى عنه نافع قال : قيل لابن عمر في مرض

(١) رواه: البخاري (٢٧٥٨)، ومسلم (٩٩٨) .

(٢) رواه البخاري (٢٧٣٧)، ومسلم (١٦٣٢) .

(٣) رواه البخاري (٢٨٣٨)، ومسلم (١٦٢٧) .

موته : ألا توصي؟ قال : أما مالي فالله يعلم ما كنت أصنع فيه ، وأما رباعي فلا أحب أن يشارك ولدي فيها أحد . قال ابن حجر : (أخرجه ابن المنذر وغيره وسنده صحيح) . ثم قال ابن حجر : (ويجمع بينه وبين ما رواه مسلم بالحمل على أنه كان يكتب وصيته ويتعاهدها ثم صار ينجز ما كان يوصي به معلقاً ، وإليه الإشارة بقوله : «فالله يعلم ما كنت أصنع في مالي» ولعل الحامل له على ذلك الحديث الذي سيأتي في الرقاق : «إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح»<sup>(١)</sup> . . . الحديث ، فصار ينجز ما يريد التصديق به فلم يحتج إلى تعليق ، وسيأتي في آخر الوصايا أنه وقف بعض دوره فهذا يحصل التوفيق) . ا . هـ كلام ابن حجر<sup>(٢)</sup> .

والخلاصة: أن الغالب في منهاج السلف التعجيل بتنفيذ الوصايا والأوقاف في حياتهم بحيث يتولون هم الإشراف عليها من جميع الوجوه . ولا شك أن هذا فيه من الخير والإيجابيات الشيء الكثير مما قد نشير إليه بعد قليل .

٣- وبعد أن سمعنا الأدلة ومنهاج الصحابة في هذا الباب ، أحب أن أضرب مثالا في هذا الباب ، أرجو أن يتدبره إخواني التجار والمحسنون من أهل الجود والفضل ، فأقول :

يا أخي ! ما رأيك لو كان عندك عدد من الأولاد الصغار ، وأنت كبير السن قد دنا أجلك ، ما الذي تحبه لأولادك الصغار؟

- هل يسرك أن تتركهم أيتاماً بعد موتك ، يتولاهم غيرك حتى ولو تركت لهم مالا كثيراً؟

- أم أنك تحب أن يمّد الله في عمرك حتى تعيش معهم عدداً من السنوات فتربيهم وتعلمهم حتى يرتفعوا ويكبروا فلا يحتاجون بعدك إلى أحد؟

إن الوقف والوصية شبيه بأولادك الصغار ، إن تركته إلى ما بعد وفاتك صار أشبه ما يكون باليتيم ، إن هياً الله له رجل صلاح وتقى واحتساب فرعاه ورباه وحماه ، وإلا صار أحسن أحواله التجاهل والإعراض والنسيان - إن لم ينله أحد بسوء - ؛ لغياب من يدافع عنه !!!

أرجو التأمل في هذا المثال جيداً: فأموالك الخيرية إن حددتها في حياتك ، وأنت

(١) رواه البخاري (٦٤١٦) .

(٢) انظر : البخاري مع الفتح (٣٥٩/٥) ، ط . السلفية الأولى .

قوي قادر، ثم أشرفت عليها، ورتبت أمورها المالية والإدارية، نفعت وعظم خيرها بإذن الله؛ لأنك - والحالة هذه - سترعاها وتحافظ عليها، ولن ترضى أن تضيع أو يفسدها أحد بما يفسدها أو يعطل نفعها كما تصنع مع أولادك الصغار إذا عشت معهم.

٤ - لهذا فإننا نقول: إن الطريقة التي بها تحفظ هذه الأوقاف والوصايا - وتعين على عدم ضياعها وضياع مصارفها - تكون بأن يحدد المحسن - الواقف أو الموصي - في حياته - وكل ما بكر فهو أفضل - أوقافه ووصاياهم، ويرتب جميع أمورها . بدءاً بتحديد الأموال الموصى بها وتمييزها عن غيرها، ثم بتحديد مصارفها وكيفية وصولها إلى مستحقيها الذين عينهم وحددهم حسب ما يراه، ثم بعد ذلك يرتب أمورها الإدارية والمالية التي تضمن لها البقاء والاستمرار بعون الله وتوفيقه - وهذا تختلف بحسب الأموال الموقوفة والموصى بها قلة وكثرة - لكنها بحاجة إلي ترتيب دقيق، وأن لا يترك الأمر دون إدارة ومسؤوليات محددة.

المؤسسات التنصيرية تعد بالآلاف، وتدرّ كل عام آلاف الملايين لخدمة التنصير، وكل مؤسسة لها موظفوها وإداريوها المفرغون لها. وفي المقابل قلّ أن تجد في أوقاف المسلمين ما يتحول إلى مركز مالي خيري له أثره الكبير في الأمة!!!.

إن التجار والمحسنين وأهل الخير حين يحددون أوقافهم ووصاياهم في حياتهم يحصل عدد من الفوائد، منها:

١ - الإشراف المباشر عليها من قبل صاحب المال حتى يقوى عودها ويعظم نفعها.

٢ - أنه يمكن ترتيب الإدارة الجيدة لهذا الوقف بحيث تجعله - بإذن الله - يمتد لسنين وربما لقرون طويلة، ولك أجره عند الله تعالى.

٣ - تعويد أولادك على هذه الجوانب الخيرية، ومعرفتهم بأهمية هذه الأوقاف وفضلها عند الله تعالى، وأثرها في الأمة.

ويلاحظ أن بعض أولاد الأغنياء لا يعرف شيئاً عن أهمية الوقف وفضله، إلا بعد وفاة والده، وقد يضيق به؛ نظراً لجهله، أو لانشغاله بتحمل المسؤوليات التي خلفها والده، مما قد يؤدي إلى إهمال أوقاف والده ووصاياهم كما سبق بيانه.

## عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز (١)

## مواقف ودروس

روى أبو عبيد القاسم بن سلام في كتاب (فضائل القرآن) بسنده ، عن عاصم بن أبي بكر بن عبد العزيز بن مروان - وهو ابن أخي عمر عبد العزيز - قال :

وفدتُ إلى سليمان بن عبد الملك ومعنا عمر بن العزيز ، فنزلت على ابنه عبد الملك ، وهو عزب ، فكننت معه في بيت فصلينا العشاء ، وأوى كل رجل منا إلى فراشه ، ثم قام عبد الملك إلى المصباح فأطفأه ، ثم قام يصلي ، حتى ذهب بي النوم ، فاستيقظت فإذا هو في هذه الآية : ﴿ أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمْتَعُونَ ﴿٢٠٧﴾ ﴾ (٢) . ويكي ، ثم يرجع إليها ، فإذا فرغ منها فعل مثل ذلك . حتى قلت : سيقته البكاء ، فلما رأيت ذلك قلت : لا إله إلا الله ، والحمد لله ، كالمستيقظ من النوم لأقطع ذلك عليه . فلما سمعني سكت ، فلم أسمع له حساً - رحمه الله تعالى - (٣) .

إنها آيات تختصر سيرة الحياة - حلوها ومرها - إقبالها وإدبارها - ، وهي تخاطب الكافرين والظالمين . ﴿ أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ﴾ ، والعمر كله سنون معدودة ، سرعان ما تمضي وتنقضي ، فمن متع فيها أعظم متاع دنيوي - مالا وجاهاً ومنصباً - هل يغني عنه من ذلك شيء إذا جاءه ما يوعد من عذاب الله تعالى : ﴿ ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمْتَعُونَ ﴿٢٠٧﴾ ﴾ . وقد ثبت في الحديث الصحيح عن رسول الله ﷺ قال : «يؤتى بالكافر - وفي رواية : «بأنعم أهل الدنيا من أهل النار» - فيغمس في النار غمسة ، ثم يقال له : هل رأيت خيراً قط؟ ، هل رأيت نعيماً قط؟ فيقول : لا والله يا رب . ويؤتى بأشد الناس يؤساً كان في الدنيا فيصبغ في الجنة صبغة ، ثم يقال له : هل رأيت يؤساً قط؟ فيقول : لا والله يا رب» (٤) .

(١) الجمعة ١٦/١٠/١٤١٥ هـ . (٢) سورة الشعراء ، الآيات : ٢٠٥-٢٠٧ .

(٣) فضائل القرآن لأبي عبيد ٢/٢١٧ (رقمه ٨٥٩) ط المغرب . وانظر : سيرة عبد الملك بن عمر بن العزيز ، لابن الجوزي (٣٢) .

(٤) رواه : مسلم (٢٨٠٧) ، وأحمد (٣/٢٠٣) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه .

ولكن من هذا الشاب العزبُ الذي يقوم الليل ويقف عند هذه الآيات يبكي ويبكي؟

هذا الدرس تقدمه لشباب الإسلام اليوم، بل تقدمه للأمة الإسلامية كلها، شبابها وشوابها، كهولها وشيوخها، نقدمه لأولئك المترددين الذي قالوا لما رأوا تألب أعداء الله على الإسلام: (لورجعنا إلى بيوتنا ومزارعنا ووظائفنا ودياننا فأصلحناها، ولليت رب يحميه).

إن هذا الشاب الزاهد العابد لم ينشأ في بيت مغمور، ولا فقير، إنما نشأ في بيت الخلافة الأموية - بكل عزاها وشرفها ونفوذها - وأبوه ذلك الخليفة الراشد الذي تولى الخلافة بعد مائة عام من هجرة النبي ﷺ . إنه عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز - رحمهما الله تعالى - .

فبأي ميزان كانوا يزنون الدنيا والآخرة؟ ، وبأية نظرة كانوا ينظرون إلى ذلك الملك والجاه والسؤدد؟

روى ابن أبي الدنيا في كتاب العزاء عن يحيى بن إسماعيل قال: مات ابن لعمر بن عبد العزيز، فقعده عند رأسه، وكشف الثوب عن وجهه، فجعل ينظر إليه ويستمدع - أي يبكي . فجاء عبد الملك ابنه فقال:

أشغلك يا أمير المؤمنين ما أقبل من الموت إليك؟ بل هو في شغل عما حلَّ به عنك، فكان قد لحقت به وساويته تحت التراب بوجهك، فبكى عمر، ثم قال: رحمك الله يا بني! فوالله إنك لعظيم البركة على أبيك، نافع الموعظة لمن وعظت، وأيم الله إن كان الذي رأيت من جزعي على أخيك، ولكن لما علمت أن ملك الموت دخل داري فراعني دخوله، فكان الذي رأيت . ثم أمر بجهازه<sup>(١)</sup>.

إنه ميزان الموت والوقوف بين يدي الله تعالى، يوم لا ينفع صاحب الملك ملكه، ولا صاحب الجاه جاهه، ولا صاحب المنصب منصبه، ولا صاحب المال ماله.

إن الذين يغفلون عن الموت - وما أكثر أسبابه - ولا يتذكرون ذلك الموقف العظيم بين يدي الله تعالى - تضطرب موازينهم، وينقلبون إلى وحوش أو شياطين.

(١) سيرة عبد الملك بن عمر بن العزيز، لابن الجوزي (٥٠ - ٥١).

تعالوا إلى موعظة الموت في تحمل المسؤولية ورد المظالم : روى أبو نعيم الحافظ بسنده - عن إبراهيم بن عبله ، قال : جلس عمر بن عبد العزيز يوماً للناس ينظر في أمورهم ويرد المظالم ، فلما انتصف النهار ضجر ، وكلّ ، وملّ . فقال للناس : شأنكم حتى انصرف إليكم ، فدخل يستريح ساعة . فجاء ابنه عبد الملك - وهو شاب - فسأل عنه فقالوا : دخل ، فاستأذن عليه فأذن له . فلما دخل ، قال : يا أمير المؤمنين ما أدخلك؟ قال : أردت أن أستريح ساعة . قال : « أوأمنت الموت أن يأتيك ، ورعيتك ينتظرونك ، وأنت محتجب عنهم؟ » ، فقام عمر من ساعته وخرج إلى الناس (١) .

ويا لها من عبارة حقّة نزلت على عمر - رحمه الله - كالصاعقة : أوأمنت الموت أن يأتيك! ولكن ما أحلاها وأعظمها حين تأتي من داخل قصر الخلافة ومن ولد عمر بن العزيز - رحمهما الله تعالى - .

وروى الحافظ أبو نعيم - أيضاً - بسنده إلى ميمون بن مهران قال : بعث إليّ عمر بن عبد العزيز وإلى مكحول وإلى أبي قلابة - والثلاثة أئمة فقهاء قضاة - فقال : ما ترون في هذه الأموال التي أخذت من الناس ظلماً؟ فقال مكحول قولاً ضعيفاً ، فكرهه . فقال : أرى أن تستأنف . فنظر إليّ عمر كالمستغيث بي فقلت : يا أمير المؤمنين ! ابعث إلى عبد الملك فأحضره ، فإنه ليس بدون من رأيت . فلما دخل عليه قال : يا عبد الملك ! ما ترى في هذه الأموال التي قد أخذت من الناس ظلماً ، وقد حضروا يطلبونها وقد عرفنا مواضعها؟ قال : أرى أن تردها فإن لم تفعل كنت شريكاً لمن أخذها (٢) .

وفي رواية : أنه جمع قراء أهل الشام فقال : إني قد جمعتكم لأمر قد أهمني ، هذه المظالم التي في أيدي أهل بيتي ، ما ترون فيها؟ قالوا : ما نرى وزرها إلا على الذي غصبها . قال : فقال لعبد الملك ابنه : ما ترى أي بني؟ قال : ما أرى من قدر على أن يردها فلم يردها والذي اغتصبها إلا سواء . فقال : صدقت أي بني . فرد المظالم - رحمه الله تعالى - .

رحمك الله - يا عبد الملك - فقد سبقت وأنت شاب بهذه اليقظة الإيمانية ، غيرك

(١) انظر : حلية الأولياء لأبي نعيم (٥/٣٥٩) . (٢) الحلية (٥/٣٥٥-٣٥٦) .

من الشيوخ .

وهل يقف الشاب الناصح عند رد المظالم والنظر في أحوال الرعيّة وهو ينصح أباه؟

لا ، إنه ينتقل إلى ميدان الدعوة إلى الله تعالى ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

روى أبو نعيم أن عبد الملك دخل على أبيه فقال : يا أمير المؤمنين ! ماذا تقول لربك إذا أتيته وقد تركت حقاً لم تحيه وباطلاً لم تمته؟

وفي رواية : أنه دخل على أبيه فقال : يا أمير المؤمنين ! إن لي إليك حاجة فأدخلني - وعنده مسلمة بن عبد الملك - فقال عمر : أسر دون عمك؟ . فقال : نعم . فقام مسلمة فخرج ، وجلس عبد الملك بين يدي أبيه فقال : يا أمير المؤمنين ! ماذا أنت قائل لربك غداً إذا سألك ، فقال : رأيت بدعة فلم تمتها وسنة فلم تحيها؟ فقال له : يا بني أشيء حملكه الرعيّة إليّ؟ أم رأي رأيت من قبل نفسك؟ قال : لا والله ، بل رأي رأيت من قبل نفسي ، وعرفت أنك مسؤول ، فما أنت قائل؟

فقال له أبوه : رحمك الله وجزاك عن والدك خيراً ، فوالله إنني لأرجو أن تكون من الاعوان على الخير . . . أو ما ترى أن يأتي على أهلك يوم من أيام الدنيا إلا وهو يميت بدعة ويحيي سنة حتى يحكم الله بيننا وبين قومنا بالحق وهو خير الحاكمين<sup>(١)</sup> .

هل سمعتم بعبارة «أو تغلي بي وبك القدور؟» ، وبأي مناسبة قيلت؟

روى الإمام أحمد في كتاب (الزهد) بإسناده عن ميمون بن مهران : أن عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز قال لأبيه يوماً : يا أبت ما منعك أن تمضي لما تريد من العدل ، فوالله ما كنت أبالي لو غلت بي وبك القدور في ذلك<sup>(٢)</sup> .

وقال الربيع بن سبرة : «قال عمر بن عبد العزيز يوماً : والله لو ددتُ لو عدلتُ يوماً واحداً وأن الله توفي نفسي . فقال ابنه عبد الملك : وأنا والله لو ددتُ لو عدلتُ

(١) الحلية (٥/ ٣٥٥) .

(٢) انظر : الحلية لأبي نعيم (٥/ ٣٥٤) ، والإمام أحمد في الزهد برقم (١٧٣٤) ط دار الكتاب العربي .

فوءق نآفة وأن الله ءوفى نفسى . فقال عمر : آ الله الذى لا إله إلا هو ؟ فقال : الله الذى لا إله إلا هو ولو ءاشت بى وبك القءور . فقال عمر : ءزآك الله ءفراً» .

وشآب هءه ءكمءه وهءا منطقه ، وهءا زهءه وورعه وعباءءه ءف سىكون ءعلق الوالء - وهو الشفء ءءفر - به ؟

إنه المفران الأءروفى - مفران المؤمنف الصاءقفن - لا فءفر ءءى فى أصعب المواقف وأشءها أءراً على النفس .

لقد مات عبء الملك بن عمر بن العفرز فى ءفاة والءه - وعمره ءسعة عشر عامأ . روف ابن أبى الءنفا بآسانءه ، قال : ءءل عمر بن العفرز على ابنه عبء الملك فى وءعه فقال : فآ بنى ءف ءءءك ؟ قال : آءءنى فى الءق - آى الموت - . قال : فآ بنى إن ءكن فى مفرانى آءب إلف من أن آكون فى مفرانك - آى : أن ءمء قبلى فآءسبك عنء الله آءب إلف من أموء بعءك فءءسب صبرك على عنء الله - ، فقال ابنه : وأنا فآ بء لأن آكون ما ءءب ، آءب إلف من أن فكون ما آءب ، آى أنه آءب ما آءب أبوه من أن فكون السابق على أبفه ، وهءا ما وقع فقد انءقل إلى لقاء ربه فى عهد أبفه وفى ءلآفه .

وءزر الشفء ءءفر والءلفة الزاهء ءفن فلءة ءبءه فمآءا قال ؟

روف ابن أبى الءنفا عن فرآء بن ءسان أنه شهء عمر بن عبء العفرز ءفن ءفن ابنه عبء الملك . قال : فلما سوفى علىه ءبوره بالأرض ، وءعلوا فى ءبوره ءءسبءفن : إءءاهما عنء رأسه والأءرفى عنء رءله . ءم اسءوفى قائماً وأءاط به الناس ، فقال : رءمك الله فآ بنى ، فقد ءنء برأ بآبفك ، ومازلء منء وهبك الله لف مسرورأ ، ولا والله ما ءنء أشء سرورأ ولا أرفءى لءظف من الله فىك منء وءعءك فى هءا الموضع الذى صفرىك الله إلفه . فرءمك الله وءفر ءببك وءزآك بآءسن عملك ، وءءاوز عن سفئه . . . رضفنا بقضاء الله وسلمنا لآمره ، والءمء لله رب العالمفن<sup>(١)</sup> . ءم انصرف رءمه الله ءعالى - وءءب إلى عملاه فنهف فىه أن فناء على ابنه ، ءما ءانء عاءة الناس فى الفآءة على الملوك وأولاءهم . ومما ءءبه إلى عملاه فى الأقالفم :

(١) الءلفة لآبى نعمفم (٥/٣٥٦-٣٥٧) .

إن عبد الملك كان عبداً من عبيد الله ، أحسن الله إلي وإليه فيه ، أعاشه ما شاء وقبضه حيث شاء ، وكان - ما علمت - من صالحى شباب أهل بيته - قراء للقرآن وتحريماً للخير . وأعوذ بالله أن يكون لي محبة أخالف فيها محبة الله ، فإن ذلك لا يحسن في إحسانه إليّ وتتابع نعمه عليّ ، ولا علمنّ ما بكت عليه باكية ولا ناحت عليه نائحة ، ولا اجتمع على ذلك أحد من الناس ولا رخصتُ فيه لقريب ولا بعيد . وقد نهينا عن ذلك أهله الذين هم أحق عليه بالبكاء<sup>(١)</sup> .

إنها رحلة الموت - التي لا شك فيها - تختصر الطموح والأحلام ، والآمال والآلام ، لتقول لكل واحد من الناس - أغنياء وفقراء ، وحكاماً ومحكومين ، وظلمة ومظلومين - : قف وتأمل ، فنحن بانتظار ركوبك إلينا - شت أم أبيت - .

كل ابن أنثى وإن طالت سلامته

يوماً على آله حدباء محمولُ

والحمد لله رب العالمين ، وصلّى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

\* \* \*

(١) رواه بمعناه أبو نعيم في الحلية (٣٥٨/٥) وليس فيه النهي عن البكاء والنوح .



## فهرس الموضوعات

الصفحة	الموضوع
١	المقدمة
٣	الفصل الأول: دروس من القرآن
٥	أولاً: مفهوم الأمن في القرآن
٥	١- معنى الأمن
٥	٢- أهمية الأمن في الحياة
٦	٣- تجربة قريش
٧	٤- جواب قريش العملي والقولي
١١	المبحث الثاني: أين نحن من القرآن
١١	سؤال: ما منزلة القرآن في نفوسنا
١١	- أنواع هجر القرآن
١٢	- أهمية وعظمة القرآن
١٣	- الأهداف الأساسية لهذا القرآن
١٦	- حال السلف مع القرآن
١٨	- كيف ضعفت هيبة القرآن في نفوسنا
١٩	- كيف تحيا الأمة بالقرآن
١٩	أولاً: المعرفة والإدراك الحقيقي لمنزلة القرآن
٢٢	ثانياً: أن نعيش مع القرآن تلاوة وتعلماً وتعليماً
٢٧	ثالثاً: أن حقائق القرآن لا تتغير
٣٠	رابعاً: كيف عاش الصحابة مع القرآن
٣٥	خامساً: كيف كان السلف يحيون القرآن
٤٠	سادساً: نماذج من حال السلف والتابعين مع القرآن
٤٥	الفصل الثاني: العقيدة والمنهج
٤٦	المبحث الأول: منهج السلف الصالح في العقيدة
٤٦	أولاً: لماذا نطرح منهاج السلف
٤٧	ثانياً: أنواع القلوب
٤٧	القسم الأول: مصادر السلف في تلقي العقيدة
٤٨	أولاً: القرآن الكريم
٥٣	ثانياً: السنة النبوية

## الصفحة

## الموضوع

٥٣	١ - تعريفها
٥٨	٢ - حجية السنة
٥٨	- حفظ الله للسنة
٦١	- موقف أعداء السنة منها
٦٣	٣ - الطاعون في السنة قديماً وحديثاً
٦٣	أ - المعتزلة
٦٤	ب - الخوارج
٦٤	ج - الرافضة
٦٥	- أعداء السنة في العصر الحديث
٦٥	أولاً: المستشرقون
٦٧	ثانياً: العقلانيون
٦٧	ثالثاً: الحداثيون
٦٨	رابعاً: الطاعنون من غير هؤلاء
٦٩	خامساً: الرافضة والخوارج المعاصرون
٦٩	- الموقف من أعداء السنة
٧٠	ثالثاً: الإجماع
٧٥	أولاً: تعريفه
٧٥	ثانياً: أدلته
٧٨	- ثوابت الإجماع
٧٨	أولاً: أن الله تعالى حق موجود
٧٩	ثانياً: الثوابت تقود إلى أسس
٧٩	ثالثاً: الغاية من الوجود الإنساني لم تتغير
٧٩	رابعاً: الحكم والسيادة لله تعالى
٨٠	خامساً: أن القرآن كلام الله
٨٠	سادساً: أن الرسول هو خاتم الأنبياء والمرسلين
٨١	سابعاً وثامناً: ما دل عليه قوله تعالى
٨٢	تاسعاً: أن الدنيا دار ابتلاء وعمل
٨٤	رابعاً: منهج المعرفة
٨٤	١ - العقل

## الصفحة

## الموضوع

- أولاً: الترجمة وأثرها في العقيدة ٨٤
- تمهيد ٨٥
- ثانياً: الترجمة وكيف بدأت ٨٦
- ثالثاً: أهم الأسباب لظهور الترجمة ٨٧
- رابعاً: أهم الموضوعات التي ترجمت ٨٨
- خامساً: الآثار الخطيرة التي ترتبت على الترجمة ٨٨
- اقتراحات لقسم الترجمة الموجود الآن ٨٩
- ثانياً: هل العقل مصدر ٩٠
- ثالثاً: أين يكون العقل ٩٦
- المبحث الثاني: حماية النبي جناب التوحيد ١٠١
- أ- بيانه ﷺ لحقيقة التوحيد وفضله ١٠١
- ب- أنواع الشرك ١٠١
- ج- حماية التوحيد ١٠١
- المبحث الثالث: حقائق التوحيد والأسماء والصفات ١٠٦
- المبحث الرابع: مع أسماء الله الحسنی ١١١
- اسمه تعالى (اللطيف) ١١١
- المبحث الخامس: محبة الرسول ﷺ ١١٧
- خوف النبي على أمته من العذاب ١١٧
- لماذا اختار إبراهيم وعيسى حين تلا الآية ١١٧
- خلط وبيان في محبة الرسول ١١٨
- أولاً: إذا قدم محبة الرسول على النفس والمال والولد فكيف تكون محبة الله ١١٩
- ثانياً: حب الرسول ليس إعجاب لشخصه وسمو أخلاقه ١١٩
- ثالثاً: حب الرسول ليس لطاعته ١١٩
- من علامات محبة الرسول ﷺ ١٢٠
- المبحث السادس: الوطنية وإحياء الآثار الجاهلية ١٢٢
- مرور العالم الإسلامي بتيارات فكرية ١٢٢
- المبحث السابع: يوم عاشوراء والرافضة ١٢٦
- المبحث الثامن: الرافضة ١٣١
- أولاً: أصول مذهب الرافضة ١٣٢

## الصفحة

## الموضوع

- ١٣٢ ثانياً: شركهم في توحيد الربوبية
- ١٣٥ ثالثاً: شركهم في توحيد الألوهية
- ١٣٩ المبحث التاسع: شبه الرافضة باليهود
- ١٣٩ أولاً: نشأة الرافضة ودور اليهود فيه
- ١٤١ ثانياً: ماذا قال أئمة التابعين عن الرافضة
- ١٤٦ المبحث العاشر: الفتن والخروج منها
- ١٤٦ ١ - إيضاح الفتنة ومدلولها في القرآن والسنة
- ١٤٧ ٢ - ورود الفتنة في القرآن على عدة معان
- ١٤٧ أ - الفتنة بمعنى الابتلاء .
- ١٤٨ ب - الفتنة بمعنى الشرك والكفر والضلال
- ١٥٠ ج - الفتنة عن الدين ولها صور وأشكال
- ١٥٠ د - فتنة الحرص على الشرف أو المال بالدين
- ١٥٢ ٢ - الفتنة في السنة
- ١٥٢ - تحذير النبي ﷺ لأصحابه من الفتن
- ١٥٣ - أخطر الفتن جعل بأس الأمة بينها وتسليطهم على بعض
- ١٥٤ - نماذج من الفتن التي حذرنا منها الرسول ﷺ
- ١٥٤ ١ - الافتراق والاختلاف .
- ١٥٤ ٢ - التحريش بين المسلمين
- ١٥٤ ٣ - ترك المنكرات حتى تفسد
- ١٥٥ ٤ - تداعي الأمم علينا
- ١٥٥ ٥ - ترك الحكم بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ
- ١٥٥ ٦ - قبض العلماء واتخاذ رؤساء جهال
- ١٥٥ ٧ - رفع الأمانة
- ١٥٥ ٨ - فتنة المال
- ١٥٦ ٩ - فتنة النساء .
- ١٥٧ ٣ - الخروج من الفتن
- ١٥٧ ١ - التعوذ بالله من الفتن
- ١٥٧ ٢ - الحذر من الانتكاسة في الفتنة
- ١٥٧ ٣ - الحذر من السير في ركاب المنكر

## الصفحة

## الموضوع

- ١٥٨ ٤- السير في ركب جماعة المسلمين وإمامهم
- ١٥٩ ٥- التأصيل العلمي القائم على منهج شرعي
- ١٦١ ٦- التزام الطائفة المنصورة
- ١٦١ ٧- عند اختلاط الأمور وتحكم الفتنة يفر المسلم بدينه
- ١٦٣ ٨- تمييز الأمور حتى لا يختلط على المسلمين
- ١٦٧ الفصل الثالث: من أعمال القلوب
- ١٦٨ المبحث الأول: العبودية والاستعانة
- ١٦٨ - التلازم بين العبودية والتوكل لتحقيق العبودية
- ١٦٩ - احتياج العبد للإعانة على العبادة في ثلاثة أحوال
- ١٦٩ - أقسام الناس في العبادة والتوكل
- ١٧١ - كل من أعرض عن الحق أو شيء منه وجحده يقع في مقابلة من الباطل
- ١٧٣ المبحث الثاني: أحوال القلب وانسراحه
- ١٧٨ المبحث الثالث: سلامة الصدر
- ١٨٣ المبحث الرابع: أسباب شرح الصدور
- ١٨٣ - شرح صدره ﷺ
- ١٨٧ المبحث الخامس: لا تزول قدما عبد يوم القيامة
- ١٩٠ المبحث السادس: كن في الدنيا كأنك غريب
- ١٩٥ المبحث السابع: الثبات على دين الله
- ١٩٩ الفصل الرابع: من قضايا الدعوة إلى الله
- ٢٠٠ المبحث الأول: الوحدة الإسلامية
- ٢٠٤ المبحث الثاني: لغات إعلامية
- ٢٠٤ - منهاج الرسول الإعلامي في خطبة الحج
- ٢٠٤ - خطبة النبي قامت على قاعدتين عظيمتين
- ٢٠٤ - مقارنة بين المفارقات الإعلامية في عصرنا الحاضر
- ٢٠٥ - سياسة هارون الرشيد الإعلامية
- ٢٠٧ - مواقف العلماء من السياسة الإعلامية
- ٢١١ المبحث الثالث: هل هذه الأمة أمة استكانة وخضوع
- ٢١١ - هل الاستسلام للأمر الواقع من سمات هذه الأمة
- ٢١٢ - النصوص السابقة داخله في دلائل نبوته وصدقه ﷺ

## الصفحة

## الموضوع

- ٢١٢ - بلاغ النبي ﷺ لامته الخير والشر
- ٢١٣ - أمثلة لتحذيره ﷺ مما يقع
- ٢١٥ - أمثلة من تاريخ الإسلام لعدم الاستكانة
- ٢١٧ - المبحث الرابع: مكر أعداء الله وعاقبته
- ٢١٧ ١ - العداء والحرب على الإسلام سنة الله الجارية وامتحانه لهم
- ٢١٩ ٢- إذا تقرر المعركة بين الحق والباطل فيجب أخذ العبرة والعظة
- ٢١٩ - أهم الحقائق التي تقرر ما سبق .
- ٢٢١ - تحذير الله لأهل القرى
- ٢٢٣ - المبحث الخامس: المسار التاريخي لمكر أعداء الله وعاقبته.
- ٢٢٣ ١- قوم نوح الدروس والعبر
- ٢٢٥ ٢ - قوم صالح الدروس والعبر
- ٢٢٦ ٣ - مكر اليهود ومؤامراتهم
- ٢٢٨ - المكر برسول الله ﷺ وأصحابه
- ٢٣٠ - المبحث السادس: مواقف المعاندين للدعوة
- ٢٣٠ ١ - دعوة الأنبياء كانت واضحة قوية وقائمة على أمور
- ٢٣٠ - أول ما يلاحظ في دعوة الأنبياء
- ٢٣٠ - وسائل المعاندين للدعوة
- ٢٣٠ أولاً: استجابة الضعفاء
- ٢٣٢ ثانياً: محاولات زرع الشك وزعزعة الثقة بالأنبياء .
- ٢٣٤ ثالثاً: التهديد والعذاب والإيذاء وله صور عديدة
- ٢٣٤ - التهديد بالرجم
- ٢٣٥ - الإحراق بالنار، والإخراج والنفي من البلاد
- ٢٣٥ - السجن والتمثيل والصلب
- ٢٣٦ - ما وجه النبي ﷺ وأصحابه
- ٢٣٨ - مواقف المنافقين للدعوة
- ٢٣٨ - فضح الله المنافقين في القرآن وبين خطرهم والحذر منهم
- ٢٣٨ - صفات المنافقين
- ٢٣٨ - دعواهم أنهم مصلحون
- ٢٣٩ - أنهم يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ويشيرون الفتن

- ٢٤٠ - أنهم يشعرون الفاحشة والطعن في الرسول ﷺ
- ٢٤١ - اتخاذ مساجد الضرار والبخل والجبن حال الخوف
- ٢٤١ - التثبيط عن الجهاد والاستهزاء والسخرية بالمؤمنين
- ٢٤٢ - رفض التحاكم إلى الكتاب والسنة وموالاتة الكافرين
- ٢٤٣ - الهدف من فضح المنافقين
- ٢٤٥ - الفصل الخامس: حول اليهود
- ٢٤٦ - المبحث الأول: نحن أحق بموسى منكم
- ٢٤٦ - وقفات مع عاشوراء ومشروعية صيامه
- ٢٤٧ - الأصول والقواعد التي يدل عليها قوله ﷺ (نحن أحق بموسى منكم)
- ٢٤٧ - مدرسة الأنبياء واحدة ونماذج منها
- ٢٥٣ - لماذا كان الرسول ﷺ وصحبه أحق بموسى
- ٢٥٤ - أولاً: ذم اليهود والحديث عن طبيعتهم
- ٢٥٦ - ثانياً: بروز انحرافاتهم الخطيرة
- ٢٥٨ - ثالثاً: تعلقهم بموسى من أجل أمران
- ٢٥٨ - رابعاً: موقف اليهود من النبي ﷺ
- ٢٥٩ - المبحث الثاني: الرسول ويهود بني قريظة
- ٢٥٩ - هدى النبي ﷺ مع اليهود
- ٢٥٩ - قوى الكفر كلها تتحزب على النبي ﷺ
- ٢٦١ - وقفات مع الحائنين من اليهود
- ٢٦١ - الوقفة الأولى: أن اليهود هم اليهود
- ٢٦٢ - الوقفة الثانية: قصتهم مع ابن سعدي اليهودي حول مقترحه لحل مشكلتهم
- ٢٦٥ - المفاوضات بينهم وبين النبي ﷺ
- ٢٦٦ - إرسال النبي ﷺ أبو لبابه لهم ليشاوره
- ٢٧٠ - دروس مستفادة من قصة أبو لبابة
- ٢٧٤ - استسلام بني قريظة وحكم سعد فيهم
- ٢٧٨ - وقفات ودروس مع الغزوة
- ٢٨١ - المبحث الثالث: السلام مع اليهود ... ماذا يعني
- دراسة تاريخية موجزة لمخططات اليهود من الحروب الصليبية إلى وقتنا الحاضر
- ٢٨٢

## الصفحة

## الموضوع

- ٢٨٣ - سؤال : لماذا يتنازل اليهود عن الأراضي ويقدمون المساعدات الاقتصادية
- ٢٨٤ - لماذا قامت دولة لليهود عن أرض المسلمين
- ٢٨٤ - مخططات اليهود الجديدة تقوم على الأمور التالية .
- ٢٨٧ - ما هي خطط اليهود في مرحلة السلام
- ٢٩٢ - بيع القدس والأقصى بثمن بخس
- ٢٩٣ - إنشاء دولة إسرائيل لتحقيق أطماع اليهود والأدلة على ذلك
- ٢٩٧ الفصل السادس: الغرب والإسلام
- ٢٩٨ - سؤال هل يعيد التاريخ نفسه أو بعض فصوله
- ٣٠١ - وقفات مع قصة أبو سفيان مع هرقل
- ٣٠٤ المبحث السابع: حصار عكا درس ودروس
- ٣٠٤ - حادثتنا وقعتا ومرت بهما الأمة الإسلامية
- ٣٠٤ الأولى: معاصرة
- ٣٠٤ الثانية: منذ ثمان مائة وثلاثون عام
- ٣٠٧ الفرق بين الواقعتين
- ٣٠٨ المبحث الثامن: حول مؤتمر السكان العالمي
- ٣٠٨ - حلول الكفار للانفجار السكاني في نظرهم
- ٣٠٨ - المؤتمر يقوم على الاعتراض على الله تعالى
- ٣١٠ - وقفات حول المؤتمر
- ٣١٠ أولاً: وثيقة المؤتمر التي هي ورقة العمل
- ٣١١ ثانياً: التعليق على بعض الكلمات في المؤتمر
- ٣١١ ثالثاً: نفن الجريمة لتصبح عمل مشروع
- ٣١٢ رابعاً: لماذا مصر
- ٣١٣ خامساً: لماذا هذا الصمت من المفكرين وكتاب الصحف
- ٣١٤ المبحث التاسع: حول مؤتمر المرأة العالمي في بكين
- ٣١٤ - بنود المؤتمر
- ٣١٤ - وقفات مع المؤتمر وخلفياته
- ٣١٥ أولاً: لماذا التركيز على قضية المرأة
- ٣١٥ ثانياً: المؤتمر عقدت مظلة الامم المتحدة وهي تابعة لقوى الغرب الصليبي
- ٣١٦ ثالثاً: ما هي أهم أهداف المؤتمر

## الصفحة

## الموضوع

- ٣١٩ المبحث العاشر: حرب الإسلام وقضية الحجاب
- ٣١٩ - وسائل الإعلام تشن حرب فكرية على منهج الإسلام ودعائه إلى الله
- ٣١٩ - قضية الحجاب والعالم الغربي
- ٣٢٠ - أية فيها نداء ان للمؤمنين
- ٣٢٢ - أخطر شيء يمر به المسلمون أن يؤصل المنكر ويقر
- ٣٢٥ المبحث الحادي عشر: واجبتنا نحو الشيشان
- ٣٢٩ الفصل السابع: طلب العلم والتربية والتعليم
- ٣٣٢ المبحث الأول: لذة تحصيل العلم الشرعي
- ٣٣٢ - أصل العلوم وأساسها
- ٣٣٣ - نتائج لذة تحصيل العلم الشرعي
- ٣٣٧ المبحث الثاني: قوة العلم وقوة العمل
- ٣٣٧ - تشديد الأئمة على العمل بالعلم
- ٣٣٨ - السائر إلى الله لا يصل إلا بقوتين
- ٣٤٠ - أصناف الناس تجاه القوتين
- ٣٤٢ المبحث الثالث: ما هو العلم النافع
- ٣٤٢ - العلم في منهاج الإسلام قسمان
- ٣٤٣ - وقفات مع ثلاث آيات
- ٣٤٨ المبحث الرابع: خصائص المنهج الإسلامي
- ٣٤٨ أولاً: مصادرة ليست من نتاج البشر
- ٣٤٩ ثانياً: اليسر والسهولة والسماحة
- ٣٥٠ ثالثاً: ربط العلم بالعمل وتحويل النظرية إلى تطبيق
- ٣٥١ رابعاً: أنه غني لا يحتاج إلى ما سواه
- ٣٥١ خامساً: تكامل المنهج من جميع الوجوه
- ٣٥٢ سادساً: منهج ليس له غايات دنيوية بحتة
- ٣٥٤ المبحث الخامس: التعليم والتربية
- ٣٥٤ - قضيتان والجواب عليها
- ٣٥٤ الأولى: أن المنهج التعليمي الإسلامي تلقيني يعتمد على الحفظ
- الثانية: التربية القديمة عند المسلمين لا تبني الجوانب العقلية والروحية
- ٣٥٤ والسلوكية

## الصفحة

## الموضوع

- ٣٥٥ - الجواب عليهم
- ٣٦٠ المبحث السادس: الامتحان والمذاكرة
- ٣٦٠ - المقارنة بين امتحان الدنيا والآخرة
- ٣٦١ - وصايا سريعة لابنائنا وأولياء أمورهم تتعلق بالامتحان
- ٣٦٥ المبحث السابع: الشباب خصائصهم وحاجاتهم وواجبنا نحوهم
- ٣٦٥ أولاً: طبيعة الشباب وخصائصهم
- ٣٦٧ ثانياً: أهم حاجات الشباب الأساسية
- ٣٦٩ المبحث الثامن: من واجبنا تجاه الشباب
- ٣٦٩ - الخطأ في التركيز على جانب واحد فقط
- ٣٦٩ - أهم ما يواجه أبناؤنا تربوياً
- ٣٦٩ ١ - البث المباشر وهو نوعان
- ٣٦٩ أ - تلفزيوني
- ٣٧٠ ب - إذاعي
- ٣٧٠ ٢ - المجلات والصحف
- ٣٧٠ ٣ - الأصحاب والزملاء
- ٣٧٠ ٤ - السياحة
- ٣٧١ - الحلول لهذه المؤثرات
- ٣٧٣ الفصل الثامن: رمضان والحج
- ٣٧٤ المبحث الأول: الحساب والشهور
- ٣٧٤ - هل تميزت هذه الأمة في باب حساب الشهور والأعوام
- ٣٧٤ أولاً: انقسام الأمم وطوائفهم في الشهر والسنة
- ٣٧٤ ثانياً: الذي جاءت به شريعتنا هو الأكمل
- ٣٧٦ ثالثاً: صوم رمضان بين الروية والحساب
- ٣٧٩ المبحث الثاني: استقبال رمضان وكمال الشريعة
- ٣٧٩ - مميزات استقبال رمضان
- ٣٧٩ - هدايا رمضان
- ٣٨٠ - جود الله على عباده في رمضان
- ٣٨٣ ثانياً: استقبال رمضان وفضل النفقة فيه
- ٣٨٣ - مميزات شهر رمضان

## الصفحة

## الموضوع

- ٣٨٤ - هدايا الله لعباده في رمضان
- ٣٨٥ - نداء لمن رزقه الله مالاً
- ٣٨٩ - ثالثاً: كان أجود ما يكون في رمضان
- ٣٨٩ - وقفات مع حديث كان أجود ما يكون
- ٣٨٩ - جود النبي ﷺ في هذا الشهر لأمر أهمها
- ٣٩٠ - ١- جود الله وعظيم فضله على عباده
- ٣٩٠ - ٢- مدارسة القرآن وأثره
- ٣٩٢ - ٣- مجالسة الصالحين
- ٣٩٢ - ٤- فضل الصدقة
- ٣٩٣ - ٥- ما هي أعظم مظاهر الجود
- ٣٩٥ - رابعاً: دروس رمضان والتعلق بالمسجد
- ٣٩٥ - دور المسجد في رمضان لأمر يستبشر بها
- ٣٩٦ - تجربة المسجد في رمضان تفتح آفاق للاستفادة منها
- ٣٩٧ - حال السلف مع المساجد في رمضان
- ٣٩٩ - دور المسجد في تربية المسلمين
- ٤٠٠ - خامساً: فضل العشر الأواخر من رمضان
- ٤٠٠ - التوبة إلى الله في الأسحار
- ٤٠١ - سؤال: كيف يرد العفو بعد الاجتهاد في الأعمال
- ٤٠١ - وقفات مع أحكام العشر الأواخر
- ٤٠٦ - سادساً: وداع رمضان
- ٤١٠ - المبحث الثالث: الحج
- ٤١٠ - أولاً: عبادة الله وحده سبب في أمن الإنسان بأمر
- ٤١٢ - أصل الحج مربوط بالعقيدة والعبودية لله
- ٤١٣ - ثانياً: دروس من الحج
- ٤١٣ - نداء من الله للناس
- ٤١٦ - قصة عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب مع أويس بن مراد
- ٤١٧ - الحج يذكر الأمة ويعلمها الجهاد من خلال أمور
- ٤١٨ - الحج يعلم المؤمن صفاء العقيدة وسلامتها من الشرك
- ٤٢٠ - ثالثاً: الوحدة الإسلامية من دروس الحج

## الصفحة

## الموضوع

- ٤٢٠ أولاً: الحج دليل على وحدة الأمة وذلك من عدة وجوه
- ٤٢٠ ثانياً: تباكي بعض المثقفين العرب على وحدة الأمة
- ٤٢١ ثالثاً: لا بد من إرجاع الأمور إلى أصولها الشرعية من خلال
- ٤٢٥ رابعاً: علماء وأمرأء في مكة أيام الحج
- ٤٢٥ ١ - مواقف أبو بكر في مكة
- ٤٢٥ ٢- مواقف عمر بن الخطاب في مكة
- ٤٢٦ ٣ - مواقف هارون الرشيد
- ٤٣٠ ٤ - مواقف عبدالله بن مروان
- ٤٣٠ ٥ - أبو جعفر المنصور
- ٤٣٣ الفصل التاسع: دروس وعبر
- ٤٣٤ المبحث الأول: دروس من معركة بدر
- ٤٣٤ أولاً: موازنة بين نفسية جنود الفريقين
- ٤٣٥ ثانياً: انعكاس الصورة في زماننا
- ٤٣٦ ثالثاً: لمحات سريعة
- ٤٣٧ رابعاً: من المعجب ذهاب أبو جهل وقادة قريش للكعبة قبل المعركة
- ٤٣٧ خامساً: القائد القدوة
- ٤٣٨ سادساً: من أعظم آثار الغزوة
- ٤٣٩ ثانياً: وقفات مع معركة بدر
- ٤٣٩ الوقفة الأولى: أول غزوة في رمضان للمسلمين بعد فرض صيامه
- ٤٤١ الوقفة الثانية: كانت المعركة فرقاناً بين الحق والباطل
- ٤١١ الوقفة الثالثة: وقفة مع قوله تعالى: ﴿ وإذ يعدكم الله . . . ﴾
- ٤٤٢ الوقفة الرابعة: لمحات عن الأسرى
- ٤٤٤ المبحث الثاني: استقبال العام الجديد
- ٤٤٤ - وقفات مع حياة السابقين
- ٤٤٥ - حقائق ووصايا
- ٤٤٦ - أحوال يشرع تمنى الموت فيها
- ٤٤٩ المبحث الثالث: الإجازة الصيفية
- ٤٤٩ - تذكير
- ٤٥٠ - أحوال الناس في الإجازة

## الصفحة

## الموضوع

- ٤٥٢ - منطلقات عملية حول الإجازة
- ٤٥٢ - أنواع من المجالات يمكن الاستفادة منها
- ٤٥٥ المبحث الرابع: الكسوف
- ٤٥٥ - شرح لخطبة النبي ﷺ في الكسوف
- ٤٥٦ - التحذيرات التي حذر منها النبي في الخطبة
- ٤٥٦ - مناسبة هذه الخطبة
- ٤٥٧ - بيان النبي لأمران يتعلق بالكسوف
- ٤٥٨ - أخطاء الناس في فهم الكسوف مع الإشارة لعدة أمور
- ٤٦٢ المبحث الخامس: رسالة عاجلة إلى التجار والمحسنين
- ٤٦٢ - تميز الوقف بعدد من الأمور
- ٤٦٢ - بيان أنواع الأوقاف
- ٤٦٢ - سلبيات تقع حول هذه الأنواع
- ٤٦٣ - فقه العلماء لمسألة الوقف
- ٤٦٨ المبحث السادس: وقفات مع عبد الملك بن عمر بن عبدالعزيز
- ٤٦٩ - نصيحة عبد الملك لأبيه في وفاة أخيه
- ٤٧٠ - نصيحة عبد الملك لأبيه في الاستراحة من الفصل بين الناس
- ٤٧٠ - سؤال عمر لابنه في الأموال
- ٤٧١ - نصيحة عبد الملك لأبيه في البدعة
- ٤٧١ - دعاء عبد الملك ربه أن يتوفاه قبل أبيه
- ٤٧٢ - دعاء عمر لابنه والثناء عليه
- ٤٧٥ - فهرس الموضوعات